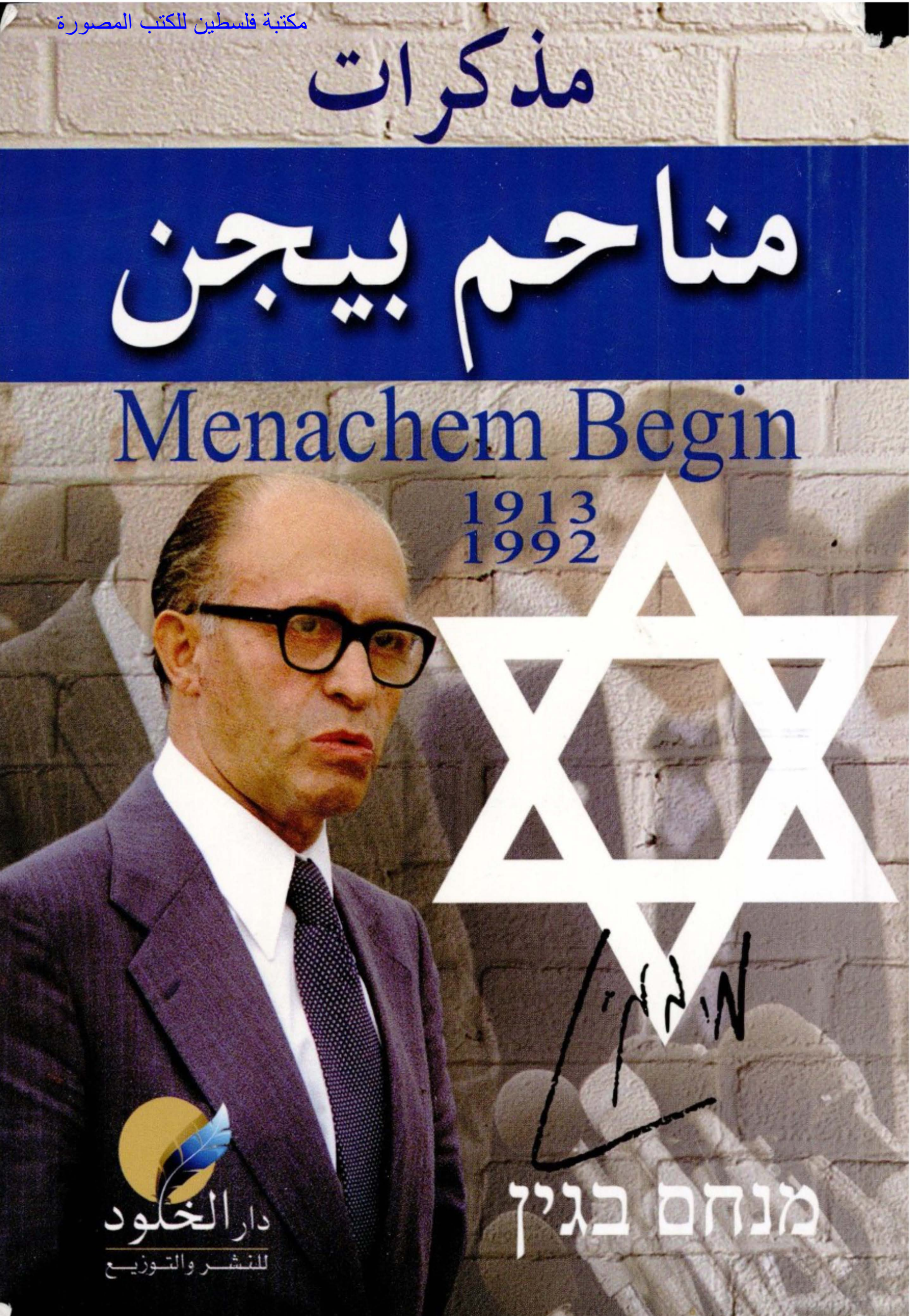


مكتبة فلسطين للكتب المصورة
مذكرات
مناحم بيجن
Menachem Begin
1913
1992
מנחם בגין
دار الخلود
للنشر والتوزيع

مذكرات

مناحم بيجين

اسم الكتاب : مذكرات مناحم بيجين

اسم المؤلف : الحسينى الحسينى معدى

الناشر : دار الخلود للتراث

العنوان : ٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة. ت: 25919726

موبيل 01281607185 ـ 01063539909

فاكس 25102954

رقم الإيداع : 19965 /2012

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 978-977- 5313 - 13- 3

الطبعة الأولى: 2013

دار الخلود

للنشر والتوزيع

مذكـــرات

مناحم بيجين

إعداد وتقديم

د. الحسينى الحسينى معدى

دار الخلود

للنشر والتوزيع

مقدمة

مناحم بيجين (١٦ أغسطس ١٩١٣ ـ ٩ مارس ١٩٩٢) ولد فى روسيا البيضاء ودرس فيها حتى أنهى المرحلة الثانوية، ومن ثم سافر إلى بولندا فى عام ١٩٣٨ والتحق بجامعة (وارسو) لدراسة القانون، تعرف بيجين على العمل الصهيونى من خلال منظمة (بيتار) اليهودية البولندية التى ترأسها فى عام ١٩٣٩، حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الرئيس المصرى الراحل أنور السادات.

فى عام ١٩٣٩ اجتاحت القوات الألمانية النازية بولندا فى بداية الحرب العالمية الثانية، فاضطر بيجين إلى النفاذ بجلده ومغادرة بولندا إلى الاتحاد السوفيتى، ولم يستقبل السوفيت بيجين فى الأحضان، بل ألقوا القبض عليه، وقامت السلطات السوفيتية بنفيه إلى صحراء سيبيريا فى عام ١٩٤٠، وبعد عام فى سيبيريا، أطلقت السلطات السوفيتية سراحه، حيث انضم إلى صفوف الجيش البولندى لمدة عام واحد، وبعدها قرر الهجرة إلى فلسطين فى عام ١٩٤٢.

نتيجة فكر بيجين الصهيونى، عمل على تأسيس منظمة صهيونية عسكرية أطلق عليها اسم (أرجون) والتى وصفت كمنظمة إرهابية، واقترن اسم الأرجون بعمليات الإرهاب فى حق الشعب الفلسطينى، وأسهمت الأرجون فى ترحيل الفلسطينيينياً من ديارهم بفعل العمليات الإرهابية، ومن أشهر عمليات الأرجون الإرهابية على الشعب الفلسطينى مذبحة دير ياسين التى راح ضحيتها ٣٦٠ فلسطينى كما ذكر مناحم بيجين فى كتابه (التمرد ـ قصة الأرجون).

ولإيمان بيجين أن البريطانيين يعيقون تأسيس الدولة الإسرائيلية، فقد نال البريطانيون نصيبهم من الأذى عندما قامت الأرجون بنسف مقر قيادة

القوات البريطانية فى فندق الملك داود فى عام ١٩٤٨، ولم تستثن هيئة الأمم المتحدة من مخطط مناحم بيجين عندما أقدمت الأرجون على اغتيال ممثلها الكونت (برنادوت) عندما قدم الكونت اقتراحات لهيئة الأمم لحل الإشكالات بين اليهود والفلسطينيين، ولم ترق تلك الاقتراحات لليهود، فتعاونت الأرجون مع منظمة شتيرن على الإجهاز على الكونت فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٨.

بعد الإعلان الرسمى لقيام دولة إسرائيل الهاجاناه قامت الحكومة الإسرائيلية المؤقتة بحل جميع التنظيمات العسكرية، وكان تنظيم الأرجون من بينها، فتوجه مناحم بيجين إلى العمل السياسى وتم انتخابه للكنيست الإسرائيلى فى عام ١٩٤٩، وزاول العمل السياسى حتى ترأس حزب الليكود فى عام ١٩٧٣.

فى عام ١٩٧٧ تمكن مناحم بيجين من أن يصبح سادس رئيس وزراء لإسرائيل، ومن أهم الأحداث التى حدثت فى فترة رئاسته ـ التى استمرت حتى عام ١٩٨٣ ـ ترأس الوفد الإسرائيلى المفاوض مع الوفد المصرى، وتمخضت المفاوضات عن توقيع أول معاهدة سلام بين دولة عربية (مصر) وإسرائيل، وتحققت المعاهدة فى عام ١٩٧٩.

أقلعت الطائرات الحربية الإسرائيلية متوجهة إلى العراق فى عام ١٩٨١ بهدف ضرب المفاعل النووى العراقى، وصرح بيجين عندها قائلاً: (إننا لن نسمح بأى حال من الأحوال أن نمكِّن أعداءنا من تطوير أسلحة الدمار الشامل لاستخدامها ضد الشعب الإسرائيلى)، وفى عام ١٩٨٢ انطلقت القوات الإسرائيلية شمالاً داخل الأراضى اللبنانية واستقرت فى جنوب لبنان فترة ١٨ سنة لضرب المقاومة الفلسطينية فى لبنان.

ومن أقواله الشهيرة: «لا مزيد من الحروب، لا مزيد من إراقة الدماء، لا مزيد من التهديدات» (خطاب إذاعى موجه إلى الشعب المصرى فى ١١ نوفمبر ١٩٧٧).

«الفلسطينيون وحوش تمشى على قدمين» (خطاب موجه للكنيست الإسرائيلى فى ٢٥ يونيو ١٩٨٢) (إذا كان حزب الليكود يعد الإسرائيليين بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، فأنا أعدهم بإسرائيل العظمى من الخليج إلى المحيط).

بعد موت زوجته (أليزا) تدهورت حالة بيجين الصحية، فقام الرجل على تقديم استقالته من رئاسة الوزراء فى أغسطس ١٩٨٣، وظل يصارع المرض حتى فارق الحياة فى ٩ مارس ١٩٩٢ عن عمر يناهز الـ ٧٨ عاماً.

ونقدم فى هذا الكتاب للقارئ العربى مذكرات رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين أحد عتاة الإجرام الصهيونى من منطلق اعرف عدوك، والواجب علينا أن نقرأ عنهم، ونتعرف على فكرهم حتى نستطيع مواجهتهم والتعامل معهم فى الحاضر والمستقبل.

د. الحسينى الحسينى معدى

هذا الكتاب

على الرغم من مرور تسعة عشر عاماً على وفاة مناحم بيجين إلا أنه مازال رمزًا وعلمًا من أعلام إسرائيل، فمازال الكثير من الإسرائيليين يرون فى بيجين الشخصية الأسطورية التى حققت المجد للدولة العبرية.

صدر هذا الكتاب تحت عنوان: بيجين ـ سيرة حياته، تأليف: إريك سيلفر، وقد اشتمل الكتاب على أربعة وعشرين فصلاً تناولت سيرة حياة مناحم بيجين، وعناوينها هى: وليد لصهيون، عند أقدام المعلم، هروب واعتقال، الانتقال إلى (الجولاج)، الاتجاه شرقاً نحو المقاومة السرية، انتهاء الهدنة، مأساة الأخطاء، النفس بالنفس، الخروج من عش الدبابير، كما حدث فى دير ياسين، تمرد على السفينة التالنيا، اختيار جانب المعارضة، الخروج من التيه، التدريب على الحكم، وحدة أم إخفاق، زلزال صيف، تجربة ثقة رهيبة، السلام وفق شروطنا، معسكر اعتقال فاخر، منح جائزة قبل الأوان، فرق تسد، خيار الحرب، لا أستطيع الاستمرار، البيت الذى شيده مناحم.

الخير أردت... وعلى الله قصد السبيل.

بيجيـــن
سيرة حياته

إريك سيلفر

شكر وعرفان

يسعدنى أن أعرب عن امتنانى لأسرة مناحم بيجين، ورفاقه فى السلاح، وزملائه، والعاملين معه، ومستشاريه لمشاركتهم لى بذكرياتهم ومعلوماتهم عن هذه الشخصية المعقدة، وأخص بالذكر شقيقته (راشيل هالبرين) التى ساعدت كثيراً فى الكشف عن خلفيته فى السنين الأولى من حياته.

ولقد قدمت لى كل من (سوزان هاتيس رولف) و(يسرائيل ميداد) مساعدة قيمة فى البحث فى المصادر العبرية، وقد تكرما مشكورين بمراجعة المخطوط قبل الطباعة وتصحيح أى انحراف من جانبى عن الحقيقة، كما قدم (نرومان روز) من الجامعة العبرية، و(ديفيد لاندو) من صحيفة الجيروزالم بوست اقتراحات بَناءة فى تعديل نصوص الكتاب.

وقد قام كل من (شارون بارنيت) و(رالف ماندبل) بترجمة المقالات من الصحف والمطبوعات العبرية الأخرى، بينما قامت كل من (استر فالينشيا) و(باربرا بيبرنو) بتفريغ شرائط التسجيل ونسخ المخطوط على الآلة الكاتبة على التوالى.

وأنتهز هذه الفرصة لأشكر المديرين والعاملين بسجلات دولة إسرائيل، ومعهد جابوتنسكى، وإدارة الملفات بصحيفة الجيروزالم بوست، ومجموعة كويسيل من قصاصات الصحف العبرية بمركز أوكسفورد للدراسات العبرية العليا، والمركز الصحفى للحكومة الإسرائيلية.

وأخيراً أقدم شكرى إلى رئيس تحرير صحيفة (الجارديان) لمنحه إياى إجازة حتى أستطيع إنجاز هذا الكتاب، وإلى عميد وأعضاء كلية سانت كاترين بجامعة أوكسفورد لكرم استضافتهم لى أثناء المراحل الأولى من إعداد هذا الكتاب.

إريك سيلفر

الفصل الأول

وليد لصهيون

إن مناحم بيجين هو أكثر الرجال ثباتاً على المبدأ.. سواء من حيث العقيدة أو الأهداف أو الإيمان بأساطيره الخاصة، وبالرغم من أنه أمضى الجزء الأكبر من حياته فى إسرائيل، فإن جذور نزعته القومية اليهودية العنيدة الثابتة ترجع إلى مسقط رأسه فى (بريست ـ ليتوفيسك) حيث ولد فى ١٦ أغسطس ١٩١٣، كان الطفل الثالث والأخير لكل من (زئيف دوف)، و(هاسيا بيجين)، ولطالما قدم الرجل الذى أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء فروض الولاء والاحترام لفلاديمير زئيف جابوتينسكى بصفته (معلمه وأستاذه)، بيد أن معظم ذكرياته عن الناس، فضلا عن معظم إشاراته إلى مشاعر الكبرياء والأعمال البطولية التى ظل يستشهد بها حتى بعد نصف قرن من الزمان، يمكن إسنادها إلى (زئيف دوف) معلم بيجين ومثله الأعلى، أما (جابوتينسكى) فقد أضاف إلى ما سبق إطارًا أيديولوجيًا وتنظيميًا، وأدى فكره المستنير إلى إثارة حب الاستطلاع فى بيجين وأصبح بالنسبة له نموذجا يقتدى به فى أسلوبه الخطابى، وبطلاً معبودًا.

وكانت مدينة (بريست ـ ليتوفيسك)، التى تعرف أيضا باسم (بريسك)، واحدة من مدن الحدود الموجودة فى أوروبا الشرقية والتى لم يكن من المعروف بالضبط ما هى الدولة التى تتبعها، فقد كانت فى العصور الوسطى تقع فى صميم دوقية (ليتوانيا)، وخضعت إبان القرن العشرين لحكم روسيا وبولندا وألمانيا، واليوم تعتبر المدينة عاصمة لإقليم (بريست) بجمهورية

بيلاروسيا السوفيتية الاشتراكية، وقد نزحت أول جماعة يهودية إلى المدينة واستقرت بها خلال القرن الرابع عشر وقامت بدور قيادى فى تنميتها وتطويرها لتصبح مركزاً للتجارة والمواصلات، وعلى الرغم من أن اليهود مروا بفترات مختلفة تخللها حصولهم على امتيازات وتعرضهم للاضطهاد، إلا أنهم برزوا كمستوردين ومصدرين وملاك للأراضى ومقاولين وكرجال علم ودين.

وكانوا يتصفون بالإيمان العميق ولكن إيمانهم كان ذا صبغة دنيوية، وكانت (بريست) معقلاً لجماعة المتناجم الذين كانوا يرفضون التطرف، وعندما طرد جميع اليهود الذين رفضوا التحول عن دينهم من ليتوانيا لم يشذ عن القاعدة سوى تاجر واحد فقط اعتنق المسيحية، وقد سمح لباقى اليهود بالعودة إلى المدينة بعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ.

عندما أعاد الدوق النظر فى الموضوع، وأصبح اليهود، عندما ولد مناحم بيجين يشكلون ٧٠٪ من سكان المدينة وبلغ عددهم فى عام ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، حوالى ٣٠ ألف نسمة، وقد وجد بمدينة (بريست) عندما تم تحريرها من قبضة النازية، ما يقل عن ١٠ فقط من اليهود، وتفيد دائرة المعارف اليهودية بأن عدد السكان اليهود بالمدينة بلغ عام ١٩٧٠ حوالى ألفى نسمة، ولا يوجد بها معبد، حيث تم تحويل آخرها فى عام ١٩٥٩ إلى دار لعرض الأفلام.

وكانت مدينة (بريست) التى عاش (مناحم بيجين) شبابه فيها، مدينة يهودية مزدهرة بالفعل ـ حتى لو أخذنا فى الاعتبار اللون الوردى الذى قد تضفيه الذاكرة خلال خريف العمر على الذكريات الخاصة بمرحلة الشباب ـ فهو يذكر أن المدينة: (كانت مليئة بالمعابد والمعاهد الدينية، وكانت هناك مدارس يهودية تستخدم فيها اللغة العبرية للتعليم، وكانت توجد بها حركات شبابية عظيمة تضم آلاف الأعضاء، وكنا نخرج فى عيد (لاج باعومار) (عيد لليهود ـ ١٨ آيار) إلى الشوارع فى استعراضات تضم آلاف الأشخاص الذين يحملون

الأعلام الزرقاء والبيضاء والذين يتفاخرون بيهوديتهم، وكانت الحياة الثقافية لليهود غنية، بما تذخر به من صحف ومسارح، فقد كانت لنا حياتنا المستقلة).

ويمكن القول بأن مناحم بيجين (كان منذ ولادته صهيونيا بمعنى الكلمة وكانت الحكيمة التى أشرفت على ولادته هى جدة (آرييل شارون)، الذى أصبح فيما بعد جنرالا إسرائيليًا ووزيراً للدفاع ثم رئيساً للوزراء، وقد بعث الصهيونيون المحليون بكعكة على هيئة باقة من الورد فى مناسبة الاحتفال بختانه بعد ثمانية أيام من مولده، وكان (زئيف دوف بيجين) و(ثيودور شينرمان) جد شارون من بين الرواد الأوائل للحركة الصهيونية فى (بريست) عندما كانت تلك الحركة فى مرحلة النضال من أجل إثبات الذات، وقد قام (زئيف دوف) و(شيزمان) بكسر باب المعبد الرئيسى فى بريست بالفأس، بعد وفاة (ثيودور هيرتزل) مؤسس الصهيونية السياسية فى عام ١٩٠٤، عندما رفض الحاخام (حاييك سولوفيشك) السماح لهما بإقامة الصلاة على روحه، وأخذا معهما مفتاح المعبد، لقد كان الحاخام يعتبر (هيرتزل) مفرطا فى العلمانية أكثر مما يجب، ولكن الصهيونيين نجحوا فى إقامة القداس حتى بالرغم من أن ثلاثة أشخاص فقط هم الذين حضروه.

ولقد كان (زئيف دوف) عصامياً، ولم يتعد مرحلة التعليم الأساسى وهى مرحلة الدراسة الأولية فى إحدى المدارس الدينية التقليدية الخاصة بأطفال اليهود، والتى التحق بها فى سن الثالثة وتركها بعد أربعة عشر عاماً وهو يحمل دبلوم الدراسات الدينية، وقد أمضى حياته ملتزما باليهودية ولكن دون تطرف، وتذكر ابنته (راشيل هالبيرين) أنه كان يرتدى (التيفيلين) وهى أربطة جلدية شعائرية يرتديها اليهود المتدينون كل صباح حول سواعدهم وجباههم، ولكنه كان يفعل ذلك عادة داخل المنزل أكثر مما كان يفعله فى المعبد، ولم يكن يتلو كل صلوات الصبح والعصر والمساء، ولم يكن يرتدى قبعة داخل المنزل إلا عند مباركته للطعام، وكانت لحيته مشذبة كما كان يطلب من

أطفاله أن يغسلوا أسنانهم أثناء صيام (يوم كيبور) ـ على عكس التقليد الأرثوذكسى المتشدد ـ ولكن على شرط أن يحترسوا من ابتلاع الماء، فكان يقول لهم (انكم اليوم ستكلمون الرب، ولذلك يجب أن يكون فمكم نظيفاً)، وعندما اضطرت (راشيل)، التى تكبر (مناحم) بخمسة أوعوام، إلى التوقيع يوم السبت على بعض الأوراق الخاصة بجامعة وارسو، قال لها والدها إنه يمكنها أن تفعل ذلك دون أن يكون فى ذلك اعتداء على السبت، مؤكدا لها أن المعرفة تعتبر بمثابة مسألة حياة أو موت، ولذلك فعليك أن توقعى.

ولقد اطلع ـ زئيف دوف ـ لأول مرة على الحضارة الأوروبية بعد مغادرته للمدرسة الدينية بوقت وجيز ليعمل فى تجارة الأخشاب مع والده.

فقد لمس كاتب حسابات ألمانى الجنسية يعمل مع والده ما لديه من قدرات، وشجعه على الهرب للدراسة فى برلين، ولكن سرعان ما أدركه والداه وأعاداه إليهما وقاما بتزويجه على غير إرادته، ولم يدم زواجه أكثر من عام انتهى بطلاق (زئيف دوف) زوجته على الرغم من أنه رزق منها بابنة.

ومضى خمسة وعشرون عاماً تقريباً قبل أن يفكر فى الزواج مرة ثانية، وكانت عروسه (هاسيا كروموفسكى) هى ابنة أسرة (ربانية) بولندية، وكان قد بلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما بينما كانت هى فى العشرين من عمرها، ولم تكن تتكلم إلا اللغة الييدية، (وهى لهجة ألمانية قديمة تتخللها كلمات عبرية وسلافية)، ولكن ذلك لم يحد من تعطشها للمعرفة، وتقول ابنتها (راشيل) لقد قرأت أعمال جميع الكتاب العالميين العظام (بالييدية)، وكانت تتمتع بفضول عميق وذكاء حاد وشخصية قوية، وكانت تواقة طوال الوقت للمعرفة ولا شىء غير المعرفة.

وكثيرا ما كانت تجارة الأخشاب تقود (زئيف دوف) للسفر إلى الخارج، وبصفة خاصة إلى برلين، وتؤكد مسز (هالبرين): (إنه كان من أكثر المحبين للألمان)، وتقول: (إننى أذكر عندما كنت فى السادسة من عمرى، فى بداية

الحرب العالمية الأولى أنه كان يصطحبنى فى نزهات سيراً على الأقدام ويقول لى ألا تعلمين أن الألمان قادمون، إن لهم حضارة مختلفة عن الحضارة الروسية)، وكان يتحدث اللغات اليدية والعبرية والروسية، فضلا عن الألمانية، وعندما تعلم أبناؤه اللاتينية فى مرحلة الدراسة الثانوية التقطها منهم، وكان (زئيف دوف) مثل أصغر أبنائه يحب التشدق بعبارات لاتينية أمام البسطاء، فقد ردد مثلا فى إحدى المناسبات ـ عندما طلب منه بعض اليهود السذج أن يتوسط فى خلاف ما ـ عبارة باللاتينية معناها (أن القانون قاس، ولكنه القانون) الأمر الذى أصاب اليهود بالذعر.

وكان (زئيف دوف) فى يهوديته يؤمن بمذهب الفعالية.. وهو مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الإجراءات الفعالة أو العنيفة لتحقيق الأغراض السياسية، وكان يرى أن العقيدة اليهودية والقومية اليهودية، شىء واحد.

وقد غرس فى أبنائه الشعور بالفخر إزاء انتمائهم لليهودية، وكانوا أثناء تعليمهم الجامعى يذكرون دائما أن لغتهم الأصلية هى العبرية، عندما يطلب منهم تحديد لغتهم، وكان أكبر أبناء (بيجين) يرفض التحدث بالبولندية التى كان يحتقرها بصفتها لغة معادية للسامية، ويرفض (مناحم) أيضا طوال حياته استخدام تلك اللغة، بالرغم من أنه تلقى تعليمه فى مدرسة ثانوية بولندية ثم فى جامعة وارسو.

وكان (زئيف دوف) يردد دائماً على أسماعهم، ويغرس فى عقولهم (المغزى الحقيقى) من قضية (بيليس) التى دار حولها حملة تشهير دموية والتى وقعت بمدينة (كييف) إبان خريف عام ١٩١٣، أى عام مولد (مناحم) كان (ميندل بيليس)، وهو يهودى روسى يبلغ من العمر ٣٧ عاما، قد قدم للمحاكمة بتهمة قتل ولد مسيحى يبلغ من العمر اثنى عشر عاماً، تنفيذاً لبعض الطقوس الدينية، وتمت تبرئة (بيليس) بعد أن أمضى عامين فى السجن، فضلاً عن شهر استغرقته المحاكمة، بيد أن حملة التشهير استمرت

تغذى الحملات المعادية للسامية فى جميع أنحاء أوروبا.

وتقول مسز هالبرين: (إن والدنا كان يردد علينا ما قاله محامى (بيليس) لموكله أثناء المحاكمة: إذا حكم عليك بالسجن لمدة ٢٥ عاما فى سيبيريا مع الأشغال الشاقة، فعليك الذهاب بشجاعة، فإن يهود إسبانيا ذهبوا إلى حيث أعدموا حرقا وهم ينشدون (أشهدك يا إسرائيل) (وهى ترنيمة دينية تتضمن أركان الدين اليهودى)، وعندئذٍ قال المحلفون: (لقد شاهدنا إله اليهود)، وكان والدنا يروى لنا هذه القصة بتوكيد شديد).

وثمة محاكمة أخرى كان زئيف دوف، يشير إليها مراراً، وهى محاكمة الكابتن (ألفريد درايفوس) اليهودى الفرنسى الذى أدين بالباطل بتهمة الخيانة فى سنة ١٨٩٤، وكان والد بيجين يحمل عصا يعلوها مقبض من الفضة فى شكل رأس (أميل زولا) الذى ناصر (درايفوس) وتحته نص من كتاب زولا: (انى أتهم)، وكان (زئيف دوف) يسير بصحبة أحد الأحبار فى أحد الأيام عندما حاول عسكرى بولندى برتبة رقيب أن يحلق ذقن الحبر، الأمر الذى كان يعتبر بمثابة (رياضة) محببة منتشرة بين المعادين للسامية.

ويقول (مناحم بيجين) فى هذا الصدد:

(لم يتردد والدى فى أن يضربه بعصاه على يده، وكانت عملية ضرب أى رقيب بولندى فى تلك الأيام تعتبر إيذانا ببدء مذبحة، واعتقل الحبر ووالدى، وسيقا إلى النهر حيث هددهما بإلقائهما فيه، وضربا حتى سالت دماؤهما، وعاد والدى إلى المنزل فى حالة سيئة، ولكنه كان سعيدا، وقال إنه دافع عن شرف الشعب اليهودى وعن شرف الحبر، ولذلك فقد انطبع فى ذهنى منذ الطفولة شيئان هما: تعرض اليهود للاضطهاد، وشجاعة اليهود.

لقد قدم مناحم بيجين أقصى ما عنده من إجلال وتقدير وعرفان لوالده عندما قال: لم أعرف قط رجلاً أكثر شجاعة منه، ولقد عملت طوال حياتى

بين أشخاص يتميزون بالشجاعة، وربما كان هذا قَدَراً مكتوباً، ومع ذلك فإننى لن أنسى أبدا كيف قاتل والدى دفاعا عن الشرف اليهودى).

وكثيراً ما عانت أسرة بيجين من العوز، وقد عمل (زئيف دوف) فى فترة ما بأحد البنوك، ولكنه فقد وظيفته عندما كشف لصحيفة تصدر باللغة اليبدية عن (فضيحة مالية) بيد أن الأسرة لم تشهد أياماً عصيبة مثل تلك التى مرت بها إبان الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها، فقد كانت مدينة (بريست) تعتبر مدينة عسكرية، وكان حكامها الروس يخشون غزو ألمانيا لها، ونفى (زئيف دوف) الذى كان يتباهى بميوله نحو ألمانيا إلى سان بطرس برج ثم إلى وارسو تاركا وراءه زوجته وأبناءه بدون عائل، وعندما تقدم الألمان نحو مدينة (بريست) قام الروس بإجلا ء جميع السكان عنها وأحرقوها عن آخرها، واصطحبت (هاسيا بيجين) ابنتها وولديها للإقامة عند أحد الأعمام فى قرية (دوركيتشين) بالقرب من مينسك بروسيا البيضاء.

وكان المنزل صغيرا يكاد يشبه الكوخ، أقامت أسرة (بيجين) فى غرفة واحدة، وكثيرا ما كانوا يضطرون إلى توفير مكان بها لمبيت العمات والأعمام القادمين من المدينة، وكان (مناحم) لا يزال طفلاً صغيراً آنذاك، ولكن شقيقته (راشيل) تذكر أحداث تلك الفترة بوضوح، فقد تعرضت القرية بعد أشهر قليلة لنفس مصير مدينة (بريست) حيث أحرقت عن آخرها عند تقدم الجيش الألمانى نحوها، وأجبر الفلاحون والمحليون على مغادرة القرية وتعرض اليهود للتهديد بالذبح على أيدى جنود الفرسان الروس.

وتقول راشيل عن تلك الفترة:

(لقد سمعنا بكاء القرويين، وقام الروس بطرد جميع المزارعين حتى لا يعملوا فى خدمة الألمان، وألا يزودوهم بالأغذية، وأذكر حتى يومنا هذا صوت نحيب الفلاحين، وفجأة اقترب أحد جنود القوزاق من النافذة المغلقة والمسدل عليها الستائر والخاصة بحجرتنا وكان ارتفاع النافذة لا يزيد على ارتفاع

أرجل حصانه، ولذلك فلم نستطع رؤيته، ولكنه طرق بعنف على الباب وقال صائحا: (من يقيم هنا؟ زيدى؟ أم روسى؟)، وكانت كلمة (زيدى) خى صفة يطلقها الروس على اليهود تحقيراً لهم، وكان عمنا يتكلم باللهجة الروسية، فاقترب من النافذة ورد عليه قائلا: (روسى) ولا أعرف كيف أسعفته البديهة، لكن لولا ذلك لقضى القوزاقى علينا).

ثم تستطرد (راشيل):

(وفى إحدى الليالى، صدرت إلينا التعليمات بالاتجاه إلى الحقول لأن القوزاق كانوا يشعلون النار فى قريتنا، وشاهدت بعينى أحد جنود القوزاق وهو يصب البترول ويشعل فيه النار، واتجهنا جميعاً إلى حقل كبير، وكان البعض قد بدأوا بالفعل فى حفر الخنادق ـ وكان كل اليهود تقريبا موجودين هناك ـ وساد الصمت التام ولم يسمح لنا بالتفوه بكلمة واحدة، وكان الألمان قد اقتربوا بالفعل، فقد كانت طلقات مدافعهم على مرمى سمعنا، وعدنا فى الصباح إلى منزل عمنا فوجدناه قد احترق تماماً.

فاتجهنا إلى منزل آخر، ووصل الألمان فى الصباح الباكر، كم كانت فرحة اليهود كبيرة برؤية الألمان، لقد كنا جميعاً نفترش الأرض، وكنا أعداداً غفيرة، وقبل وصول الألمان كنا مضطرين إلى دفع إتاوات لجنود القوزاق حتى لا يقضوا علينا، ولكن الألمان عاملوا اليهود معاملة رائعة.

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحين، تمكن (زئيف) من شق طريقه إلى القرية التى يقيم فيها أخوه، وتم لم شمل أسرة (بيجين) فى أعقاب تقدم الألمان وعندما مرت الأسرة مرة أخرى بأوقات عصيبة انتقلت إلى قرية أخرى ثم إلى مدينة كوبرين، وكان (زئيف دوف) يكسب عيشه عن طريق نسخ الالتماسات باللغة الألمانية للامبراطور.

وتستعيد مسز (هالبرين) ذكرياتها عن تلك الأيام العصيبة التى مرت بها الأسرة فتقول:

(لقد كنا نتضور جوعا، ونتمنى كسرة عيش، وكنا نحن الخمسة نقيم جميعا فى غرفة واحدة، وكان الألمان ـ الذين كانت تربطنا بهم علاقات ودية للغاية ـ يصطحبون أمى كل شهر وبرفقتها الصغير مناحم فى عربة يجرها الخيل إلى القرية، حيث كانت تقوم هى وعمى بقطع الأشجار، وإحضار الأخشاب لنا للتدفئة، وكان والدى يبقى مع الأطفال، وكنت قد أصبحت فتاة كبيرة فتوليت رعايتهم، وكنا نحتفل بعودة أمى بعد غيابها الذى كان يمتد لبضعة أيام، إذ كان كل شىء معداً لذلك، لقد كان لدينا الخشب والبطاطس للطهى، ويرجع الفضل لأمى فى استمرارنا على قيد الحياة إبان تلك الحرب، لقد كانت ذات طبيعة رومانسية، ولكنها كانت فى الوقت ذاته قوية وتتمتع بشخصية فى غاية القوة).

وبقيت (بريست) تخضع للحكم الألمانى بعد الحرب، ولكن لم يسمح للسكان بالعودة حتى عام ١٩١٩، وكان (زئيف دوف) واحدا من أول اليهود العائدين، تاركاً أسرته فى (كوبرين)، ومرة أخرى عاد إلى نسخ الالتماسات بالألمانية كوسيلة لكسب العيش، وكانت (راشيل) وباقى الأطفال يرتقبون زياراته الأسبوعية لهم فى عطلة السبت بفارغ الصبر.

كما تقول مسز (هالبرين) عن تلك الأيام:

(كان والدى يمتلك قبعة سوداء عالية، من النوع الذى يرتدى فى المناسبات الرسمية، وفى إحدى المرات، خرج مناحم الصغير من المنزل ورأى إحدى قريباتنا تجلس على الدرجات، ومسحة من الحزن تعلو وجهها فسألها: «لماذا أنت حزينة يا عمة؟ أليس معك نقود؟ نحن أيضاً لم يكن لدينا نقود، إلا أن أبى أصبحت لديه الآن قبعة عالية مليئة بالنقود، فقد كانت أمى تحتفظ بالنقود فى القبعة، لقد كانت ظروفنا قبل ذلك صعبة جدا، وقد اعتادت أمى أن تضع الولدين بعد ظهر كل خميس فى السرير حتى تستطيع أن تغسل ملابسهما، ثم تقوم يوم الجمعة بكيها ليرتدياها بعد الظهر

ويخرجا بها قائلين إنهما أصبحا يمتلكان بدلاً جديدة، لقد كانت أمى قوية جداً، ولكنها قالت لى إنها بكت فى إحدى المرات وكان ذلك عندما قام جار غنى بشراء كعكة من المخبز، ولم يكن فى وسعنا شراء الكعك، واتجه أخى الصغير إليه وقال: أرجو أن تسمح لى بشمها؟ وعندئذٍ لم تملك أمى منع نفسها من البكاء).

وتحسنت الأحوال عندما انضمت أسرة (بيجين) إلى (زئيف) فى (بريست) وعين الأب فى منصب سكرتير عام الرابطة اليهودية، الأمر الذى ضمن له دخلا ثابتا وإن لم يكن كبيرا، وعندما بدأ الأطفال الثلاثة يشبون ساهموا فى زيادة دخل الأسرة عن طريق إعطاء دروس خصوصية، لقد كان ذلك فى وقت ملىء بإعادة التشييد والبناء والمؤسسات وشغل (زئيف دوف) فى وقت ما منصب رئيس مجالس إداراتة سبع منظمات مختلفة فى وقت واحد.

ولكن عندما عاد البولنديون ليحلوا محل الألمان فى حكم المدينة، اتهموا جميع اليهود بأنهم شيوعيون خطرون، ولقد كان بعضهم كذلك بالفعل، وساعد (زئيف دوف) سبعة عشر عضواً من الحزب الشيوعى على التخفى كطلبة فى المعاهد التلمودية وبعثهم إلى بلدة (فيلنا) الأكثر أمنا نسبياً، وظل شيوعيو (بريست) لسنوات طويلة بعد ذلك يطفئون سجائرهم كلما شاهدوه يتمشى أثناء عطلة السبت، كرمز على تقديرهم له.

وقد حقق (مناحم) الشاب تفوقاً فى العلوم الإنسانية أثناء دراسته الثانوية فى مدرسة بولندية، وتمسك خلال تلك المرحلة أيضاً بيهوديته، فكان يرفض بإصرار الكتابة فى أيام السبت، وقد رد مدرس اللغة اللاتينية على ذلك بأن أعطاه تقديرًا بمرتبة ضعيف، وقال (مناحم بيجين) فى حديث أدلى به لشاب إسرائيلى. بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ: (لقد قلت للمدرس إن هذه هى معتقداتى ولن أغيرها، ولن أكتب فى عطلة السبت تحت أى ظرف من الظروف، وبعد فترة هدأ ومنحنى الدرجات المرتفعة التى اعتدت الحصول عليها).

وظل (مناحم بيجين) أرثوذكسياً فى معتقداته، وإن لم يبق ملتزماً بمعتقداته المتزمتة، فكان يصر مثلاً أثناء رحلاته كرئيس وزراء على تناول الطعام الشرعى اليهودى، بينما اشترك فى السير فى جنازة أنور السادات التى جاءت يوم السبت، كما أنه لم يعد يذهب إلى المعبد كل يوم أو حتى كل سبت، وهو لا يخفى أنه كان يستمع إلى الإذاعة أيام السبت (سواء إذاعة صوت إسرائيل أو إذاعة بى. بى. سى العالمية) ومن المعروف أنه علم بمذبحة بيروت فى سبتمبر ١٩٨٢ من خلال الإذاعة، وكان التزامه الدينى ينطوى على بعض التظاهر، لإدراكه أنه يمثل الحركة التى ينتمى إليها، فضلاً عن إسرائيل، فقد صام بمناسبة يوم الغفران أثناء اعتقال البوليس السرى السوفيتى له، كما أنه عندما كان زعيماً للمعارضة سنة ١٩٥٣، وصل إلى جوهانسبرج فى وقت متأخر من يوم الجمعة، نظراً لعطل أصاب الطائرة التى أقلته، وأصيب خمسة آلاف صهيونى من مؤيديه الذين حضروا لاستقباله بالفزع عندما امتنع عن استخدام السيارة الليموزين التى تنتظره، وأمضى الليلة فى فندق المطار.

وعانى (مناحم) أثناء دراسته بجامعة وارسو، من هجمات المعادين للسامية له، كما عانى من فقره النسبى، وقد أرسلت الحكومة البولندية له بعد توليه رئاسة الوزراء (ألبومًا) يحتوى على المستندات الخاصة به والتى كانت محفوظة فى سجلات الجامعة، وحيث إنه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية قائمة بين بولندا الشيوعية وإسرائيل الصهيونية، فإن الهدية وصلته بلا مقدمات من خلال السفارة البولندية فى لندن ومجلس نواب اليهود البريطانيين وقدم (بيجين) جزيل شكره إلى البولنديين، ولكن بالإنجليزية، وكانت هناك من بين الخطابات والصور الموضوعة داخل ثلاثة وعشرين مظروفاً، مكاتبة تحتوى على التبرير الذى تقدم به طالب الحقوق لعدم استطاعته دفع المصروفات الدراسية فى موعدها، وتفيد بأن أسرته لا

تستطيع إعالته وأنه مضطر لأن يعمل أثناء دراسته، ووافقت السلطات على طلبه بدفع المصروفات على أقساط.

ويمكن القول إن (زئيف دوف بيجين) كان يتصف دائماً بالتهور فى رفضه الخضوع للسلطات الحاكمة أيا كانت تلك السلطات، ومن حسن حظه أنه نجا سنة ١٩١٤ من السجن أو الموت على أيدى الروس نتيجة لموالاته الصريحة للألمان، وتعتقد ابنته أن السبب الوحيد لصفح الروس عنه هو أنه كان يلعب الشطرنج مع الضباط (وهى هواية أخرى ورثها ابنه عنه)، فمثلاً كان قد التمس فى سنة ١٩٢١ بصفته مسئولاً يهودياً من (جوزيف بيلصا دسكى) المدير البولندى، أن يصرف تموين طوارئ للطائفة اليهودية.

ورد عليه بيلصا دسكى قائلاً إنه سيرسل الطعام إلى اليهود، فى حالة واحدة فقط وهى قيام زئيف دوف بإفشاء أسماء وعناوين اليهود المتلاعبين بالأسعار.

ورمى (بيجين) الطلب فى وجه المارشال قائلا له: (إن اليهود ليسوا بمخبرين، وإنه يستطيع أن يطلب من بوليسه السرى أداء أعماله القذرة)، وعندما وصل النازيون إلى (بريست) سنة ١٩٣٩ أصر مرة أخرى على حقه فى التكلم نيابة عن اليهود، وسرعان ما أدرك (زئيف دوف) - الذى كان قد بلغ العقد الثامن من عمره - أن هؤلاء الألمان كانوا نمطا مختلفا عن أولئك الذين أعجب بهم إبان شبابه.

ولم ينج من الحرب من بين أفراد أسرة (بيجين) سوى مناحم وزوجته (أليزا) وشقيقته راشيل وزوجها المحامى (ياهوشوا) وهلك والداه وشقيقه (هيرتزل) الذى كان من علماء الرياضيات النابغين.

وكذلك هلك طفل (راشيل) الصغير الذى تركته فى رعاية أمها، ومن المعروف أن (هيرتزل) الذى كان يكبر بيجين بثلاث سنوات قد تعرض فى

سبتمبر ١٩٤٩ لحيلة قاسية لعبها الألمان ضده إذ أنه كان واحداً من مجموعة من الشباب اليهود الذين أجبروا على الوقوف صفاً واحداً ووجهه إلى الحائط فى ساحة السوق، وقد وصف (هيرتزل) لـ (ديفيد جوتان) أحد زملاء (مناحم) فى قيادة منظمة (بيطار) - وهى جماعة الشبيبة فى حركة جابو تينسكى - تفاصيل الواقعة وروى له كيف أحاط الجنود بهم وهم يحملون مدافعهم الرشاشة، ولكن عندما صدرت إليهم الأوامر بإطلاق النار، أطلقوا الرصاص فى الهواء وعندما سئل (هيرتزل) عما كان يراوده أثناء ترقبه الموت رد قائلا: (إنه ركز تفكيره فى حل مسألة جبر، ولم يتمكن من حلها حتى انقضت فترة الانتظار).

وتتضارب الروايات عن نهاية (زئيف دوف) ويفضل مناحم الرواية الأكثر درامية:

(لقد قيل لنا إنه غرق فى نهر باج مع خمسة آلاف يهودى آخرين، حيث أُخذوا إلى النهر وفتحت عليهم نيران المدافع الرشاشة من كلا الجانبين، وقال الناجون إن النهر صبغ فعلاً باللون الأحمر من الدماء المراقة، وكان والدى، بصفته سكرتير الطائفة اليهودية أول الهالكين.

وقيل لنا إن اليهود بدأوا - بمبادرة منه - ينشدون نشيد «هيتاكفا»، وهو النشيد القومى الصهيونى، وكذلك أنشدوا «إنى مؤمن»، وهكذا مات والدى).

وتستعيد راشيل هالبرين هذه الرواية على أنها من الأساطير الشعبية:

(إن ما أعرفه وهوما ذكره لى أصدقائى فى بريسك أن الألمان أصدروا قانونا يحرم على اليهود دفن موتاهم، وذهب والدى لدفن أحد اليهود فى المدافن، واقترب منه أحد الألمان وسأله عما يفعل، فقال بالإلمانية إنه يدفن أحد الموتى، فقتله الجندى على الفور، وأنا لا أعرف شيئا عن باقى أسرتى، لقد هلكوا مع جميع اليهود الآخرين ولكننى أعرف كل التفاصيل بشأن أبى،

وأنا أعرف اسم اليهودى المتوفى وأنه قد دفن بالفعل).

ومهما كانت الحقيقة، فإن الروايتين كلتيهما تنطويان على نمط من البطولة تتفق وشخصية (زئيف دوف)، فهو لم يكن من نوع الرجال الذين يساقون فى هدوء إلى غرفة الغاز، ويرى (بيجين) أن الدرس الذى خرج به اليهود من تجربة (الهولوكست) ـ أو الإبادة الجماعية بالحرق ـ يتلخص فى التحذير الذى وجهه (جابوتنسكى) إلى يهود أوروبا: (إذا لم تضعوا حداً لشتاتكم فإن الشتات ـ أو الدياسبورا ـ ستضع حداً لوجودكم).

وقال (بيجين) بصفته رئيساً للوزراء إن (الهولوكست) كان المحرك الرئيسى وراء كل ما عمله هو وجيله.

(كانت المحنة الحقيقية لحياتنا كيهود هى عدم قدرتنا على الدفاع عن أنفسنا على مدى قرون عديدة وإبان جيلنا بصفة أساسية، ولا يجب أن يتكرر هذا مرة أخرى أبداً، ولذلك فقد قررنا أن نحمل السلاح وأن نقاتل من أجل التحرير حتى يكون لدينا دولة وجيش ـ أى تكون لدينا وسيلة للدفاع القومى ـ إن هذا هو الدافع الأول لجميع تصرفاتنا، وأن نضمن أمن الدولة اليهودية وأن نضمن حرمة وحصانة حدودها، وهو المحرك الثانى لسلوكنا، سواء كان ذلك عندما كنا فى المعارضة أو الآن ونحن فى الحكم).

ولا يوجد فرد واحد من صهاينة ما بعد الحرب، يفكر فى مناقشة هذه النظرية، والأمر الذى ينحصر فيه اعتراض البعض هو أسلوب (بيجين) فى تطبيقها وتشبيه جميع أعضاء إسرائيل بالنازيين وإعادة (الهولوكست) إلى الأذهان كتبرير لحرمان عرب فلسطين من تحقيق طموحاتهم الوطنية، وإرهاب الساسة الأجانب والضغط عليهم.. لقد خاطر (بيجين) فى بعض الأحيان بالتقليل من شأن المأساة اليهودية، الأمر الذى أعطى منتقدى إسرائيل ذريعة لانتهاك المحظور والقذف بفكرة (الحل النهائى) فى وجهه:

لقد ختمت مذبحة ٦ ملايين يهودى أوروبى على قلب (بيجين) بكراهية أبدية لكل ما هو ألمانى، ولقد قاوم بصفته زعيماً للمعارضة خلال الخمسينيات والستينيات بمرارة وأحياناً بعنف، فكرة إجراء أى اتصال بين إسرائيل وألمانيا الاتحادية حتى تحت حكم (كونراد أديناور) المناهض للنازية.

وقد حافظ أثناء توليه رئاسة الوزراء على العلاقات الطيبة بالساسة والدبلوماسيين الألمان، فى أضيق الحدود، وقاد حملة ثأرية لا داعى لها ضد المستشار هلموت شميت، كما رفض الإدلاء بأحاديث للصحفيين الألمان أو التحدث بلغتهم، وتعتبر مشاعر العداء هذه إزاء الألمان أمرًا شائعًا بين اليهود البولنديين الذين نجوا من الحرب، ولكن لا يسع المرء إلا أن يتساءل: هل كانت مشاعر (بيجين) ستصبح بمثل هذا العنف لو أن (زئيف دوف) لم يعلق كل تلك الآمال على ألمانيا؟ هل كان الابن يقوم بتخليد الشعور المؤلم بالإحباط الذى أصيب به والده؟

بيد أن أخته التى كانت فى سن تمكنها من تذكر الجنود الألمان الذين كانوا يغيثون اللاجئين اليهود فى الريف إبان حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، تسيطر عليها مشاعر متضاربة، فهى تعترف أنها لا تستطيع حتى يومنا هذا أن تشعر بالكراهية التى (من المفروض أن تسيطر على أى يهودى إزاء الألمان)، فأنا أذكر الألمان الآخرين لقد كانوا يمنحون كل الأطفال الحلوى والبسكويت، لقد كانوا نوعاً مختلفاً من الألمان، وكان الزمن مختلفاً.

■ ■ ■

الفصل الثانى

عند أقدام المعلم

كان من المفروض أن تصبح حركة الشباب التى أسسها (جابوتنسكى) والمعروفة باسم (بيطار) والتى يسيطر عليها التيار الصهيونى الذى يدين بالقوة، هى الحركة التى من الطبيعى أن تستهوى (مناحم بيجين) فى بريست - ليتوفسك، فبعد أن انتهى مناحم من دراسته الابتدائية فى مدرسة مزراحى اليهودية، التحق بمدرسة ثانوية بولندية ثم بجامعة وارسو، حيث حصل على ليسانس فى القانون وإن لم يعمل إطلاقاً فى هذا المجال.

وكان (بيجين) الصغير الحجم يقود أى معركة تقع فى المدرسة أو الجامعة ضد زملائه فى الفصل الذين كانوا يمارسون العداء للسامية، بأسلوبهم الخاص والذى كثيراً ما كان يتسم بالقسوة، بل بلغ بهم الحال أنهم حاولوا فى إحدى المناسبات تلطيخ شفتيه بدهن الخنزير.

يقول (مناحم بيجين) عن تلك الذكريات:

(عندما كنا نتعرض للهجوم، كنا ندافع عن أنفسنا، ولم يحدث مطلقاً أن خضعنا لهم ولذنا بالفرار، وكنا نعود إلى البيت ملطخين بالدماء ومضروبين، ولكن يسيطر علينا الشعور بأننا حافظنا على كرامتنا،وسرعان ما أدركنا أن هؤلاء البلطجية يتصرفون بأسلوب مهذب إذا ما رددنا على ضرباتهم بالمثل).

ومع ذلك فإن مما يدعو إلى الدهشة أن أبناء (بيجين) الثلاثة - مناحم وشقيقه هيرتزل وشقيقته راشيل - انضموا إلى منظمة (هاشومار هاتزيار) التى أصبحت فيما بعد حركة الشباب التابعة لحزب (المابام) السيارى، وكان

(زئيف دوف بيجين) أحد الكبار الذين تبنوا تلك الحركة، ولكن عندما انحرفت حركة هاشومار عن أهدافها كمنظمة كشفية، واتجهت نحو الماركسية انسحب أبناء بيجين منها، وقال زئيف دوف لأبنائه: (يجب عليكم أن تناضلوا أولاً من أجل حريتكم الشخصية، ويمكنكم أن تدافعوا عن حرية العالم بعد أن تصبحوا أحرارًا).

وقد ظل مناحم عضواً فى منظمة هاشومار لمدة ثلاث سنوات، وذلك منذ أن كان فى سن العاشرة حتى الثالثة عشرة، ثم انضم إلى (حركة بيطار) عندما بلغ الخامسة عشرة، ويقول بيجين: (لقد انبهرت بالصهيونية الشاملة لمنظمة (بيطار)، وبهدفها الأسمى الخاص بإقامة دولة يهودية معاصرة على أرض إسرائيل التاريخية، ولقد كانت حركة (بيطار) تعبر عن كل المبادئ التى تعلمتها من قراءاتى ومن استماعى للآخرين والتى آمنت بصدقها، ولم يراودنى أدنى شك فى أن هذه هى الحركة التى أريد أن أخدم الشعب اليهودى من خلالها طوال حياتى.

وبعد عامين من التحاقه بتلك المنظمة أى فى عام ١٩٣٠، استمع بيجين لأول مرة إلى خطاب لـ(جابوتنسكى) وقد تأثر به تماماً، ويقول (بيجين):

إن (جابوتنسكى) كان له أكبر تأثير على حياتى، ولقد أخذت بآرائه، وتلقيت عنه تعاليم الصهيونية، لقد تأثرت حياتى كلها به، ولقد تأثر عملى أثناء انضمامى إلى المنظمات السرية وكذلك عملى فى المجال السياسيه، فقد أخذت عنه إرادة النضال من أجل تحرير الوطن وكذلك التحليل المنطقى للحقائق فيما يتعلق بالأمور السياسية.

بل إن (بيجين) ذهب إلى أبعد من هذا، لقد كان (جابوتنسكى) يحظى لديه بما يرقى إلى مرتبة التقديس، وكان زعيماً دولياً، ومع ذلك كان أقرب ما يكون إلى صورة الخطيب الصهيونى الناشئ والقادم من الأقاليم، ويذكر

بيجين:

إن (زئيف جابوتنسكى) كان يتمتع بنمط الفكر الشامل الذى لا يظهر إلا مرة واحدة على مدى أجيال، لقد كان بمثابة أرسطو أو ليوناردو دافينشى أو مايمونيدس معاصر (وهو فيلسوف يهودى إسبانى قديم) وبمعنى آخر كان هؤلاء يتفوقون فى عدة مجالات وليس فى مجال واحد فقط.

لقد كان جابوتنسكى خطيباً وكاتباً وفيلسوفاً وكان رجل سياسة وجندياً بارزاً كما كان ضليعاً فى اللغات، ولقد تفوق فى كل هذه المجالات، ولكنه لم يكن بالنسبة لنا ـ نحن تلاميذه ـ مجرد معلم بل إنه كان أيضاً رمزاً لآمالنا.

لقد اعترف حتى ألد أعداء (جابوتنسكى) السياسيين ـ وكانوا كثيرين ـ بجاذبيته الجماهيرية، وكذلك الحال فيما يتعلق بأصالته الفكرية وغزارة كتاباته، بيد أن من المبالغة أن نقارن مستوى عبقريته وعبقرية ليوناردو دافينشى، كان كسياسى يتمتع بالقدرة على كسب تأييد لآرائه حتى أولئك الذين ينتمون إلى أحزاب صهيونية أخرى، ومع ذلك فلم يحقق أثناء حياته سوى أهداف قليلة،كان ينقصه الصبر الذى يمكنه من كسب الحلفاء، كما كانت تنقصه أيضا القدرة على التوصل إلى الحلول الوسطى، كان (جابوتنسكى) يرى أن أن التدرج بمثابة الكفر... فكان يريد قيام دولة يهودية على أن يكون ذلك فى الحال، بل إنه كان يرفض التفاوض على أقل من ذلك حتى لو كان ذلك على سبيل التكتيك.

إن حركة التصحيح التى أسسها جابوتنسكى والتى تعتبر أصل حزب حيروت الذى تزعمه بيجين فيما بعد، تميل إلى تصويره فى صورة الليبرالى الطيب على النمط الأوروبى القديم وعلى النحو الشائع إبان القرن التاسع عشر، والذى يسمو فوق مستوى أعضاء جماعة (أرجون زفاى ليومى) الذين يتصفون بالفظاظة، أى فى صورة المفكر المهذب، ولقد حظيت وجهة النظر

هذه على عكس المتوقع بتأييد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا قد سجنوه فى بادئ الأمر ثم قاموا بنفيه من (الأرض الموعودة)، وقد قابله (هارولد بيلى) مساعد (ايرنست بيفين) لشئون الشرق الأوسط إبان أحلك أيام النضال الصهيونى - قابل جابوتنسكى - فى لندن عام ١٩٤٠ وذلك قبل بضعة أشهر من وفاة زعيم حركة التصحيح، يقول بيلى:

لقد قمت بزيارته فى المكتب المتواضع للمنظمة الصهيونية الجديدة، وأذكر أنى شعرت بنفور بصفة خاصة إزاء أتباعه من البريطانيين، أما جابوتنسكى نفسه فقد ترك فى نفسى، على العكس من ذلك، انطباعاً بأنه قوة يجب أن يأخذها المرء فى الحسبان، فوجهت له الدعوة للحضور إلى أوكسفورد ليلقى كلمة فى أعضاء منظمة (تشاثام هاوس) الموجودة هناك.

ولقد تأثروا بلا أدنى شك بطلاقته، بصرف النظر عن رأيهم فى آرائه، وقد بدا لى أنه من نوع الجيل الثورى الذى كان موجوداً عام ١٨٤٨، أو أنه كان شخصية تشبه إلى حد بعيد (ميتزين) لكن فى عصر متأخر.

ولو أن (جابوتنسكى) سمع تلك المقارنة لاستساغها كثيراً، خاصة وأنه كان من المعجبين المخلصين بإيطاليا وبنهضتها القومية، بيد أن صفة الليبرالى لا تنطبق عليه تماما، فلقد كانت فلسفته تنطوى على جانب مظلم: الدم والنار والحديد والتسلط، والانضباط والتمسك بالرسميات واستغلال الجماهير، والتمييز العنصرى بصفته جوهر الأمة.

وقد كتب (جابوتنسكى) فى أحد مقالاته الأولى تحت عنوان: (إن الإنسان عدو للإنسان) يقول:

(إننا نبنى أحياناً آمالاً براقة حول الأكذوبة التى تقول بأن شعباً معيناً قد عانى الكثير، ولذا فإنه سيتعاطف مع آلام شعب آخر ويشعر بها، وإن ضميره لن يسمح له بأن يبتلى الشعب الأضعف بما ابتلى به من قبل.. ولكن الواقع

يؤكد أن هذه مجرد كلمات منمقة جوفاء.. والكتاب المقدس فقط هو الذى يقول لنا: «إن إلحاق الظلم بالغريب يعتبر إثماً فإنكم تعرفون شعور الغربة حيث إنكم كنتم غرباء فى أرض مصر».. إن مثل هذه المثل الإنسانية الطفولية لا محل لها فى الأخلاقيات المعاصرة).

وبالمثل، يمكن القول إن الليبرالية المعاصرة لا تتسع لمثل هذه الواقعية الصارخة، حتى وان كان (جابوتنسكى) يصدر حكمه بناء على العالم الذى يراه حوله، وما قولنا فى تأكيده (ليست هناك قيمة فى العالم أعلى من الأمة والوطن) أو قوله (إن أسمى ما يمكن أن يحققه جمهور من البشر الأحرار هو أن يستطيعوا العمل معاً فى دقة وتناسق مطلق مثل الآلة) وأنه (بدون الطقوس والشكليات لا توجد حرية)، ما قولنا فى هذه الأفكار؟ ربما كانت نظرة (جابوتنسكى) المتشائمة إزاء الجنس البشرى لها ما يبررها، وقد استطاع أن يتكهن من خلالها بوقوع الهولوكست، ولكنها على أى حال تعتبر أبعد ما يكون عن الليبرالية، وهذا ينطبق بالمثل على موقفه من العرب الفلسطينيين، حتى على الرغم من أنه لم يسع إلى طردهم.

لقد كتب سنة ١٩٢٣ يقول:

(من المستحيل أن نتصور إمكانية التوصل إلى اتفاق تلقائى بيننا وبين عرب أرض إسرائيل.. سواء كان ذلك الآن أو فى المستقبل المنظور.. إن كل أمة سواء كانت متحضرة أو بدائية تؤمن بأن أرضها هى وطنها القومى، الذى تريد أن تبقى مهيمنة عليه إلى الأبد.. ولا يمكن أن تفكر مثل هذه الأمة أو تقبل بوجود سيد جديد أو حتى بوجود شريك لها.. وكل قوم يقاتلون المستوطنين طالما كانت هناك بارقة أمل فى التخلص من خطر الاستيطان الأجنبى، وهكذا يفعلون، وهكذا سيفعل العرب المقيمون فى (أرض إسرائيل) طالما كانت لديهم بارقة أمل فى أن يتمكنوا من منع تحويل فلسطين إلى (دولة إسرائيل) لقد كان (جابوتنسكى) أكثر صراحة من معظم الصهاينة

المعاصرين له. لقد أعلن صراحة عن مضمون أفعالهم وسياساتهم ولكنه رد على المقاومة العربية بواسطة إقامة جدار حديدى من الحراب اليهودية لإجبار الفلسطينيين على الاعتراف بالمحتوم وكان يرى أن الأسلوب الوحيد للتوصل إلى اتفاق فى المستقبل هو التخلى تماما عن أى محاولة حالية للاتفاق، وقد قام مناحم بيجين فى حديث أدلى به بعد أن أصبح رئيسا للوزراء، بصقل هذا المفهوم فقال: إن المقصود بالجدار الحديدى أنه لا يمكن تحقيق الصهيونية ما لم يقم بيننا وبين العرب حاجز من القوة، وسيحاول العرب منع هذا حتى لو أدى الأمر إلى إراقة الدماء، ولابد من وجود قوة دفاعية لمنع إراقة الدماء، لقد أعلن (جابوتنسكى) إيمانه بمنهج العدالة، ولكننا اكتشفنا أنه لابد من الدفاع عن العدالة، بيد أنها كانت عدالة فى أدنى مستوياتها فى دولة يهودية متطرفة لا تترك بارقة أمل فى أن يتمتع العرب بالسيادة على أى من ضفتى نهر الأردن.

وعندما اشترك بيجين فى معسكر صيف أقامته منظمة (بيطار) بالقرب من نيويورك، بعد انقضاء أكثر من أربعة عقود على وفاة جابوتنسكى، كان من الواضح أنه ظل على إخلاصه لأستاذه، وتكريسه لمذاهبه وتخليده لأسلوبه الخطابى، ابتداءً من استخدام نبرات صوته لإثارة الشفقة وانتهاءً بخفضها كختام كلامه، وكان يتمسك بما وصفه كاتب سيرة حياة (جابوتنسكى) - الذى كان يقيم معه فى منزله - (بتقديسه للإتيكيت) ممثلاً فى الانحناء وتقبيل يد السيدات وارتداء البذلة وربطة العنق والحذاء اللامع، وذلك فى وسط بلد الرواد الذين يرتدون القمصان المفتوحة عند الرقبة وينتعلون الصنادل، بل إنه استحضر روح غاريبالدى البطل الذى كان (جابوتنسكى) يبجله بإلقاء محاضرة على جماعة من أعضاء البرلمان الإيطالى الزائرين لإسرائيل، عن زعيم حركة تحرير وطنهم.. وقام (بيجين) عندما تخلى عن المعارضة لأول مرة لينضم إلى حكومة الوحدة الوطنية على أبواب حرب سنة

١٩٦٧، بزيارة مقبرة (جابوتنسكى) على جبل هيرتزل بالقدس، وكان مثل جابوتنسكى مستعداً قبول عرب فلسطين، على شرط ألا يتجاوزوا حدود مكانتهم، وإن كان قد اعترف بأن الضفة الشرقية للأردن لم تعد هدفا عمليا بالنسبة للدولة الصهيونية لم ترفع جماعة (البيطار) خريطة جابوتنسكى التى تضم (كلتا الضفتين) من شعارها إلا فى عام ١٩٨٠، وربما لم يكن بيجين يتمتع ببريق جابوتنسكى وقدرته الأصيلة على اشعال الحماس، بيد أنه كان أكثر مهارة منه فى فن الممارسات السياسية العملية، وقد استطاع التلميذ أن يغير مسار الصهيونية ويعدله لخدمة إسرائيل الحديثة، وتحويلها إلى مجتمع كان (الأستاذ) سيتعرف عليه بلا شك كمجتمع أحلامه.

ولم يكن (جابوتنسكى) بالشريك السهل على الإطلاق وكثيراً ما كانت الشخصيات الصهيونية الأخرى البارزة يجدونه متغطرساً، ولم يكن يرحمهم سواء فى كلماتهم المنطوقة أو المطبوعة، وكان متسلطاً وقادراً على إثارة السخط، ولكن بحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك من يستطيع النَيل من مكانته فى قيادة الحركة، وقد أكد الدور الذى لعبه كمؤسس للفيلق اليهودى فى الحرب العالمية الأولى وكأحد قادته أنه رجل أفعال تماما كما أنه رجل أفكار، وكرائد للدفاع اليهودى عن النفس، فضلاً عن كونه واعظًا بارزًا، إن الأمر الذى قاد (جابوتنسكى) لدخول متاهة الصهيونية هو مطلبه بإقامة دولة يهودية، الأمر الذى كرس من أجله كل جهوده، فقد كان ذا فلسفة (وحدانية) مما كان يستحوذ على اعجاب الشاب (بيجين)، وقد كان الآخرون مستعدين لتقديم تنازلات على الأقل بالنسبة لأهدافهم بعيدة المدى، وكان (جابوتسكى) يرى أن مثل هذه التنازلات لا تنطوى على الخيانة فحسب، بل على سوء التقدير أيضاً، فقد كان يؤمن بأن قوة اليهود تكمن فى قوة قضيتهم المعنوية، ومن ثم فلا يجب عليهم تمييعها أبداً، خاصة أن أحداً لن ينخدع بذلك على أى الحالات.

وجاءت الخطوة الأولى فى يناير ١٩٢٣ عندما استقال (جابوتنسكى) من

اللجنة التنفيذية العليا للحركة الصهيونية احتجاجاً على ما اعتبره عدم مقاومة (حاييم وايزمان) لعملية (انكماش) التعهد البريطانى المتمثل فى وعد بلفور لعام ١٩١٧، ولقد أسر لبعضهم بعد حديث دار والزعيم الصهيونى (إن وايزمان يعتقد أن منهجى هو منهج الخيالى العنيد، بينما أنا أشعر أن أسلوبه هو بمثابة التخلى عن الحق أو التخلى غير المتعمد عن المبادئ).

وأسفرت تلك الخطوة عن تأسيس (حركة التصحيح) الملتزمة صراحة بإقامة دولة يهودية تتمتع بأغلبية يهودية على ضفتى نهر الأردن كلتيهما، تملك جيشًا يهوديًا للدفاع عنها، وظلت (حركة التصحيح) جزء لا يتجزأ من الحركة الصهيونية إلى أن انعقد المؤتمر الصهيونى السابع عشر فى يوليو ١٩٣١ ببازل، حيث جاوز (وايزمان) كل الحدود ـ ليس فقط من وجهة نظر (جابوتنسكى) وحده ـ بقوله إن فكرة الدولة لم تكن مطلقاً هدفاً فى حد ذاته، بل مجرد وسيلة إلى غاية، وقد كلف هذا (وايزمان) زعامته للحركة الصهيونية، غير أن (جابوتنسكى) لم ينجح فى أن يستصدر بياناً واضحاً يتضمن برنامجًا سياسيًا محددًا وعندما لم يعتن المؤتمر حتى بطرح القرار الذى تقدمت به حركة (التصحيح) للاقتراع، اعتلى (جابوتنسكى) مقعداً وصاح قائلا: (إن هذا لم يعد يشكل مؤتمراً صهيونياً) ومزق بطاقة عضويته.

وخرج (التصحيحيون)، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد منبوذين، ولكن بعد ثلاث سنوات من خروجهم وقعت الصدمة التى ظل مناحم بيجين يحاول حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان تطهير الحركة من آثارها، ففى ١٦ يونيو ١٩٣٣ تناول حاييم آرلوسورف رئيس الإدارة السياسية بالوكالة اليهودية، والنجم الصاعد فى الحركة العمالية الصهيونية طعام العشاء وزوجته (سيما) بأحد فنادق تل أبيب، وقاما بعد ذلك بالسير على شاطئ البحر، ولاحظت مسز (آرلوسورف) أن رجلين يتعقبانهما، وقد شهدت فيما بعد أن أحدهما كان أشقر، طويل القامة، يميل للضخامة، ويتمايل فى مشيته مثل البطة، أما

الآخر فكان قصيرا ونحيفا وله ملامح شرقية، وقالت إن الرجلين تصديا لهما، وقام الرجل الضخم بإنارة مصباح فى وجه (آرلوسورف) وسأله عن الساعة فطلب منه (آرلوسورف) بالكف عن مضايقتهما فسحب الرجل الضئيل مسدسا وأطلق عليه النار فأصابه فى بطنه وتوفى (آرلوسورف) فى المستشفى بعد خمس ساعات، وذكرت (سيما) أن الرجل الذى هاجمهما كان يتكلم العبرية بدون أى لهجة أجنبية.

وقام البوليس البريطانى بنشر أوصاف الرجلين فى جميع أنحاء فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى، وأدت التحريات إلى اتهام (افراهام ستافسكى) عضو منظمة (بريت هابيريونيم) الدموية المتطرفة التى تعمل على هدم حركة (جابوتنسكى) الدموية بفلسطين، وكانت منظمة (بريت هابيريونيم) قد أدانت (آرلوسورف) كمتواطئ مع الأعداء لمحاولته إيجاد منفذ لليهود الألمان - الذين بدأوا يتعرضون لتهديد النازية الصاعدة - يستطيعون من خلال هذا المنفذ تصفية ممتلكاتهم والهجرة إلى فلسطين دون التضحية بكل شىء.

وكانت الفكرة التى تفتق عنها ذهنه هى أن يقوموا بشراء سلع ألمانية ويصدروها، ثم يحصّلوا ثمنها من البلد الآخر، وقد عاد (آرلوسورف) إلى تل أبيب فى ١٤ يونيو، بعد قيامه بعدة رحلات ذهاباً وإياباً بين برلين ولندن، وفى الوقت ذاته كان (جابوتنسكى) و(التصحيحيون) يشنون حملة على نطاق عالمى تدعو اليهود لمقاطعة السلع الألمانية، وقد نشرت مجلة (بريت هابيريونيم) يوم الجريمة مقالاً تتهم فيه (آرلوسورف) بالتحالف مع (هتلر) و(ستالين) وقال المقال إنه باع شرف شعبه.

واعتقل (ستافسكى) بعد ثلاثة أيام من وقوع الجريمة، وتعرفت (سيما آرلوسورف) على صورته، بصفته الرجل الذى كان يتمايل فى مشيته والذى أضاء المصباح فى وجه (آرلوسورف) واتهمت عضواً متطرفاً آخر فى (حركة التصحيح) وهو (زفى روزنبلات) بجذب الزناد، كما اتهم (ابا اهيماير)

فيلسوف جماعة (بريت هابيريونيم) بالتواطؤ ولم يكن تعرُّف مسز (آرلوسورف) على (روزنبلات) قاطعاً بنفس درجة تعرفها على (ستافسكى)، وبعد انتهاء إجراءات الاتهام أمام قاضى المحكمة الجزئية، أحيلت القضية إلى محكمة الجنايات العليا، أمام أربعة قضاة: اثنان بريطانيان، وواحد يهودى، والرابع عربى، وقد تمت تبرئة (اهيمايير) فى منتصف المحاكمة، وصدر حكم بتبرئة (روزنبلات) على أساس عدم وجود شهود آخرين يؤيدون أدلة (سيما).. وأدين (ستافسكى) وحكم عليه بالإعدام، فاستأنف الحكم أمام محكمة أعلى، قضت بنقض الحكم وأطلقت سراحه.

فبموجب القانون التركى الذى كان معمولاً به فى فلسطين حتى عام ١٩٣٧ لم تكن شهادة شاهد واحد كافية لصدور حكم بالإدانة، وقد جادل الصهاينة من أعضاء (حركة العمل) بأن (ستافسكى) أدين بحكم الحقائق وتمت تبرئته بموجب نقطة قانونية، أما (التصحيحيون) فقد عبروا عن اغتباطهم لسيادة القانون، فالحكم بالبراءة أمر لا يمكن الرجوع فيه، وظل الطرفان على مدى عقود عديدة تالية يقدمون الأدلة والأدلة المضادة فى معركة حامية تصم الآذان.. واعترف اثنان من العرب اختفيا بعد ذلك، وترددت وجهات نظر ووجهات نظر مضادة، من فوق منابر بارزة، وعلى لسان شخصيات عامة وهى على فراش الموت، واعتبرت حركة (العمل) أن (التصحيحيين) هم الذين قتلوا (آرلوسورف) أما (التصحيحيون) فقد اعتبروا أن الطرف الآخر قد أثار اليهودى ضد اليهودى فى حملة تشهير دموية.

وقد فتحت قضية (آرلوسورف) جرحاً دامياً ظل ينزف فى أوروبا وفلسطين، حتى بعد أن طوى النسيان أحداثها الأصلية بمدة طويلة، ولقد أصيب (مناحم بيجين) بذعر حقيقى إزاء نشر كتاب جديد، بقلم الصحفى الإسرائيلى (شابتاى تفيث) يعرض فيه وجهة نظر غير متعاطفة، لدرجة أنه قام فى مارس ١٩٨٢ بتشكيل لجنة تحقيق لتقصى الحقائق وقال رئيس

الوزراء لزملائه فى المجلس:

(إن القول بأن تسعة وأربعين عاماً قد مرت على تلك الأحداث، وأصبح من الصعب إعادة التحقيق فيها الآن، يعتبر من سبيل عدم الإدراك وتضليلاً للجمهور وتشويهاً للحقيقة، واستمراراً لترويج حملة التشهير الدموية ضد حركة صهيونية عظيمة وضد أفراد أبرياء، واستمراراً لظلم لم يسبق له مثيل فى التاريخ اليهودى فيما عدا ظلم غير اليهود لهم).

وأمر (بيجين) الذى أكد شعوره بمسئوليته التاريخية، بنشر المحاضر الكاملة للمناقشة التى دارت داخل مجلس الوزراء، وتناول بيجين المسألة وهو (يرتجف من الرهبة) وتأجلت جلسات لجنة الاستماع لمدة عام آخر نتيجة لحرب لبنان، وجدير بالذكر أنه لم يتبق على قيد الحياة من الشخصيات التى لها صلة مباشرة بقضية القتل سوى (زفى روزنبلات)، فقد قتل (ستافسكى) على ظهر السفينة (التالينا)، والتى كانت جماعة (أرجون زفاى ليومى) تنقل الأسلحة عليها، وذلك عندما قصفها الجيش الإسرائيلى من فوق نفس شاطئ تل أبيب الذى شهد الحادث.

وكان (بيجين) البالغ من العمر عشرين عاما، قد دافع بذاته، وبصفته من العناصر النشطة فى جماعة (بيطار) عن (جابوتنسكى) عندما تعرض لهجوم من بعض اليهود الذين قاموا بإلقاء الحجارة عليه، وقد سُئلت أمه فى (بريست ـ ليتوفسك) أثناء وجودها فى أحد محال البقالة: (لماذا يختلط ابنك، وهو الولد الطيب بأولئك القتلة؟) وكان (ستافسكى) صديق طفولة وجاراً لـ (بيجين) الذى أخذ مسألة براءته كقضية مسلمة، وقد قام (بيجين) بمواساة والدته (هاسيا بيجين) بقوله (لا تبتأسى، فأنت تعلمين أن (ابراشا) لم يقتل أحداً ولابد للحقيقة أن تظهر) واصطحب (بيجين) والدة (ستافسكى) لمقابلة (جابوتنسكى).

وقد كتب فى عام ١٩٨٢ يقول: (مازالت صرخاتها ورجواتها من (جابوتنسكى) لإنقاذ ولدها، ترن فى أذنى حتى اليوم وقد قبَّل (جابوتنسكى) يدها وانهمرت الدموع من عينى الأم، ولن تتمحى أبداً تلك الدموع من ذاكرتى).

وقد تعرضت الأقلية من حركة التصحيح فى فلسطين لنفس عملية الرفض الحادة التى تعرضت لها فى أوروبا - وان كانت قد أسفرت عن عواقب أكثر تأثيرا على الحياة اليومية - فقد خسر مثلا (يعقوب مريدور) وظيفته ومنزله نتيجة لذلك وكان (مريدور) الذى أصبح فيما بعد يشغل منصب نائب (بيجين) فى القيادة العليا لجماعة (أرجون) يعمل آنذاك عاملاً فى منطقة تل أبيب، وقد وصف هذه التجربة أمام مجلس الوزراء عام ١٩٨٢ عندما كان يشغل منصب وزير التنسيق الاقتصادى بقوله:

جاءنى صاحب الدار الذى كان عضواً عاملاً فى نقابة عمال الطباعة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى للجريمة وقال لى مؤكداً بلا أدنى شك، إنها جريمة سياسية، ولم يكن قد مر سوى ساعات قليلة على وقوعها، ومع ذلك بدا الجو العام يسوده شعور بقرب وقوع مذبحة سياسية.. وأمرنى صاحب البيت بعد انقضاء يوم بترك غرفتى وبدأت بعد ذلك أواجه متاعب فى العثور على عمل.

وقد واجهت أسرة (آرييل شارون) المقيمة فى (كفار ملال) وهى مزرغة تعاونية لصغار الملاك تتبع حركة العمل وقتاً عصيباً مماثلاً بعد أن احتج والداه على وصم (التصحيحيين) بالقتلة، فقال أمام مجلس الوزراء:

(أسفر الحادث عن وقوع صراع استمر عشرين عاماً وقد أخرجونى وأنا صبى من المدرسة المحلية، فل أستطع تلقى تعليمى هناك مظللنا طوال عشرين عاما، حتى بعد حرب الاستقلال محرومين من الحصول على الرعاية الطبية عن طريق الصندوق المحلى للمرض.. ولم نستطع تسويق منتجاتنا من خلال منفذ المزرعة التعاونية.. ولازلت أذكر والداى وهما يتناوبان الحراسة بجوار

الطريق لحماية إنتاجنا من محاولة أعضاء المزرعة التعاونية الآخرين إفساده.. لقد زرعنا وأنتجنا، وشب الأطفال وصارت الأمور على ما يرام فى النهاية.. ولكن تم كل ذلك فى خضم من الصراع المستمر يسوده كراهية لا تنتهى).

وقد ضاعف (ديفيد بن جوريون) وغيره من زعماء حركة العمل الصهيونية من اتساع الجراح عندما عقدوا مقارنة بين جابوتنسكى وهتلر ووصفوا أعضاء حركة التصحيح باليهود النازيين، وكان (بيجين) واثقاً من أن هذا الشقاق ساهم كثيراً فى اتساع نطاق (آرلوسورف).

وكان يؤكد أنه لولا موجة الكراهية التى أثارتها قضية (آرلوسورف) لتمكن جناحا الحركة الصهيونية من تجميع جهودهما فى سبيل العمل من أجل تهريب المهاجرين من أوروبا إلى فلسطين بالطرق غير المشروعة، ولربما أمكن إنقاذ عشرات الآلاف من اليهود.

وقد ألقى الفتى (بيجين) أول خطاب عام له عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره من فوق منضدة بالحديقة العامة فى (بريست - ليتوفسك).

وكانت المناسبة هى إحدى الاحتفالات الصهيونية التى ينظمها والده كل عام احتفالاً بعيد (لاج باعومار) (عيد ١٨آيار)، ولم يكن الخطاب واحداً من خطب (بيجين) الناجحة، ولكنه سرعان ما أصبح واحداً من الخطباء المعتادين فى الاجتماعات السنوية التى تقام إحياءً لذكرى (هيرتزل)، وقد استمع أهرون زفى بروبيز الذى كان يرأس الفرع البولندى لجماعة (بيطار) إلى (بيجين) - الذى كان فى الثامنة عشرة آنذاك - وهو يلقى إحدى خطبه فى عام ١٩٣١ ويقول بروبيز: (لقد كان رائعاً وأدركت لحظتها أن شاباً يتمتع بمواهب نادرة يقف أمامنا)، إن شهادة (بروبيز) هذه تتسم بشهامة خاصة، فبعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ نحى بروبيز جانباً ليفسح المجال لربيبه وقد وصل (بيجين) إلى قيادة منظمة (بيطار) فى حى (بريست) بينما كان لايزال فى مرحلة الدراسة الثانوية، وعندما التحق بجامعة وارسو لدراسة

القانون اختاره بروبيز لعضوية اللجنة العليا (للبيطار) وقال عنه (بروبيز) حينذاك إنه منضبط ومحبوب من زملائه، ويتمتع بالطموح.

وقد سيطرت على جماعة (البيطار) مثلها فى ذلك مثل (حركة التصحيح) التى انبثقت الجماعة عنها آراء (جابوتنسكى) وأسلوبه وشخصيته وقد تبعه (بيجين) فى أنحاء أوروبا مستمعاً إلى خطبه، دارساً أسلوبه، مستوعباً لمبادئه، وكانت الحركة الشبابية لا تخفى ميولها العسكرية، فكان أعضاؤها يتدربون ويرتدون زياً عسكرياً ويقول (ديفيد جونان) وهو أحد معاصرى (بيجين) : (لقد غرس جابوتنسكى فينا ضرورة أن نتعلم كيف نطلق النار)، وكان (بيجين) بصفته المسئول الأعلى عن تنظيم (بيطار) فى بولندا يجوب أنحاء البلاد ويلقى الخطب مداهناً وساعياً لاجتذاب أعضاء جدد، وبلغ عدد أعضاء الحركة بحلول عام ١٩٣٩ ٧٠ ألف عضو موزعين على ٧٠٠ فرع.

ويؤكد يسرائيل الداذ وهو أحد المعاصرين لـ (بيجين) فى جماعة (بيطار) والذى أصبح فيما بعد فيلسوف (عصابة شتيرن) والناقد اليمينى العريق لبيجين:

(إن كلماته مهما بدت فى اليوم فإنها لم تكن مجرد كلمات خطابية جوفاء بالنسبة ليهود بولندا، لقد كانت تعبيراً دقيقاً عن مشاعر الشعب اليهودى، ولم يكن أحد يتساءل آنذاك عن تكاليف إقامة دولة يهودية، إنها كانت من وجهة نظرهم مسألة عادية خاصة بجمهورية تملك الملايين وعندما كان المرء يتكلم عن الجندى اليهودى فإنما كان يعبر عن مُثل عليا، فاليهودى كان يلتحق كجندى فى الجيش البولندى، فى الوقت الذى كان يكره فيه بولندا ولكن عندما كان (بيجين) ينطق بتعبير (جندى يهودى) كان الناس يشعرون بالفخر، فقد كانوا يرغبون فى ذلك من أعماق قلوبهم، وكانت جماعة (الارجون) قد بدأت تمارس نشاطها فى فلسطين، وفى بولندا عندما كان المرء يتحدث عن الانتقام وعن انتهاء المذابح كان الشعور بالفخر يسيطر على الأولاد اليهود، وكان الشباب مستعداً للمعاناة والتضحية من أجل المُثل العليا،

فالشباب لا يتمتع بالصبر، وقد أتاحت لهم منظمتا (بيطار) و(الارجون) فرصة انتهاج الطريق الثورى، لقد فتحتا الطريق أمام مئات الألوف الذين لم يكن أمامهم سبيل آخر.

وأدى نجاح (بيجين) فى تنظيم الشباب البولندى داخل (البيطار) إلى قيام (جابوتنسكى) بإيفاده إلى تشيكوسلوفاكيا، حيث كانت الحركة صغيرة وضعيفة وبدأ (بيجين) يعمل من أسفل إلى أعلى، ووفقاً لأقوال (بروبيز) كان يكتفى بتناول وجبة واحدة فى اليوم، وكان ينام أحياناً فوق المقاعد الخشبية بالحديقة العامة، لقد كان يعمل فى إخلاص دون أن يكل أو يشكو، ويقول (بروبيز) متذكرا : (لقد أصيب فى إحدى المرات أثناء وجوده فى وارسو بالتهاب رئوى، ونقلته زوجتى التى كانت تمرضه إلى إحدى دور النقاهة فى (أوتوك) حتى يسترد صحته، وعندما اتجهت لزيارته بعد يومين وجدته قد خرج وعاد إلى العمل على الرغم من ضعفه الشديد، فالعمل كان يعنيه أكثر من أى اهتمامات شخصية أخرى.

وأثناء إحدى جولات (بيجين) دعا الدكتور (ليون ارنولد) المحامى والعضو البارز فى (حركة التصحيح) فى بلدة (دروبيز) البولندية الصغيرة إلى العشاء فى منزل حماه (زفى ارنولد) وهناك التقى بيجين بابنتى (زفى ارنولد) التوأم (أليزا) و(ليا) والبالغتين من العمر آنذاك سبعة عشر عاما، وقد عمل (بيجين) لبضعة أشهر - وقبل عودته إلى وارسو لتولى رئاسة حركة (بيطار) البولندية - ككاتب لدى محام كبير بتلك البلدة، وتقابل (بيجين) و(إليزا) فى المعبد اليهودى الكبير (بدروبيز)، حيث ارتدى كل من العريس والعروس الزى العسكرى لحركة (بيطار) ذا اللون البنى، وإن كان قد ارتديا بعد ذلك الملابس المدنية فى الحفل الذى أقيم لوداعهما فى رحلة شهر العسل، حيث ارتدت (اليزا) معطفا أنيقا يصل إلى الركبة وقبعة ملفتة للأنظار، بينما ظهر (مناحم) المائل إلى النحافة والذى كان يلبس نظارة طبية على عينيه، فى

بالطو واقٍ من المطر، لونه شاحب يخفى تحته تفاصيل جسمه، وكانت العروس فى التاسعة عشرة من عمرها، بينما كان العريس فى الخامسة والعشرين، وجاء (جابوتنسكى) من باريس بالقطار لحضور حفل الزواج، ولقد استطاع (مناحم) إتمام هذا الزواج الذى دام حتى وفاة (أليزا)، بعد ثلاث وأربعين سنة من ذلك التاريخ، تخطى كل الأزمات الناجمة من الفراق والنفى والمخاطر، والمشاكل السياسية الإسرائيلية وقد شاركت (اليزا) زوجها فى تمكسه بمعتقداته وعناده، ولكنها كانت راضية بالبقاء فى الظل إلى جواره ولم تكن - إلا فى النادر - لتغفر لأحد يثير غضبه أو يخونه، وقد رزقا بثلاثة أبناء، ولد وابنتين جميعهم من مواليد إسرائيل، وقد هلكت الأخت التوأم لإليزا فى الهولوكست تماماً مثل معظم أفراد أسرة (مناحم).

وعلى الرغم من أن (بيجين) كان سعيداً بالجلوس عند أقدام (جابوتنسكى) فإنه لم يكن مجرد واحد من متملقيه، بل إن التلميذ اصطدم و(المعلم) فى مناسبتين مشهورتين، فقد احتج (بيجين) أثناء انعقاد المؤتمر العالمى السادس (لحركة التصحيح) فى يناير ١٩٣٥ بمدينة كراكاو، على محاولات (جابوتنسكى) ذاته.

وقال (بيجين): (ربما تكون قد نسيت أن (بن جوريون) نعتك فى إحدى المناسبات بـ فلاديمير هتلر ولكننا لم ننس).

ورد عليه جابوتنسكى بحدة قائلا: (أنا لن أنسى أبدا رجالا من أمثال بن جوريون وبن زفى والياهو جلومب لقد ارتدوا فى يوم من الأيام الزى العسكرى للفيلق اليهودى وأنا واثق من أنهم لن يترددوا لو دعت القضية اليهودية إلى ذلك، فى ارتدائه مرة أخرى وأن يقاتلوا تحت لوائه.

ولو حدث ائتلاف فرننا سنترفع عن إثارة الخلافات التافهة، فنحن جميعا قد أظهرنا تمسكنا القوى بوطنيتنا الصهيونية).

وقد جاء التحدى الثانى والأكثر خطورة أثناء المؤتمر العالمى الثالث (البيطار) الذى انعقد بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين فى وارسو، فقد تعرضت الحركة آنذاك لشقاق هام بين أعضاء جماعة (أرجون زفاى ليومى) ذات الميول العسكرية والموجودين فى فلسطين والذين كانوا يضغطون من أجل انتهاج سياسة انتقام ايجابية ضد الهجمات العربية على اليهود، وبين (جابوتنسكى) الذى كان يعترض بشدة على مثل هذا الارهاب المضاد.

وكانت جماعة (أرجون) تواقة إلى شن حرب ضد البريطانيين، أما (جابوتنسكى) فكان لا يزال يؤمن بوجود قوى بريطانية من نوع آخر يمكن إقناعها باعتبار القضية اليهودية جزءاً من المصلحة الحقيقية للامبراطورية، وكانت جماعة (أرجون) قد قامت بتنظيم خلايا خاصة بها داخل حركة الشباب اليهودى البولندية (البيطار البولندى) وفتحت مكتباً سياسياً فى سويسرا، وأقامت الجماعة معسكرات للتدريب العسكرى فى بولندا بالتعاون مع الجيش البولندى، الذى أغرته فكرة ترحيل مئات الآلاف من اليهود بالسفن للقتال فى فلسطين وبذلك يتم حل المشكلة اليهودية فى بولندا (حيث كانت الطائفة اليهودية التى تضم ٣,٥ مليون يهودى تشكل فى أواخر الثلاثينيات ١١٪ من السكان وربما كانت هذه إحدى المرات النادرة التى اهتم فيها (جابوتنسكى) بالتكتيك بقدر اهتمامه بالمبدأ، فقد كان يريد الاحتفاظ بالنشاط المشروع لكل من حركتى (البيطار) و(التصحيح) بعيدا عن العمليات السرية لجماعة (الأرجون)، وذلك على الرغم من أنه كان الزعيم المعين لكل من الجناحين السياسى والعسكرى للحركة، وحاول (بيجين) الذى كان ينحاز إلى العناصر الثورية النشطة وان كان يريد تجنب الدخول فى معركة بأنه يجب الجمع بينهما معاً تحت سقف واحد، فلابد لجماعة (الأرجون) من أن تعمل من خلال (منظمة بيطار).

وعندما طرحت المسألة للمناقشة بمؤتمر وارسو الذى انعقد خلال شهر

سبتمبر ١٩٣٩ انتظر (بيجين) حتى حضر (جابوتنسكى) قبل أن يلقى كلمته.

وقال إن الحركة الوطنية الإسرائيلية بدأت من خلال الصهيونية العملية ثم الصهيونية السياسية، وإنهم يقفون الآن على مشارف الصهيونية العسكرية التى ستندمج فى نهاية الأمر والصهيونية السياسية، وذكر أن المسألة يمكن مقارنتها بما حدث بين (كافور) و(غاريبلدى) فما كان (كافور) لينجح فى تحرير إيطاليا بدون (غاريبلدى)، ولقد قاطع (جابوتنسكى) (بيجين) مراراً مذكراً إياه بأن اليهود يفتقرون فى وطنهم إلى القوة العسكرية البشرية.

ورد عليه (بيجين) بقوله إنه يجب عليهم الوقوف فوراً فى وجه الخطط البريطانية الرامية إلى إيجاد دولة فلسطينية تتمتع بأغلبية عربية وذلك بصرف النظر عن الأعداد والنتائج.

وأعلن: (حتى لو سقطنا فإنه يكفينا أننا قاتلنا)، كانت مثل هذه الإيماءات هامة جدا بالنسبة له، وطالب بيجين بتغيير عبارة (سأشحذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى، ولن أحمله إلا فى سبيل الدفاع) بعبارة (سأشحذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى، ومن أجل الاستيلاء على وطنى) وجادل بأنهم كانوا يتوقون دائماً إلى القوة، هذه القوة أصبحت موجودة الآن، وأضاف: هناك ملايين الأشخاص ليس لديهم شىء يخسرونه، ومهمتنا تنحصر فى استخدام القوة الكامنة فيهم، وتمت الموافقة على التعديل بعد تردد من جانب (جابوتنسكى) ولكن ليس قبل أن يوجه الزعيم هجومًا مضادًا ساحقًا ضد السياسى الشاب المبتدئ، حيث قال:

(إن ثمة أنواعاً كثيرة من الأصوات.. ونحن نتحمل ضجيج الماكينات والعربات وما إلى ذلك، ولكن لا يمكن أن نتحمل صرير الأبواب لأنه لا يعود علينا بأى فائدة، والخطب الرنانة والتصفيق تشبهان صرير الأبواب، ليس لها فائدة أو منطق، ولا يوجد فى (البيطار) مكان لمثل هذه الثرثرة، وأحيانا تكون هذه الأصوات مسلية، ولكن يجب علينا أن نحذرها، وتعتبر الكلمات التى

قالها مستر (بيجين) من هذا النمط الأخير، ويجب علينا أن نكبت مثل هذه الأصوات بكل قسوة).

لقد وضع (جابوتنسكى) كل ثقته فى الضمير الحى للعالم، نظرا لعدم ثقته الكافية فى استعداداته العسكرية.. وأراد أن تقوم الدول الغربية بتوفير جنة فى فلسطين لآلاف اليهود المهددين فى أوروبا، وسخر (بيجين) من هذا التفكير لأستاذه القديم، وقد رد عليه (بيجين) بكل حدة خلال نفس الشهر الذى كان (نفيل تشامبرلين) يتفاوض فيه مع (هتلر) فى ميونيخ من أجل التوصل إلى سلام وهمى يسود عصرنا، حيث أعلن العضو البارز فى منظمة (بيطار) والبالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً: (لقد مات ضمير العالم، ولم تعد لعصبة الأمم أى قيمة، وشريكنا البريطانى يقودنا إلى المشنقة ويلقى فى السجن بأفضل أفراد أمتنا)، ورد عليه (جابوتنسكى) بقوله إنه إذا كان هذا هو ما يشعر به (بيجين) فمن الأفضل له أن يغرق نفسه فى نهر الفستولا.

ويؤكد (يوحنا بادر) - وهو محام بحركة (التصحيح) عاش فى الجيل الوسط بين جيلى (جابوتنسكى) و(بيجين) - أنه بالرغم من شعور الغضب الذى انتاب الزعيم فإنه (سعد واغتبط) لمواجهة (الصبيان) له، وثمة روايات متناقضة حول رأى (جابوتنسكى) فى (بيجين).

فقد قيل مثلاً إنه اختاره خليفة له، ولكن من جهة أخرى، تردد أنه كان يحتقر تزمت (بيجين) والذى يشبه تزمت أبناء الأقاليم، وكذلك تقواه المفرطة لقد كان (جابوتنسكى) بعيداً تماماً عن هذا الجانب من التقاليد اليهودية حتى أنه كتب فى وصيته يقول: (أريد أن يدفن جثمانى أو يحرق - فالأمر سيان بالنسبة لى - حيثما يلحق بى الموت)، ولم يزعم (بيجين) فى أى وقت وجود علاقة وثيقة بينهما، فقد كان يدرك تماما مدى الاختلاف بينهما فى السن والمكانة، وكان من الواضح أن (جابوتنسكى) كان يقدر (بيجين) كشخص قادر على التنظيم وكمرءوس موهوب، ولكن لم يكن هناك أى دليل على أنه يحاول صقله ليصبح خليفة له.

وانتهى مؤتمر وارسو بانتصار الشباب، وتم تجنب الشقاق بين جماعتى (البيطار) و(الأرجون)، وفى ابريل سنة ١٩٣٩ تم تنصيب (مناحم بيجين) رئيساً (لمنظمة بيطار) البولندية، التى كانت بمثابة محطة توليد الطاقة بالنسبة للحركة الدولية، وذلك بدلاً من (بروبيز) الذى ترك منصبه فى هدوء تام، وقد أعلن الأتراك الشبان بلا رحمة أن (بروبيز) ممتاز بالنسبة للشئون الثقافية والمؤتمرات، ولكن ليس بالنسبة لخوض المعارك وتولى الشئون السياسية وقد أسس فيما بعد (مهرجان إسرائيل)، الذى ظل يشرف عليه حتى وفاته عام ١٩٧٨، واحتفل (بيجين) بترقيته بأن تزعم مظاهرة ضد فرض قيود على الهجرة اليهودية، وأتاح البوليس البولندى له أول فرصة لتجربة حياة السجن، وأطلق سراحه بعد ثلاثة أسابيع، وهو حليق الرأس ولكن كانت وارسو والعالم بأسره مشغولا حينذاك بأمور أخرى أكثر أهمية.

■ ■ ■

الفصل الثالث

هروب واعتقال

لم تكن المسألة التى تواجه يهود أوروبا إبان صيف عام ١٩٣٩هى هل ستقع الحرب؟، بقدر ما كانت متى ستقع؟، وكان الاهتمام الأول للحركة الصهيونية بجناحيها هو عملية انقاذ أكبر عدد ممكن من يهود ألمانيا فى أعقاب قرارات نورمبيرج، وإن لم يكن قرار الحل النهائى قدر صدر بعد، ولم تعد تنبؤات (جابوتنسكى) بقرب وقوع الهلاك تبدو وكمحاولة لإثارة الذعر.

ولم يعد النداء الذى وجهه إلى كل يهودى لأن ينجو بنفسه طالما كانت هناك فرصة يقع على آذان صماء، ولكن كانت الحواجز قد بدأت تقام والحدود تغلق.

وقبل يومين اثنين من غزو (هتلر) لبولندا، عاد (مناحم بيجين) إلى وارسو بعد أن رافق قافلة تضم ألفاً من المهاجرين (غير الشرعيين) تابعين لمنظمة (بيطار) حتى حدود رومانيا، وكان يسيطر عليه شعور بالإحباط، حيث إن رومانيا كانت تسمح حتى تلك اللحظة بمرور اليهود المتجهين إلى فلسطين عبر أراضيها، ولكن بعد التوقيع فى موسكو على اتفاقية مولوتوف - ريبنتروب فى ٢٢ أغسطس لم يعد فى وسع الرومانيين تحمل المخاطر نيابة عن الغير، وتشتت جماعة المهاجرين من أعضاء (البيطار)، وعادوا إلى ديارهم، ولقى معظمهم حتفه فى معسكرات الموت أو بين صفوف رجال المقاومة البولندية.

وعندما دخل الجيش الألمانى بولندا فى أول سبتمبر من ذلك العام كان رد الفعل التلقائى لـ (بيجين) منبعثاً من مشاعره كمواطن بولندى وكيهودى

فى الوقت ذاته، ويسترجع يزرائيل ايلداد أحداث تلك الفترة قائلا دعا بيجين قيادة منظمة (بيطار) للاجتماع وطلب منا تحصين وارسو وحفر الخنادق، وقال لنا إن علينا أداء واجبنا كمواطنين بولنديين وأن نلتزم بالقوانين، وجاء إلى مكتب البيطار فى اليوم التالى الشاعر يور زفى جرينبرج من (حركة التصحيح) واندهش للمشهد الذى رآه أمامه فصاح قائلا: ماذا تفعلون؟ إن الروس قادمون.. ويوجد لدى جماعة ارجون جوازات سفر فخذوها واذهبوا، وذهب (بيجين) و(ديفيد جوتان) لمقابلة جنرال بولندى وعرضا عليهم تشكيل كتيبة يهودية لتقاتل مع الجيش البولندى ضد الألمان غير أن رده لم يكن مشجعاً وعندئذٍ فقط بدأ (بيجين) وغيره من قادة (بيطار) يغادرون (وارسو) فى جماعات صغيرة، وكانت قنابل الألمان قد بدأت تتساقط على العاصمة.

ورحل (بيجين) وزوجته (أليزا) بصحبة (ناتان يلين - مور) وزوجته (فريدا) اللذين كان قد تم زواجهما فى ٥ سبتمبر بواسطة الحاخام الأكبر شلومو دافيد كاهانا، آخر حاخامات وارسو وقد شهد (بيجين) وزوجته على عقد الزواج حيث كان (يلين - مور) واحداً من زملاء (بيجين) فى اللجنة العليا لمنظمة بيطار، وقد أصبح (ناتان يلين - مور) فيما بعد واحدا من الثالوث الذى قاد الحملة الارهابية التى شنتها (عصابة شتيرن) ضد الانتداب البريطانى، وعندما أحكم إغلاق المصيدة أخذوا يروحون جيئة وذهاباً سواء بواسطة القطار أو العربات التى يجرها الخيل، أو على الأقدام ويختبئون لدى الموالين لحركة (البيطار)، وهم يتحاشون القاذفات الألمانية ويتجنبون الدبابات السوفيتية القادمة، وسادت الفوضى والشائعات، واحتشدت الأسر اللاجئة على جانبى الطرق واكتظت بهم القطارات وبدأ القصف يسجل أول إصابات بين المدنيين الذين أصبحوا يبدون فى حالة من الانكسار يرثى لها، وكتب (بيجين) يقول فيما بعد: (كنا ننام ونحن نسير، كنا ننام أثناء سيرنا على أقدامنا)، واحتجز الروس (بيجين) لفترة وجيزة عندما اتهمته امرأة يهودية

بأنه مدين لها بمبلغ من المال كانت قد دفعته له ليساعدها على الهرب عن طريق رومانيا، وسدد الدين واشترى حريته.

ورفض الرفاق الأربعة الذين أصبحوا يعانون من الإعياء الشديد الإلحاح عليهم بالبقاء فى مكان واحد، حتى يمكن لأعضاء منظمة (البيطار) رعايتهم، وإن كانوا قد شعروا بامتنان لتمكنهم من الاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية مع بعض الأصدقاء، واستطاعوا أن يصلوا فى النهاية وبعد أن أمضوا سبعة أسابيع على الطريق إلى مدينة (فيلنا) التى كانت مركزًا هامًا للتعليم والمشروعات اليهودية، وكان الروس قد استولوا على الجزء الشرقى من الأراضى البولندية وأعلنوا (فيلنا) عاصمة لإقليم (ليتوانيا الحرة) واجتمعت قيادة منظمة (البيطار) البولندية بكامل هيئتها فى (فيلنا).. وسرعان ما انضم إليهم الآلاف من أعضائها، وأخبرهم (بيجين) أن (ليتوانيا) ستوفر لهم سبيل الخروج إلى فلسطين، واستأجرت المنظمة منزلاً وبعثت بأفرادها للبحث عن مراكب لنقلهم عبر بحر البلطيق، ويعترف بعضهم عند استرجاعهم للماضى، بأنهم كانوا سذجاً، فقد كان من المستحيل أن تدوم حرية (ليتوانيا) ولكن كانت (فيلنا) تعتبر آنذاك رمزًا للأمل.

وقد تعرضت مصداقية قادة منظمة (البيطار) للاختبار عندما وصلتهم رسالة من (شيجثون جوليتزمان) رئيس حركة الشباب فى فلسطين، يبلغهم فيها أولاً بأن (أفراهام شتيرن) قائد أكثر أجنحة جماعة (أرجون زفاى ليومى) عنفا قد قرر (العمل بمفرده) ومن ثم، ومنذ تلك اللحظة أصبحت هناك قوتان سريتان تعملان من أجل تحقيق (الحق اليهودى) جماعة (أرجون زفاى ليومى) أو (المنظمة العسكرية الوطنية) التى أصبحت تعرف باسمها المختصر (ايتزيل) المكون من الحروف الأولى لاسم المنظمة العبرية وعصابة شتيرن «المحاربون من أجل تحرير إسرائيل، ـ لوهامى هيروت يسرائيل (بالعبرية واختصارا «ليهى»، والأمر الثانى الذى أبلغهم به فى رسالته وهو الأمر الأهم بالنسبة لـ (بيجين)

ورفاقه فى فيلنا هو أن كثيرين هنا (فى فلسطين) يعتقدون أنه لا يجب على القبطان أن يغادر السفينة طالما ظلت طافية، وفهم (بيجين) بحساسيته المفرطة إزاء مسألة الكرامة تماما مثل حساسية (جابوتنسكى) - أن المقصود بهذه العبارة هو اتهامه ورفاقه بالتخلى عن عشرات الآلاف من أعضاء منظمة (بيطار) الذين كانوا لا يزالون موجودين فى بولندا.

ويسترجع يسرائيل الداد هذه الواقعة فيقول: (لقد استدعانا (بيجين) وقال لنا إنه ربما كان (جونيتزمان) على حق، وأنه يريد أن يعود إلى وارسو ولكننا قررنا فى النهاية عدم العودة، وكانت حجة عدم العودة هى أن جبهتنا أصبحت موجودة الآن فى فلسطين، التى هى وطننا الأم، ولم يعد هناك ما نفعله فى بولندا وقد أصبح من المستحيل العمل هنا من أجل ترحيل مزيد من أعضاء (البيطار) إلى فلسطين ولذلك فقد استدعيناهم إلى (فيلنا) لإخراجهم عن طريقها.

وكان (ديفيد جوتان) واثقا من أن بقاءهم فى (فيلنا) كان أفضل كما كان يرى أن تفكير (جونيتزمان) خاطئ ويقول:

أولاً كنا نعتقد أن الانتقال إليها إنما كان مؤقتاً، وكنا على ثقة من أن الجيش البولندى بمساندة البريطانيين والفرنسيين سينتصر، وكانت حجتنا هى أن (ليتوانيا) ليست سوى دولة يمكن تدبير الخروج منها، وكنا هناك على صلة بالعالم الحر، وأرسلنا برقيات إلى الولايات المتحدة - إلى منظمة بروبيز وغيرها من المنظمات - للضغط من أجل منحنا تأشيرات وتصاريح هجرة لأكبر عدد ممكن من أعضاء (البيطار)، وكنا فى حاجة إلى تواجدنا فى مكان يمكن للبريطانيين أن يرسلوا إليه تصريحات للهجرة المشروعة.

وكنا قد قمنا بأنفسنا كذلك بتزوير عدة تصريحات فإن الحصول على تأشيرة خروج من (ليتوانيا) كان يستدعى على الأقل تقديم خطاب يفيد بأن لديك تصريحاً بالاتجاه إلى مكان آخر، ولذلك فقد قمنا بتزوير مثل هذه

الخطابات، كما أن القنصلية الهولندية فى (فيلنا) كانت تمنح تأشيرات للذهاب إلى (كوراكاو) وعندما أُغلقت القنصلية قمنا بتزوير التأشيرات وكان اليابانيون أيضا يمنحون تأشيرات خروج.

وقد سكت الروس عن كل هذه الأنشطة لأنهم كانوا يحتاجون إلى العملة الأجنبية، وكانت اللجنة المشتركة (لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة) تزودنا بالمال اللازم، وكنا فى حاجة إلى قاعدة وكانت (فيلنا) قاعدة مناسبة يمكننا العمل من داخلها، وكذلك كنا نجرى اتصالات مع الصيادين (الليتوانيين) فى ميناء (بالانجا) وقد منحناهم النقود لأننا كنا نعتقد أنهم يستطيعون نقل الأشخاص بزوارقهم إلى السويد.

والذى حدث أن الحرب لم تنته بسرعة، كما ثبت أن قرار البقاء فى (فيلنا) كان غاية فى الأهمية، فإن منظمة (البيطار) كانت تمثل الحركة الصهيونية البولندية الجماعية الوحيدة التى بقيت لتواجه الحل النهائى بدون قيادة، ويذكر المؤرخ الإسرائيلى (يهودا بوار) الذى كان من أوائل مؤرخى (الهولوكست) أن هذه الحقيقة هى السبب الأساسى وراء ما يصفه (بعقدة الهولوكست) التى يعانى منها (بيجين) أو شعوره بالذنب لأنه بقى على قيد الحياة، وقد كتب (بوار) يقول: (إن عددًا كبيرًا من الناجين ممن يمرون بتجارب مماثلة يعانون من شعور عميق بالذنب، بيد أن مثل هذا الاحساس بالذنب ليس له أى مبرر من وجهة النظر المنطقية، وتقدم لنا نظرية البروفيسور (بوار) تفسيراً مقبولاً لتسلط (الهولوكست) على تفكير (بيجين) والذى أدى به إلى إرسال خطاب أثناء حصار الجيش الإسرائيلى لبيروت فى أغسطس عام ١٩٨٢، إلى الرئيس (رونالد ريجان) جاء فيه (إنى أشعر هذه الأيام وكأننى رئيس وزراء يملك سلطة توجيه جيش باسل يقف فى مواجهة (برلين)، حيث يختبئ (هتلر) وحاشيته فى مخبأ عميق تحت سطح الأرض وسط المدنيين الأبرياء.

وقد ذكر باحث آخر فى دراسة له عن (الهولوكوست) وهو زئيف مانكوفيتز أن هذه المقارنة التشبيهية تعتبر مضللة وخطيرة.

فكتب يقول:

إن حرب النازى ضد اليهود لم يكن لها أساس واقعى، وقد نبعت من كراهية بلا سبب وخوف من (اليهود) بصفتهم قوة شيطانية تعمل من أجل فرض سيطرتهم على العالم، والحقيقة الرهيبة هى أن الشعب اليهودى كان ضحية للهلوسة، بيد أن الشعب الفلسطينى هو الشعب الحقيقى، وتطلعاتهم القومية حقيقة واقعة، كما أن لهم أهمية رمزية حقيقية فى العالم العربى، وبالمثل فإن التعاطف والاعتراف السياسى الذى كسبه هذا الشعب فى أنحاء العالم يعتبر حقيقة ملموسة.

وكما عرفنا فإن (بيجين) دافع فى عام ١٩٣٩ عن فكرة الرجوع إلى وارسو، ومع ذلك (يسرائيل الداد) يعتبر واحدا من الذين يشكون فى أنه كان يعنى ما يقول فعلا، فإن (بيجين) كان يملك آنذاك نفس القوة والمكانة اللتين كانتا تمكنانه فى مناسبات أخرى من فرض رأيه على زملائه، هذا إذا كان هو يرغب فى ذلك.

ويقول الداد: (أنا لا أعرف حتى الآن ما إذا كان جادا فيما يقوله أو أنه كان مجرد إيماءة، مجرد مشهد تمثيلى، فلطالما شاهدناه يفعل ذلك حتى يومنا هذا، وأنا لا أعرف ما إذا كان يريد فعلا العودة إلى وارسو).

هذا وقد وجد قادة حركة (بيطار) البولندية وقتاً كافياً فى ربيع سنة ١٩٤٠، وبالرغم من مشاغلهم العملية لمناقشة مسألة أوسع نطاقاً كانت تمزق حركة (التصحيح) هل يوقفون مؤقتاً النضال ضد الحكم البريطانى فى فلسطين طالما ظلت بريطانيا تشن حرباً ضد النازى؟ أم هل يؤيدون سياسة (بن جوريون) التى تدعو إلى الاشتراك فى الحرب وكأن (الكتاب الأبيض)

الذى يفرض قيوداً على الهجرة اليهودية، لم يصدر، مع محاربة «الكتاب الأبيض» وكأن الحرب غير قائمة؟، وقد أصدر (جابوتنسكى) أوامره إلى (الارجون) بوقف النضال، ورضخ (دافيد رازئيل) قائد قوات (الأرجون) فى فلسطين للأمر ووفقا لأقوال (الداد) فإن (بيجين) أدان عملية وقف القتال باعتبار أنها بمثابة خيانة للقضية اليهودية، وكان يعارض وقف القتال.

وقاد (الداد) حملة فى مجلة (بيطار) التى كان يرأس تحريرها فى (فيلنا) من أجل (الحياد العدائى) ما لم يمنح البريطانيون اليهود جيشاً خاصاً بهم تحت راية نجمة داوود، ويتفق موقف بيجين هذا والموقف الذى اتخذه فى المؤتمر العام لمنظمة (بيطار) ولكنه عندما أعلن الحرب ضد الانتداب البريطانى بعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ ترك انطباعاً بأن دوافع اتخاذه لهذا القرار كانت أكثر من مجرد استجابة لمأساة يهود أوروبا عام ١٩٤٤.

وقامت جماعة البيطار فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٠ بتنظيم اجتماع فى الجامعة البولندية (بفيلنا) - والتى كانت تشتهر بأنها مستوقد للعداء ضد السامية - للاحتفال بثلاث مناسبات: إحياء ذكرى وفاة (تيودور هيرتزل) أبوالصهيونية السياسية، ووفاة (حاييم ناخمان بياليك) شاعر الأحياء العبرى، والذكرى الخامسة عشرة لإنشاء الجامعة العبرية فى القدس، وكان من المقرر أن يلقى بيجين كلمة فى تكريم هيرتزل، ولكن حدث فى منتصف الاجتماع، الذى حضره آلاف الطلبة اليهود أن مُرِّرت ورقة إلى المنصة وجاء فى المذكرة: (لقد دخلت الدبابات الروسية المدينة).

وشحب وجه الأستاذ الذى كان يتكلم عن الجامعة العبرية واقترح أن يرحلوا جميعا بأسرع ما يمكن، ووقف (بيجين) معلنا: (سنواصل عقد الاجتماع حتى نهايته وسنختمه بالنشيد القومى (هاتيكفا)، وهب الحاضرون وانطلقوا يرددون النشيد القومى الصهيونى، ويقول (يسرائيل الداد): (لن أنسى أبدا تلك المرة التى رددنا فيها (الهاتيكفا) لقد ظننا جميعا أن هذه هى آخر مرة سننشد فيها (الهاتيكفا) بأوروبا.

وأدرك قادة (البيطار) آنذاك أن الوقت بدأ ينفد، فإن الكرملين لم يكن بصديق للصهيونية، التى كان يحتقرها بصفتها (انحراف قومى) عن الطريق الثورى، كما أن (ستالين) كان لازال الحليف القلق لهتلر، ولكن لم يكن لدى (بيجين) ورفاقه ما يردون به سوى أن يواصلوا ما كانوا يقومون به، ويستمروا فى البحث عن منافذ لتهريب أتباعهم عبرها، وكانت (منظمة بيطار) تحتفظ بسجل لبطاقات عضوية أفرادها الموجودين (بفيلنا).

وعندما وصل الروس قام أحد الشبان ـ ممن تولوا فيما بعد منصباً رفيعاً بدولة إسرائيل ـ بسحب بطاقته حتى لا ينكشف أمره.. ففصله بيجين من البيطار على الفور.

وتلقى أعضاء حركة التصحيح فى ذلك الصيف لكمة مزدوجة، فلم يكد يمر أسبوع على دخول الدبابات السوفيتية إلى ليتوانيا، مما أنهى استقلالها الهش، حتى توفى (فلاديمير زئيف جابوتنسكى) فى الولايات المتحدة.

وخاطر (بيجين) بحريته حيث اتجه إلى (كوفنو) لإلقاء مرثية بالمعبد اليهودى الرئيسى هناك، ثم توفى بعد شهر من رحيل (جابوتنسكى) أحد الأحبار البارزين فى (فيلنا) واشترك خمسة عشر من أعضاء البيطار فى جنازة الحبر التى اشترك فيها الآلاف من أعضاء الطائفة (الحاسيدية المتطرفة) وانسلخوا من الجنازة واتجهوا إلى قبر شاب من المنظمة مات نتيجة للبرد القارس وإصابته بالغرغرينا أثناء محاولته الوصول إلى فلسطين.

وأقام (بيجين) صلاة الجنازة عليه وألقى كلمة قصيرة ثم رددوا جميعا نشيد (البيطار) بما يتضمنه من إعلان الإيمان بأن إسرائيل سوف تقوم من بين الفساد والرماد، غير أن (بيجين) تأثر بوفاة معلمه بدرجة أكبر مما حاول أن يبديه.

وقد لفتت تصرفاته ـ التى تنطوى على التحدى ـ أنظار البوليس السرى السوفيتى إليه، وتم استدعاء عضو بالبيطار إلى مقر القيادة وسئل عما إذا

كان يعرف (بيجين) وعندما رد بالإيجاب قال له الضابط: (لقد ألقى كلمة رائعة بالمقابر أليس كذلك)؟، وكان (ديفيد جوتان) من أهالى (فيلنا) وقد درس بجامعتها، وفى أحد الأيام أبلغه أحد معارفه القدامى بأنه وزملاءه ضمن القائمة التى وضعها الروس بأسماء المطلوب القبض عليهم، وقام البوليس السرى السوفيتى بزيارة منزل والديه، بيد أن (جوتان) كان قد ذهب على سبيل الاحتياط، إلى مكان آخر لينام فيه، وبذلك أخذ زعماء (البيطار)، حذرهم وانتقلوا من (فيلنا) إلى قرية (بافيلنيوس) القريبة، حيث قاموا بتأجير غرف متفرقة فى بيوت الفلاحين.

وتلقى (بيجين) قبل مغادرتهم المدينة مباشرة استدعاءً للحضور إلى الغرفة قم ٢٣ فى مبنى مجلس مدينة (فيلنا) بشأن موضوع (الطلب الذى تقدمتم به) وأدى هذا إلى تحذيره بدلاً من إيقاعه فى الفخ، فلم يستجب لهذه (الدعوة المهذبة) ولم يكن ذلك فقط إلا لأنه لم يتقدم بأى طلبات، وقد اختار (بيجين) الا يختبئ أو يحاول الهرب، وفى كتاب (الليالى البيضاء) الذى يعتبر من أول الكتابات الأدبية عن الحياة فى معسكرات الأشغال الشاقة (الجولاج) والذى نشر فى عام ١٩٥٧، قال (بيجين): (كان هناك سبب بسيط وراء الجزء الأول من قرارى، فقد قلت لنفسى، إذا كانت الحكومة السوفيتية ترغب فى اعتقالى فليتعب عملاؤها أنفسهم ويحضروا إلىّ فى منزلى، فهذه هى مهمتهم ولماذا أختفى وكأن الأرض ابتلعتنى؟).

وأضاف يقول بخبث: (أما السبب وراء الجزء الثانى من قرارى فلم يكن بمثل هذه البساطة، ولا أريد أن أخوض فيه)، ولم يكشف (بيجين) عن هذا السبب الأخير إلا بعد مرور عشرين عاما أخرى.

(لقد أظلمت الدنيا فى نظرى بعد وفاة جابوتنسكى، لم يكن جابوتنسكى بالنسبة لنا مجرد رئيس أو زعيم، بل كان أكثر من ذلك، فقد كان محل آمالنا، وكنا نتطلع إليه ليخرجنا من العبودية.. لقد ضاع الأمل ذاته، لقد رحل عنا ولم

يعد هناك أمل، ولذلك فقد كنت ممهداً نفسياً لأن أعتقل بواسطة السوفيت لأننا إذا لم نستطع ـ كما قلت أثناء تجمعنا حول قبر أحد أعضاء (البيطار) ـ أن نقاتل من أجل بلدنا فليس أقل من أن نعانى من أجله، وبصراحة تامة لقد كانت لحظة يأس متناهٍ، لم يكن أمامنا بصيص من الضوء، ولذلك فقد كنت فى حالة نفسية تجعلنى أفضل الذهاب إلى السجن، ولم أتكلم فى هذا حتى مع زوجتى، لقد قدم لى رفاقى النعيم.. ولكننى رفضته).

وعلى أى الحالات فقد انتقل زعماء منظمة (بيطار) إلى (بافيلنيوس) حيث استأجر (بيجين) و(أليزا) بعض الغرف فى منزل إحدى الأرامل، وقاسمهما مسكنهما كل من (الداد) (الذى كان يعرف آنذاك باسم يسرائيل شيب) وزوجته (باتيا) وشخصان آخران، أحدهما زوج شقيقة مسز (بيجين) وكان عملاء البوليس السرى السوفيتى يتتبعونهم كظلهم، بل ان (بيجين) كان يلهو بهم فدعا (أليزا) للذهاب معه بالقطار إلى (فيلنا) وقام بتعيين فريق من أعضاء البيطار لتتبع العملاء وكان العملاء يقتفون أثر (بيجين) وزوجته أينما ذهبا، وكان جواسيس بيجين يقومون بدورهم باقتفاء أثر العملاء، لقد كان الجميع يعلمون أنها لعبة لن تستمر طويلا، وسخر بيجين فى كتابه (الليالى البيضاء) من رجال البوليس السرى السوفيتى لافتقارهم إلى المهارة التى يتميز بها المحترفون.. فلقد كانوا مكشوفين تماماً، ولكن ربما كان الأمر ببساطة لا يسبب لهم أى شعور بالقلق، فلو أن قيادة (بيطار) غادرت (ليتوانيا) فإلى غير رجعة، أما إذا ظلوا بها فإن رجال البوليس السرى سيستطيعون ـ عندما يريدون ـ أن يلقوا القبض عليهم.

وتحرك البوليس السرى فى ٢٠ سبتمبر، أى بعدة عشرة أيام من لعبة القط والفأر، وشعر (بيجين) بالارتياح عندما سمع الطرق على الباب، فقد عرف أخيرا أين يقف، ودخل ثلاثة رجال، وقطعوا على (بيجين) و(الداد) مباراة الشطرنج التى كانا يلعبانها، وسأل قائد القوة عن السبب فى تجاهل

(بيجين) للاستدعاء الذى أرسل إليه بالحضور إلى مبنى مجلس المدينة، ورد عليه (بيجين) قائلا: إنه لم يكن لديه شأن والبلدية، وأنهم إذا كانوا يريدون الاتصال به فإنهم يعرفون أين يجدونه، وطلب منهم (بيجين) بلهجته الرسمية الشبيهة بلهجة المحامين، أن يكشفوا عن شخصياتهم وأبرز قائدهم بطاقة شخصية تفيد بأنه من رجال المخابرات (اللتوانية) وسألهم (بيجين) عما إذا كان معهم أمر كتابى بالقبض عليه، ونفوا ذلك ولكنهم قالوا إنهم جاءوا على أى الحالات لاعتقاله، وصمم (بيجين) متشبها بـ (جابوتنسكى) على ألا يجبره أحد على التعجل، وعلى أن يحتفظ بوقاره، وطلب من (أليزا) تقديم الشاى (لضيوفهم) وبدأ يستعد للرحيل.

يذكر (الداد) هذه المناسبة فيقول:

لقد أدى (بيجين) ما أصفه بمثابة مقطوعة موسيقية، فقام بتلميع حذائه وارتداد حلة وربطة عنق، وكان فى منتهى التهذيب، وفى النهاية طلبوا منه الذهاب فقال لهم: (أنا هنا فى بيتى، فتفضلوا أنتم أولاً، والتفت إلىّ قائلا: (إننا سنواصل مباراة الشطرنج)، وتلقيت فيما بعد رسالة يخطرنى فيها بأننى فى وضع الفوز ولذلك فإنه ينسحب، ولم يكن هذا صحيحاً، فإننا لم نكن قد قمنا بتحريك القطع سوى خمس أو ست مرات، وقد سمحوا له بأن يأخذ معه التوراة وكتاباً آخر فقط، وبكت زوجتى، أما زوجته فلم تبكِ.. لقد كانت فى غاية القوة والتماسك).

وبينما كان (بيجين) خارجاً تحت الحراسة، شاهد (ديفيد جوتان) وتبادلا نظرات تنم عن وقوع المحتوم وكأنهما يقولان: (حسنا، لقد حدث المتوقع)، وكان زملاء قائد منظمة (بيطار) واثقين من أنه يواجه فترة سجن طويلة غير محدودة، بالرغم من تأكيداته بأنه سيعود سريعاً، ومع ذلك فقد وجدوا صعوبة كبيرة فى إقناع (أليزا بيجين) بالذهاب معهم إلى فلسطين بواسطة أوراق هجرة مزورة، ويقول (جوتان) إنها كادت تصاب بالهيستيريا.

(أوضحت لها أن السوفيت لن يحتفظوا ب (مناحم) فى (فيلنا) وأنهم سيرسلونه إلى سيبيريا أو أى مكان آخر مشابه، وأن الحدود ستغلق فى القريب العاجل، وأكدت أن السبيل الوحيد للضغط من أجل الإفراج عنه هو عن طريق إجراء اتصالات بالعالم الحر، وبصفة خاصة بالولايات المتحدة، ولا يسعنا عمل ذلك إلا من فلسطين أو اسطنبول).

وفى النهاية أمكن إقناع (أليزا) بالرحيل، فسافرت برفقة (يسرائيل) و(باتيا) إلى حيفا عن طريق (أوديسا) وتركيا وكانت جماعتهم ضمن ٤٠٠٠ يهودى سمح لهم الروس بمغادرة (ليتوانيا) عبر (أوديسا) وفلاديفوسك ودفعت اللجنة المشتركة ألفى دولار عن كل فرد سافر عبر (أوديسا) وأربعة آلاف دولار عن المجموعة التى سافرت عبر (فلاديفوسك)، واتجهت المجموعة الأولى إلى فلسطين، بينما سافرت المجموعة الثانية إلى الولايات المتحدة.

وأمكن إبلاغ (بيجين) فى زنزانته الكريهة الرائحة بسجن (لاكيشكى) نبأ فرار زوجته وذلك من خلال أحد الألغاز التى تقوم على التلاعب بالكلمات والتى يحتاج حلها إلى جهد ذهنى مضن ولكن بمجرد أن تعرف الحل فإنه يبدو لك فى غاية السهولة، فقد أرسل له بعض الأصدقاء لفافة تحتوى على بعض الملابس الشتوية الثقيلة، وعندما حل بيجين اللفافة وجد بداخلها منديلاً مطرزاً مكتوباً عليه بطريقة بدائية (أولا).. ولأول وهلة لم يفهم لماذا كتب اسم التدليل الذى يطلقه على زوجته بتلك الطريقة بدلاً من هكذا: (آلا)، ولكن فى النهاية استطاع أحد زملائه اليهود بالسجن أن يحل له اللغز، فإن كلمة (آلا) هى تأنيث للكلمة العبرية (أوليه) التى تعنى حرفيا (من يذهب إلى أعلى) ولكنها ترمز أيضا إلى (المهاجر إلى فلسطين)، وقد تأكدت صحة هذا الحل فى مايو عام ١٩٤١ عندما سمح لأقارب المسجونين بزيارتهم.

وطلب (بيجين) السماح لزوجته بزيارته على احتمال ألا تكون قد رحلت بعد، وحضرت بدلاً منها فتاة من جماعة (بيطار) بفيلنا، تدعى (بولا دايتشيز

وقالت له إن العمة (آلا) موجودة مع العم (شيمشون) وفهم (بيجين) المغزى المقصود فورا، فإن العم (شيمشون) هو (شيمشون جونيكزمان) زعيم (بيطار) فلسطين، ثم استطردت (بولا) تقول: إن والديه فى صحة طيبة وكذلك أخوته الموجودون مع العمة (آلا)، وحيث إن (بيجين) لم يكن لديه سوى أخ واحد فقد أدرك أنها تعنى أن رفاقه قد نجحوا أيضاً فى الفرار، وطلب (بيجين) من (بولا) أن تكتب خطاباً إلى العمة (آلا) وتبلغها فيه أنه فخور بهم جميعاً، وقولى لها إنى فى صحة طيبة وإننى سأعود إليهم.

وقد أعاد (بيجين) إلى الأذهان اللغز المبنى على التلاعب بلفظى (آلا) و(أولا) بعد أن طواه النسيان بمدة طويلة وذلك عندما أهدى نسخة من كتابه الليالى البيضاء إلى (ديفيد جوتان) بعبارة تقول: (إلى ديفيد الذى لولاها ما أصبحت (آلا) هى أولا - أى ما أصبحت زوجته (آلا) مهاجرة إلى فلسطين).

ولكن شاءت الأقدار أن يمر عليه عامان عصيبان قبل أن يتمكن من الوفاء بوعده ويعود إليهم مرة أخرى.

■ ■ ■

الفصل الرابع

الانتقال إلى (الجولاج)

سأل (مناحم بيجين) نفسه بعد أن أمضى تسعة أشهر مسجوناً فى مقر رئاسة البوليس السرى السوفيتى بفيلنا وبسجن (لوكيشكى) البارد: لماذا ينتهى أمر الكثيرين ممن يحتجزهم البوليس السرى السوفيتى بالاعتراف؟ وقد بحث (آرثر كوستلر) هذا اللغز ذاته فى روايته عن عمليات التصفية الجسدية التى مارسها الكرملين، والتى نشرت تحت عنوان (الظلام وقت الظهيرة).

وكان جواب (كوستلر) على ذلك التساؤل هو أن قدامى البلاشفة ظلوا على ولائهم للثورة مهما ساورتهم المخاوف من تطرف ستالين وإسرافه، وقد أدركوا أن المرء الذى تنتابه الشكوك والريبة فى سلامة الطريق الذى يسلكه الحزب إنما يعرِّض الثورة للخطر ولذلك فإنه يستحق إصابته برصاصة فى مؤخرة رأسه، ولم يكن (روباشوف)، بطل كوستلر، ضحية للبوليس السرى فحسب بل كان ضحية أيضاً لمنطقه الشيوعى.

وخطا (بيجين) بسؤاله خطوة أخرى: لماذا يسلك المسجونون السياسيون الآخرون الذين يخلصون لمثل عليا أخرى غير الشيوعية، نفس الطريق إلى العدم؟، وتوصل تفكيره إلى أن السبب فى هذا يكمن فى (حائط الشك) الذى يقيمه البوليس السرى السوفيتى حول فريسته، وهو الحائط الذى لا يحرمه فقط من حريته بل أيضا من جمهوره، فيقول:

إذا ما أدرك المناضل أن خدماته لم تعد ذات قيمة، وأن أحداً لن يستمع لكلماته أو يعرف بالموقف الذى اتخذه، كما أن أحداً لن يتلقف تضحيته من

بين يده ويتعلم منه كيف يضحى، فإن الخيط الذى يربط بينه وبين مثله العليا سينقطع فى الغالب، وعندئذٍ سوف ينمحى تماماً إدراكه الداخلى برسالته وسوف تتساءل نفسه المعذبة: من الذى سيعرف؟ من الذى سيتبعنى؟ من الذى سيحل مكانى؟ ما أهمية معاناتى وما الهدف من العذاب الذى أقاسيه؟

وأضاف (بيجين) إلى ما سبق عاملاً إضافياً توصل إليه من تجربته الذاتية، وهو الحيلة المعتادة التى يمارسها المحققون، حرمان المسجون من النوم، وهو جزء لا يتجزأ من أى عملية استجواب يجريها السوفيت، لقد كان البوليس السرى يعمل أساسًا خلال الليل، ويتم إعادة السجناء إلى زنزاناتهم قبل موعد الاستيقاظ مباشرة، وبمجرد أن يغلبهم النعاس، يحين وقت الاستيقاظ وكان النوم محظوراً أثناء النهار، وكانت الأوامر الصادرة إلى الحراس تنص على مراقبة السجناء بدقة وتهديد كل من يغفو أثناء النهار بالسجن الانفرادى إذا تكرر منه ذلك ويقول (بيجين) عن هذه التجربة:

(يأتى الليل حاملاً فى طياته ظلام الاستجواب الجديد.. المرة تلو المرة.. والليلة تلو الليلة، طوال الأسابيع والأشهر، طوال الزمن اللانهائى، يبدأ الضباب يتكاثف داخل رأس المسجون الذى يجرى استجوابه.. ويكاد الإجهاد يزهق روحه، وتهتز ساقاه تحته، ولا تصبح لديه سوى أمنية وحيدة مطلقة وهى: أن ينام كم يتمنى أن ينام ولو لفترة وجيزة، أن يستلقى ولا يقوم، أن يستريح وينسى وأن ينام، أن يموت، أن ينام... العدم).

إن كل من جرَّب هذه الرغبة الجامحة يعلم أن الجوع والعطش لا يمكن مقارنتهما بها، لقد التقيت بسجناء وّقعوا على الوثائق التى أمروا بالتوقيع عليها، بهدف واحد فقط وهو أن ينالوا ما وعدهم المحققون به ـ النوم بلا إزعاج.

وقد عانى (بيجين) وفقاً لأقواله، من هذين النوعين من غسيل المخ، فقد وضع فى عزلة تامة إلا من جيرانه المباشرين، والبرقيات التى كانت ترسل

بأسلوب النقاط والشرط عبر جدران ومواسير السجن، ونادراً ما كانت تتاح له فرصة للنوم، وبدون محاكمة صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانى سنوات بصفته (عنصرًا خطيرًا على المجتمع).. لقد ثار ضابط البولس السرى السوفيتى وأعلن غاضبا: (محاكمة.. امنحوه منصة يمارس من فوقها مهارته الخطابية)، ومع ذلك فإن (بيجين) لم ينهار، وعندما اعترف فى نهاية الأمر فإنه فعل ذلك وفقاً لشروطه الخاصة، فقد رفض التوقيع على مستند يقول: (أعترف بأنى مذنب بتولى رئاسة منظمة (بيطار البولندية) واستطاع بعد ليلة متواصلة من المناقشات اللانهائية أن يقنع المحقق بإلغاء الفقرة التى تشير إلى الاعتراف بالذنب، واقتصر إقرار الاعتراف على تسجيل حقيقة بسيطة ومحددة بوضوح: (إنى أعترف بأنى كنت رئيسًا لمنظمة بيطار البولندية)، لقد استطاع (بيجين) أن ينهك المحقق من خلال المناقشات المضنية تماماً كما فعل مع كل من تباحث معهم فيما بعد، وصرخ المحقق صائحاً وهم يقودون (مصدر عذابه) إلى زنزانته: (اغرب عن وجهى، فأنا لا أريد أن تقع عيناى عليك مرة أخرى أبدًا).

كيف استطاع بيجين أن يصمد؟ إن كتاب (الليالى البيضاء)، لا يجيب مباشرة على السؤال، ولكن يمكن للمرء أن يستشف الإجابة من بين طياته لو أنه قرأه بإمعان، لقد تعامل (بيجين) مع تجربة الاستجواب بل ومع تجربة السجن بأسرها وكأنها مبارزة ذهنية أو مباراة شطرنج قاتلة، لقد كان يفكر: كيف يعمل النظام؟ ما الذى يحاول المحقق الوصول إليه؟ لقد ساعدته هذه التساؤلات التى كان يوجهها إلى نفسه مثلما يحاول غيره أن يحل المسائل الرياضية على الاحتفاظ بعقله، وبمعاييره، واحترامه لذاته.. لقد حافظ على نفسه من أن ينقلب إلى حيوان.

وحاول المحقق بما لديه من خبرة أعوام طويلة فى السياسة الصهيونية.

ولكن كان (بيجين) عنيدًا ومتزمتًا ومتكبرًا، وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن الانتصار على المحقق لا قيمة له فقد رفض أن ييسر له بلوغ الهدف،

ورفض تلميذ (جابوتنسكى) الموافقة على أن الصهيونية ليست إلا انحرافًا قوميًا برجوازيًا، وأن زعيمه، الذى كان قد توفى مؤخرا كان أداة للامبريالية البريطانية، وكان صمود (بيجين) وروح المقاومة التى يتمتع بهما أمراً غريزياً فكان يناقش ويوجه المحقق، بالرغم من أن هذا الأخير كان تلميذاً بليداً، وربما جعله يدفع ثمن جرأته ووقاحته غالياً، لقد كان يتصرف تصرفاً بطولياً غير علنى ومجرد من أى غرض سوى البطولة ذاتها، تماما كما فعل (زئيف دوف بيجين) عدما لكم الرقيب البولندى الذى حاول اجتذاذ ذقن الحبر، لقد كان ينفذ مفهوم العزة والكرامة التى غرسها (جابوتنسكى) فى نفوس تلاميذه من فتيان وفتيات البيطار، لقد كان الطرفان يتجادلان وهما يشعران بأن ثمة شيئاً يجبرهما على ذلك، وكتب (بيجين) يقول: (كنت أشعر أحيانا أنه قد نسى دوره كمحقق تماماً كما نسيت أنا دورى كشخص يجرى التحقيق معه).

ولكن كان التمرين الليلى على المجادلة يساعده أيضاً على أن يستمر طافياً فوق السطح، وقال: (لقد كانت التحقيقات بالنسبة لى عبارة عن مناظرة بين عقيدتى ضد عقيدته، فكان لدى ما أقاتل من أجل الدفاع عنه حتى داخل حجرة التحقيق)، كما كتب يقول عن عملية تحدٍ لاحقة: (أنا أناضل، ولذا فأنا موجود)، ولم يتخل (بيجين) أبداً فى الوقت ذاته عن الأمل فى إطلاق سراحه، حتى فى أكثر اللحظات يأساً، حينما فكر فى إرسال ورقة طلاق مشروطة إلى زوجته (أليزا).

وكان السبب فى ذلك يرجع جزئياً إلى أن (بيجين) رضخ رغماً عنه فى النهاية لمحاولات المحقق فى أن يجعله يتأقلم.

فقد وعده بمنحه فترة لإعادة تعليمه وتساءل بيجين (هل سأعيش حتى نهاية فترة إعادة التعليم؟ هل سأكملها وأعود؟) يقول (ميرون شيسكين) رفيقه فى السجن والزعيم السابق لحركة التصحيح فى بولندا: إن (بيجين) لم يفقد الأمل إطلاقاً فى أنه سيخرج، كان كلانا يعرف أنه أينما ذهبنا فإننا سنذهب

فى النهاية إلى إسرائيل، لم تكن المسألة عقيدة دينية، إنما كانت شعوراً راسخا فى نفوسنا، وكان (بيجين) يدرك أن نتائج الحرب الدائرة خارج جدران السجن، مشكوك فيها، وأن أصدقاءه فى الغرب يبذلون الجهود من أجله، لقد كانت الثرثرة العامة بين رفاق (بيجين) فى الزنزانة تؤكد أن (هتلر) سيوجه مدافعه فى القريب العاجل نحو حليف (المصلحة) السوفيت، وترقب السجناء البولنديون تلك اللحظة فى ابتهاج، بينما ترقبها اليهود فى فتور، ولكن المستقبل لم يكن مضموناً على الإطلاق، ولذلك فإن الأمر كان جديرا ببقاء المرء على قيد الحياة وجديراً بأن يعمل المرء على كسب الوقت.

ولم يكن الوقوف وراء القضبان مسألة جديدة بالنسبة لـ (مناحم بيجين) فقد دخل السجن البولندى قبل ذلك بعامين لتظاهره أمام السفارة البريطانية فى وارسو، ولذلك فإنه لم يصب بصدمة عندما احتجز فى مقر البوليس السرى السوفيتى أو وراء قضبان سجن (لوكيشكى) الذى نقل إليه بعد فترة وجيزة وكان الظلام والفروق الكبيرة فى درجات الحرارة والبرودة، والرائحة النتنة لجرادل القاذورات الموجودة فى الزنزانات المكتظة، والسرير الصلب، ووجبات الطعام غير المشبعة، والسجان الفظ الذى يقوم بتنفيذ الأوامر الخبيثة الصادرة إليه، والعزلة عن الأسرة والصديق ـ كانت كل هذه أموراً قد تعود عليها.

(لقد وجدت فى قفص (الآدميين) كل الأشياء المعتادة ـ مرتبة قش، ورف، ومنضدة عارية، وكرسى بلا ظهر وغير متماسك، وإناء عميق صغير، وبالطبع الجردل، وعامة يعتبر سجن (فيلنا) شبيه بـ (سجن وارسو)، ولاشك أن كل السجون الأخرى التى يقيمها الإنسان لسجن أخيه الإنسان لا تختلف عنهما فى شىء، فلا يوجد جديد تحت الشمس، وربما كان من الأفضل ألا يكون المرء سجيناً مستجداً).

وقد اكتشف أن الفرق الوحيد بين السجن السوفيتى وغيره من السجون

هو أن سجين البوليس السرى السوفيتى كان يسأل نفسه: (هل من المقدر لى أن أخرج؟) بدلاً من أن يسألها: (متى سأخرج من هنا؟) وجاء أول التقاء لبيجين بالواقع عندما صادر حراسه الكتاب الوحيد ـ باستثناء التوراة الذى سمح له بإحضاره معه من (بافيلنيوس) ـ وكان الكتاب هو سيرة حياة دزرائيلى بقلم أندريه موروا، والذى كان قد بدأ قراءته بالإنجليزية.

وكعقاب له على تعامله مع السجن وكأنه مكتبة عامة يمضى وقته به فى القراءة أجبر على الجلوس لمدة ستين ساعة فى مواجهة حائط خالٍ، وركبتيه تضغطان على الحائط وعيناه تركزان على نقطة واحدة بلا حراك، لقد كان أسلوبًا حاذقًا فى التعذيب، استطاع (بيجين) تحمله باسترجاعه لكل الأوقات الهامة البارزة فى حياته، ولقد كان ارتياحه بالغاً عند السماح له بالارتماء على حاشيته، حتى أنه كاد أن يصاب بالهذيان.

وظل على مدى ثلاثة أشهر يشارك رجلين آخرين زنزانة واحدة، كان أحدهما ضابطاً احتياطياً بالجيش البولندى، فى منتصف العمر وأعزب مولعاً بالنظام بدرجة ضايقت حتى (بيجين) نفسه، والآخر كان ترزياً شاباً أصبح فيما بعد جنديا برتبة مساعد عريف، كما أصبح أثناء وجوده بالسجن تلميذا لـ (بيجين)، وقد أثار هذا الشاب دهشة الرجلين الأكبر منه سنا عندما عاد إلى الكنيسة، وكان زميلاه البولنديان بالزنزانة لا يكادان يخفيان شعورهما بالعداء للسامية والمتأصل فى نفسيهما، ومع ذلك فقد حزن (بيجين) على فراقه لهما، وفى هذا الصدد يقول بيجين:

(كانت توجد حواجز تفصل بيننا، بل إننا كنا نتعارك، ولكننا تمكنا من التعرف على بعضنا البعض، وتعلمنا كيف نتفاهم ونتسامح، وكنا قد أصبحنا بالفعل بمثابة مجتمع صغير، له عرفه وتقاليده، ولم أمارس هنا التدريس إلا قليلاً ولكننى تعلمت كثيراً، ولقد مررت هنا بتجربة الاستجواب كما اتخذت هنا قراراً مؤلماً).

وقد تم وضع (بيجين) خلال فترة انتظار انتهاء المحاكمة وصدور الحكم فى زنزانة جماعية تضم ستة عشر سريراً لينام عليها حوالى ستين سجيناً.

وكانوا ينامون على الأرض وكان رفاقه فى هذه المرة يتكونون من لص يهودى، وضابط بولندى برتبة كولونيل يبلغ من العمر ٧٨ عاماً، ويعاقب بأثر رجعى لأنه كان قد حارب فى صفوف جيش القيصر، وكان معظم المسجونين الذين انهاروا تحت ضغوط الازدحام والجوع، هم من أولئك الأشخاص الأقوياء البنية، الذين اعتادوا على الحياة فى الأماكن المفتوحة، أما المفكرون (الضعفاء والضعفاء البنية) كما وصفهم (بيجين) فى كتابته وهو يشعر ببعض الرضا عن النفس، فإنهم لم يمرضوا أو يشتكوا، لقد بدأ كأن أرواحهم كانت بمثابة الدعامة التى تسندهم، وتقوم بهمة الدرع التى تحمى أجسادهم.

ولقد اشتركت المجموعتان فى إعلان الإضراب عن الطعام احتجاجا على عدمإأحداث أى تغيير فى نوعية طعامهم الذى كان يتألف باستمرار من نوع من الحساء الخفيف غير الشهى المصنوع من الحبوب يعرف باسم (كاشا)، ويصف (بيجين) هذا الحساء فى اكتئاب فيقول: (إن رائحته كانت تزكم أنوفنا فعلاً، لقد كان حساء الكاشا كريهاً بالنسبة لنا ولم نعد نتحمل تناوله مرة أخرى).

وانتصر المضربون بعد بضعة أيام.. لأول مرة منذ شهرين متواصلين قدم لهم حساء مصنوع من أوراق الكرنب الفاسدة بدلاً من (الكاشا) الكريهة.

وكانت تلك هى الفترة التى علم فيها (بيجين) من خلال (تليغراف) السجن، بوجود (ميرون شيسكين) فى الزنزانة المجاورة، وأبرق إليه زعيم (حركة التصحيح) ببولندا، والذى يكبره باثنى عشر عاما، برسالة ـ عن طريق النقر على الحائط ـ يستفسر فيها عن صحة (جابوتنسكى) وشعر (بيجين) بجرح رأسى لعدم معرفة (شيسكين) بنبأ وفاة (جابوتنسكى)، ولكنه أبلغه به بعد فترة وجيزة، وذهل (شيسكين) ووضع قبعته على رأسه وتلا صلاة الجنازة، وقد ردد زملاؤه فى الزنزانة كلمة (آمين) فى نهاية الصلاة بالرغم

من أن أحداً منهم لم يكن يهودياً.

وأثناء فترة عيد الفصح اليهودى، اشترك (بيجين) و(شيسكين) فى زنزانة واحدة، ويقول (شيسكين) متذكرًا:

(كنا نأخذ جرايتنا اليومية من الخبز ونغمسه فى القهوة ثم نضعه على النافذة ليجف، وبذلك كنا نحصل على خبز (الماتزا) أو (الخبز اليهودى غير المختمر) وكنا نتلو صلاتنا: (إن هذا هو خبز بلائنا، نحن اليوم عبيد ولكننا سنكون فى العلم القادم رجالاً أحراراً، ونحن اليوم موجودين هنا، ولعلنا نكون فى العام القادم بالقدس)، وكنا نغنى بعد ذلك نشيد الحركة الصهيونية، وكنا نسمع أصواتاً ترد علينا من أماكن مختلفة بالسجن، إن المسجونين اليهود يرددون النشيد، حتى بالرغم من حظر المظاهرات).

وقد نجا الزعيمان الصهيونيان من العقاب بصورة أو بأخرى، ولكن الحظ تخلى عن (بيجين) عندما سمعه أحد الحراس اليهود يروى (نكتة)، وظن أنه هو المقصود بها، فاشتكى إلى مدير السجن، الذى سارع بالحكم على (بيجين) بقضاء سبعة أيام فى الحبس الانفرادى، وقد قبل الحكم من وجهة نظر فلسفية، فاعتبره دورة دراسية جديدة فى الأساليب التى يتبعها البوليس السرى السوفيتى وفى فن ولغة الحبس.

(لقد انقضت الأيام السبعة ولياليها، لقد أدى الحبس الانفرادى إلى إصابته بضعف شديد، ولكنه تعلم منه الكثير، لقد تعلم من الحر الخانق أثناء النهار ومن البرد القارس فى الليل، ومن القذارة والرائحة الخانقة الخاصة بالقفص الخالى من النوافذ، ومن عدم وجود أى غطاء، ومن الرطوبة والأرض القذرة المصنوعة من الأسمنت التى كان يفترشها للنوم والتى كانت مرتعاً للفئران - لقد تعلم من كل هذه الأشياء أن ثمة أماكن أسوأ حالاً من زنزانة السجن، تماماً كما تعلم فيما بعد أن ثمة أماكن أسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى).

وقد استطاع (بيجين) أن يتحمل أسبوع الحبس الانفرادى الذى لم يتناول خلاله سوى الخبز والماء، ولكنه لم ينس أبدا خيانة الحارس اليهودى الذى كان يعمل فى خدمة البوليس السرى، وقد ضم (بيجين) هذا الموظف المجهول إلى قائمة (الأبالسة) التى يحتفظ بها فى ذاكرته وتضم أيضا المحقق اليهودى ذا الكلام المعسول الذى حثه باللغة الييدية على أن يعترف (بالحقيقة)، وكذلك المترجم الصهيونى الركيك الذى كان يتعبد عند ضريح لينين، وساوم (بيجين) على النصوص التواراتية الخاصة بهيرتزل، ثم الحلاق اليهودى الذى كان يعمل بالسجن والذى كان يؤدى الأعمال القذرة نيابة عن (سيده) بتهيئته (للزبائن) برواياته الساذجة عن الحياة فى معسكرات الأشغال الشاقة وكان هناك آخرون فى حياة (بيجين) من أمثال أولئك المرتدين، ولم يتساهل (بيجين) معهم أبداً حتى عندما أصبح رئيساً للوزراء فكان يستخدم تعبير (ذلك اليهودى المتكبر) بلهجة استنكارية فى وصف أى يهودى يحاول خطب ود العدو الفلسطينى أو يحاول تلقينه درساً فى واجبه القومى، وكان هذا الأسلوب أسهل أحياناً فى الرد عليهم من مناقشة المسائل التى كانوا يثيرونها.

وعلى الرغم من أن فترة التسعة أشهر التى أمضاها (بيجين) فى سجن (فيلنا) كانت فترة عصيبة إلا أن الأيام أثبتت أنها لم تكن سوى تمهيد لنزوله فى (المكان الأسوأ من زنزانة الحُبس الانفرادى) أو (آرخبيل جولاج) الذى وصفه (الكسندر زولشنتسن - فى رواية بهذا الاسم - بالجحيم السوفيتى) الذى يتلقف الرجال والنساء الموصومين لسبب أو آخر، بأنهم أعداء الثورة فيطويهم النسيان ويتحولون إلى ما يشبه الحفريات المتحجرة، وبالرغم من أن إقامة (بيجين) هناك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر فإنها تركت فى نفسه عداءً أبدياً للروس والشيوعية، وحماساً للحرب الباردة ظل راسخاً فى نفسه حتى ما بعد (الوفاق) بكافة أشكاله.

وبدأت رحلة العذاب بحركة تمرد كان يمكن اعتبارها فى ظروف أخرى مجرد محاولة بسيطة للترويح عن النفس، حيث رفض المسجونون الذين كانوا

ينتظرون نقلهم أن يتناولوا طعامهم من المبصقات، وكان سجن (لوكشكى) مكتظاً بدرجة أنه لم يكن يحوى عدداً كافياً من الأطباق لكل المسجونين، ولكن المسجونين كانوا يرون أن المبصقات صنعت خصيصاً لعملية البصق، حتى لو لم تستعمل فى ذلك الفوضى، وصمد المسجونين لمدة يومين، وكما حدث من قبل بالنسبة للإضراب عن الطعام، انتصر المسجونون ولكن بثمن باهظ، فقط حصلوا على عدد قليل من الأطباق والفناجين كانوا يضطرون إلى تداولها من يد إلى أخرى، ومن فم إلى آخر، ومازالت بقايا الحساء أو القهوة عالقة بها، وكتب بيجين يقول فى ابتهاج: ولكننا تناولنا طعامنا، ولم نتناوله من المبصقات.

وكان (بيجين) واحداً من ألفى سجين تم ترحيلهم فى أوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ من (فيلنا) إلى الشمال، وكانت وجهتهم التى لم يكونوا قد عرفوها بعد، هى معسكر (بيتشور) للأشغال الشاقة على نهر (بيتشورا) الذى يتدفق عبر منطقة التندرا الشمالية ليصب فى بحر (بارنتس) المتجمد الذى يقع جنوب الدائرة القطبية الشمالية مباشرة، وكانت الرحلة التى بلغ طولها ١٥٠٠ ميل أشبه ما يكون بالكابوس، حيث تم حشرهم فى القطارات والبواخر النهرية التى استقلوها فى أعداد أكبر مما لو كانوا ماشية.

فقد كانت كل عربة من عربات قطار السجن مصممة بحيث تسع أربعين شخصاً أو ثمانية خيول، وجندى حراسة، بيد أن الروس تمكنوا بشكل ما من حشر ما يقرب من سبعين سجيناً فى كل منها وكانت كل عربة مزودة بفتحة ماسورة متجهة نحو القضبان تستخدم كمرحاض، وطابقين من الأسرة الخشبية المثبتة فى الجدران فإذا اختار المرء النوم فى الطابق الأعلى فإنه يعانى من الحشر، أما إذا اختار الطابق الاسفل فإنه قد يتعرض للاختناق.

وكان الهواء يدخل من نافذتين صغيرتين فى أعلى العربة، ولم يكن يتم فتح الباب إلا ثلاث مرات فى اليوم، مرتان لإحصاء عدد المسجونين ومرة

لإطعامهم وجبة واحدة لا تتنوع عبارة عن خبز وسمك مملح، وكان السائل الوحيد الذى يدخل جوفهم هو ماء لم يسبق غليه، يشربونه من جردل، وقد شاهد (بيجين) الحراس فى إحدى المرات وهم يملأون الجردل من بركة راكدة يغطيها وحل لزج أخضر اللون، ومع ذلك فقد شربه.

واستغرقت رحلة القطار ستة أسابيع تقريباً تخللتها وقفات كانت تستمر عدة أيام لأسباب غير معروفة، وعلم المسجونون وهم فى الطريق أن ألمانيا قد أعلنت الحرب على الاتحاد السوفيتى، وابتهج البولنديون واللتوانيون فإن عدويهما سيشتبكان مع بعضهما البعض، ولم يكن (بيجين) يدرى أن الحرب الجديدة نحو الشرق والمنذرة بالشر ستؤدى قريباً إلى منحه حريته، وكان الخط الحديدى محطماً بعد مدينة كوتلاس.. (لقد اهتزت بنا العربات وكأننا فى سفينة تهتز فى وسط عاصفة هوجاء وأصيب كثير منا بدوار (قطار) وقىء مستمر وأنهكت قوانا واستغرقنا فى النعاس، ولم يعد أحد منا يتفوه بكلمة واحدة).

وغادر السجناء القطار عند محطة صغيرة اسمها (كوشفا) ثم ساروا على الأقدام لمدة خمس ساعات عبر حقول موحلة حتى وصلوا إلى معسكر الترحيلات، وقام جنود مدججون بالسلاح وكلاب متوحشة بحراستهم، وصاح أحد الضباط أن أى شخص يخرج من الصف سيتعرض لإطلاق النار عليه، وتجاذب (بيجين) أثناء المسيرة أطراف الحديث مع أحد الجنود الذى أكد له فى قسوة: (لا أحد يخرج من هنا حياً).

وشق المسجونون طريقهم من معسكر الترحيلات عبر أراضى المستنقعات حتى ضفاف نهر (بيتشورا)، حيث تم شحنهم على قاطرة سفينة نارية مع شحنة من القضبان الحديدية، وتعّرف (بيجين) من حديث أجراه مع حارس آخر على بعض ما ينتظره من بؤس، وقال له الحارس وهو يشير بإبهامه إلى اللفافة التى يحملها (بيجين) وتتضمن حاجياته المتواضعة (سترى أنهم سيأخذونها منك)، ولم يفصح عمن يقصد بكلمة (هم).

وقد تم نقل (ميرون شيسكين) و(ديفيد كرول) وهو صديق آخر لبيجين من التصحيحيين على نفس القطار المتجه نحو الشمال، ولكن فى عربات مختلفة، وعند وصولهم إلى معسكر (بيتشور) قام (كرول)، الذى يتصف بسعة الحيلة، برشوة أحد الضباط لوضع ثلاثتهم معاً فى مستشفى المعسكر، وقد كلفهم ذلك ثلاثة قمصان من لفافاتهم الثمينة.

لقد أصبحوا فى منطقة (الليالى البيضاء) حيث تكاد الشمس القطبية لا تغيب أبداً، ويستمر الشتاء تسعة أشهر فى السنة، وكان على على المرضى أن يركضوا مسافة ميل تقريباً وهم نصف عرايا فى درجة حرارة تقل عن الصفر حتى يصلوا إلى مبنى الحمام، وقيل لـ (بيجين): (ستعتاد على هذا، وإلا فإنك ستموت)، وقد خشى (بيجين) فى أول ليلة له بمبنى المستشفى، من أن يهلك، وذلك عندما كاد يلتهمه جيش من البق الأحمر وعن ذلك يقول:

(لقد ظلت أعداد هذا العدو الرهيب المصمم على امتصاص دمى، تتزايد بإطراد، وحاولت اللجوء إلى استخدام تكتيكات مختلفة لتضليله، فغيرت وضعى فى السرير، ولكن لم تفلح هذه المناورة، فإن العدو أمسك بى ورفض التخلى عنى، ولم تغمض لى عين فى تلك الليلة، وقد حدث نفس الشىء لجميع المستجدين الآخرين، أما المخضرمون فقد ناموا مثل الملائكة.. لقد استطاعوا أن يعتادوا عليه).

وبعد أن أمضى (بيجين) أسبوعاً فى المستشفى، بدأ تكليفه بالعمل فى بناء الخط الحديدى الممتد من (كوتلاس ـ فاركوتا) بأمر من الحزب والحكومة، وكان زملاؤه فى العمل خليطاً متبايناً من الأفراد، فكانوا يتكونون من روس وبولنديين، ولتوانيين، ولتفانيين واستوانيين، ورومانيين، ويهود، وكان من بين الفئة الأخيرة مساعد رئيس تحرير مغضوب عليه بصحيفة برافد، يشكو من مرض فى القلب وحرارة مرتفعة ترفض النزول عن ٣٨ درجة ولكن سرعان ما أدرك (بيجين) أن التمييز الهام الوحيد هو ذلك القائم بين

المسجونين السياسيين والمجرمين، وكان للمجرمين اليد العليا، حيث كانوا يتباهون بقوتهم الجسمانية ويرهبون المفكرين الحقراء.

وعندما قام أحد المجرمين بسرقة معظم حاجياته أثناء نومه أدرك بيجين قصد الحارس، إنهم فعلاً (أخذوها كلها) ولكن بالتقسيط!.

وكان السجناء يقومون بنقل قضبان الحديد إلى مسافة ربع ميل من مركب ترسو عند نهر بيتشورا، عبر جسر خشبى ضيق ثم عبر الحقول حتى عربة سكة حديد منتظرة، وكانوا يعملون بمصاحبة فرقة موسيقى نحاسية تعزف الأناشيد التى تشدو بعظمة الإنجاز السوفيتى، وكانت القضبان التى يحملها المسجونون ـ واحد على كل كتف ـ تسلخ الجلد، وتسبب آلاماً مبرحة، وما ساعد على مضاعفة الألم طول الناموس التى كانت تحوم طوال ساعات النهار الممتدة وعلى مدى أربع عشرة ساعة يومياً.

ويشكو (بيجين) فى مذكراته قائلاً: (إن الناموس يزنُّ ويلدغ ثم يشرب ويزُّن.. ليس هناك أى مهرب منه)، وكانت الظروف التى يعمل المسجونون فى ظلها أسوأ من الظروف فى السجن، بالرغم من أنهم كانوا يعملون فى الهواء الطلق، لقد كان البرد قارسا بدرجة لا تحتمل، وكان الرجال يتقاتلون من أجل كسب مكان بالقرب من المواقد، وقد لقى اثنان من الفتيان اليهود ـ كانا يشاركان (شيسكين) فى كوخه ـ حتفهما نتيجة للتجمد من البرد، وكان العمل مضنيا بينما كانت الجراية اليومية أقل من أن تقيم الأود، وقال بيجين فى مذكراته (لقد شاهدت على ضفاف البيتشورا حيوانات تسير على قدمين)، وكسراً للملل كان يتم تبديل ورديات مجموعة العمل كل عشرة أيام من فترة النهار إلى الليل، ونتيجة لهذا النظام لم تتح لهم أى فرصة ليوم من الراحة الأسبوعية).

وفى صباح أحد الأيام بينما كان (بيجين) فى طريقه إلى العمل سأله أحد الحراس: (هل أنت بولندى؟ فأخذ (بيجين) بدقته المعهودة يشرح له أنه يهودى وان كان مواطناً بولندياً، ولم يكن الحارس مهتماً بمثل هذه الفروق الدقيقة،

فأن لديه أخباراً يريد نقلها إليه، فقد سمع فى الإذاعة أن السلطات أصدرت عفوا عن جميع المسجونين البولنديين، واتفقت الحكومتان البولندية والسوفيتية على إطلاق سراحهم حتى ينضموا إلى القتال الدائر ضد الألمان، وتأكدت الشائعة عندما قرأ قائد المعسكر نص القرار فى (البرافدا) ولكن ذلك لم يكن سبباً كافياً من وجهة نظر (العالم) البيروقراطى الموجود فى (الجولاج) للإفراج عن البولنديين ولم يكن قائد المعسكر قد تلقى بعد تعليمات بذلك، وعلى هذا فيجب عليهم أن يعملوا حتى حصوله على تلك التعليمات، من أجل تحقيق ما أصبح بمثابة (هدف مشترك) لقهر العدو الألمانى، وواصل (بيجين) وزملاؤه لعدة أيام أخرى أداء أعمال السخرة فى معسكر (بتشورا) للأشغال الشاقة وهم يحملون القضبان ويتضورون جوعاً ويحكون جلودهم.

وبدلاً من وصول الأمر بالإفراج عن البولنديين تلقى قائد المعسكر أمراً بإرسال مجموعة من الرجال إلى معسكر آخر على النهر نحو الشمال، حيث يمكن استغلالهم فى أعمال أكثر فائدة، واختار المسجونون البولنديون (بيجين) للاعتراض نيابة عنهم فما فائدة إرسالهم إلى معسكر الشمال لو كان سيفرج عنهم قريباً؟، ولكن لم يكن القائد يملك من الأمر شيئاً، وكان أقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم هو أن يعدهم (إذا وصل الأمر بالإفراج عنكم فإننا سنأخذكم حتى من على السفينة لنرسلكم إلى الجهة التى من المفروض أن تذهبوا إليها).

وكان (بيجين) واحداً من ثمانمائة رجل حشروا على ظهر ناقلة بضائع، أبحرت لمدة ثلاثة أسابيع على نهر (بيتشورا) ولم يكن فوقها مكان للوقوف أو التحرك أو حتى الجلوس، بل كان على الشحنة الآدمية أن تنام ليلاً ونهاراً فوق أَسِرة خشبية ترتفع إلى ثلاثة طوابق على جانبى جدران العنبر الذى تفوح منه رائحة كريهة خانقة، وكانوا يشربون من مياه النهر الباردة، الأمر الذى أدى إلى إصابة معظمهم بالإسهال، ولم يكف المرحضان البدائيان لاستيعاب هذا

الضغط عليهما وتعرض المسجونون كذلك لهجوم جيوش القمل، وأخذ المجرمون يتهكمون على المسجونين السياسيين ويجمعون الحشرات ويلقونها على وجوههم، ورجا مساعد رئيس تحرير البرافدا المغضوب عليه والذى كان واثقاً من أن المجرمين يهدفون قتله ـ رجا (بيجين) أن يساعده على ترديد نشيد (الهاتيكفا) الذى يتذكر أجزاءً منه منذ أيام شبابه فى (أوديسا).

وكانت محنة (بيجين) والبولنديين قد اقتربت من نهايتها، وإن لم يكن الأمر ذلك بالنسبة لليهودى الروسى من (البرافدا)، فقد وفَّى قائد المعسكر بوعده، فعندما وصل أمر الإفراج أخيراً بلغه إلى ناقلة البضائع، وأصبح من المقرر أن إطلاق سراحهم قبل حلول أسوأ فترة فى شتاء الشمال القارس.

وتردد صوت أحد الحراس داخل العنبر هاتفًا: (بيجين) ثم بدأ يردد الأسماء الاسم تلو الآخر، وفقاً للترتيب الأبجدى، ورد كل واحد منهم على النداء بترديد اسمه واسم أبيه، وعلى رأسهم (مناحم وولفوفيتش)، وأعلن الحارس: على الذين ناديت أسماءهم أن يجمعوا حاجياتهم، فقد صدرت الأوامر بالإفراج عن البولنديين، ستصبحون أحراراً.

وسيطرت الغيرة على أحد المجرمين من غير البولنديين، فأشار إلى (بيجين) وقال محتجً: (إنه من الزيد) (أى يهودى حقير) وليس بولندياً، وتجاهله (مناحم وولفوفيتش)، فهذا لم يكن الوقت المناسب للحساسيات.

■ ■ ■

الفصل الخامس

الاتجاه شرقاً نحو المقاومة السرية

أخلى سبيل المسجونين البولنديين حتى يقاتلوا الألمان ولكن دون أن يوجههم أحد إلى مكان مكتب التجنيد الذى يشرف عليه الجنرال (فلاديسلاف آنديرز) وتُركوا ليتوصلوا إلى المكتب بمفردهم، فقد أقلهم الروس فى سفينة إلى معسكر ترحيلات، ومن هناك منحوا أوراق الإفراج عنهم من (الجولاج) بلا أى تعقيدات ومنح كل واحد من البولنديين مبلغاً من المال وأطلق سراحه، وقد حصل (ميرون شيسكين) على مبلغ يكفيه للقيام برحلة تستغرق ثلاثة أيام بالقطار إلى (كويبشيف)، حيث حاول إقناع البولنديين بتشكيل كتيبة يهودية على نمط فيلق (جابوتنسكى) الذى اشترك فى الحرب العالمية الأولى ولكنهم قاموا بدلاً من ذلك بتعيينه ضابط اتصال يهودياً برتبة ميجور بمكتب (آنديرز).

ولسبب غير مفهوم لم يتم الإفراج عن (ديفيد كرول) صديق (بيجين) الآخر، من (حركة التصحيح) والذى كان قد أسندت إليه مسئولية الإشراف على مجموعة العمل وذلك على الرغم من أنه جاء معهم إلى معسكر الترحيلات، وظل (بيجين) يعتقد لسنوات طويلة بعد ذلك أنه استشهد فى الشمال النائى، ولكن فى أوائل الثمانينيات جاء يهودى روسى إلى إسرائيل قادماً من منطقة جبال الأورال، ليقول: إن (كرول) (حى يرزق) ويبلغ تحياته إلى بيجين و(شيكسين) وأبلغهما أنه يطلب منهما إرسال شال من النوع الذى يستخدمه اليهود فى الصلاة، غير أن الزائر أبلغهما بعد ذلك وقبل أن يتمكنا من تلبية طلبة أن (كرول) توفى فى حادث طريق.

ولم تكف النقود التى حصل عليها (بيجين) لسد احتياجاته مدة طويلة، فشق طريقاً عبر برارى آسيا الوسطى السوفيتية بواسطة القطار، الذى كان يركبه بدون تذكرة، وينام على الأرض الوعرة، ويأكل كلما كانت تسنح له الفرصة وسط هذا (القطيع المشرد) من المسجونين السابقين الذين كانوا يتجهون على غير هدى نحو الجنوب إبان الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤١.

لقد تعلم سر البقاء أثناء حياته فى المعسكرات: (إنك تستطيع التعود على كل شىء).. وكان واضحاً أن الجيش البولندى لا يهتم باليهود الذين كانوا قد أصبحوا مثل خيال المآتة، مهما كان ما أثبتوه من قدرة على التحمل، ورفض طلب (بيجين) فواصل طريقه يحدوه الأمل فى العثور على أخته (راشيل) وزوجها الذى كان قد تم ترحيله قبل اعتقال (بيجين) فى (فيلنا).

وسمع (بيجين) فى إحدى الليالى، وهو ينعس عند محطة سكة حديدية واحدة من (المتشردات) وهى تحكى عن مناجم النحاس فى (الأورال) وذكرت المرأة، التى كانت تنتظر مثل (بيجين) أن تسنح لها الفرصة لركوب القطار بلا مقابل، اسم (هالبرين) وسألها (بيجين) دون أن يسمح لآماله بالتحليق عالياً، عما إذا كان (هالبرين) هذا الذى ذكرته هو محام من وارسو، وعما إذا كان اسم زوجته - بالصدفة هو (راشيل)، وشاء الحظ أن ترد على تساؤلاته بالإيجاب، واستطاع (بيجين) بمساعدة تلك المرأة أن يصل إلى أخته وزوجها واجتمع شملهم مرة أخرى فيما وصفه بكوخ حقير مبنى من الطين فى بلدة أوزبيكية صغيرة، هى بلدة (دزيزاك) الواقعة فيما بين (طشقند) و(سمرقند) ولم يدم وجودهم معاً مدة طويلة، فقد سمع (بيجين) أن الروس قد بدأوا مرة أخرى يلقون القبض على الزعماء السياسيين اليهود ولما كان ماضيه معروفاً حتى فى أوزبكستان، فقد انتقل إلى مدينة (مارجيلان)، حيث كانت ترابط الفرقة التاسعة البولندية، ثم علم من أخته بعد أسابيع قليلة أن أشخاصاً لا تعرفهم قد جاءوا إلى كوخها واستفسروا عن مكانه.

كان (بيجين) قد قابل فى (مارجيلان) الميجور (شيسكين) واثنين آخرين من أعضاء حركة (البيطار)، الذين قدموا له الطعام والمأوى.

وبموجب اقتراح من (شيسكين) قاموا باستدعاء (يوهاتان بادر) محامى حركة (التصحيح) الذى كان يعيش فى المنفى بروسيا، لقد كانت شبكة اتصالات (البيطار) مازالت تعمل بكفاءة! واستطاع (بادر) قطع مسافة ١٢٠٠ ميل سيراً على الأقدام والوصول إلى مكان الاجتماع بالرغم من تفشى وباء التيفود الذى قتل عشرات الآلاف من الناس، وقد وجد (بادر) أن (بيجين) بفضل مضيفيه من أعضاء البيطار - كان بحالة أفضل مما كان يتوقع واستفسر (بيجين) الذى كان يرتدى (جاكتة) من الجلد وحذاء برقبة عالية، عن كيفية الوصول إلى فلسطين والقيام بثورة ضد البريطانيين.

ويعود (بادر) بذاكرته إلى الوراء فيقول: (كان كلانا يوافق على أن المهمة الأساسية فى (ارتزاسرائيل).. أى أرض إسرائيل التاريخية هى محاربة الحكومة البريطانية، ومرة أخرى بدا واضحاً أن (بيجين) لم يحد عن هدفه نتيجة لوجود بريطانيا فى حالة حرب مع النازى، بيد أن بادر أوضح أنه ليس هناك سبيل للحصول من السوفيت على تصريح خروج وأنه من الأفضل أن ينضم إلى الجيش البولندى، وقال (بيجين) متأملاً بعد مرور عقد من الزمان قام خلاله بالثورة: (لا أظن أنه قدم لأحد، على مدى حياته كمحامٍ، نصيحة أفضل من هذه).

غير أن (بيجين) كان محجماً عن تعريض نفسه للكشف الطبى على الرغم من أنه كان يدرك حكمه هذا الأمر، فقد تعرض من قبل للرفض لأسباب صحية، وشعر أنه جرح فى كبريائه، بيد أن صديقيه الأكبر سناً (بادر وشيسكين) أقنعاه بأن يحاول مرة أخرى، وأعلن الطبيب فى هذه المرةٍ أيضاً عدم لياقته، وقال إن قلبه مريض ونظره ضعيف، فكيف يكون جندياً لائقا ببولندا الأم؟، ولم يرض شيسكين بترك الأمور عند ذلك فتفاوض سرًا والميجور (لنيك) رئيس أركان قائد الفرقة، وأجرى الضابط البولندى اختبارا

شخصياً لبيجين، ثم أرسل مذكرة إلى طبيب الجيش تتضمن تعليمات إليه بإجازة لياقة الجندى المستجد للخدمة، ولم يكن الطبيب قد نسى حالة (بيجين) القلبية أو نظارته، ولكنه تغاضى عن شكوكه، فأعلن صائحاً (القلب والرئة فى حالة ممتازة)، وحتى لو كنت قصير النظر، فإنك ستتعلم فى الجيش كيف تصيب الهدف جيداً، وكان التحاق (بيجين) بالجيش البولندى بمثابة نقطة تحول فى حياته، فقد أدت به إلى فلسطين وإلى قيادة منظمة (أرجون زفاى ليومى)، ولكن المسألة إبان عام ١٩٤٢ لم تزد عن كونها مقامرة، فلم يكن لدى زعماء (حركة التصحيح) الموجودين آنذاك فى (مارجيلان) أى تأكيد بأن جيش الجنرال (أندروز) سوف يرسل إلى (الأرض الموعودة) ويقول (بادر): (لم تكن المسألة تزيد عن مجرد اعتقاد شائع، ولم تكن أى قرارات قد صدرت بعد) ولكن المخاطرة أتت أكلها.

وكانت تجربة (بيجين) البولندية فى هذه المرة، كسابقتها، غير مشجعة إطلاقاً، فقد تلقى تدريبه المبدئى فى جو يسوده العداء للسامية والإهانات والإذلال، وكان عزاؤه أن هذا الوضع لن يستمر طويلاً، فأرسلت وحدته جنوباً عن طريق ميناء (كرازلوفودسك) إلى إيران والعراق ثم شرق الأردن، وكانت الضفة الغربية للأردن قد أصبحت فعلاً فى نظر بيجين هى (أرض إسرائيل).. أرض الاجداد.

وكتب فى مذكراته فيما بعد يقول: (توقفت القافلة العسكرية لنستريح وغادرت العربة وسرت إلى مسافة قريبة عبر الحشائش واستنشقت ملء رئتى من هواء وطنى القومى).

عين (بيجين) فى مايو ١٩٤٢ كاتباً فى القدس، حيث عمل فى مكتب الميجور المسئول عن المدينة، وقد ظل بيجين جندىً عادياً إلى أن أصبح رئيساً لوزراء إسرائيل عندما قامت الحكومة البولندية فى المنفى بمنحه رتبة بريجادير جنرال بأثر رجعى، والتقى (بيجين) وزوجته (أليزا) مرة أخرى فى

القدس، حيث انتقل للإقامة بالحجرة التى تستأجرها بالدور الأرضى فى المنزل رقم ٢٥ شارع الفاسى بضاحية (زحافيا) الظليلة والمفضلة لدى أساتذة الجامعة والمحامين والأطباء اليهود من الطبقة المتوسطة، وحيث تسدد الأحاديث اللغات الألمانية والعبرية والإنجليزية على السواء، وقد ولد أول أبنائهما (بنيامين) فى شهر مارس ١٩٤٣.

وانغمس (بيجين) لفوره فى الشئون السياسية (لحركة التصحيح)، ولكنه على خلاف الجنود اليهود الآخرين رفض ترك الجيش البولندى، وقال بيجين لشريكه القديم فى لعبة الشطرنج (يسرائيل الداد) والذى أصبح عضواً نشطاً فى (عصابة شتيرن): (لقد وعدت وعد شرف، وأقسمت يميناً.. ولن أترك الخدمة) بيد أنه عين رئيساً لحركة (البيطار) فى فلسطين، (وهو مازال فى زيه العسكرى، ولكنه سرعان ما استقال من هذا المنصب عندما علمت المباحث الجنائية البريطانية والمخابرات وبدأوا يتحرون الأمر، ومع ذلك كانت تجرى استشارته فيما يتعلق بمشاكل (منظمة أرجون زفاى ليومى)، وكان يزور معسكرات التدريب التابعة للمنظمة سراً، وبدأ الحديث يتردد فعلاً عن توليه قيادة المقاومة السرية على الرغم من افتقاره إلى الخبرة العسكرية.

كانت (الأرجون) قد وصلت إلى درجة متقدمة من التدهور عندما وصل (بيجين) إلى فلسطين، فقد ضاع منها الهدف بوفاة (جابوتنسكى) وما تلى ذلك من انشقاق (أفراهام) شتيرن عن الجماعة وفقدان قائدها الشاب الملهم (دافيد رازئيل) الذى قتل فى مايو ١٩٤١ أثناء قيامه بمهمة سرية فى العراق بتكليف من البريطانيين.

وقد شهد (ايتان ليفنى) الذى أصبح عام ١٩٤٣ رئيساً لعمليات منظمة أرجون بأن (المنظمة كانت فى غاية القوة عندما وقع الخلاف).

(كان الجيش البولندى يزودنا رسمياً بالأسلحة التى يبعثها لنا أفراد شعبنا فى بولندا، وكان فى استطاعة الأرجون استدعاء أربعة ألوية.. أى

حوالى أربعة آلاف عضو للقتال، وكنا نملك عدة آلاف من البنادق، وعدة مئات من المسدسات، وعشرات من المدافع شبه الآلية التى قمنا بتهريبها من فنلندا، وبضع عشرات من المدافع الآلية البولندية الثقيلة، كما كنا نملك قنابل نقوم بتصنيعها بأنفسنا وكانت تلك الأسلحة تعتبر حديثة آنذاك (وعندما وقع الخلاف، اختفت معظم هذه الأسلحة وانضم حوالى ثمانمائة رجل من بين أربعة آلاف رجل إلى (شتيرن) وبقى فى صفوف (منظمة أرجون) أقل من ألف رجل، أما الباقون فقد تخلوا عن مواقعهم متذرعين بأنه لم يعد فى وسعهم الاختيار بين الجماعتين الموجودتين ـ وربما كانوا صادقين فى زعمهم هذا، وكانت المأساة الكبرى هى أن أحداً لم يكشف عن مكان مخبأ الأسلحة ولم يعد لدى (الأرجون) بعد وقوع الشقاق سوى عدد ضئيل من الأفراد النظاميين المتفرغين لا يزيدون عن الدستة تقريبا.

أما الباقون فقد واصلوا العمل فى وظائفهم، وكان يتم استدعاؤهم للتدريب ولأداء مهام خاصة، وانضم ما يقرب من نصف عدد رجالنا ـ أى خمسمائة رجل ـ إلى الجيش البريطانى فى الفترة بين عامى ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ تماما كما فعل كثير من المنسحبين).

هذا وقد خلف (يعقوب مريدور) (رزائيل)، حيث رقى من الصف الثانى من قيادة (الأرجون) بعد الشقاق الذى وقع مع (شتيرن) ويؤكد (ليفنى) أنه كان محبوبا: (وكان يترك انطباعاً طيباً لدى المحيطين به، وكان يبدو فى صورة (الصابرا) الحقيقى (من ولد فى إسرائيل) الذى تمتد جذوره عميقاً فى الأرض، وبعيداً تماماً عن صورة القادمين من الشتات.

وكنا نعتبر (مريدور) آنذاك أفضل الخيارات أمامنا، ولكنه أصاب كل مواليد (فلسطين) والقادمين الجدد من أوروبا بخيبة الأمل، فقد وجده ليفنى مفرطاً فى الخيال:

(لقد أثبتت الأيام أن مريدور لم يكن رجلاً عملياً وكان يختار الذين

يعملون معه من بين رفاقه، ولكنه لم يكن موفقاً دائماً فى اختياره.. وقامت المؤامرات فى منتصف عام ١٩٤٣ داخل القيادة العليا.. ولم يستطع (مريدور) أن يجمعهم حوله، لقد كان دائماً ودوداً، وكان من بين القلة المتزوجة بيننا وقد حاول أن يتصرف كأنه يرأس جماعة من الزملاء الذين يتساوون فى الكفاءة، وربما كان قد توصل إلى استنتاج ذاتى بأنه لا يتمتع بالقوة والجاذبية الشخصية اللائقة بقائد أعلى).

وصَدَّق (ديفيد جوتان) رفيق (بيجين) من (فيلنا) على هذا بقوله:

(لم يكن مريدور يتمتع بشخصية قوية لائقة بالموقف، لقد كان صادقاً، ويتمتع بخبرة عسكرية واسعة، كما كان محبوباً، ولكن الظروف كانت تستدعى فى ذلك الحين وجود شخص يتمتع بزعامة شعبية، ولم يكن (مريدور) طموحاً، لقد كان شجاعاً أثناء العمليات ولكنه فى الواقع مفرطاً فى التواضع).

وتحولت الأنظار بصورة متزايدة نحو (بيجين) ولكن كان لابد أولاً من إخراجه من الجيش البولندى، ولما كان من الصعب اقناعه بترك الجيش تلقائياً، كما كان من الصعب تسريحه من الجيش بأسلوب شريف، فإن السبيل الوحيد الباقى كان العمل على أن يمنحه البولنديون إجازة طويلة الأجل مع احتمال مدها، وأسندت هذه المهمة إلى (مايك كاهان) المحامى البالغ من العمر ٤٠ عاماً، الذى قَدِمَ من وارسو، وقد وصل (كاهان) الذى كان من التصحيحيين فى وارسو، إلى فلسطين قبل بضعة أشهر من وصول (بيجين)، وكان مسئولاً خلال الثلاثينيات عن الاتصال بالنظام البولندى الحاكم والذى كان يعرف كثيرين من أعضائه منذ أن كان فى المدرسة والجامعة، كما كان وسيطاً فى الحصول على جوازات السفر وتأشيرات الخروج لأعضاء (منظمة بيطار)، فضلاً عن أنه كان قد تلقى تدريباً عسكرياً وكان من حقه ارتداء زى (الوحدة الخاصة) فى سلاح طلبة الكلية العسكرية، وقد تعرض هو أيضاً إلى الترحيل للعمل فى معتقلات الشمال الروسية، قبل أن يفرج عنه لينضم إلى

الجيش البولندى، وتمكن (كاهان) عندما كان يخدم فى العراق، ومن خلال معارفه السابقين قبل الحرب من أن يحصل على تسريح من الجيش لأسباب صحية، واتجه إلى فلسطين مستخدماً تصريح إجازة.. أما بالنسبة لحلقة الاتصال التى كانت ستؤدى إلى خروج (بيجين) من الجيش وانضمامه للمقاومة السرية، فقد كانت مزورة.

فقد كان (كاهان) يزور بانتظام الإدارة الإعلامية البولندية بالقدس، حيث قابل (تريزا ليبكووسكى) التى كانت من الارستقراطية البولندية وإحدى قريبات رئيس بولندا، الجنرال (فلاديساف سيكورسكى) وكانت (تريزا) مهتمة بالمسألة اليهودية فتولى (كاهان) تعريفها بالصهيونية.

وتبنى (كاهان) فكرة استغلالها فى القيام بحملة دعائية بولندية - يهودية مشتركة فى الولايات المتحدة، يروج فيها لجهود (هيلليل كوك) وغيره من (التصححيين) هناك، واقترح كاهان أن يقوم البولنديون كجزء من هذه الخطة بتسريح بعض الجنود اليهود ويرسلونهم للقيام بجولة فى أمريكا، وفى ذلك الوقت عاد (ارياه بن - إليعازر) الذى كان أحد مندوبى الأرجون فى الولايات المتحدة إلى فلسطين حاملاً معه (ألبومًا) يتضمن صوراً تبين كيف قام (التصحيحيون) بتجنيد نجوم المسرح والسينما فى حملتهم من أجل إنقاذ اليهود من أوروبا التى تخضع للهيمنة النازية، وربما كانت الصور تبالغ بعض الشىء فى تقدير تأثير هؤلاء المندوبين، بيد أنهم حازوا إعجاب البولنديين فطلبوا تزويدهم بقائمة بأسماء الجنود اليهود الذين يمكن إرسالهم إلى الولايات المتحدة، وكان اسم (بيجين) من بينها، ولكن بدا أن المؤامرة قد دفنت فى الرمال عندما رفضها البريطانيون.

إلا أن الخطة أمكن إنقاذها عندما نقلت قيادة الأركان العامة البولندية من العراق إلى (ريحوعوت) الواقعة بين القدس وتل أبيب، وأجرى (كاهان) بعض الاتصالات مع كبار الضباط ممن كان يعرفهم فى وارسو، ولم يحصل

على رد فوري ولكنه تلقى فى يوم خانق الحرارة من أيام خريف عام ١٩٤٣ دعوة لتناول الغداء مع أحد الجنرالات، وهو الجنرال نفسه الذى دبر له مسألة تسريحه من الجيش، وقال له الجنرال: (لقد صَدَّقت اليوم على منح كل رجالك إجازة طويلة الأجل) وكان (بيجين) من بينهم، حيث حصل على إجازة لمدة عام، على شرط أن تبدأ المجموعة مباشرة فى أداء مهمتها بالولايات المتحدة، ولقد اعترف كاهان فيما بعد قائلا: إننا لم نكن ننوى إطلاقاً إرسال (بيجين) إلى هناك، وعلى أى الحالات فإن البريطانيين لم يسمحوا لهم بالسفر، ولم يكترث البولنديون باستدعائهم مرة أخرى، ويقول: مايك كاهان لقد كان الضباط البولنديون متعاطفين مع منظمة (الأرجون).

ولم يكن طريق الوصول إلى قيادة الارجون ممهداً تماماً، فعلى الرغم من أن مريدور لم يكن يمانع فى أن يعمل تحت قيادة بيجين كنائب له فإن غيره من كبار الضباط كانوا يرون ضرورة إسناد هذا المنصب إلى رجل عسكرى واعترضوا على (بيجين) لأنه وافد حديثاً على البلاد خبرة فى تخطيط العملية أو كقائد ميدانى، بل إن بعض القادة الإقليميين الذين شعروا بالإحباط نتيجة لعدم تحقيق طموحاتهم، (تركوا) بعد أن استولى (البيطار) البولندى التى كانت أكبر مصدر لتزويد الأرجون (بالقوة البشرية) وليس لديه خاصة بالنسبة للمستويات العليا، ولو كان (ارياه بن إليعازر) لم يغادر فلسطين ويسافر إلى أمريكا عام ٣٩٩١ لأصبح منافساً قوياً لبيجين، حيث إنه كان رجلاً يجمع بين القدرة على الخيال والقدرة على العمل بيد أن (بن إليعازر) كان يشعر بأنه ابتعد عن المسرح أكثر من المطلوب وأن عمله فى الخارج جعله ملفتا للأنظار أكثر مما ينبغى، ولذلك فقد ألقى بكل ثقله وراء ترشيح (بيجين)، وكان (بن - اليعازر) قد عاد أساساً للبحث عن العلة فى عدم فعالية (الأرجون)، وكان تشخيصه هو افتقار المنظمة للزعامة، يقول (إيتان ليفنى) فى هذا الصدد: لقد كان هو الذى أقنع مريدور بضرورة

الانسحاب، ولقد استطاع أن يفعل ذلك بأسلوب ناعم مثل الحرير، كان (بن - إليعازر) الشخصية السياسية الوحيدة الأخرى التى كان (بيجين) يتعامل معها على أساس الندية، كما كان يشاوره بشأن استراتيجيته الخاصة بالثورة.

واتفقت الأغلبية العظمى من قادة الأرجون مع (بن - إليعازر) على حاجتهم إلى قائد يستطيع إشعال جذوة النار القديمة للمنظمة وإحياء ثقتها بنفسها، ووفقاً لأقوال (ديفيد نيف) العضو المخضرم فى (الأرجون) والمؤرخ الرسمى لها فإن المسألة لم تعد بحلول نهاية عام ١٩٤٣، مجرد مسألة تخطيط عمليات عسكرية، لكنها كانت مسألة اتخاذ موقف، لقد حان الوقت لأن يتولى الحركة رجل سياسة بدلاً من قائد عسكرى محترف، فإن كل القرارات أصبحت تحتاج إلى حساسية سياسية، وكانت هذه المواصفات تنطبق تماماً على (بيجين) فهو يحظى بالإعجاب، وكانت سمعته الثورية تسبقه فى كل مكان، كما أنه كان يملك الإدراك السياسى اللازم، أما المعرفة العسكرية فهو يستطيع الحصول عليها من غيره.

■ ■ ■

الفصل السادس

انتهاء الهدنة

قال إيتان ليفنى رئيس عمليات منظمة (أرجون زفاى ليومى)، لمناحم بيجين فى نهاية عام ١٩٤٣: إن القرار الذى ستتوصل إليه سيتم تنفيذه، فإننى ورجالى على أهبة الاستعداد، وبذلك أصبح (بيجين) هو القائد الأعلى الجديد (لمنظمة الأرجون) الذى أعلن من أول فبراير عام ١٩٤٤ التمرد على الحكم البريطانى، دون أن يعوقه عن ذلك إدراكه أن (ليفنى) ما كان يستطيع أن يدفع إلى الميدان بأكثر من ستمائة مقاتل مدرب وكان بيجين قد كتب مسودة النداء المدوى الذى وجهه إلى يهود فلسطين، بينما كان لا يزال نفرا فى الجيش البولندى، أى قبل عدة أشهر من ذلك التاريخ والآن حان الوقت لطبعه فى منشورات ورفعه على اللافتات، ولم يكن الحلفاء قد أنزلوا بعد قواتهم على ساحل نورماندى، وكانت بريطانيا لا تزال مشتبكة فى المعركة مع العدو المشترك «ألمانيا النازية» ولكن كانت الهدنة بين اليهود والبريطانيين قد انتهت فى نظر (بيجين) الذى أعلن:

(إن كل فرد يهودى بوطننا القومى سيقاتل)، وكما رأينا من قبل فإن (بيجين) لم يكن لديه على أية حال فائض من الصبر ليضيفه على تلك الهدنة، وقد أدى ما علمه عن المذابح التى تعرض لها يهود أوروبا وما شاهده فى فلسطين من تطبيق عنيد للقيود فرضها (الكتاب الأبيض)، الذى صدر عام ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية ومن تصد قاس للمراكب المحملة باللاجئين، أدى كل هذا إلى تقوية حدة مشاعره الفطرية التى كانت قد دفعته إلى

معارضة (جابوتنسكى) منذ ستة أعوام.. لقد آن الأوان للنضال و(لتحطيم الأبواب من الداخل).

وأعلن:

(لقد مرت أربعة أعوام على بداية الحرب، وتبخرت كل الآمال التى ذخرت بها صدورنا وكأنها لم تكن، إن أحداً لم يمنحنا مكانة دولية، ولم يتم إنشاء جيش يهودى ولم تفتح الأبواب المغلقة بهذا البلد، لقد أحكم النظام البريطانى خيانته المخزية للشعب اليهودى، ولذلك لم يعد هناك أى أساس معنوى لبقائه فى أرض إسرائيل التاريخية إننا نعلن بلا أدنى خوف انتهاء الهدنة بين الشعب اليهودى والإدارة البريطانية فى أرض إسرائيل، والتى تسلم أخواننا لهتلر، إن شعبنا يعلن الحرب على هذا النظام - الحرب حتى النهاية، وتنحصر مطالبنا فيما يلى: نقل السلطة فورا داخل أرض إسرائيل التاريخية إلى حكومة انتقالية عبرانية.

لقد وصم (بيجين) البريطانيين بالتواطؤ مع هتلر فإن ما يعرفه كان كافيا لإقناعه بأنهم كانوا يشاركون، على الأقل، المعادين للسامية فى سلبيتهم وعدم اكتراثهم بمصير اليهود، وقد أدرك (بيجين) هذا على الرغم من عدم تمتعه بموهبة النظر إلى الماضى من خلال منظور تحليلى والتى يملكها المؤرخون.

ولم يكن يرى أمامه حلاً بديلاً للقتال، ومع ذلك أعلن (بيجين) أن قتال (الأرجون) سيكون نضالاً سياسياً بالأساليب العسكرية، فإن (بيجين) رجل السياسة كان يفرض قيوده الخاصة، فمنظمة (الارجون) على خلاف (عصابة شتيرن) لم تكن تقاتل الإمبراطورية البريطانية، بل كانت حربها موجهة ضد الإدارة فى فلسطين، وليست ضد الحكومة والأمة البريطانية.

وكان (بيجين) يصر إبان مفاوضات عام ١٩٤٤ التى دارت من أجل توحيد الجماعتين المنشقتين، على ضرورة كف أعضاء (عصابة شتيرن) عن استخدام

تعبيرات مثل (الحكم الأجنبى) و(الاستعمار البريطانى) فى دعايتهم.

وعندما تساءل زعيما (عصابة شتيرن)، (ناتان يلين ـ مور) و(إسحاق شامير) عم يستخدمان من عبارات بدلاً من ذلك، اقترح (بيجين) استخدام تعبير (الحكم الظالم).

ولم يكن إصرار (بيجين) المعتاد على ضرورة الدقة اللفظية ـ والذى كثيراً ما كان يثير الغيظ ـ يهدف إلى مجرد الالتزام بعلم معانى الكلمات، فكان يرى أن مسئولية تنفيذ السياسة البريطانية المناهضة للصهيونية تقع أساسا على عاتق الإدارة الفلسطينية، ولذلك فإن الواجب يحتم توحيد القتال ضد الإدارة فى القدس بدلاً من الحكومة فى لندن التى يجب إقناعها بأن سياسة تلك الإدارة تتسم بالإفلاس، وبالتالى فإنها ستجبرها على تغيير سياستها الجارية بأخرى أكثر تعاطفاً تجاه قضية اليهود، وعند ذاك ستعترف لندن بأن اليهود هم القوة الفاصلة وستضع ثقتها فيهم وتعتمد عليهم بدلاً من العرب، وغنى عن القول إن أعضاء (عصابة شتيرن) لم يتأثروا بمنطق (بيجين).

وقد كتب (يلين ـ مور) يقول:

(حاولت أن أشرح له أن التصور بإمكانية الفصل بين الإدارة المحلية وحكومة لندن ليس إلا وهما وأنه غير قائم على أساس من الواقع، ويجب علينا أثناء حرب التحرير، ضرب الجهاز العصبى للحكم البريطانى فى لندن، إن (أرض إسرائيل) ليست لها أهمية بالنسبة للإمبراطورية البريطانية سوى أنها قاعدة عسكرية لفرض الحكم البريطانى على دول المنطقة، وكمحطة على الطريق إلى المستعمرات والممتلكات التى تقع نحو الشرق.

وتمسك (بيجين) بموقفه مؤكداً أهمية التفريق بين التعبيرين، وذلك فى الاجتماع السرى الذى استغرق خمس ساعات مع (موشيه سنيه)، الذى كان آنذاك نائباً لقائد قوات (الهاجاناه) الدفاعية، والذى كان يعرف منذ أن كان

طالباً فى وارسو، وقال (سنيه) أثناء نقاشهما الذى امتد طوال إحدى ليالى شهر أكتوبر ١٩٤٤: (لقد قمت بإعلان الحرب على إنجلترا) فصحح له (بيجين) معلوماته قائلاً: (ليس على إنجلترا، إنما على الحكم الظالم، فإن إنجلترا ليست عدواً لنا، إن هذا هو ما يقوله أعضاء (شتيرن) إنهم يشنون حربا ضد العدو الإنجليزى).

ولما كانت بريطانيا على هذا الأساس ليست العدو، وكانت قواتها تحارب النازيين، فقد فرض (بيجين) على رجاله الالتزام بضبط النفس، فعليهم أن يمتنعوا تماماً عن مهاجمة أى أهداف عسكرية حتى تضع الحرب فى أوروبا أوزارها، وبالمثل لم يكن للزرجون أى مصلحة فى اغتيال أفراد الجنود أو الضباط أو رجال الشرطة البريطانيين، وبدلاً من ذلك فقد جعل (بيجين) هدفه هو النيل من مكانة بريطانيا، وكان يقول إن كل هجوم يعتبر من وجهة النظر السياسية إنجازًا حتى لو لم يكن ناجحًا عسكريًا.

(لقد تعلمنا من التاريخ ومن المشاهدة أن نجاحنا فى تدمير مكانة الحكومة فى (أرض إسرائيل) سيؤدى تلقائياً إلى إنهاء حكمها، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لن نكف عن مهاجمة نقطة الضعف هذه، وظللنا طوال سنوات تمردنا نوجه الضربات إلى مكانة الحكومة البريطانية، عمداً ومن غير هوادة وباستمرار).

(فإن مجرد وجود مقاومة سرية لا تتأثر بالاضطهاد أو بالشنق أو التعذيب أو الترحيل، وإن هذه المسائل لا تؤدى إلى قهرها أو إضعافها، لابد وأن يؤدى فى نهاية الأمر إلى تقويض مكانة أى نظام حاكم استعمارى يبنى وجوده على تصور غير واقعى لقدراته الشاملة، ويعتبر كل هجوم توجهه المقاومة ويفشل النظام فى منع وقوعه، بمثابة ضربة موجهة إلى مكانته، وحتى لو لم ينجح الهجوم فإنه يترك ندبة فى تلك المكانة وتبدأ تلك الندبة تتسع لتصبح شرخاً يمتد مع كل هجوم لاحق).

وأكد (بيجين) فى حديثه مع (سنيه) أن الهدف هو إجبار بريطانيا على إعادة تقويم سياستها، واضطرارها إلى الجلوس إلى مائدة المفاوضات، حيث لم يكن فى وسعها المخاطرة بتعريض نفسها للإذلال فى نظر الدول العربية.

(إن هذا الشىء لن يستطيع البريطانيون ابتلاعه، ولن يستطيعوا تجاهله، إنهم يسكتون اليوم على هذا ولكن عندما تتصاعد موجة نشاطنا فلن يستطيعوا ابتلاعه، وسوف تأتى اللحظة التى سيضطرون عندها إلى التفاوض معنا، إن ما نقوم به سيؤثر على القرارات السياسية).

وكان (بيجين) يؤدى (معزوفته) أيضاً أمام متفرجين أمريكيين، وقال إن الولايات المتحدة تريد مد نفوذها إلى الشرق الأوسط، وأكد أن أى إنهاك لقوة بريطانيا فى المنطقة سيكون إضافة لصالح الأمريكيين، وفى الوقت ذاته، فإن استمرار الاضطراب فى الشرق الأوسط من شأنه إزعاج الأمريكيين بينما هم يحاربون اليابانيين، ولذلك فقد كانت لديهم مصلحة فى التسوية، وأعرب (بيجين) لـ (سنيه) عن توقعه أن يستيقظ الرأى العام الأمريكى ويجبر بريطانيا على تغيير اتجاهها.

وبدأ (بيجين) يمارس نشاطه فى فلسطين باندفاع كبير نحو تحقيق أمانيه بالتأثير فى كل العرب وزملائه اليهود على السواء، لقد كان يؤمن بأن الصهيونية ظلت طوال ٢٥ عاماً فى خطأ جسيم، حيث كانت تتعامل مع العرب على أنهم أعداء، تاركة للبريطانيين فرصة التحكم من وراء الستار، وحاولت (جماعة أرجون) أن تبين فى عملياتها وفى المنشورات، التى قامت بتوزيعها فى المدن والقرى العربية، أن المعركة الدائرة إنما هى معركة بين اليهود والبريطانيين، وعرضوا على العرب تمشيًا مع مفاهيم (جابوتنسكى) التمتع بالمساواة والحكم الذاتى، طالما أنهم يقبلون أن يعيشوا كأقلية فى دولة يهودية، أما إذا لم يرضوا بذلك فإن اليهود سيثبتون لهم أنهم يعرفون كيف يمارسون فن القتال، ولقد كان هذا أسلوباً تكتيكياً أكثر من كونه تفكيراً

فلسفياً، ففى عام ١٩٣٨ لم يتردد (الأرجون) تحت قيادة (رازئيل) فى الانتقام بوحشية من المدنيين العرب كرد على الهجمات العربية ضد اليهود، ولم تتردد، وهى تخضع لقيادة (بيجين) اعتباراً من عام ١٩٤٧ فى مواصلة العمليات الانتقامية ضدهم.

ولقد صُدِمَ (بيجين) عندما كان وافداً حديثاً نسبياً من أوروبا، إزاء استكانة واستسلام (الييشوف) - أى طائفة يهود فلسطين، وتساءل فى مناقشاته مع (سنيه): بماذا ضحى (الييشوف)؟ انهم لم يساهموا إلا بالقليل فى حملة جمع الأموال، والتعبئة وأعمال الإغاثة، وكانوا يكتفون بإغلاق حوانيتهم لبضع ساعات قليلة فى مناسبات الحداد، ولكن كانت المقاهى مفتوحة وكان اليهود منشغلين بتحقيق الأرباح، وأوضح أن منظمة الارجون تحاول أن تثبت لهم أن واجبهم يحتم عليهم القتال، وأن هناك شباباً فى سن صغيرة مستعدون لأن يضحوا بأرواحهم، وادعى (بيجين) أن اليهود يساندونه، على الرغم من كراهيتهم لحظر التجوال وما إلى ذلك من أساليب العقوبات الجماعية (اننا نزكى مشاعرهم ونَعِدُّهم للحرب وبدون الإعداد المسبق، فإن (الييشوف) لن يهُبوا للكفاح فى اليوم المحدد اننا نَعِدُّهم لهذا اليوم).

وذكر (بيجين) لـ (سنيه) الذى جاء بصفته الممثل الشخصى لـ (ديفيد بن جوريون) أن التنافس بين الجماعات العسكرية المختلفة يخدم هدفاً مفيداً من حيث توزيع الأدوار (فالشيرنيون) يقومون بتنفيذ استراتيجية مبنية على الإرهاب الفردى، بينما يقوم (الأرجونيون) بتنفيذ عمليات عسكرية متفرقة، فى حين تستعد قوات (الهاجاناه) للدخول بثقلها فى المعركة النهائية إلا أن هذه كانت نظرية افتراضية ربما كانت لها جاذبيتها فى وقت من الأوقات، غير أن عام ١٩٤٤ لم يكن من تلك الأوقات، ورد عليه (سنيه) بحدة: (لو أن تقسيم الأدوار هذا نبع من مفهوم سياسى موحد، فربما أثمر، أما وهو ينبع من ثلاث وجهات نظر مختلفة فإنه لن يسفر عن ثمار طيبة).

وبدأت (الأرجون) عملياتها الهادفة إلى تقويض المكانة البريطانية بقيامها فى مساء ١٢ فبراير بإلقاء القنابل على مكاتب الهجرة فى القدس وتل أبيب وحيفا، لقد كان عملاً رمزياً ولم يسفر عن أضرار تذكر أو أى ضحايا باستثناء خفير عربى أصيب بصدمة بعد أن استدرج بعيداً عن موقع حراسته بواسطة اثنين من المحبين الهائمين، وقفا يتطارحان الغرام داخل بوابة مبنى مجاور، وكانت الرسالة التى نقلها (بيجين) عن طريق هذا العمل هى أن منظمة (الأرجون) لن تسكت على ما تمارسه الإدارة الحاكمة من صد لليهود عن (الأرض الموعودة) بينما هم يساقون إلى حتفهم فى أوروبا، وبعد أسبوعين من هذه الغارات تبعها رجال (الأرجون) بإلقاء القنابل على مكاتب (الضرائب على الدخل) فى ثلاث مدن رئيسية، وبهجوم شنوه فى ٢٣ مارس على مقر قيادة المباحث البريطانية، ومهما كانت نوايا (بيجين) فإنه أراق فى هذه العملية الأخيرة الدماء لأول مرة منذ أن تولى القيادة، حيث قتل ستة من رجال المباحث بينهم أحد المفتشين واثنان من رجاله، وأثار هذا الحادث اهتمام البريطانيين والمجتمع اليهودى الفلسطينى (الييشوف)، وتكلم ضابط مخابرات بريطانى عن مخاطر (الهجمات المفاجئة) التى يشنها القتلة المتعصبون الذين يستطيعون الانسحاب والاختباء داخل المدن المزدحمة وقال آخر: رغم إيمان الأرجون بأن عليهم القيام بمهمة مقدسة وهى إخراج البريطانيين من فلسطين فإن (هذا لا يعنى أنهم غير مهتمين بالوسائل الكفيلة بتحقيقها، فهم يجمعون بين المهارة والخبث بالإضافة إلى الجرأة والشجاعة، وفرض حظر التجول وألقى القبض على المشبوهين وأعيدت مرة أخرى عقوبة الإعدام ضد كل من يوجد فى حوزته أسلحة أو من يقوم بوضع المتفجرات، وتعلمت جماعة (الأرجون) درساً لم تعره اهتماماً وهو أن عمليات التخريب تعرِّض حياة الأفراد للخطر مهما بلغت كفاءة المخربين أو تلقوا تحذيرات بالتزام الحرص، وتصاعدت حدة الجرأة والطموح فى الهجمات.. فأصابت فى هجماتها التالية محطة إذاعة ومحطة سكك حديدية وحصون الشرطة.

وكانت جماعة الأرجون فى ذلك الوقت، بمقاتليها البالغ عددهم ستمائة مقاتل، أقرب إلى كونها جماعة ثورية منها إلى جيش هجومى ونادراً ما كان أعضاؤها العاملون يزيدون على ألفى شخص، وكانت متماسكة ومرنة، ويربط بين أعضائها مشاعر الولاء الشخصى والانضباط الأيديولوجى، وكقائد عسكرى مستجد، فإن (بيجين) تعلم بسرعة وكان منذ البداية يحسن تحديد الهدف، ولم يشترك خلال العام الأول فى وضع التفاصيل التكتيكية، ولكنه استطاع تدريجياً أن يصبح القائد العسكرى الأعلى داخل مقر القيادة، وإن لم يكن كذلك فى الميدان، وكانت لديه ثقة لا متناهية فى رؤساء عملياته المتعاقبين، سواء كان ذلك (ليفنى) أو (أميهاى باجلين) وكان يوجه دائماً الأسئلة المناسبة، ويقول (ليفنى) الذى كان يجتمع يوميا و(بيجين).

كان تواقاً دائماً إلى معرفة التفاصيل، ويغرقنى بوابل من الأسئلة.

لقد كان (بيجين) يريد معرفة كل ما يجرى، فمثلاً كان علىّ أن أقوم بترشيح قائد كل عملية وأسماء الذين يجب ترقيتهم، وكنا نمزح، مع أنى ذو طبيعة منطوية، وكنت أقول له أسهل علىَّ أن أكرر نفس العمل من أن أقوم بشرحه له، أما هو فكان يؤمن دائما بالتفكير بصوت مرتفع والمشاركة فى عملية التوصل إلى القرار ونتيجة لتمرسه على الانتقال من عملية إلى عملية أخرى تزايد فهمه للمسائل العسكرية.

ثم يستطرد (ليفنى)

(وكنت أقدم الاقتراحات، ولكن كان (بيجين) وأعضاء القيادة العليا الخماسية هم الذين يختارون الأهداف، وكان (بيجين) يهتم بما أقوله بالنسبة للمسائل الفنية، ولكنى ما كنت لأرى، مثلاً، أن من الملائم أن يكون هدف العملية الثالثة هو الهجوم على مقر المباحث الجنائية البريطانية.

لقد بدأنا تدريجياً من الصفر حتى كبرنا، وكان علينا أن نكتسب الخبرة،

فلم نكن قد قمنا بعمليات منذ أربع سنوات ولكن (بيجين) كان يطالب فى اجتماعات القيادة العليا، التى كانت تنعقد كل أسبوع بتحديد أهداف تترك انطباعاً ضخماً فى أنحاء العالم، وأحياناً كان يطالبنا بوقف العمليات، إن الأمر الذى كان يثير إعجابى ببيجين، هو منطقه التحليلى وقدرته على التحليل السياسى، لقد ساعدنى ذلك على الاقتناع بإمكانية نجاح حربنا، وبالفرص المتاحة أمامنا فى المستقبل).

وكانت (منظمة الأرجون) مثل كل المنظمات الثورية السرية، تواجه مشاكل داخلية متعلقة بالأمن والموارد، ومشاكل خاصة بالخيانات والتمويل والمؤن، ووفقاً لشهادة (بيجين) نفسه وزملائه فإنه كان يتردد كثيراً فى إصدار حكم إعدام ضد الخونة الوشاة، وكانت هذه شخصية (بيجين) المحامى مع وقف التنفيذ، والرجل الرحيم الذى يؤمن بقدسية حياة اليهود.

ووفقاً لأقوال (ليفنى) فلم يعدم زمياً بالرصاص أثناء قيادة (بيجين) للارجون، سوى اثنين فقط من الخونة، فى حين صدر العفو عن عشرة آخرين (لقد كنت أؤيد صدور الحكم بالإعدام فى إحدى القضايا، ولكن (بيجين) قال لى: لقد درست المحاماة ولن يقبل أى قاضٍ مدنى الأدلة التى نقدمها للحكم بالإدانة)، ولقد أخذنا برأيه.

وقد أدى تردد (بيجين) إلى إفلات واحد من أكثر وشاة الأرجون خيانة بدون عقاب، وكان هذا الشخص هو (يعقوب شيليفتس) عضو (حركة التصحيح) القادم من (فيلنا) والذى كان يشترك فى حملة جمع التبرعات، وكانت له اتصالات قوية داخل (الأرجون) وقام (شيليفتس) فى مارس ١٩٤٤ عندما كان (بيجين) لازال يعيش فى القدس وأسرته، بشراء هدية بمناسبة عيد الميلاد الأول (لبنيامين بيجين)، وحضرت الشرطة فى اليوم التالى لاعتقال قائد الأرجون الذى تصادف أن كان خارج المنزل.

وكانت زيارة الشرطة بمثابة إنذار، فاختفى (بيجين) فى (تل أبيب) وكان

واثقاً من أن (شيليفتس) أحضر الهدية خصيصاً من أجل معرفة مكان سكن (بيجين)، وقد قام فيما بعد بتقديم قائمة بأسماء قادة الأرجون - ومن بينهم (بيجين) و(مريدور) و(بن - إليعازر) - إلى المباحث البريطانية.

وتم اعتقال (بن - إليعازر) بناءً على ذلك البلاغ ووقعت القائمة فى يد الأرجون.. فلم تكن (منظمة الأرجون) هى الوحيدة التى تعانى من مشاكل أمنية.

وعندما أوصى ضباط الأرجون بتنفيذ العدالة الثورية فى (شيليفتس) أصر (بيجين) منحه فرصة للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له، واستدعى أمام محكمة من ثلاثة أعضاء، وعندما رفض الحضور استدعى مرة أخرى، ففر إلى مصر، ورأى زملاء (بيجين) أن هذا القرار يعتبر دليلا كافيا على إدانته، بيد أن القائد لم يكن قد اقتنع بعد.

ويقول (بيجين) عن هذه الواقعة:

(لقد قلت إنه ربما يكون قد خاف من توجيه هذا الاتهام الفظيع إليه، وربما كان هذا هو السبب فى فراره إلى مصر، وقلت إن من الضرورى أن نرسل له أمرا بالعودة لمواجهة المحاكمة، وكان يوجد آنذاك جنود فى الجيش البريطانى من أعضاء الأرجون، واتجه اثنان منهم لمقابلة (شيليفتس) فى أحد فنادق القاهرة ليطالباه نيابة عنى بالعودة، فقام بتسليمهما إلى الشرطة العسكرية.

وعندئذٍ فقط وافقت على أن يكون هذا دليلاً كافياً على إدانته، وقام البريطانيون بإبعاده عبر المحيط إلى الولايات المتحدة، وقد كنا نعرف هذا ويقال إنه مازال موجوداً فى أمريكا، ولكننا لا نكترث بأمره).

ولما كانت القيادة الرسمية للحركة الصهيونية قد حرمت (الأرجون) من الحصول على الأموال والمعدات، فقد كانت عليها أن تحاول الحصول عليهما من أى مكان، لقد كان لدى (إيتان ليفنى) فى مستهل عام ١٩٤٤ ستون مسدساً صالحة للاستخدام وثلاثة مدافع شبه آلية مسروقة من معسكر

بريطانى، وعـدد من البنادق وبضع مـئـات من القنابل اليـدوية، وطنان من المتـفـجـرات، ولم تـكن هذه الأسـلحـة تـكفى للقـيـام بثـورة، ومـارسَ أعـضـاء (الأرجون) من أجل الحصول على المزيد من الأسلحة عمليات السرقة والنهب والاغتصاب من اليهود الذين كانت المنظمة تتطلع إلى قيادتهم فى يوم ما، وأمكن فى عام ١٩٤٥ الاستيلاء على ما قيمته ٣٨ ألف جنيه من الماس أثناء غارة على بعض الرسائل من الطرود البريدية، كما استولوا على مبلغ مماثل تقريباً نتيجة لغارة على قطار يحمل أجور عمال السكك الحديدية، وقد قتل فى تل أبيب اثنان من المارة حاولا التدخل لمنع عملية سطو قام بها رجال مسلحون من الأرجون على خزينة شباك تذاكر سينما (عدن) بالمدينة ويزعم (ليفنى) أنهم كانوا يسرقون من البريطانيين كلما أمكنهم ذلك.

ويقـول: (لقـد صـادرنا فى إحـدى المرات أمـوال بنك يهـودى، وكنت قـد اقترحت هذه العملية على (بيجين) الذى طلب منى أن أستكشف الشركة التى يؤمِّن لديها البنك، وعندما اكتشفت أن شركة التأمين هى (لويدز) اللندنية وافق (بيجين) على العملية أومهما يكن من أمر فإن مخابرات (الهاجاناه) حصلت على قائمة بأسماء (المساهمين) الذين يموِّلون (الأرجون)، وكانت تتضمن ٦٤٠ فردًا وشركة ومؤسسة يهودية فى تل أبيب وحدها، بما فى ذلك عدد من أعضاء الهاجاناه ذاتها الذين تعرضوا للإرهاب حتى يدفعوا.

وكان السبب الأساسى الذى أدى إلى فشل اتصالات (بيجين) المبكرة مع (عصابة شتيرن) و(الهاجاناه) بصرف النظر عن الواجهة الأيديولوجية هو: رفض قائد الأرجون المشاركة فى السلطة أو الاستسلام لرأى أحد آخر لا ينتمى إلى صفوفه، لقد كان (صاحب فكر أحادى، عنيداً يتمتع بثقة متناهية فى النفس فليس هناك شىء أو مخلوق من حقه أن يتصور أنه يستطيع الوقوف فى سبيله، حتى لو كان القيادة المحلية (لحركة التصحيح) التى حرص (بيجين) طوال فترة التمرد الذى قاده، على الفصل فى ازدراء بينها

وبين الأرجون فإن (التصحيحيين) كانوا مهذبين أكثر من اللازم ومازالوا يتمسكون بسياستهم القائمة على التعاون مع بريطانيا فى زمن الحرب.

ووفقاً لأقوال (يلين - مور) فإن (بيجين) قدم إنذارًا نهائيًا إلى عصابة (شتيرن) معلناً أن عليهم كشرط لعودة الوحدة بينهما أن يعترفوا (بجابوتنسكى) كموجه للجيل، وكان (يلين مور) مثل (بيجين) قد تربى فى ظل (جابوتنسكى)، ولكنه على خلاف (بيجين) تطور وبَعُدَ عنه ولم يعد (جابوتنسكى) هو مرجعه الأوَّلى ولقد أبدى (يلين - مور) بعد عدة عقود من ذلك الحين نفس الروح الاستقلالية المبدعة عندما نادى بالتعايش السلمى مع الفلسطينيين العرب بينما كان (بيجين) لا يزال يردد الأقوال التى أدلى بها(جابوتنسكى) أمام (لجنة بيل) فى عام ١٩٣٧.

وكان (يلين - مور) و(شامير) يشعران فى عام ١٩٤٤ أنهما لا يمكنهما السجود لروح (جابوتنسكى) دون أن يخونا ذكرى زعيمهما افراهام (أو، يائير، شتيرن).. الذى قتل فى فبراير ١٩٣٢ عندما أطلق بريطانى الرصاص عليه، وكان (شتيرن) قد تمرد على دعوة (جابوتنسكى) عندما اشتعلت الحرب فى أوروبا، بوقف إطلاق النار على البريطانيين ولكن كما يقول (يلين - مور) كان وراء رفض (عصابة شتيرن) لشروط (بيجين) سبب عملى أهم من الأسباب المبدئية:

إننا كنا سنضطر عند أى اختلاف فى الرأى يقوم بيننا - ولابد لمثل هذه الخلافات أن تقوم - أن نلجأ دائماً إلى تعاليم (جابوتنسكى) للبحث عن حلول لمشاكل لم يكن لها وجود فى عهده، وإذا وقع أى اختلاف فى الرأى فى تفسير آرائه المدونة، فمن الذى يحق له حسم المسألة؟ وسألت (بيجين) مستوضحا: كيف يكون الأمر إذا ظهرت خلافات فى الرأى بين المنظمتين؟ من الذين سيحكم بينهما؟ ولم يتردد بيجين فى القول بأسلوب أشبه بالاشتراط:

فى هذه الحالة فإن حق اتخاذ القرار يكون له، وعند ذلك وعلى الرغم من معرفتنا القديمة ببعضنا وتعاوننا معاً على مر السنين فقد أصبت بالذهول.

فقد كان (بيجين) واثقاً كل الثقة من نفوذه المعنوى، حتى أنه لم يشك للحظة فى أنه وحده هو صاحب الحق، بلا منازع فى إصدار الأحكام.

وقد اعترف (بيجين) فى حواره و(موشيه سنيه) نائب قائد قوات (الهاجاناه) بأن (بن جوريون) هو الزعيم السياسى (لليشوف) (يهود فلسطين)، وأعلن أن الأرجون لم تكن لديها الرغبة فى الحكم، وأنها ستسير وراء راية بن جوريون بمجرد أن يعلن الحرب على الحكم البريطانى.

ولكن حتى يحدث هذا، فإن أى تفكير فى أن للهاجاناه حق الاعتراض على نشاط (الأرجون) مرفوض ولا يمكن التوقف حتى يتم بحث احتمالات التعاون بينهما، وأردف بيجين يقول لـ (سنيه) (أى سنيه) إنما يتكلم معه لمجرد أن (الأرجون) تقاتل، ولو لم تكن المنظمة تقاتل لما أصبح لها ذكر، وأكد أن الرضوخ (لبن جوريون) قبل الأوان المناسب إنما سيعنى القبول بالتصفية التلقائية للمنظمة، ولم يتأثر (بيجين) بالحجج القائلة بأن القيادة الرسمية وحدها هى المنتدبة من قبل (اليشوف) كما لم يتأثر بقول (سنيه) فى مجادلاته إن (بن جوريون) أكثر علماً بما يجرى فى المحيط الدبلوماسى الأوسع نطاقاً، ومن ثم فإنه أقدر على اتخاذ القرارات الأصوب بالنسبة للمصلحة اليهودية.

وقد تم لقاء الصديقين القديمين فى جو يسوده الشعور بأن ثمة أزمة وشيكة الوقوع، فقد لاحظت القيادة الرسمية سواء كانت مخطئة أو على صواب فى ذلك، دلائل تشير إلى تحسن فى الموقف البريطانى من التطلعات الصهيونية، وأطلع سنيه بيجين على التلميحات التى أدلى بها (ونستون تشرشل) لحاييم وايزمان بإجراء تقسيم جيد بمجرد انتهاء الحرب، كما تمت أخيراً الموافقة على إنشاء كتيبة يهودية ملحقة بالجيش البريطانى، وهو الأمر الذى طالما أجرى الصهاينة اتصالات ومارسوا الضغوط من أجل تحقيقه.

وكان القلق يسيطر على بن جوريون وزملائه إزاء احتمال أن تتعرض هذه

الآمال للإحباط نتيجة للحملة الإرهابية، كما كانوا يخشون فى الوقت ذاته من ألا يتوقف تمرد المنشقين عند الإضرار بالبريطانيين، على الرغم من عدم وجود ما يشير فى تصريحات بيجين حتى تلك اللحظة إلى ما يؤكد مخاوفهم من حدوث ثورة كاسحة، بيد أن ردود (بيجين) لم تعمل على تبديد مثل هذه المخاوف، فقد أعرب قائد (الأرجون) عن عدم ثقته فى انصاف الوعود التى يقدمها (تشرشل)، وأعلن (بيجين) أنه لا يمكن وصف أى تقسيم خاصة إذا كان قاصراً على (أرض إسرائيل الغربية) بأنه جيد وكان سنيه يشعر ربما أكثر من (بيجين) بتزايد حدة المطالبة بقيام (الهاجاناه) بوقف المنشقين عند حدهم، وقد انتهى الاجتماع بينهما، كما جاء فى تقريره بنغمة يائسة: قلا له: (لا أعرف إذا كان هناك يهودى آخر يريد تجنب وقوع قتال بين اليهود وبعضهم البعض، أكثر مما أريد.. وعلى هذا فأنا أقول لك إننى أخرج من هذا الحوار وأنا أشعر باكتئاب تام.. فالخلاصة كانت واضحة تماما: (انهم يريدون فرض طريقتهم على الجميع).

وكان (بن جوريون) قد أبلغ اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية، منذ وقت مبكر فى ابريل عام ١٩٤٤ بعدم وجود أى حل بديل وعلينا أن نقابل القوة بالقوة، ولاشك أن هذا القرار يعتبر كارثة، ولكن وقوع كارثة محدودة كان أفضل من نجاح مجموعة صغيرة فى فرض سيطرتها على (اليشوف) وأصبح كابوس القتال بين الأخوة حقيقة واقعة بحلول نهاية العام، فقد عقد اجتماع أخير بين (بيجين) و(الياهو جولوم) رئيس (موشيه سنيه) الذى كان قد عاد لتوه من مهمة رسمية إلى لندن، وخرج (جولوم) من الاجتماع وقد ازداد اقتناعاً بمدى فداحة الضرر الذى يلحقه المنشقون بالمساعى الدبلوماسية الصهيونية، وأعلن فى مؤتمر صحفى: (إذا اضطررنا لاستخدام القوة ضد أولئك الذين يرتكبون هذه التصرفات الضارة المعتوهة فإننا لن نتردد فى ذلك)، وأكد (جولوم) بعد اجتماعه العقيم مع (بيجين) أن على

(البيشوف) أن يتخذوا كافة الإجراءات الكفيلة بوقف نشاط الأرجون.

ولقد سبق السيف العزل فى ظرف أسبوع واحد، إذا حدث فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ أن قام رجلان مسلحان من عصابة (شتيرن) فى القاهرة باغتيال اللورد (موين) الوزير فى حكومة تشرشل لشئون الشرق الأوسط.

ولم يكن (بيجين) وجماعته قد تلقيا أى إنذار مسبق بالعملية على الرغم من أن الجماعتين كانتا تمران بمرحلة اتصالات إيجابية بيثهما ودفعت منظمة (أرجون) بدلاً من (عصابة شتيرن) ثمن مقتل (لورد موين)، فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية فور انتشار النبأ وقررت دعوة (البيشوف) إلى نبذ جميع أعضاء هذه العصابة المخربة والمدمرة، وحرمانهم من المأوى والملجأ وعدم الاستسلام لإرهابهم وتقديم كافة المساعدات اللازمة للسلطات من أجل وقف أعمال الإرهاب وتصفية المنظمة المسئولة، فإن بقاءنا فى حيز الوجود يتوقف على هذا وكتب (الياهو جولوم) يقول: (لم يعد هناك مجال لمناقشة أساليب القضاء على وباء الجرائم الإرهابية، وأصبحت الحاجة إلى منع هذه الجرائم فوراً تتصدر كل الاعتبارا الأخرى، وتستدعى اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بمساعدة السلطات على وقف هذه الجرائم).

لقد تركت تلك الفترة التى أصبحت تعرف باسم (السيزون) (موسم الصيد) ندبة جديدة فى نفسية (مناحم بيجين)، لقد كان الأمر يبدو وكأن قابيل وهابيل قد بعثا من جديد فى العصر الحديث، وإذا لم يقتل الأخ أخاه، فإنه يترك وظيفته ويفصل أبناءه من مدارسهم ووفقاً لما جاء فى سجل التاريخ الرسمى للهاجاناه قام (المتطوعون) اليهود باحتجاز عشرين رجلاً لاستجوابهم كما تم التحرى عن واحد وتسعين آخرين بدون القبض عليهم.

وسُلِّمت أسماء ما يقرب من سبعمائة شخص ومؤسسة كانت لها علاقة بالأعمال الإرهابية والابتزاز الإرهابى، فضلاً عن أسماء بعض المساهمين المتطوعين أو المرغمين على تمويل (الأرجون) إلى المباحث الجنائية البريطانية

ويقال إن ثلاثمائة منهم قد اعتقلوا بموجب هذه القوائم، وتفيد تقديرات أخرى بأن عدد المقاتلين من (الأرجون) والمؤيدين لها الذين سُلِّموا إلى البوليس بلغ ألف شخص، وقد أمكن خلال (موسم الصيد) أو (السيزون) الذى استمر على مدى ٧ أشهر القبض على كل القيادات العليا تقريباً واحتجز رجال (الهاجاناه) أحد هذه القيادات وهو (إيلى تامين) رئيس مخابرات (الأرجون) ووضعوه فى الحجز الانفرادى من شهر فبراير حتى أغسطس عام ١٩٤٥ بمستوطنة (عين حيروت) وكان محتجزوه يريدون انتزاع المعلومات منه، وكانوا مستعدين فى سبيل ذلك لأن يضربوه ويعلِّقوه على الحائط وأن يلكموه فى أسنانه حتى تنخلع ثم تركه مسلسلاً فى قذارته ويوهموه بأنهم سوف يعدمونه، وعندما انتهى (الموسم) فى شهر يونيو شعروا فى بداية الأمر حرجاً شديداً منعهم من إطلاق سراحه فوراً.

وقد تمكن (بيجين) نفسه من مراوغة جماعة المطاردة، وقال (شيمون افيدان) الذى قاد (موسم الصيد): أجريت عدة محاولات للايقاع ببيجين ولكنها فشلت جميعاً، وكنا كلما نبلغ المكان الذى تصلنا الأخبار بوجوده فيه نجده قد تركه، وكان من بين المكلفين بالبحث عنه (مائير باعيل) القائد الشاب لإحدى وحدات الهاجاناه والذى أصبح فيما بعد العضو اليسارى بالبرلمان.

ووصلت أنباء إلى (باعيل) ورجاله تفيد بأن (بيجين) سيتناول غداءه وهو متخف بأحد المطاعم فى شارع الأنبياء بالقدس يقول باعيل: (صدرت إلىّ الأوامر بالقبض عليه وإحضاره إلى (عين حيروت)، حيث أقام (الهاجاناه) سجناً صغيراً، وانتظرنا عند المطعم أربعة أيام ولكنه لم يحضر، وكنا نتناول الطعام فى المطعم بالتناوب، فكان أربعة منا يدخلون بينما كان الخامس ينتظر فى الخارج مع سائق التاكسى).

وقد سأل بيجين، عندما أصبح رئيساً للوزراء ١٩٧٧ زميله عضو البرلمان، عما إذا كانت هذه الرواية صحيحة، فرد عليه (باعيل) بالإيجاب، وأكد له أنه

لو كان قد أمسك به لما أمكنه الإفلات منه.

- وماذا كان سيحدث لو حاولت المقاومة؟

- كنا سنضربك.

- وإذا كان هناك أشخاص مستعدون لحمايتى.

- كنا سنضربهم أيضاً، أما إذا استسلمت كنا سنضعك فى سيارة التاكسى ومعك ثلاثة أشخاص يمسكون بذراعيك، وكنا سنضع نوعاً من الكمامة فى فمك ونلقى بك فى حقيبة السيارة ونغلقها عليك لو أننا شككنا فى أنك ستسبب لنا متاعب.

وأضاف (ماعيل) كنوع من المواساة أن مهمته كانت تقتضى على أى حال تسليمه حياً ولكن ليس للبريطانيين وقام رئيس الوزراء عندئذٍ واحتضنه.

ولم يكن الغموض فى المسألة ينصب على السبب فى فشل (باعيل) فى القبض على (بيجين) بقدر ما كان فى السبب الذى دعا الهاجاناه إلى الاعتقاد بأنه سيحضر إلى القدس، فإن قائد (الأرجون) ظل فى الواقع مختبئا تحت أسماء مختلفة من ربيع عام ١٩٤٤ حتى نهاية التمرد، بمنطقة تل أبيب وكان أول ملجأ له هو فندق السافوى المتواضع الذى يقع بين شارع (الينبى) وشاطئ البحر، وحيث نزل تحت اسم (مناحم بن - زئيف).

وقد قامت جماعة إرهابية فلسطينية جاءت عن طريق البحر بعد ثلاثين عاماً من نزول بيجين بالفندق بالاستيلاء عليه، وكانت حالة الفندق قد تدهورت كثيراً ودمر نصف المبنى المصنوع من الأسمنت عندما اقتحمته فرقة هجومية إسرائيلية وقتلت جميع الإرهابيين باستثناء واحد منهم فقط، وكان (بيجين) قد اختار ذلك الفندق لعدم حصوله على فرصة كافية من الوقت للبحث عن مكان أفضل، وأيضا عملاً بالمبدأ القائل بأن (أكثر الأماكن ظلاماً هو ذلك الواقع مباشرة تحت المصباح)، وقد ترك (السافوى) بعد أن

نجا بأعجوبة، فقد قاد مدير الفندق فرقة تفتيش بريطانية متخطياً بحذر الغرفة رقم ١٧ حيث لم يكن يعرف شخصية (بيجين) الحقيقية، ولكنه شعر أنه غادر الفندق بغرض قضاء إجازة: (هذه هى كل الغرف عندى). .

وانتقل (بيجين) من الفندق بعد ذلك، وبصحبته زوجته وابنه إلى منزل منعزل فى القطاع اليمنى فى (بتاح تيكفاه) وكتب يقول عن تلك الفترة: إن الظروف هناك كانت صعبة، وكان المنزل مهملاً وكانت الريح تعصف ليلاً ونهاراً من خلال نوافذه المحطمة، وفى المساء كان الطقس بارداً والظلام حالكاً فلم تكن هناك كهرباء أو تدفئة مركزية، ولكن من دواعى سروره أنه كان ينام على ملاءات تم شراؤها خصيصا للمندوب السامى البريطانى سير (هارولد ماك ـ ميتشل) الذى كان (الأرجون) قد وضعوا خطة فى يوم ما لاختطافه، كان البيت الصغير غير مريح، وبالإضافة إلى ذلك كان معرضاً للمخاطر، وكانت العائلات البولندية تبدو واضحة وضوح النهار فى وسط اليمنيين من ذوى البشرة السمراء، ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ التساؤلات تتردد حول الغريب الذى لا يخرج أبداً إلى العمل.

وتولى (الأرجون) نقل (بيجين) وأسرته إلى منطقة (حاسيدوف)، وهى منطقة عمالية على أطراف (بتاح تيكفاه) حيث انتحل مناحم لنفسه اسم (يسرائيل هالبرين)، وكثيرا ما كان المسكن يتعرض لانقطاع المياه، ولم تكن الكهرباء قد أدخلت إليه بعد، بيد أن (بيجين) الذى كان مازال فى مرحلة (الاختفاء المفتوح) كان يجد عزاءً فى الحقول وحدائق البرتقال وخضرة الحدائق والأشجار الكثيفة، وقدمت عائلة (هالبرين) نفسها على أنها عائلة بولندية لاجئة، وفسرت (اليزا) سبب عدم خروج زوجها إلى العمل بأنه عاكف على الدراسة ليتقدم إلى الامتحان فى القانون الفلسطينى، وذكرت أن اللجنة المشتركة وهى جمعية خيرية يهودية هى التى تتولى مساعدتهم حتى يتخرج، وكانت القيادة العليا للارجون تجتمع فى المطبخ على ضوء مصباح الجاز أو الشموع، وكانت

العائلة تتنزه سيراً على الأقدام فى أيام السبت فى حدائق البرتقال.

وتعرضت عائلة (بيجين) أثناء إقامتها فى منطقة (حاسيدوف) لأول تجربة لها مع عمليات التفتيش الشامل التى يقوم بها الجيش البريطانى.

ففى فجر يوم ٥ سبتمبر ١٩٤٤ تم تطويق بلدة (بتاح تيكفاه) التى كانت مشهورة بإيواء الإرهابيين، وفرض فيها حظر التجوال وقرر (بيجين) وواحد من ضباط قيادته الذى أمضى الليلة معه أن ليس هناك أى مغزى من فرارهما للاختباء فى الغابة لأن ذلك من شأنه أن يلفت نظر الجيران إليهما، إن لم يكن نظر القوات، ومن ثم يصبح القبض عليهما أمرا محتوما، وقررا أن يتصرفا بأعصاب هادئة ويتمسكا بمظهر البراءة، فجلس القائدان على سلم المنزل وهما يتفرجان على الدبابات والمدرعات البريطانية أثناء مرورها عند آخر الشارع، وأسرت جارتهم مسز (سيجل) فى انزعاج لمسز (بيجين) قائلة: (ليس هناك ما يزعجك يا مسز (هالبرين)، أما أنا ففى حوزتى بطاطين الجيش بالمنزل، وزال الخطر بحلول الظهر، ورفع حظر التجوال وقد تجاهل الجيش لسبب غير معروف حى (حاسيدوف) ولكن عندما امتد التوتر الذى سبق (موسم الصيد) إلى المنطقة بدأ الحى أقل أمناً وبدأ الناس يتطفلون فى فضول وحان وقت الانتقال إلى تل أبيب.

واختفى (يسرائيل هالبرين) من الوجود وجاء (يسرائيل ساسوفر) اليهودى الأرثوذكسى الملتحى الذى يرتدى طاقية سوداء للإقامة فى شارع (يأهوشا بن نان) الواقع بين مذبح البلدية ومأوى كلاب البلدية، وأضافت الذقن عشر سنوات إلى عمر (بيجين) وكان قد فسر للجيران عدم حلاقته لذقنه خلال الشهر الأخير من إقامته فى (بتاح تيكفاه) بأنه فى حالة حداد، وكان أثناء وجوده فى (تل أبيب) يذهب للصلاة بانتظام فى المعبد المحلى، مثل اليهود المتدينين، وكان الجيران يرتابون فى أنه واحد من الطلبة (المستديمين) فى المعاهد الدينية، والذين لا يزاولون أبداً أى عمل ويعيشون من ريع مهور

زوجاتهم، ورزق بيجين أثناء إقامته وعائلته فى شارع (يأهوشا بن ـ نان) بثانى أطفاله، وكانت فى هذه المرة طفلة أسماها (هاسيا) تيمناً باسم أمه، وسجل المولودة باسم (هاسيا ايشتاين) نسبة إلى يسرائيل ايشتاين، أحد أصدقاء بيجين المقربين والذى اضطر إلى القيام بدور الأب السعيد وزار (أليزا) وابنتها فى المستشفى.

وكاد البريطانيون يكتشفون مكان اختباء (بيجين) فيما بين المذبح ومأوى الكلاب، مرتين: المرة الأولى عندما مسحوا شارع (ياهوشا بن ـ نان) بالأنوار الكاشفة، وجابوا الشارع جيئة وذهاباً بحثاً عن مخابئ الأسلحة ورابط (بيجين) مترقباً فى منزله، ولكن أحداً لم يطرق بابه.

وانتهت عملية التفتيش بحلول الفجر، كان هذا فى أواخر عام ١٩٤٥. أما فى المرة الثانية فجاءت بعد ذلك بعام تقريبا عندما نسف فندق (الملك داود) فى القدس.

وفى هذه المرة الأخيرة كان من الواضح أن الجيش يعرف جيداً ما الذى يبحث عنه، واختبأ (بيجين) فى غرفة صغيرة سرية تحت سقف المنزل أعدها (يعقوب مريدور) خصيصاً لمواجهة مثل هذه الطوارئ.

وشعر (بيجين) أن التفتيش عنه أخذ يقترب، وعلم من الراديو الذى تركته (أليزا) مفتوحاً عالياً عن عمد حتى يسمعه، أن حظر التجوال سيستمر عدة أيام، وأن التفتيش سيمتد إلى كل منزل وكل ركن، وعسكرت جماعة من الجنود فى حديقة منزل (بيجين) واصطحبوا (أليزا) مع طفليها لاستجوابها، وادعت أنها لا تعرف الإنجليزية، وقالت من خلال مترجم إن زوجها ذهب إلى القدس، وأعادها رجال الشرطة البريطانية إلى منزلها، ولكن عاد رجال الجيش مرة أخرى لتفتيش المنزل، حيث قاموا بفتح الدواليب والبحث تحت الأسرة، والنقر على الجدران، بل إنهم نقروا على المكان الذى يختبئ فيه (بيجين)، وظل بيجين محشوراً فى ملجئه الضيق لمدة ثلاثة أيام مضنية

بلياليها خلال حرارة شهر أغسطس، وقد أعادت هذه الفترة إلى ذهنه تجربة الحبس الانفرادى التى مر بها فى (فيلنا).

ويقول بيجين:

كان هناك بعض نواحى التشابه بين التجربتين، ففى سجن (لوكشيكى) كان الطقس حاراً نهاراً، بارداً ليلاً، أما هنا فإن الحرارة كانت لطيفة وخانقة نهاراً، وكانت الأرض هناك من الحجارة أما هنا فكانت من الخشب، وكانت عظام المرء هناك تصرخ من الألم ولم يكن الألم هنا أقل حدة، وكان المرء لا يجرؤ على التحرك إطلاقاً.. وهناك كانت الحاجة ماسة إلى الطعام، وهنا إلى الماء وفى هذا الصدد يقول:

لقد كانت هذه هى أسوأ محنة أمر بها، لقد عانيت من عدم وجود الماء ومن عدم تناول الطعام فى (لوكيشكى) وفى غيره من الأماكن، وقد تعلمت هنا لأول مرة معنى الحرمان من الماء وعانيت من الجوع والعطش، إنهما تجربتان قاسيتان من الأفضل ألا يتعرض المرء لهما، ولكن إذا كان لى خيار فى الأمر لاخترت الجوع بلا تردد، فالعطش الممتد رهيب.

وبدأت أشعر بالدوار، وبدأ الجفاف يشمل جسمى، ومما زاد من عذابه أن الجنود المرابطين فى الحديقة أخذوا يدلفون إلى المنزل، طالبين الحصول على شراب، ولكنهم انصرفوا فى اليوم الرابع، فدقت (أليزا) على المخبأ بيد المكنسة.. واحتفل بيجين بخروجه من سجنه الاختيارى بأن أغرق رأسه فى إناء ملىء بالماء البارد، المرة تلو الأخرى وهو يشرب، (لم أستطع أن أصبر، فقد كنت أشعر بجفاف تام، كان كل ما أحتاج إليه هو الماء.. الماء).

اعترف فيما بعد الجنرال سير (أفلين باركر) القائد العام البريطانى أن أسلوب التطويق والتفتيش لم يسفر إلا عن نتائج ضئيلة جدا، وقال:

(عندما أنظر إلى الوراء، لم أجد أى أسلوب آخر كان يمكن استخدامه

فى معالجة المشكلة، وعندما ذهبنا إلى تل أبيب كان (بيجين) موجوداً هناك مختبئاً داخل دولاب، وكان يوجد مساعد عريف وثلاثة جنود يرابطون فى حديقة بيته، ولكنهم لم يفتشوا المكان بدقة، إن هذه هى واحدة من مشاكل حملات التفتيش، إذ يجب عليك أن تعتمد على أفراد من الرتب الدنيا فإذا أخطأوا يمكن أن تنهار العملية بأكملها).

وأقامت عائلة (بيجين) فى المنزل الكائن بشارع (ياهوشا بن - نان) لمدة عامين تقريباً، ولكنه بدأ هو الآخر يفقد عزلته، وأظهر البريطانيون اهتماماً متزايداً بالحى، وكانت منظمة (الهاجاناه) قد علمت بمسألة لحية (بيجين) وأوصى رجال أمن (الأرجون) بضرورة انتقاله مرة أخرى.

وحلق (يسرائيل ساسوفر) ذقنه وجاء الدكتور (جونا كونيجشوفر) ليقيم فى المسكن الذى يقع عند ملتقى شارعى (روزنبوم) و(يوسف الياهو)، بالقرب من مسرح (حابيما) فى قلب تل أبيب، وقد استوحى (بيجين) هذا الاسم الذى يعطى انطباعاً بأن صاحبه من اليهود الألمان المحترمين، من بطاقة تحقيق شخصية عثر عليها فى مكتبة عامة، ووضعت صورة (بيجين) على البطاقة، وقد علا وجهه فى هذه المرة شارب، وكان من المقرر أن يصبح هذا الانتقال الذى تم فى أوائل عام ١٩٣٧، آخر تنقلات (بيجين) إبان فترة ممارسته للعمل السرى، وولد لـ (بيجين) أثناء وجود العائلة فى المنزل الكائن بشارع (روزنبوم) ابنة ثانية هى (ليام)، وتم تسجيلها هى أيضاً تحت اسم (ايشتاين) ولم يتوان البريطانيون أبداً عن بحثهم عن (الإرهابى الأكبر)، وعرضت جائزة قيمتها ألفان من الجنيهات الاسترلينية لمن يساعد فى القبض عليه (كانت الجائزة على رأس (ناتان يلين - مور) من عصابة شتيرين لا تتعدى ألف جنيه استرلينى فقط) ولكن لم يخنه أحد.

لقد سبب (موسم الصيد) (١٩٤٤ - ١٩٤٥) لبيجين توتراً شديداً مما أثر على قدرته على التقدير السليم وعلى التحكم فى مقاتليه من الشباب.

لقد سببت لهم مسألة اختطاف اليهود وخيانتهم ألماً وشعوراً بالخزى، وكانت مشاعرهم تدفعهم إلى الرد على العدوان بمثله، وقد عكس منشور لاذع كتبه (بيجين) فى فبراير عام ١٩٤٥ تحت عنوان (سنعاملك بالمثل يا قابيل) مدى ما شعر به من مرارة:

لقد استخدمت كل قوتك يا قابيل، ولكنك لم تستغلها عندما كان الملايين من اخوتك يموتون وعيونهم متجهة نحو (صهيون) - أرض (صهيون) المغلقة الأبواب، أرض (صهيون) التى تستعبدها حكومة شريرة، انك لم تبد قوتك هذه عندما تم ترحيل الناجين من المقصلة، ولمْ تكشف عنها لتحطم الأبواب التى أوصدها (الكتاب الأبيض) فى وجههم.

لقدعمدت يا (قابيل) إلى تعبئة ثروة الأمة ولكنك لم تنفقها من أجل الإغاثة، ولمساعدة أسر الجنود، ولا من أجل تنظيم الهجرة المجانية من دول الإبادة، انك تختلس أموال الشعب، عشرات الآلاف من الجنيهات، وتنفقها على المخبرين والمختطفين وعصابات الواشين، لقد اخترت لنفسك حليفاً، يا قابيل، إن حلفاءك هم نظام الحكم الظالم القائم فى الوطن والمباحث الجنائية البريطانية - النازية، إنك تسلم اخوانك إلى هؤلاء الحلفاء.. انك تسلمهم إلى الأيدى الملطخة بدماء ملايين المبعدين عن أبواب الوطن ليدخلوا أفران (ميدانيك).

(إنك تمارس يا قابيل الخطف، حيث تقتحم فى ظلام الليل بيوت العبرانيين بواقع عشرة ضد واحد - وتوجه الضربات حتى تسيل الدماء.. إنك تقتلع من تعتبرهم (مشكوك فيهم) مستخدماً الحيلة والخداع باسم الشرطة وبكل قسوة، وتنقلهم إلى جهات مجهولة لتعذبهم بأساليب لجستابو فى القلب المظلم لحدائق البرتقال، ثم تقوم فى النهاية بتسليمهم إلى حليفك، المباحث الجنائية البريطانية - النازية، ليمارس المزيد من التعذيب ضدهم وليقوم بنفيهم إلى (اريتريا).

ومع هذا فإن (بيجين) اختار لنفسه الالتزام بضبط النفس، إذ أنه كان

واثقاً من أن الوقت سيحين عندما تضطر (الأرجون) و(الهاجاناه) إلى القتال جنباً إلى جنب، وكان يرى أن اشتعال حرب أهلية واسعة النطاق من شأنه تبديد كل احتمالات قيام مثل هذا التعاون، بل إن من شأنه تبديد حتى احتمالات قيام دولة يهودية، ولم يكن من الملائم أن ينتهج المرء فى ذروة (موسم الصيد) سياسة (فرض الرأى) ويقدر يعقوب (يول) أمرامى، الذى خلف (ايلى تافين) فى منصب مدير الاستخبارات عدد معارضى وجهة نظر بيجين تلك، بنصف عدد أعضاء القيادة العليا، ولكن استطاع منطق (بيجين) أن يسود فى النهاية، بل أنه أصدر منذ وقت مبكر يرجع إلى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٤ تعليمات مشددة وواضحة إلى أتباعه تتضمن:

(محظور عليكم رفع أيديكم أو استخدام السلاح فى وجه الشباب العبرانى، لأنهم اخواننا وغير مسئولين عما يحدث، كما أنهم يخضعون لتوجيه خاطئ للتحريض، ولكن سيأتى اليوم الذى سيدركون فيه خطأهم فيقفون إلى جانبنا فى وجه الغاضب الأجنبى، إن سلوككم هو سلوك المواطنين الذين لا يحيدون عن هدفهم، وهذا سُيساعد على زيادة سرعة انفصالهم عن الذين يستغلونهم ويثيرونهم ضدنا، وعندئذ سيحظى المحرضون تماما بعكس ما كانوا يسعون إليه، ولن تكون هناك حرب بين الأشقاء، وسيأتى اليوم الذى سيهب فيه الشعب.. رغما عن أولئك الذين يضعون العراقيل.. ليقف صفا واحدا، وهذا هو المهم.. ان هذا هو السبيل الوحيدإلانقاذ يهود فلسطين من الحرب بين الأشقاء، ولإنقاذ البلاد من الخراب، وللحفاظ على نقاء رايتنا ونزاهة سلاحنا، ولرفع إسرائيل عالياً فى نظر الغرباء، وهذا أيضاً ـ صدقونى ـ هوالطريق إلى النصر).

ووافقت قيادة الأرجون على مضض وربما تكون معرفة زملاء (بيجين) أن قيام حرب سافرة بين (الأرجون) و(الهاجاناه) الأكثر عدداً وعتاداً ستنتهى بلا أدنى شك بدمار منظمة الأرجون ـ ربما تكون هذه المعرفة قد أثرت أيضا

على استمالتهم إلى الموافقة، بيد أن العامل الأساسى الذى حسم الموقف تمثل فى النفوذ الفريد الذى يتمتع به القائد، وكانت النتيجة أن ساد الانضباط ولم يرد أعضاء (الأرجون) على أى محاولة استفزازية ويعترف (يعقوب أمرامى) الذى كان قد اعترض على سياسة ضبط النفس، بأن الأيام أثبتت فى النهاية أن (بيجين) كان على حق، فبعد مضى ثمانية أشهر من ذلك الحين انضمت قوات (الهاجاناه) إلينا فى القتال ضد البريطانيين.

وأسفرت حملة المطاردة عن توجيه ضربة خطيرة للارجون ولكنها لم تكن قاضية، فقد عاد (الياهو جولوم) ـ المؤرخ الرسمى للهاجاناه ـ ونقض فيما بعد قوله السابق بأن (موسم الصيد) قد كسر شكوتهم.. وفى الواقع فان (الأرجون) و(عصابة شتيرن) ظلتا مشلولتى الحركة طوال السبعة أشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، وقد تجنب الشتيرنيون قسوة (موسم الصيد) بأن أوقفوا تلقائياً عملياتهم بعد اغتيال اللورد (موين)، واعترف (يعقوب مريدور) الذى تم اعتقاله فى خريف عام ١٩٤٥ وترحيله إلى شرق أفريقيا قائلا: باستثناء توزيع المنشورات فإننا لم نقم بأى عمليات خطيرة.

ولكن (بيجين) استطاع أن يراوغ (الصيادين) وسرعان ما وجدت (الأرجون) قادة جدداً من الشباب ليحلوا محل أولئك الذين كادوا يقعون فى الأسر.

وكسبت (الأرجون) فى الوقت ذاته تعاطف الرأى العام اليهودى فى فلسطين نحو تجنب الانتقام، ولم يستسغ أعضاء (الهاجاناه) كثيراً عملية المطاردة لدرجة أن التقارير الرسمية تعلن أن الذين شاركوا فى (موسم الصيد) كانوا من المتطوعين الذين لبوا نداء القيادة الوطنية، وأكد (موشيه سنيه) فيما بعد أنها لم تكن بأى حال من الأحوال حملة نفذتها قوات الهاجاناه) ويقول (سنيه) عن ذلك:

لم تتخذ مطلقاً أى مؤسسة تابعة للهاجاناه أى قرار بشأن حملة المطاردة، كما لم يصدر أى قرار إلى أى مؤسسة للهاجاناه) بتنفيذ المطاردة، لقد

طرحت اللجنة التنفيذية العليا الموضوع على لجنة العمل الصهيونية، حيث تم اتخاذ القرار، ثم عرض الموضوع بعد ذلك على مجلس الهستدروت الذى أصدر قراراً فى هذا الشأن، ولم تأخذ (الهاجاناه) المسألة على عاتقها، بل كان هناك أفراد تم تجنيدهم على أساس شخصى لتنفيذ (المطاردة) ولم يحدث مطلقاً أن ناقش مجلس الهاجاناه هذه المسألة أو تلقى أمراً فى هذا الصدد أو إصدار أمراً بشأنه.

وقد أعرب (سنيه) عن أسفه إزاء التعاون مع البريطانيين ووصفه بأنه كان بمثابة (خطأ فادح) ومع ذلك فقد قبله فى جبينه، ويزعم نائبه (يسرائيل جاليلى) أنه هو نفسه عارض تسليم المنشقين إلى المباحث البريطانية، وكانت المشكلة التى تواجهها (الهاجاناه) هى أنها لم تكن تملك الجهاز القضائى أو التحكيمى اللازم للتعامل معهم بنفسها، ووفقاً لأقوال (جاليلى) فإن السبب الرئيسى الذى منع تعبئة (الهاجاناه) ككيان مستقل فى هذه العملية هو أن مبادئها الأساسية تنص على أنها كيان عالمى فالهاجاناه لم تكن (الجيش الأحمر) لحركة العمل، بل كانت قوات الدفاع عن يهود فلسطين، وكانت المؤسسة المتحكمة فى (الهاجاناه) تتيح ولو من حيث المبدأ على الأقل فرصا متكافئة لكل من حركة العمل والأحزاب الصهيونية اليمينية وأحزاب الوسط، وكان موقف شركاء (حركة العمل) من (الارجون) و(عصابة شتيرن) متكافئاً على أحسن تقدير، ولم يكن (بن جوريون) راغباً فى أن يخسر ولاء هؤلاء الشركاء.

ولكن من الناحية العملية فإن الهاجاناه وقوتها الضاربة التى تعرف باسم (البالماخ) هما اللذان نفذا حملة المطاردة، وقد اعترف أحد الأعضاء العاديين ممن تكلموا فى الندوة التى عقدت عام ١٩٦٦ حول هذه المسألة والتى تكلم أمامها أيضا (سنيه) أن الأوامر صدرت إليه ووحدته فى (ريحون صهيون) من قائده المباشر بتنفيذ عملية المطاردة ضد أحد أفراد الحركة السرية ثم ضربه، ولابد أن هذا هو نفس ما حدث فى أماكن أخرى، على الرغم من

الفروق الدقيقة على السياسات الائتلافية الصهيونية.

وانتهى (موسم المطاردة) أو (الصيد) بانتهاء الحرب فى أوروبا واقتراب موعد الانتخابات البريطانية، وأصيبت القيادة الرسمية بخيبة الأمل إزاء عدم إبداء تشرشل أى ميل إلى مكافأة اليهود على مساعداتهم، وتقول السجلات التاريخية للهاجاناه بمنتهى الوضوح والصراحة: (الإجراء الذى اتخذ ضد المنشقين كان من وجهة نظر أعضاء الهاجاناه ضرورة مريرة ومؤسفة، وظلت الكراهية التى سادت بين الأشقاء خلال تلك الأيام البائسة راسخة لفترة طويلة بعد ذلك فى صميم (البيشوف) أما (مناحم بيجين) فهو لم يغفر ولن ينسى أبداً.

■ ■ ■

الفصل السابع

مأساة الأخطاء

لقد كان عام ١٩٤٥ بالنسبة لـ (مناحم بيجين) هو العام الذى أثبت صحة توقعاته، فقد أحبط البريطانيون - فى ظل الحكومات المحافظة والعمالية على السواء - آمال رجال من أمثال (وايزمان) و(بن جوريون) ممن كانوا لا يزالون يأملون فى إمكانية التوصل إلى حل سياسى ويسدون آذانهم عن سماع ضجيج المطالبة بإقامة دولة يهودية فى فلسطين، وثبت أن شكوك (بيجين) كان لها أساس من الصحة تماماً. ونتيجة لهذا تحققت نبوءة أخرى من نبوءاته، تتعلق (بالهاجاناه) وهذه النبوءة كانت قد أثارت أزمة الثقة الوحيدة التى تعرض لها أثناء توليه قيادة منظمة (أرجون زفاى ليومى).. فقد اقترحت (الهاجاناه) إقامة جبهة مشتركة مع منظمة (أرجون) و(عصابة شتيرن) أى شن حملة متحدة للمقاومة الإيجابية ضد الحكم البريطانى.

وبدأت بريطانيا تتكيف بانتهاء الحرب فى أوروبا، مع حقيقة أنها لم تعد قوة عالمية مهيمنة، فاقتصادها مُجْهَد نتيجة للحرب التى استمرت ستة أعوام، وبمجرد أن فترت نشوة النصر، بدأ عالم ١٩٤٥ مختلفاً عن العالم فى سنة ١٩٣٩، وإن لم يكن أقل خطورة منه ومهما يكن القرار الذى تتخذه بريطانيا بشأن ادعاءات اليهود والعرب المتناقضة بشأن فلسطين، فإن القادة البريطانيين لا يمكن أن يتجاهلوا تأثير هذا القرار الذى يتخذونه على علاقات بريطانيا مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، والدول العربية والإسلامية، أو مع مصادرها التقليدية للبترول فى الخليج والعراق، وكانت الرياح المعاكسة قد بدأت تهب ضد اتخاذ قرار بحل بسيط للمشكلة موالٍ للصهيونية، حتى قبل

الانتخابات العامة فى يوليو، فإن تعاطف (وينستون تشرشل) تجاه القضية اليهودية لم يكن راسخاً فى أحسن الأحوال، وأدى اغتيال اللورد (موين) إلى تحييد هذا التعاطف، ولذلك فلم يعترض عندما قدم وزير خارجيته (أنتونى إيدن) النصح لمجلس الوزراء قائلاً: (إذا خسرنا الصداقة العربية، فإن الأمريكيين والروس سيسارعون للاستفادة من أخطائنا).

إلا أن معظم الزعماء الصهيونيين ظلوا واثقين من أن الاحتمالات ستكون أفضل لو تولى العمال السلطة، فقد تعهد الحزب فى المؤتمر الذى عقده فى ديسمبر عام ١٩٤٤ (ببلاكبول) بأنه سوف يلغى القيود التى فرضها الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كما أنه سوف يؤيد إنشاء وطن قومى لليهود هناك، ولكن الحزب بدأ يتراجع عن تعهداته خلال أسابيع قليلة من وصوله إلى الحكم، حيث قامت وزارة المستعمرات بإبلاغ (حاييم وايزمان) فى ٢٥ أغسطس بأنه لن تحدث أى زيادة فى حصة الهجرة التى تصل إلى ألف وخمسمائة مهاجر يهودى شهرياً، ولقد كان هذا القرار ضربة فادحة أصابت النفوذ الشخصى (لوايزمان) بصفته نصير إجراء حوار مع البريطانيين، كما أصابت حركة العمل الصهيونية فى فلسطين، التى راهنت بالكثير على العلاقة الخاصة التى تربطها بحزب العمال البريطانى، وجاءت نقطة التحول المباشرة فى تلك العلاقات عندما وقع اختيار (كليمنت آتلى) على (ايزنست بيفن) الزعيم النقابى العمالى ووزير العمل إبان الحرب ليكون وزير خارجيته بدلاً من (هيو دالتون) ذى الميول الصهيونية، ولكن ربما ما كانت السياسة البريطانية قد تغيرت لو كان الاختيار قد وقع على (دالتون) فيما عدا أن وزارة الخارجية كانت ستجد صعوبة أكبر فى إقناعه بالتخلى عن برنامج الحزب المعلن قبل الانتخابات.

وكان (دالتون) الذى أصبح وزيراً للخزانة مدافعاً متحمساً عن القضية الصهيونية، ولم يكن (بيفن) حديث العهد بشئون السياسة الخارجية، كما كان

يسود الاعتقاد العام، كما لم يكن رجلاً يتصرف بدافع من عواطفه بدلاً من عقله، فقد كان ضليعاً فى الأوضاع العالمية وكان قد درس جيداً وضع بريطانيا فى العالم، وكان الصهيونيون يعتبرونه خلال الثلاثينيات حليفاً لهم.

حشد جهوده أثناء اشتراكه فى حكومة (تشرشل) الائتلافية من أجل تعبئة القوة العاملة لصالح المجهود الحربى، ويشك (هارولد بيلى) الذى كان مستشاره الأول فى وزارة الخارجية لشئون الشرق الأوسط، أن يكون لدى (بيفن) علم بقرار (بلاكبول) ويقول: لقد تم التخلى عن سياسة الحزب منذ البداية.

وكنت أحياناً أتساءل عما إذا كان (بيفن) يدرى شيئاً عنها، أما عن وجهات نظر أولئك الزملاء الذين كانوا مهتمين بمثل هذا القرار، من أمثال (دالتون)، و(كريبس)، فإن (بيفن) كان يرفضها بشدة لأنه كان يعرف أنهما يخضعان لمحاولات قوية من جانب الصهاينة للتأثير عليهما.

ومر (بيفن) بمرحلة (امتصاص) من جانب وزارة الخارجية التى قامت بمنحه فكرة موجزة عن الموضوع وأقنعته بأن الصهيونية مجحفة بالعرب وضارة بالنسبة لبريطانيا وأن إقامة دولة يهودية عند (نقطة التقاء) مواصلات بريطانيا مع الهند وأستراليا والشرق الأقصى، فضلا عن مواصلاتها مع مصدر البترول الرئيسى الذى يغذى الإمبراطورية من شأنه أن يعرضها جميعًا للخطر، وحاول وزير الخارجية أن يسلك طريقاً وسطاً يجمع بين ترضية العرب وعدم إغضاب الأمريكيين، ولم يندهش (مناحم بيجين) لعدم تعاطف (بيفن) إزاء مأساة اليهود الأوروبيين الناجين من الحرب أو لعدم استجابته لحجج الصهاينة الذين يحاولون التأثير عليه من وراء الستار، فلقد كان يتوقع كل هذا منذ البداية ويؤمن بأن اليهود إذا كانوا يريدون الحصول على دولة فعليهم الاستيلاء عليها بأنفسهم.

ومع هذا، إذا أراد المرء أن يصدق شهادة (بيلى) وغيره، وأن يعتقد أن (بيفن) لم يكن يحمل مشاعر معادية للسامية، فإنه يصعب عليه أن يفهم

مدى عدم احساس البريطانيين بالمعاناة اليهودية، وقد شعر (بيفن) و(اتلى) بالضيق إزاء الضغوط الأمريكية التى اعتبراها نتيجة لإثارة المشاعر فى الداخل بدون وجه حق ضد الرئيس (هارى ترومان)، وقد ضاعف من هذا الضيق إحجام (ترومان) عن المشاركة فى الأعباء المالية والعسكرية الناجمة من فرض أى حل للمشكلة الفلسطينية، وكان البريطانيون أيضاً يشعرون بقلق إزاء تأثير تخاذ قرار موالٍ للصهيونية، على تسعين مليون مسلم فى الهند، ولم يكن قد تحدد مصيرهم بعد، وعلى الأطماع السوفيتية فى تركيا واليونان وإيران، وفضلاً عن هذا فإن العسكريين البريطانيين فى فلسطين ذاتها، كانوا يحذرون رؤساءهم من صحوة عربية جديدة، ويقول المدافعون عن سياسة (بيفن) إنها كانت تهدف مصلحة بريطانيا أكثر من مصلحة العرب، بيد أن هذا كله لا يفسر لنا السبب فى رغماض زعماء حزب العمل أعينهم عن ادعاء الصهيونيين بأن يهود أوروبا جديرون بصفة خاصة بتعاطفهم معهم، إن لم يكن وقوفهم بضمائرهم معهم وأن فلسطين هى الملاذ الطبيعى للاجئين.

ويؤكد (بيلى) أن (بيفن) كان يشعر بأنه يتعرض للضغوط الأمريكية من جهة، كما يتعرض زملاؤه فى مجلس الوزراء لمحاولات التأثير عليهم من جانب المنظمة الصهيونية فى بريطانيا العظمى من جهة أخرى، وكان يرفض كل هذا بشدة.

ومهما كان من حسن النوايا التى انطوت عليها سياسته، فإن هذا الشعور بالاستياء الذى يسيطر على وزير الخارجية دفعه للإدلاء بتصريحات لم يكن لها تأثير طيب سواء بالنسبة للمصلحة البريطانية أو سمعته الشخصية، فقد كان ينظر إلى العالم من منظور بريطانى ديمقراطى اشتراكى، فهو يرى أن بريطانيا دخلت الحرب من أجل تأمين أوروبا لمصلحة الديمقراطية، وأصبح اليهود يستطيعون العودة كغيرهم لاستئناف حياتهم العادية، بعد أن تم القضاء على (هتلر).

ولم يكن يدرك مدى عمق الشعور بالصدمة الذى يسيطر على اليهود،

فلقد كانوا ضحايا برنامج إبادة شاملة كاد أن ينجح حيث هلك ستة ملايين يهودى لا لأى ذنب اقترفوه سوى أنهم يهود.

وقال (بيفن): صحيح أنهم تعرضوا لأفظع المذابح وعمليات الاضطهاد ولكن التجربة انتهت ونجا عدد منهم، ويجب الآن إغاثتهم ومساعدتهم ومعاونتهم على العودة للاستقرار فى ألمانيا، والتغلب على المخاوف والتوترات الناجمة عن مثل هذه التجربة.

ثم قام وزير الخارجية بعد ذلك، باقتباس عبارة قالها (آتلى) دون أن تلفت نظر أحد، فقال إن اللاجئين اليهود فى أوروبا، يجب ألا يحاولوا الضغط من أجل الوصول إلى مقدمة الطابور، وأعلن أن بريطانيا لم تعدهم بدولة يهودية فى فلسطين وإنما وعدتهم بوطن قومى، وأكد أن الفرصة لازالت سانحة لتحقيق هذا طالما كان هناك اعتراف بأن عبء إنقاذ الشعب اليهودى لا يجب أن يقع على فلسطين وحدها، وكانت الإساءة الأخيرة التى ارتكبها وزير الخارجية هى مهاجمته أمريكا أثناء انعقاد مؤتمر حزب العمال فى (بورنماوث) خلال شهر يونيو التالى، بسبب مطالبتها بفتح فلسطين أمام هجرة ١٠٠ ألف يهودى: (أرجو ألا يساء فهمى فى أمريكا لو قلت إنها تقدمت بهذا المطلب بنية صافية تماماً، فأنا أعرف أنهم لا يريدون فى نيويورك وجود أعداد كبيرة من اليهود عندهم)، ولم يكن هناك أى لبس فى فهم المغزى من كلامه.

لقد كانت بريطانيا تواجه مهمة مستحيلة، فقد أقنعت وزارة الخارجية (آتلى) و(بيفن) بانتهاج سياسة تقوم على تعليق مسألة فلسطين.. بيد أن ديناميكيات الواقع جعلت ذلك أمراً مستحيلاً، فإن اليهود الذين صُدموا عندما انكشفت لهم فظائع (بيلسين) و(أوشفيتز) سيطرت عليهم حالة من اليأس القاتل، وأمام عدم الاكتراث البريطانى بمأساتهم تضاءل الأمل فى أن يختار يهود فلسطين ويهود العالم انتهاج سياسة معتدلة، وفى الوقت ذاته بدأ صوت العرب فى فلسطين يرتفع بعد أن ظلوا فى سبات لمدة خمسة أعوام

وبدأ مديرو وزارة الخارجية يشعرون أن الأمور تزداد تعقيداً بصورة تفوق إمكانياتهم على معالجتها.

كان (بن جوريون) الزعيم المنتخب (لليشوف) (يهود فلسطين) يشعر دائماً بقدر أكبر من عدم الثقة فى النوايا البريطانية من (حاييم وايزمان) الرئيس المتقدم فى العمر للحركة الصهيونية العالمية، وقد كتب (بن جوريون) سطراً واحداً فى مذكراته بعد أن تجوَّل فى شوارع لندن المدمرة نتيجة للغارات، ولكن كان يسودها فى ذات الوقت الشعور بالابتهاج العام ،حيث إن ذلك كان هو يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ أى يوم النصر، سجل (بن جوريون) بمذكراته فى ذلك اليوم سطراً واحداً يقول: (يوم النصر ـ يوم حزين، حزين).

فاليهود لم يكونوا قد كسبوا الحرب، لقد قتل منهم ستة ملايين، ومازال أمامهم أن يدخلوا معركة للحصول على دولة ـ وبنهاية شهر سبتمبر أصبح (بن جوريون) واثقاً من أن الوسائل الدبلوماسية قد وصلت إلى طريق مسدود.

فاستقل الطائرة من لندن واتجه إلى باريس، وفى أول أكتوبر بعث من هناك برقية مكتوبة بالرموز، إلى (موشيه سنيه) قائد الهاجاناه، تأمره بتنظيم تمرد مسلح ضد بريطانيا، وقد أصدر (بن جوريون) الأمر على مسئوليته الشخصية دون إخطار (وايزمان) وكانت معارضة (بن جوريون) لاستخدام العنف بمثابة سياسة مرحلية منها مبدئية، ويقول كتاب سيرة (بن جوريون) إن هذه البرقية تجاوزت كل ما كان قد أعلنه من قبل أمام زملائه فى لندن:

لم يحاول بن جوريون إيهام نفسه بأن النضال المسلح يمكن أن يؤدى إلى إخراج بريطانيا من فلسطين، وإنما كان يأمل فقط فى أن يؤدى إلى إثارة موجة من التعاطف العميق بين الرأى العام العالمى تدفع بريطانيا إلى تغيير سياستها، ولذلك فقد أعلن فى مؤتمر صحفى عقده بباريس، وهو يضع هذا الهدف نصب عينيه أن تصرفات الحكومة البريطانية تعتبر مواصلة لسياسة هتلر العدائية.

وكانت أول مشكلة واجهها (سنيه) فى فلسطين هى كيفية الاتصال (ببيجين) فإن حملة المطاردة (أو السيزون) لم تكن قد انتهت تماماً إلا بالكاد، كما أن الاتصال بينهما كان قد انقطع منذ حوالى عام، وقرر (سنيه) أن يبدأ اتصالاته من خلال (عصابة شتيرن)، وتولى (ناتان يلين ـ مور) الذى كان قد نجح فى حماية (الشتيرنيين) من إخطار حملة المطاردة بانتهاج سياسة تنطوى على مزيج من الرضوخ والتهديد ـ تولى مهمة تسليم الدعوة لبيجين، الذى أسعده كثيراً أن (بن جوريون) قد بدأ أخيراً يتكلم ويتصرف مثله وأعرب قائد الأرجون عن استعداده للتعاون ـ ولكن كالمعتاد، بناء على شروطه هو فقد رفض (بيجين) على الفور، أثناء اجتماع سرى ضم كلاً من (سنيه) و(يسرائيل جاليلى) من الهاجاناه، و(يالين ـ مور) من (عصابة شتيرن) اقتراحا بحل الجماعتين المنشقتين وانضمامهما إلى (الهاجاناه).

وقال (بيجين): إننا نحتاج إلى قيام جبهة مشتركة فى مواجهة البريطانيين وطالما التزمت (الهاجاناه) بالقتال، فإن الجبهة المشتركة ستكون قائمة، ولكن إذا تخلت (الهاجاناه) عن الحملة العسكرية ضد البريطانيين فإننا سنواصلها.

وكان (بيجين) مدركاً مدى تعقيد موقف (الهاجاناه) فإنها كانت بمثابة قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية، التى تعتبر قانونا الممثل المنتخب (لليشيوف) فإذا مارست (الهاجاناه) أعمالاً غير مشروعة فإنها تعرِّض بذلك المكانة القانونية للمنظمة الأم للخطر وستضطر (الوكالة اليهودية) إلى أن تختار فى وقت ما بين الانحراف إلى العمل السرى أو إعادة تأكيد شرعيتها عن طريق إجبار (الهاجاناه) على الالتزام بالقانون، أما بالنسبة لـ (بيجين) فإنه كان يرى أن قوة موقف الأرجون تكمن فى أنها تعتبر أصلا منظمة عمل سرى ولم يسبق لها أن ادعت غير هذا مطلقاً، ولقد أوضح منذ البداية أن (الأرجون) ستواصل القتال حتى خروج البريطانيين من أرض إسرائيل مهما بلغ أمد الحرب.

وأقر (سنيه) و(جاليلى) منطق (بيجين) ولكنهما أصرا على ضرورة أن تصبح (الهاجاناه) الشريك الأكبر فيما أصبح يعرف باسم (حركة المقاومة العبرانية) ووفقاً لـ (جاليلى) تم التوصل إلى تفاهم دون المساس بكرامة الشريكين الأصغر:

(لم تكن القضية هى أن يعلنا صراحة اننا نعترف بسلطة الهاجاناه) ولكن أن يكون من الواضح للجميع بأننا نتمتع بحق الاعتراف (أو الفيتو)، وبمعنى آخر ألا يقوم أى أحد بأى عملية إلا فى حدود الموافقة الضمنية عليها.

وكان الهدف هو منعهم من القيام بأعمال نعتبرها ضارة، سواء كان ذلك من وجهة نظر التوقيت السياسى أو من حيث الخطة العملية، ولقد كان من المهم بصفة خاصة منع تنفيذ العمليات الخطيرة التى قد تؤدى إلى أن تتسبب منظمة ما فى تعثر منظمة أخرى.

واعترف كل من (بيجين) و(شمول كانز) المسئول الأول عن الدعاية فى (الأرجون) بتمتع (الهاجاناه) بسلطة الاعتراض، غير أن المنشقين تمسكوا بحقهم فى حرية سرقة الأسلحة من البريطانيين و(مصادرة) الأموال من أماكن أخرى، وقد أظهر الهجوم الذى وقع على فندق (الملك داوود) فى يوليو ١٩٤٦ مدى ضعف قبضة الشريك الأكبر، فكان (بيجين) إذا لم يقتنع بالمنطق وراء قرار اتخذته (الهاجاناه) يشعر بأن له مطلق حرية التصرف وفقا لتقديره الشخصى، وكانت المشكلة هى عدم وجود قدر كبير من الثقة المتبادلة بين الجماعات التى تشكل الجبهة المشتركة، بالرغم مما كان لهذه الجبهة من تأثير بالغ فقد استمرت الشكوك القديمة قائمة، ولم يكن هناك احساس بدوام التعايش السلمى بين هذه الجماعات، ناهيك عن التزاوج بينها. فلم ينس، مثلا أعضاء (الهاجاناه) و(عصابة شتيرن) السنوات الأولى من فترة الأربعينيات عندما كانت منظمة (الأرجون) وقبل عهد (بيجين) تتعاون مع البريطانيين فتشى بالشتيرنيين، أما (الأرجون) و(الشتيرنيون) فلم ينسوا

موسم (المطاردة).

ويقول (جاليلى):

(لم يكن هناك ما يدعو للاعتماد على الأرجون.. ولا نقصد (بيجين) شخصيا لا سمح الله فإنه شخص نستطيع الاعتماد عليه، ولكنه كان رجلاً يتأثر كثيراً بمن يعملون معه، خاصة إذا حاولا أن يشرحوا له الأمور بمنطق فنى أو عملى، ولكننا لم نكن نعلم من هم بطانته، كما أن أحداً لم يكن يعرف من هم بطانتى، فما كان فى وسع المرء أن يعرف المحرضين مسبقاً، ولكن فقط بعد أن يقوموا بالتحريض، ومن المستحيل أن تعرف قبل ذلك، قد تظن أن هؤلاء اليهود لا يثقون فى بعض ويخافون بعضهم البعض، نعم، إن هذا حقيقى).

واستمرت الخلافات الأيديولوجية والتكتيكية، وإن كان العائق الخاص بعدم محاربة البريطانيين أثناء مقاتلتهم لـ (هتلر) قد أصبح غير ذى موضوع فالهاجاناه كانت أكثر تدقيقا من الأرجون فيما يتعلق بمسألة الاعتداء على الأرواح فى حين كانت (الأرجون) بدورها تعترض على أسلوب (عصابة شتيرن) فى استغلال الاغتيالات كسلاح مشروع، وكانت (الهاجاناه) تتطلع دائما نحو القيادة السياسية المنظورة وكانت تحرص على تبرير عملياتها سواء على أساس كونها ردا يتناسب وحجم الاستفزاز البريطانى أو أنها جزء من الهدف الآخر لمقاومتها السرية، ألا وهو الهجرة غير المشروعة، فمثلاً قامت قوة من (الهاجاناه) بقيادة (إسحاق رابين) بإطلاق سراح ٢٠٨ يهود من أحد معسكرات الاعتقال البريطانية فى (أتليت) جنوب حيفا، وذلك فى ١٠ أكتوبر من عام ١٩٤٥ أى قبل إبرام اتفاق (المقاومة العبرانية) وكانت أهدافها المفضلة هى الهجوم على نقاط المواصلات، خاصة السكك الحديدية ومراكز خفر السواحل.

ومع هذا فقد عملت حركة المقاومة العبرانية منذ أكتوبر عام ١٩٤٥ حتى شهر يوليو عام ١٩٤٦ بقدر معقول من التنسيق، وقد تدمرت الجبهة بسبب كارثة الهجوم على فندق (الملك داوود) ضمن أمور أخرى، ووفقاً لأقوال

(بيجين) فان أسعد أيام حياته كانت هى أيام وحدة العمل بين المنظمات الثلاثة، إذ أن أحلامه بإقامة جبهة مشتركة لم تتحقق خلالها فحسب، بل أنه ورجاله لم يعودوا يعتبرون خارجين على القانون، لقد ظل طوال أربعين عاماً يفرق فى التعريف بين (الإرهابيين) و(المقاتلين من أجل الحرية)، ولم يكن ليرضى أن يضحى بالمبادئ فى سبيل الاحتفاظ بمظهر الاحترام، ولكنه كان يشعر براحة أكبر عندما كان يستطيع التوفيق بين الأمرين:

(لم يكن هناك اعتراف رسمى بنا فى عهد حركة المقاومة ولكننا مع ذلك كنا نتمتع بالاعتراف ورفع من عن كاهلنا جزء من المسئولية ـ حتى لو كان ذلك جزءاً ضئيلاً فقط، والشعب كله كان يقف وراءنا).

هذا، وقد وجهت حركة المقاومة العبرانية ضربتها الأولى إبان ليلة ٣١ أكتوبر والأول من نوفمبر سنة ١٩٤٥، وأسفرت الهجمات عن نجاح (البالماخ) فى إغراق ٣ زوارق دورية شرطة فى حيفا، ويافا، ونجحت الهاجاناه فى نسف الخطوط الحديدية عند ١٥٣ نقطة فى جميع أنحاء فلسطين وإصابة منشآت السكك الحديدية فى القدس وتل أبيب بالأضرار، بينما نجحت (الأرجون) فى تدمير قاطرة وإصابة ست قاطرات أخرى بأضرار وذلك فى غارة جريئة على رصيف البضائع ومحطة (اللد) وكانت عصابة (شتيرن) هى الوحيدة التى فشلت فى تحقيق أهدافها الطموحة للغاية، فقد انفجرت شحنة ناسفة قبل الأوان وقبل النجاح فى غرسها بخزان للبترول فى معمل التكرير بحيفا، وشنت (الأرجون) و(شتيرن) طوال فترة الشتاء وفى إطار بنود الاتفاقية غارات على الشرطة البريطانية وعلى منشآت الجيش والطيران بحثاً عن الأسلحة، وقد خسر البريطانيون فى إحدى الليالى وبالتحديد فى ٢٧ ديسمبر عشرة قتلى واثنى عشر جريحاً، واستؤنف الهجوم المشترك مرة أخرى فى ٢٥ فبراير عندما نجحت (منظمة الأرجون) فى تدمير حوالى عشرين طائرة من السلاح الجوى الملكى البريطانى وهى مرابطة فى مطارات

اللد وقصطينا وكفرسركين، مما أسفر عن خسائر يتراوح تقديرها ما بين ٧٥٠ ألف جنيه إسترلينى ومليونين من الجنيهات الإسترلينية.

واستمرت الغارات على السكك الحديدية والشرطة طوال شهر مارس، ونجحت (عصابة شتيرن) فى ليلة ٢٦ ابريل فى إثارة غضب البريطانيين وحنقهم إلى أقصى حد، عندما قامت باغتيال ستة جنود مظليين وهم نائمون على أسرتهم بمعسكر فى تل أبيب، كما أصيب أربعة آخرون بجراح، وأعلن الليفتنانت جنرال(جون دارسى) القائد العام للقوات فى تقريره الذى رفعه إلى رئيس الأركان فى لندن، أنه لن يتمكن من السيطرة على رجاله إذا وقعت هجمات مماثلة أخرى عليهم، خاصة أن بعضهم قد اتجهوا فى حالة هياج شديدةِ إلى شوارع (نيتانيا)، وشنت (المقاومة العبرانية) آخر عملياتها خلال شهر يونيو، حيث تسببت (الأرجون) فى إلحاق خسائر قيمتها مائة ألف جنيه إسترلينى فى مخزن عربات السكك الحديدية، ونسفت فرق المتفجرات التابعة للبالماخ عشرة طرق ومعابر جديدة من بين الأحد عشر طريقاً ومعبراً التى تربط فلسطين بجيرانها، بيد أن (عصابة شتيرن) أصيبت بخسائر فادحة أخرى عندما قتل أحدى عشر من رجالها وأسر عشرون منهم فى طريق عودتهم من غارتهم على ورش السكك الحديدية فى حيفا.

وكان لدى البريطانيين عام ١٩٤٦ ثمانون ألف جندى وعشرون ألف شرطى مرابطين فى فلسطين التى لم يزد عدد اليهود فيها عن ستمائة ألف نسمة تقريباً، ومع ذلك فلم يستطع البريطانيون أن يردوا على حملة التخريب والإرهاب التى قادها خمسة آلاف أو نحوها من مقاتلى (حركة المقاومة العبرانية) ولقد كتب (جيه. بوبربيل) يقول فى الدراسة التى أجراها حول الأرجون وعصابة شتيرن: (لقد أصبح الانتداب بمثابة دولة عسكرية تخضع لحالة حصار مستديم على الرغم من حجم الحامية ومعداتها، وعزيمتها فإنها عديمة الفعالية، تهزم نفسها بنفسها)، وكانت الفرقةِ السادسة المحمولة جواً

تشكل القوة البريطانية الرئيسية، ولكن لم يكن لأفرادها من المحاربين القدامى فى (نورماندى) و(آرنهيم) من ذوى (البريهات الحمراء) أى خبرة بكيفية التعامل مع العصابات الذين يختفون داخل المدن المزدحمة التى تزودهم بملاذ ملائم تماماً، وكان الجيش عاجزاً عن الحركة، فلم يكن من المتصور شن حرب شاملة ضد يهود فلسطين، فى أعقاب تعرضهم للإبادة الجماعية أو (الهلوكوست) وعلى أى الحالات فإن الأمريكيين ما كانوا سيسكتون على ذلك، واستمر الجدل يدور فى حلقة مفرغة، فالإدارة فى القدس كانت ترى أن الحل الوحيد هو التسوية السياسية، وأيد الجيش هذا الرأى، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتعرض لتمريغ أنفه فى التراب، حتى يتم التوصل إلى مثل تلك التسوية واستطاع مارشال (بيرناردى مونتجمرى) رئيس الأركان العامة للقوات الإمبريالية أن يقنع مجلس الوزراء بالتحرك وذلك بعد (ليلة الجسور) وقيام الأرجون باختطاف خمسة ضباط بريطانيين من أحد أندية تل أبيب كرهائن حتى يتم إطلاق سراح اثنين من رجالها محكوم عليهما بالإعدام، وقال بعد أن زار فلسطين إن الجيش مستعد تماما لشن (حرب ضد هذا العدو المتطرف الماكر)، وأكد مجلس الوزراء أنه لم يعد يستطيع السكوت على وضع انخفضت فيه سلطة الحكومة إلى الحضيض، وقد أدرك البريطانيون بذلك الوقت أن العدو لم يعد هو مجرد شرزمة المقاتلين التابعين (للارجون «عصابة شتيرن»، وصدرت التعليمات إلى السير (آثر كاننجهام) المندوب السامى البريطانى تفوضه بسحق العناصر الأكثر تطرفا داخل الوكالة اليهودية الذين كان من المعتقد أنهم يديرون الحملة الإرهابية من خلال (الهاجاناه).

وبدأ البريطانيون يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ فى تنفيذ العملية التى أطلق البريطانيون عليها اسم (علمية أجاشا) بينما وصفها اليهود (بالسبت الأسود) وتم تعبئة كل الجنود ورجال الشرطة الموجودين من أجل اقتحام مقر رئاسة الوكالة اليهودية ومكاتبها الأخرى فى القدس وخمس وعشرين مستعمرة فى

أماكن متفرقة من البلاد، وتم اعتقال ٢٧١٨ يهوديًا من بينهم شخصيات بارزة (موشيه شارت)، (الحاخام يهودا لوب شمان) وعثر على ترسانة أسلحة تابعة للهاجاناه فى كيوتر ياجور، وجنوب شرق حيفا، وفرض حظر التجوال فى المناطق اليهودية بفلسطين، ومع هذا فإن العملية لم تحقق النجاح الساحق الذى كان مونتجمرى يسعى إليه، فإن أهم شخصية وهى بن جوريون كانت موجودة فى باريس بعيدا عن مناله.

واحتمى (موشيه سنيه) قائد (الهاجاناه) بعد أن وصله تحذير فى اللحظة الأخيرة ونجح نائباه (يسرائيل جاليلى) و(إسحاق سده) مؤسسى (البالماخ) فى أن يتواريا عن الأنظار،بينما ظلت منظمة (الأرجون) و(عصابة شتيرن) دون مساس، وقد كانت هذه واحدة من المرات الوحيدة التى لم يأسف فيها (بيجين) على افتقار المنشقين إلى قواعد ريفية فى (الكيبوتزات) و(الموشيفات) ـ أى القرى الجماعية والتعاونية التابعة لحركة العمل، فلم يستطع البريطانيون العثور على مخابئهم، وكان الفشل الأساسى (ليوم السبت الأسود) هو أنه لم ينجح فى ذاته فى دفع (وايزمان) وغيره من المعتدلين إلى تشكيل قيادة بديلة، كما أنه لم ينجح فى تقويض وحدة (حركة المقاومة) وساد معظم يهود فلسطين شعور بضرورة الرد بشكل ما، وكانت المشكلة هى كيف يكون هذا الرد، واقترحت (جولدا مائير) التى كانت واحدة من الزعماء السياسيين القليلين الذين احتفظوا بحريتهم، إعلان العصيان المدنى ولكن كان (موشيه سنيه) و(مناحم بيجين) يتطلعان إلى القيام بأعمال أكثر إبهاراً من ذلك.

كان (بيجين) معنياً بالتأثير النفسى الذى تركه يوم (السبت الأسود) على يهود فلسطين، أكثر من اهتمامه بالأثر الاستراتيجيى، ولم يكن ذلك اليوم قد نجح فى تحييد (الهاجاناه) و(البالماخ) على الرغم من خسائرهم فى الأرواح والعتاد، وكانت هناك دواعٍ أكبر من أى وقت سابق لقيام جبهة مشتركة نشطة، تضم كلاً من (الأرجون) و(عصابة شتيرن).

ولكن كان (السبت الأسود) استعراضًا مذهلاً للقوة البريطانية وخشى (بيجين) أن يؤدى ذلك إلى غرس بذور الانهزامية بين اليهود، حيث إن الانهزامية تعتبر أمرًا قاتلاً بالنسبة لأى حرب تحريرك (كنا ندرك أن الطريق الوحيد لاستعادة الثقة اليهودية بالذات هو عن طريق شن هجوم مضاد ناجح).

وكان قائد (الأرجون) يحتفظ فى جعبته بالخطة المناسبة، فكان قد سبق فى أوائل العام أن اقترح عليه مدير عملياته، الواسع الحيلة، (جيدى باجلين) قيام المنظمة بتخريب فندق (الملك داوود) الذى يؤوى جناحه الجنوبى مقر رئاسة الإدارة البريطانية، مع وجود مقر للشرطة العسكرية وفرع التحقيقات الخاصة فى جناح ملحق به، أما باقى الفندق ذو الأدوار الستة، الذى كان المستثمرون المصريون اليهود قد افتتحوه عام ١٩٣٢ بصفته أول فندق حديث فخم يقام بالقدس، فقد كان ملتقى الشخصيات البارزة فى حكومة الانتداب، حيث تتناول الكوكتيل وتدبر المؤامرات، وكان من بين تلك الشخصيات البارزة (تشيبسى تشانون) الذى نزل فى الفندق عام ١٩٤١ بصفته عضواً فى البرلمان، ووصف الفندق بأنه (يعتبر بلا جدال أفضل فندق فى العالم بعد الريتز فى باريس).

وكانت (الهاجاناه) قد استخدمت حق الفيتو فى ربيع عام ١٩٤٦ ضد خطة (باجلين) على أساس أنها استفزازية أكثر من اللازم، ولكن عندما عاد (بيجين) يعرض الخطة بعد يومين من السبت الأسود باركها (سنيه).. وتم تبنى (عملية مالونتشيك) كلمة (مالون) تعنى (فندق) بالعبرية، ثم أضيف إليها صيغة التصغير باللغة (الليدية) - وتم بعد ذلك اختصارها كاحتياط أمن إضافى إلى (عمليات تشيك) كجزء من (الليبشوف) الانتقامى الثلاثى الشُعب: فأسند إلى (عصابة شتيرن) تدمير مبنى (اخوان ديفيد) المجاور والذى يستخدم كمقر لمكتب الإعلام الحكومى، بينما تقوم (الهاجاناه) بالإغارة على ترسانة الأسلحة فى (بات جاليم) بحيفا، واستعادة الأسلحة التى استولى عليها البريطانيون فى (ياجور)، وكان الاسم الحركى (الكودى) للعملية التى ستنفذها (عصابة

شتيرن) هو (عبدك وفداك)، أما بالنسبة لغارة الهاجاناه فكان (استعادة الممتلكات المفقودة) وبرر (سنيه) موافقته على هذه العمليات على أساس أنها تتفق ومبدأ (العين بالعين) - فهى تشن هجوماً على الحكومة البريطانية فى مقابل هجوم شنته على الحكومة اليهودية.

وقد صدَّقت لجنة (إكس) السرية العليا التى كانت تشرف على (المقاومة العبرانية) نيابة عن الوكالة اليهودية، على الخطط الثلاث دون إطلاع أعضائها الخمسة على التفاصيل، حيث أخطروا فقط بأن (مبنى حكومياً هاما سيتم ضربه، ولكن لم يشيروا إلى اسم المبنى بالتحديد.

ويتفق كل من (بيجين) و(جاليلى) على أن الهدف من تدمير فندق (الملك داوود) كان إذلال البريطانيين وليس قتلهم، ويقول جاليلى الذى كان نائبا لـ (سنيه) وشريكه فى السكن آنذاك: (كان الهدف هو تخريب مبنى يستخدم مقرا للسكرتارية ولقيادة الجيش وكان ذلك رداً على (السبت الأسود) ولقد كان عملاً جريئًا، جسورًا وينطوى على مخاطرة بالغة ويوجه ضربة إلى المركز العصبى، ولم يكن الهدف منه هو تدمير الفندق ذاته، كما لم يكن الهدف منه بكل تأكيد هو أن يسفر عن وقوع ضحايا)، وقد صدرت الأوامر إلى (بيجين) منذ البداية بمنح أفراد السكرتارية والناس الموجودين بالفندق فرصة كافية لمغادرته.

غير أن هناك ثغرة يصعب سدها بين كل من تقارير (الارجون) و(الهاجاناه) حول المشاورات الفنية التى دارت بين (بيجين) وإسحاق سده فوفقا لأقوال (بيجين) اقترح (بيجين) منح البريطانيين فرصة زمنية لمدة ٤٥ دقيقة، بينما اقترح (سده) خمس عشرة دقيقة فقط.. ولكنهما اتفقا بعد ذلك كحل وسط منح البريطانيين مهلة لمدة ثلاثين دقيقة، ويؤكد أعضاء (الارجون) أن (سده) ضغط على (بيجين) لزيادة قوة الشحنة الناسفة التى ينوى غرسها فى (بدروم) الفندق، ويقولون إن (الهاجاناه) كانوا يريدون ضمان عدم إتاحة فرصة كافية للبريطانيين لنقل مئات من الوثائق المدنية التى استولوا عليها

من مكاتب (الوكالة اليهودية).

وقد نفى (جاليلى) هذا التقرير كلية كان هو و(بيجين) الوحيدين الباقيين على قيد الحياة إبان الثمانينيات، وبطبيعة الحال وكما هو معتاد بالنسبة لمثل هذه المؤامرات، لم يتم تسجيل أى تفاصيل كتابة، ويصر على أن (الهاجاناه) لم يكن لديها أى مصلحة فى وقوع انفجار مدوٍ.

بل إنها كانت تنظر إلى العملية أساساً كرمز فقط، وكان (سده) مهتما إلى أقصى حد بتقليل احتمالات حدوث إصابات بين الأشخاص لدرجة أنه اقترح توقيت القنابل لتنفجر بعد الظهر عندما يكون معظم العاملين قد انصرفوا إلى بيوتهم (وهذه نقطة لا يدور حولها جدال)، أما عن الوثائق فإن (جاليلى) يرفض فكرة أنها كانت عاملاً دخل فى حسابات (الهاجاناه)، وليس هناك شك فى أن كلاً من (الارجون) و(الهاجاناه) كان لديهما بعد وقوع الحادث دوافع قوية تجعلهما يحاولان تخفيف قدر المسئولية التى يتحملها كل منهما، بل ليس من المستغرب أن يكونا قد مارسا أساليب الدعاية السوداء ضد بعضهما البعض، أو على الأقل أن يكون كل منهما قد حاول إضفاء أكبر قدر من البريق على الدور الذى أداه، وربما كان مما يؤكد صحة ادعاءات (الهاجاناه) إلى حد ما التصريحات التى أدلى بها البريطانيون بأنهم لم يحصلوا تقريبا على شىء من وثائق الوكالة اليهودية يزيد عما كانوا يعرفونه من قبل، وربما كان أبسط سبب وراء ذلك هو عدم توفير مترجمين للعبرية يثقون بهم (أى من غير اليهود)، ولقد جاء فى صحيفة (باليستاين ترانيجيل)، (المثلث الفسطينى)، نقلاً عن رجل شرطة يهودى أنهم: (لم يكن لديهم أحد يستعينون به فى العمل ضد (الهاجاناه) سوى أشخاص من أمثالى ـ ممن كانوا يدينون بالولاء للهاجاناه، وكنا نفرز جميع الأوراق ولكننا، إذا عثرنا على ورقة تدين (الوكالة اليهودية) أو تضر بها كنا نلقى بها فى المرحاض ونغرقها بالماء، وبعد يومين أصبحت جميع مواسير الصرف فى مقر رئاسة المباحث

الجنائية البريطانية مسدودة تماماً.

وفى أول يوليو، تلقى بيجين الأوامر بتنفيذ (عملية تشيك) وواصل بيجين عمله فى تنقيح خطته التفصيلية للتسلل إلى قاعة (ريجانس) للطعام بالفندق، عن طريق مدخل الخدم وطرقة(بالبدروم) تمر بطول الفندق، ولكن طلبت الهاجاناه فى ١٧ يوليو من بيجين تأجيل التنفيذ، وذلك لأسباب لم يطلع عليها أبداً، وكان (سنيه) قد حظى بزيارة من (ماير وايزجال) المساعد الشخصى النشط والمخلص جداً (لحاييم وايزمان)، ويبدو أن وايزمان كان يعلم أن ثمة شيئاً ما يدبر، وإن كان لم يطلع بالتحديد على ما هو هذا الشىء.

وحاول وايزمان أن يستغل آخر قطرة من النفوذ لديه، فى محاولة بطولية أخيرة لفرض سيطرته على اتجاه الاستراتيجية الصهيونية وأعلن وايزجال وهو يقرأ من بيان مكتوب:

(إننا نقف على حافة هاوية.. وإذا ما واصلتم تنفيذ عملياتكم فإن هذا سيكون بمثابة إعلان الحرب على بريطانيا العظمى، وأنا واثق من أن بريطانيا لن تسكت وبذلك سنخسر كل ما كافحنا من أجله، ومازلت أشغل منصب رئيس الحركة الصهيونية، ومن المعترف به عامة فى الأنظمة الديمقراطية أن الرئيس يكون القائد الأعلى للقوات المسلحة.. وأنا أستخدم الآن سلطتى هذه، وأنا آمرك أن توقفوا فورا جميع العمليات التى تقوم بها الجمعيات السرية الثلاث).

وهدد وايزمان بالاستقالة فوراً وبأن تكون استقالته مسببة إذا لم يخضع (سنيه) لهذا الإنذار النهائى، وأصرَّ على أن أقل ما يرضى به هو تأجيل كل العمليات إلى حين اجتماع اللجنة التنفيذية العليا (للوكالة اليهودية) فى أغسطس التالى بباريس، لبحث أفضل أسلوب لمواصلة النضال، وعلى الرغم من أن(سنيه) لم يشارك (وايزمان) فى مخاوفه بل على العكس كان تواقاً للعمل فإنه لم يجد أمامه مفراً من الرضوخ، فهذه أول مرة يتدخل فيها

الزعيم المسن بطريقة مباشرة فى شأن من شئون (الهاجاناه)، ونصح (جاليلى) (سنيه) بالاتجاه فوراً إلى (لجنة إكس) ويقول (سنيه): (إن هذا كان خروجاً على الأساليب المشروعة، وكنا نستطيع مجازاته ونقول لوايزمان إنه يستطيع الاتصال ببن جوريون، ولكن كانت المسألة أخطر من أن تماطل فيها على أساس التمسك بالإجراءات الشكلية، فكان لابد من عرضها على (لجنة إكس) وكان لابد للجنة أن تتخذ قراراً بشأنها وشرح (سنيه) للجنة بدقة اعتراضات وايزمان، وإن لم يحدد لها المبنى الذى سيتم ضربه، وعدل أحد أعضاء اللجنة ـ وهو (ليفى أشكول) الذى أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء ـ عن موقفه، وبذلك سحبت الموافقة على تنفيذ العمليات الثلاث.

ولم يكن (بيجين) يعلم شيئاً عن هذه الاتصالات المتبادلة واكتفى (سنيه) بأن طلب التأجيل ولم تجد (عصابة شتيرن) بأساً من الانتظار.

أما (بيجين) فكان قلقاً، فكلما زادت الفجوة الزمنية قلت احتمالات الاحتفاظ بسرية عملية (الملك داوود)، ووافق مرتين على منح (سنيه) مهلة أخرى، ولكن بدأ صبره ينفد، وكان قائد (الهاجاناه) يسلك طريقاً ملتوياً ووعراً فى محاولته التنسيق بين قادته السياسيين والارجون، ومن الواضح أن (سنيه) كان يأمل فى تغيير السياسة الرسمية بمجرد أن يتحدث مع (بن جوريون) قبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا فى باريس، ولكنه لم يكن يثق ببيجين بدرجة تكفى لأن يطلعه على الحقيقة ووفقاً (لجاليلى)، فإنه لم يكن يرغب فى إزعاج قائد (الارجون):

(لم يذكر الحقيقة كلها فأولاً وقبل كل شىء فهو لم يكن مضطراً لذلك، ولم يكن مضطراً لأن يطلع بيجين على أسرار الحركة الصهيونية، أى أسرار تنظيم (اليبشوف) ولكن كان هناك سبب أكثر خطورة، فهو لم يرغب فى تثبيط همة (بيجين) فلو أن بيجين شعر بالإحباط نتيجة لإطلاعه على حقيقة أن الحركة الصهيونية قد بدأت تنسحب من النضال للتوصل إلى نتائج بعيدة المدى).

وأسفرت مراوغات (سنيه) عن تحقيق النتيجة التى كان يحاول تجنبها بالذات فقد قام قائد (الهاجاناه) فى ٢٠ يونيو بإبلاغ (بيجين) بأن (الوكالة اليهودية) تستعد لإعلان سياسة عدم التعاون مع البريطانيين وذلك فى ٢٥ يوليو، وكان هذا سبباً آخر فى عدم تنفيذ أى عمليات قبل ذلك التاريخ، ولم يستجب (بيجين) وبعث (سنيه) فى صباح ٢٢ يوليو بآخر نداء وجهه إليه فى جملة واحدة: (يجب أن تمتنع مؤقتاً عن تنفيذ عملية القدس)، ولكن كانت (الارجون) قد كفت بالفعل عن تلقى أى أوامر.

وكانت القنابل المخبأة فى أربعة أوعية لبن، قد وصلت إلى القدس فعلاً، وكان هناك كثيرون - فى الارجون والهاجاناه (وعصابة شتيرن) يعرفون بخطة «الملك داوود» حتى أنه لم يعد ممكناً تجميدها لفترة أطول، وكان بيجين يرى أنه قد حصل فعلاً على موافقة (الهاجاناه) على عملية (تشيك)، ولم يكن أحد قد أبلغه بإلغائها، ويقول يعقوب إمرامى، الذى خلف (ايلى تافين) كرئيس لمخابرات الارجون، إن المنظمة ضاقت ذرعاً بتأجيلات (سنيه).

(لم نكن نعلم شيئاً عن إنذار وايزمان، ولكننا كنا ندرك أن وايزمان يعارض فكرة النضال ضد البريطانيين وأنه يحاول التقليل من شأن هذا النضال، وكنا نظن أنهم إنما يريدون مجرد التأجيل، وكنا نعتمد بدرجة أكبر على حقيقة أنهم كانوا طلبوا منا أصلاً تنفيذ العملية، ولم نر أن هناك سببًا يدعو للتأجيل، ولم يقدم (سنيه) أى تفسير.

هذا وقد امتنع بيجين من جانبه عن الخوض فى المسألة أكثر مما ذكر فى كتابه (التمرد) الذى لم يحاول فيه تبرير أسباب رفض مطلب قائد (الهاجاناه).

وفى الساعة الثانية عشرة و٣٧ دقيقة من بعد ظهر الاثنين ٢٢ يوليو من عام ١٩٤٦ انفجرت شحنة ناسفة من مادة (تى. إن. تى) وزنها ٣٥٠ كيلو جرامًا، داخل مطعم (الريجانس) الذى كان خالياً فى ذلك الوقت، وذلك قبل موعدها المحدد بست دقائق ودمرت الدعائم الوسطى الموجودة تحت الجناح الجنوبى

بفندق الملك داوود، وانهارت خمسون غرفة من غرف مكاتب الإدارة المدنية والعسكرية البريطانية محدثة صوتاً مدوياً وسط سحابة من الدخان وتراب الأسمنت، وتطايرت قطع الحجارة فى الطريق الرئيسى الذى يطل عليه الجناح، لتقتل المارة وتصيبهم بالعاهات، وقذفت الأنقاض المتطايرة بأحد المسئولين البريطانيين ليرتطم بحائط مبنى (جمعية الشبان المسيحيين) المقابل للفندق، ويخترقه بجسمه تاركاً وراءه رأسه المنزوع من إثر قوة الانفجار ودماءه المتناثرة على الحائط، وظل عمال الإنقاذ يستخرجون جثث الضحايا من تحت الأنقاض حتى بعد أسبوع من وقوع الحادث، وأعلن فى ٣١ يوليو الحصر النهائى لعدد ضحايا العملية التى أسفرت عن ٩١ قتيلاً من بينهم ٢٨ بريطانيًا، ٤١ عربيًا، ١٧ يهوديًا، اثنان من الأرمن، روسى واحد، يونانى، مصرى، وبلغ عدد المصابين ٤٦ شخصًا، وكان أكثر من نصف القتلى من الكتابيين ومن موظفات الآلة الكاتبة والسعاة وغيرهم من صغار الموظفين فى السكرتارية وفى الفندق، وصدم (مناحم بيجين) إزاء فداحة الإصابات ولكنه سارع بالدفاع عن رجاله، وظل حتى بعد ٤٠عاماً من وقوع الحادث، يلقى بمسئولية حجم الخسائر على البريطانيين، فهم لم يكترثوا بالتحذير الذى أبلغ تليفونياً إلى تحويلة تليفونات الفندق، وأعلنت إذاعة (الارجون) السرية الحداد على الضحايا من اليهود - الذين اختصتهم بالذكر تمشياً مع أسلوب بيجين فى التمييز، وامتنعت الإذاعة عن إعلان الحداد على القتلى البريطانيين، حيث إن بريطانيا لم تعرب عن حزنها على الستة ملايين يهودى الذين هلكوا فى محرقة النازى، وأعلنت (إننا سنواصل السير فى طريقنا - طريق المعاناة، وطريق النضال - ونحن نطوى صدورنا على هذا الحزن وهذا الغضب إزاء مأساة اليهود المؤلمة)، وبدا أن (الارجون) لم يلاحظوا أن معظم القتلى لم يكونوا يهوداً أو بريطانيين بل كانوا عرباً، وكما يقول (ثيرستون كلارك): بالنسبة للارجون، فإن العرب لم يكن لهم أى وجود، بل كانوا كالأشباح غير المرئيين.

وأصبح من المعروف الآن بصورة مؤكدة أن الارجون قد قاموا فعلاً بتوجيه الإنذار، ولكنه لم يبلغ للسلطات البريطانية بأسلوب يوحى بالجدية ولا قبل فترة كافية تسمح للعاملين بإخلاء الفندق قبل انفجار الشحنة الناسفة.

إن ما وقع فى ذلك اليوم الحزين أثناء فترة تناول طعام الغداء كان بمثابة مأساة جاءت نتيجة لسلسلة من الأخطاء، ولكن لا يمكن إعفاء (منظمة الارجون) وقائدها من المسئولية الكاملة، فمهما كانت قلة تجاربهم السابقة، لا يمكن تصور تنفيذ أى عملية تخريب على هذا النطاق الضخم دون أن يوضع فى الاعتبار احتمال وقوع خطأ، فمن شأن القنابل مثلاً أن تنفجر قبل موعدها، كما أن الرسائل قد تضل الطريق فلا تصل إلى وجهتها المحددة، وكانت القدس قد تعرضت آنذاك لانتشار موجة من الإنذارات الكاذبة وكأنها وباء، ولم يكن هناك ما يضمن عدم التعامل مع الإنذار الذى وجهه (الارجون) على أنه واحد من تلك الإنذارات الكاذبة، كما كان من المعروف جيدا أن يوم الاثنين يعتبر أكثر أيام الأسبوع ازدحاماً بالعمل بالنسبة للسكرتارية، حيث إنه يأتى فى أعقاب أيام الإجازة الأسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين، ولذلك فإن معظم العاملين لم ينصرفوا لتناول الغداء قبل الساعة الواحدة بعد الظهر، وكان هذا هو السبب وراء اقتراح (الهاجاناه) تنفيذ العملية فى وقت متأخر من النهار حتى ولو أدى ذلك إلى زيادة المخاطر التى يتعرض لها فريق (جيدى باجلين).

لقد أبلغ التحذير إلى الفندق تليفونياً بواسطة (أدينا هاى) البالغة من العمر ستة عشر عاماً والتلميذة بإحدى مدارس القدس التى كانت تتولى نقل رسائل الارجون، وبدأت (أدينا) فى إجراء اتصالاتها بمجرد أن انسحبت فرقة التخريب من (بدروم) الفندق، وتقول إن قائد العملية أعطى الإشارة التى سبق الاتفاق عليها تقول (أدينا):

(دخلت حانوتاً قريباً من فندق الملك داوود ـ وكان محلاً للعطور أو لبيع النظارات ـ أو ربما كان يجمع بين الأمرين، واتصلت بالفندق، وقلت بالعبرية

والإنجليزية: هنا المقاومة اليهودية.. لقد غرسنا القنابل بالفندق، فالرجاء إخلاء الفندق فوراً.. لقد أنذرناكم، ثم هرولت عبر شارع الملك جورج.

وكان يوجد آنذاك كشك للتليفون حيث توجد حالياً حديقة عامة، واتصلت بالقنصلية الفرنسية وأبلغهتم أن ثمة قنبلة ستنفجر فى فندق الملك داوود وطلبت منهم فتح النوافذ حتى لا تحدث أضرارًا، ثم اتجهت إلى شارع يافا بالقرب من محطة الأتوبيس القديمة، واستخدمت التليفون الموجود بمحل لبيع البويات واتصلت بصحيفة (بالستاين بوست) وأبلغتهم بالعبرية إننا قمنا بزرع قنابل فى فندق الملك داوود، وإننا حذرناهم هناك، وطلبت من الصحيفة تحذيرهم مرة أخرى، واتجهت بعد ذلك إلى معسكر اليهود وعندما وصلت إلى محطة البوليس هناك، تردد صوت انفجار هائل، لقد كان هذا هو صوت انفجار فندق الملك داوود).

ويمكن القول إن من المستحيل إتمام هذه الرحلة، حتى لو قامت بها فتاة مراهقة فى عجلة من أمرها، فى مدة تقل كثيراً عن نصف الساعة، إذا أخذنا فى الاعتبار المكالمات التليفونية الثلاث التى أجريت خلالها، وثمة دلائل مستقلة تؤكد أن المكالمات الثلاث قد تمت بالفعل، ويقول (نعيم نيسان) رئيس الخدم فى فندق الملك داوود إنه استدعى إلى تحويلة التليفونات بالفندق:

(كان عامل التليفونات شاحب الوجه تماماً، وقال إن امرأة اتصلت به وأبلغته أن ثمة قنبلة فى الفندق، وطلبت منه أن يهدأ وألا يثير الرعب، وهرعت إلى المدير، مستر (ماكس) «هامبيرجر» الذى قال لى إن من السهل جداً على أى شخص أن يعلن أن قنبلة توجد بالفندق، فقلت له: لماذا المجازفة ولماذا لا يبلغ السلطات، والتقط سماعة التليفون وأدار على الفور رقم مقر القيادة البريطانية ثم قال لى: (لا تقل لأحد فإن أحداً لن يغادر الفندق).

وكان قد سأل البريطانيين: (هل أخلى الفندق؟)، ولم أسمع الرد ولكنى أعتقد أنهم ردوا بالنفى، وأن هذا هو السبب فى طلبه منى عدم إبلاغ أحد،

وأن أحداً لن يغادر الفندق، واتجهت بعد ذلك لاستئناف أعمالى بعيداً عن قاعة (الريجانس) وكنت فى موقعى هناك عندما وقع الانفجار.

ولم يوجه (نيسان) فيما بعد أى أسئلة إلى (هامبيرجر) حول هذا الموضوع: (انه لم يتحدث أبداً بعد ذلك عن المسألة، ولم يحدث أبداً أن أثرتها معه مرة أخرى، فهو فى غاية التشدد)، وكان (نيسان) يهودياً عراقياً، عمل من قبل لدى الأسرة المالكة فى بغداد، وقد تزوج بعد الحادث بأربع سنوات من (أدينا هاى) ولكن لم تكن له أى صلة بالأرجون، وهو كان على صلة بعم أدينا ولكنه لم يحدث أن قابلها إلا بعد فترة طويلة من الحادث، ويؤكد (اميل سوتير) المدير المساعد بالفندق، صحة رواية (نيسان) فى مضمونها وكان (اميل) قد استبعد صدق التحذير فى البداية على أساس أنه خدعة، ويعترف (سوتير) وهو مسيحى سويسرى متزوج من بريطانية بأن عمال التليفون أخطروه ثلاث مرات بالتحذير.

وقد تأكدت أيضاً صحة الإنذارات الأخرى، حيث أقرتها كل من البالستاين بوست أو (الجيروزالم بوست حاليا) والقنصلية الفرنسية، بل أن عامل تحويلة الصحيفة قام بإخطار الشرطة، وقد عثر على تلك الرسالة مسجلة فى سجلات المباحث الجنائية، وقد بعث جندى فرنسى كان يخدم فى قوات حفظ السلام للأمم المتحدة بجنوب لبنان عندما أعيد فى عام ١٩٨١ نص رواية (ثارستون كلارك) عن أحداث ذلك اليوم - بعث برسالة إلى (أدينا نيسان) يبلغها فيها أن والده كان قنصل فرنسا بالقدس عام ١٩٤٦، وأنه يذكر كل تفاصيل الحادث منذ أيام طفولته.

وبإلقاء نظرة تحليلية على الماضى، نجد أنه من الواضح أن البريطانيين كانوا سيتصرفون بسرعة أكبر إزاء التحذير لو أن (أدينا هاى) اتصلت تليفونياً بالسكرتارية مباشرة، ولم تكتف بالاتصال بتحويلة تليفونات الفندق.

ولم يكن رقم السكرتارية سراً، ولكن كانت (منظمة الارجون) تعتقد أن

إجراء مكالمة واحدة هو أفضل طريق لتحذير كل من بالفندق والسكرتارية فى آن واحد، وكان (إسحاق أفينوم) قائد الارجون المحلى بالقدس الذى تلقت منه (أدينا) الأوامر، يعتقد أنه مجرد إبلاغ التحويلة يكون بمثابة إطلاق جرس الإنذار، وأنه بمجرد الضغط عليه يتم نقل التحذير إلى كل من إدارة الفندق والبريطانيين فى آن واحد، ولكن على خلاف ظن (الارجون) من الواضح أن عمال التحويلة لم تكن لديهم سلطة إطلاق الإنذار على مسئوليتهم الشخصية.

ويظل التساؤل معلقاً: لماذا لم يقم البريطانيون بإخلاء السكرتارية عندما علموا بالإنذار من (هامبيرجر) ومن الشرطة؟ إن أبسط رد على هذا هو أن الأوان كان قد فات، ولكن المسألة تنطوى على ما هو أكثر من ذلك، فإن (مناحم بيجين) ظل يروى فى الأحاديث التى أدلى بها حتى وقت قريب - وكان آخرها فى عام ١٩٧٦ - أن السير (جون شو) سكرتير عام الإدارة البريطانية، تلقى التحذير ورد قائلاً فى غطرسته المعتادة: (إننى موجود هنا لإصدار الأوامر إلى اليهود، وليس لتلقى الأوامر منهم)، وكانت هذه الرواية قد نقلها يسرائيل جاليلى، عضو الهاجاناه، إلى (بيجين) فى ظرف أيام قليلة من وقوع الكارثة، ويقول (جاليلى) بدوره عن صحفى أمريكى (توفى بعد ذلك)، وقد رفع (شو) دعوى تشهير ضد صحيفة لندنية يهودية صغيرة منذ فترة طويلة ترجع إلى عام ١٩٤٨ عندما قامت بنشر الخبر، وقد أقسم (شو) وسكرتيرته أنهما لم يلتقيا أى إنذارات، وقد سحبت الصحيفة زعمها بدلاً من الدفاع عنه، حيث إنها لم تستطع العثور على أى شهود إثبات.

وتقول (جوزفين) زوجة (شو) إن الخبر مختلق تماماً بهدف الإساءة إلى سمعة السير (جون) ولتخفيف جزء من المسئولية عن كاهل الارجون، ولكن ليس هناك أى دليل أيضاً يثبت هذا الادعاء، ويسلم (شمويل كاتز)، مدير دعاية (بيجين) فى تسجيله لتاريخ كفاح (الارجون) (بإمكانية استبعاد) الرواية الخاصة برد (شو) على الإنذار.

ومع كل هذا، فإن شخصاً ما بالإدارة البريطانية تلقى الإنذار، وهناك الكثير من المعلومات التى تؤكد أن شيئاً ما قد وقع خطأ، وربما كان هذا هو سبب المشكلة فإن (باجلين) ورجاله كانوا قد دخلوا إلى (بدروم) الفندق متخفين كعمال عرب، وأثناء إعداد فتائل المتفجرات فى قاعة (الرياجنس) للطعام شاهدهم ضابط بريطانى برتبة (ميجور) فأطلق الإنذار وأثناء الارتباك الذى وقع أطلق أحد رجال (الارجون) النار عليه، وأبلغ الحادث إلى رجال الأمن البريطانيين ولكن ساد اعتقاد خاطئ بأنه اشتبك مع بعض اللصوص العرب وقام رجال (الارجون) بعد ذلك بتفجير شحنتين صغيرتين فى (طريق جوليان) وهو الشارع الرئيسى الذى يقع عنده فندق الملك داوود، لإجبار البوليس على إغلاق الشارع مما يضمن عدم زيادة عدد الإصابات المحتملة، وانفجرت القنابل قبل موعدها، مما زاد من الارتباك العام، وسمع سير (جون شو) هذه الانفجارات من حجرة مكتبه بالدور الرابع، فعبر الممر الواقع خارجها لتقصى الأمر، وتوصل إلى أن المسألة لا تزيد عن كونها واحدة من الحوادث (العادية) المألوفة فى عام ١٩٤٦، ورأى أن البوليس بوسعه معالجتها، حيث إن لديه أشياء أهم من ذلك يؤديها، ومن الواضح بذلك أن التحذير الذى وجهته (أدينا هاى) من خلال شبكات اتصال الفندق والأمن، لم يتم تقييمه على اعتبار أنه حدث منفرد، بل على أساس أنه جزء من الفوضى التى كانت تسود القدس، حيث كانت أصوات الانفجارات والطلقات والهرج والمرج من الأمور المعتادة، وإذا كان قد وقع إهمال من جانب البريطانيين فيما يتعلق بالأمن، فإنه لم يتجاوز نطاق الأخطاء البشرية المسموح بها، ولقد دفع البريطانيون، والعاملون لديهم، وزوارهم ثمناً فادحًا للغاية مقابل هذا الخطأ.

بيد أنهم قضوا على الجزء الأكبر من مشاعر التعاطف التى حظوا بها فى بداية الأمر، وذلك عندما وصل إلى الصحف والصهاينة خطاب دورى أصدره القائد العام الجديد للقوات البريطانية، الجنرال سير (أفلين باركر) إلى قواته.. وكان سير (باركر) قد كتب الخطاب الذى ندم فيما بعد على

إصداره، فى ثورة من الغضب، ولكنه استغل كقرينة تؤكد أسوأ الشكوك السائدة إزاء النوايا البريطانية، فقد أعلن:

(يجب على جميع الجنود البريطانيين الامتناع عن إقامة أى علاقات اجتماعية مع اليهود، ويجب ألا تجرى أى اتصالات معهم خارج نطاق الالتزامات الرسمية فقط، وأن يكون ذلك فى أضيق الحدود الممكنة، وأنا أدرك أن هذه الإجراءات من شأنها إثارة بعض المتاعب بالنسبة للقوات، ولكنى واثق من أنهم لو فهموا تماماً الأسباب التى دفعتنى إلى اتخاذها فإنهم سيدركون أنها لائقة، وأنها كفيلة بمعاقبة اليهود بأسلوب يكرهه هذا الجنس أكثر من شىء آخر، ألا وهو تغريمهم مالياً وإظهار احتقارنا لهم).

وقد ضاعفت عملية (الملك داوود) من كراهية الجمهور البريطانى (للإرهاب اليهودى)، ولكنها ساعدت فى الوقت نفسه على زيادة إيمان الحكومة بحتمية التوصل إلى حل سياسى، فإن الكرامة البريطانية تأثرت فعلاً كما تأثرت معها إرادة الاستمرار فى حكم فلسطين، أما داخل المعسكر اليهودى فإن هذه العملية كانت بمثابة توقيع حكم بإعدام المقاومة المشتركة، فأجبر (موشيه سنيه) أكثر قادة (الهاجاناه) ثورية، على الاستقالة، ووافق (بن جوريون) فى باريس على العودة إلى الوسائل الدبلوماسية التى شملت الموافقة رسمياً على قبول مبدأ التقسيم، وتوقفت الهاجاناه تقريباً عن كل عملياتها التخريبية لمدة سبعة عشر شهراً، وكما توقع (بيجين) فإن (الارجون) و(عصابة شتيرن) وجدا نفسيهما مضطرين إلى مواصلة الطريق بمفردهما، دون الحصول على معونة من أحد، وكانت هذه هى أحد التوقعات التى أثبتت الأيام صحتها، دون أن تترك لديه أى شعور بالاغتباط إزاء انتصار رأيه.

■ ■ ■

الفصل الثامن

النفس بالنفس

كان لعبارة (فلينتقم الله لدمائهم!)، التى جاءت فى البيان الذى أصدره مجلس الوزراء الإسرائيلى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٨٢، فى نهاية اجتماعه الأسبوعى، صدى مدو، وأحدث هذا الدعاء باستنزال اللعنة، هزة عنيفة فى أعضاء السلك الصحفى بالقدس الذين كانوا يشعرون بالتعب المعتاد الذى يسيطر عليهم فى عطلة الأسبوع، وأيقظهم من إغفاءتهم بعد ظهر يوم الأحد المذكور، لا يمكن أن يكون هناك سوى رجل واحد يستطيع أن يكتب مثل هذه العبارة: (مناحم بيجين) الذى يتولى رئاسة وزراء إسرائيل طوال الخمس سنوات السابقة، وعلى الرغم من أن البيان بدأ بالموافقة على إجازة لسفير مخضرم، ثم إشارة غامضة إلى استعراض المسائل الدبلوماسية والأمنية، فإن هذا الاجتماع لمجلس الوزراء لم يكن اجتماعاً عادياً، فقد جاء فى الفترة الثالثة من البيان إعلان عن إصدار مجموعة جديدة من الطوابع البريدية، الأمر الذى كان من الممكن اعتباره، فى ظروف أخرى، بمثابة مسألة غير مثيرة للاهتمام تماما كما كان الحال بالنسبة للبنود التى سبقته، ولكنها كانت طوابع تثير الشعور بالورع بنفس درجة أثارتها لاهتمام هواة جمع طوابع البريد، إذ أن هذه الطوابع العشرين صدرت (تخليداً لذكرى شهداء الجيل الذى أسس دولة إسرائيل)، وقد تضمنت المجموعة، من أجل المحافظة على المظاهر شخصيات وطنية بارزة من أمثال (حنا سنيش)، شاعر (الكيبوتز) الذى أعدمه النازى بعد أن قفز بالمظلة إلى داخل أوروبا المحتلة، و(إيلى كوهين) الجاسوس من دمشق، ولكن أحداً لم يندهش عندما ظهرت على

عشرة طوابع من ضمن العشرين طابعاً صور المناضلين من (الارجون) و(عصابة شتيرن) الذين أعدمهم البريطانيون شنقاً، ورجلين فجرا نفسيهما أثناء وجودهما داخل زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام.

لقد كان قائدهم القديم يدفع الدَّين الذى فى عنقه لهم، فهؤلاء الأشخاص كانوا بالنسبة(لمناحم بيجين) آخر الشهداء، وأبطال ملحمته الشخصية، وكان (بيجين) يضعهم على منصة تسمو فوق كل منصة أخرى لغيرهم من المقاتلين فى صفوف (الارجون) الذين سقطوا فى ميدان المعركة، والذين يحمل لهم فى نفسه كل تقدير، إن أولئك هم الرجال الذين قال عنهم، وهو يفيض فى التعبير عن إعجابه بهم فى كتابه (التمرد)، إنهم اجتازوا الاختبار:

(ليست هناك معركة مجيدة، ولا هجوم عاصف، ولكن هناك فقط التفكير والتأمل ـ التفكير فى الوقت الذى أخذ ينفد مع كل دقة من دقات الساعة، والتفكير فيما وراء الزمن، إن الأيام تمر بطيئة وطويلة ولكن الليالى أطول والوقت يمتد ويتيح فرصة أطول من اللازم للتأمل، ويطوف بالذهن ذكرى شىء ما أو شخص ما.. ذكرى صوت أُم مسنة، أو زوجة شابة، وهو يأتى من بعيد ولكن بوضوح كامل، إن الملابس الحمراء التى يدثره بها الجلاد، تذكره على الدوام بأن أيامه أصبحت معدودة، وان الشمس التى تسطع خارج زنزانته المظلمة لا تعمل على محو الليل وإنما تعمل على زيادة اقتراب الظلام الأزلى.. إن المرء لا يستطيع هنا كبت غريزة حب البقاء، فإن الصراع المؤلم يستمر معها، فهو يبدأ صباح كل يوم من جديد وكل ساعة وكل دقيقة، ويستمر يدور فى ذهنه عندما يخلد إلى النوم وعندما يقوم من نومه وفى غدوه ورواحه وفى وحدته عبر زنزانته المغلقة).

لم يكن الامتحان مجرد اختبار فى الشجاعة، وإنما فى الانضباط والالتزام ويشرح (يعقوب إمرامى) مدير مخابرات (الارجون)، هذا الأمر قائلا:

(لقد ذهبوا إلى المشنقة لأنهم لا يعترفون بالحكم البريطانى، وكان

بعضهم على الأقل يستطيع أن ينجو بجلده لو أنهم قبلوا السلطة القضائية للمحاكم البريطانية ولم يجبرهم أحد على الرفض، وكانت لديهم حرية اختيار مطلقة، فقد مزق (دوف جرانير) وهو أكثر هؤلاء الشهداء إخلاصا، توكيلاً رسمياً كان قد وقَّعه يفوض فيه أحد المحامين باستئناف الحكم، لقد كان هؤلاء شهداء بمعنى الكلمة: رجال اختاروا الموت فى سبيل هدف، كانت تضحيتهم تشكل جاذبية خاصة بالنسبة (لبيجين) الرومانسى والعقائدى، القائد والمتفرج فى وقت واحد، لقد كانوا يتصرفون وكأنهم شخصيات خرجت من بين صفحات رواية بقلم (جابوتنسكى)، حيث يقومون بتوجيه قضاتهم ثم ينشدون (الحاتيكفا) (نشيد الحركة الصهيونية) وهم يقفون عند المشنقة، وعندما توفيت (أليزا بيجين) فى نوفمبر عام ١٩٨٢، دفنت عند جبل الزيتون بالقرب من مقابر (مائير فينشتاين) و(موشيه برازانى)، اللذين خدعا الجلاد بأن فجرا قنبلة يدوية مهربة إليهما فى سجن القدس المركزى، وكان (بيجين) قد طلب فى وصيته التى كتبها بعد انتخابه رئيساً للوزراء فى عام ١٩٧٧، أن يدفن هو وزوجته بجوارهما.

وكان (بيجين) بصفته قائدً للارجون يقدر أرواح المقاتلين حق قدرها، فكان يصر قبل تنفيذ أى عملية على أن تتضمن خطة للهروب قابلة للتنفيذ، ومع ذلك فقد كان يضع فى اعتباره احتمال أن يتعرضوا أحياناً للمقاومة، وأن يموت بعضهم أو أن يصابوا بعاهات، بينما يعتقل آخرون، بل وقد يتعرضون للنفى أيضًا، وهذا هو ثمن (التمرد)، فإذا كانت المعركة ذات قيمة فإنها تكون جديرة بالتضحية، وكان (بيجين) يرفض السكوت على الإذلال بواسطة المشنقة أو السوط، فقد عانى اليهود فى شتاتهم بالمهجر فى صمت من مثل هذا الإذلال، ولكنهم لن يسكتوا عليه فى وطنهم القومى، ولم ينس (بيجين) عندما كان طفلا وأجبر على مشاهدة تنفيذ عقوبة الجلد العلنى فى زعماء اليهود (ببديست ـ ليتونيسك)، بناء على أوامر أحد الجنرالات البولنديين، ويقول (كنت آنذاك فى

السابعة، ولكن بشاعة هذا المنظر المهين لم يمح من ذاكرتى مطلقاً).

وكانت عمليات الشنق والجلد بالسياط من الأساليب التى اعتاد البريطانيون على استخدامها من أجل قمع حركات التمرد بالمستعمرات وإن كان ذلك فى الحالات القصوى، وكانوا ينفذون الإعدام فى أعداد من عرب فلسطين تفوق عدد اليهود، ولكن لم يرد على البريطانيين بالمثل، من بين الجماعات المتمردة، سوى (منظمة ارجون زفاى ليوم)، وقد تمكنت المنظمة من وقف عمليات الشنق والجلد بالسياط ضد الضباط وضباط الصف البريطانيين أنفسهم وردت على الإهانة بالمثل، ليس ضد الجنود كأفراد فحسب بل ضد النظام ككل.

ومازال الألم الناجم عن تلك الإهانة قائماً حتى اليوم، ويتردد أن (مارجريت تاتشر) قالت بعد مرور ثلاثة عقود على تلك الأحداث، لرئيس وزراء آخر فى الكومنولث، إنها لا تستطيع مطلقا مصافحة رجل مسئول عن شنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة سيرجنت ومع هذا فقد استقبلت مناحم بيجين فى مقر رئاسة الوزارة فى داوننج ستريت.

وقد أثمر أول تهديد وجهته الارجون، فقد ألقى القبض على كل من (ميشيل آشيل) و(يوسف سمحون) عضوا المنظمة، وهما فى طريقهما إلى المستشفى بعد أن أصيبا أثناء اشتراكهما فى غارة مسلحة وقعت فى ٧ مارس عام ١٩٤٦ ضد أحد معسكرات الجيش بصرافند، وكانت فرقة من (الارجون) قد تسللت إلى القاعدة العسكرية متخفين فى زى جنود مظلات بريطانيين، ولكن اكتشف أمرهم عندما طمع أحد أفرادها وحاول انتزاع مدفع آلى من طراز (فيكرز) من فوق إحدى الدبابات، وانسحبت الفرقة فى غير نظام، وصدر الحكم بالإعدام ضد (آشيل) شاعر الارجون، و(سمحون) وردت المنظمة على ذلك باختطاف ستة من الضباط البريطانيين: خمسة من أحد نوادى تل أبيب والسادس من القدس، وقد تمكن الأخير من الهرب، مما سبب

(لبيجين) الشعور بالخزى الأبدى.

وفرضت السلطات حظر التجوال فى تل أبيب، وبدأت عملية التفتيش من بيت إلى بيت وأعلن (بيجين) أن الارجون سترد على (الشنق بالشنق).

وجرت المفاوضات بين الطرفين من خلال الوسطاء اليهود وأطلقت (الارجون) كتعبير عن حسن النية سراح اثنين من الضباط المحتجزين وأعطيت كل واحد منهما جنيهاً كتعويض عن أى أضرار لحقت بهما.

وأعلن الضابطان أنهما لقيا معاملة طيبة، وعندما تم استرداد عضوى (الارجون) ألقى الرهائن البريطانيون الباقون فى وسط تل أبيب، وهم محشورون داخل صندوق شحن، وخرجوا منه وهم يرتدون زيهم العسكرى الأنيق الذى كان قد تم كيه، مما أثار سخرية وضحك المارة، لقد عقدت (الارجون) صفقة ولم تتراجع عن تنفيذها.

ولكن لم تكن للعملية التالية نهاية سعيدة مماثلة، وإن كانت قد أسفرت عن تحقيق نصر آخر (للارجون) فقد صدر حكم ضد (بنيامين كيمتشى) المقاتل فى الارجون البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع جلده ثمانى عشرة جلدة عقاباً له على حمل السلاح، وردت (الارجون) على ذلك بإعلان: (إذا استخدمتم السوط ضدنا سنستخدم السوط ضدكم)، ومع ذلك تم جلد (كيمتشى) ونفذ (بيجين) وعيده، حيث تم اختطاف ضابط بريطانى برتبة ميجور وثلاثة ضباط صف من تل أبيب ونيتانيا وريشون لوزيون، وتلقى كل واحد منهم ثمانى عشرة جلدة قبل الإفراج عنهم، وقد أكد البيان الذى صدر وهو يحمل شعاراً يصور ضفتى الأردن وبندقية وتحتهما فقرة تقول: (ليس أقل من هذا): إن المنظمة لن ترد بالسوط فقط مستقبلا، إذا استمرت عناصر القهر فى جرأتها التى تهدف إلى إلحاق الإهانة الجسمانية بالشباب اليهودى وشرفه القومى والإنسانى، بل إننا سنرد بالنار.. وابتلع البريطانيون كبرياءهم، فأعفى شاب آخر من (الارجون) كان

قد اعتقل مع (كيمتشى) من عقوبة الجلد، ولم يوقع البريطانيون بعد هذا عقوبة الضرب بالسوط على أى من اليهود أو العرب طوال المدة المؤلمة الباقية لهم فى (الأرض الموعودة) ومهما يكن من أمر، فقد تحققت أمنية أحد الجنود البريطانيين، كتب عبارة على أحد ملصقات (الارجون) التى تحذر جميع ضباط الجيش البريطانى من احتمالات تعرضهم للجلد بالسوط، كتب يقول: (لا تنسوا الضابط الذى يرأسنى برتبة سيرجنت ـ ميجور).

أما استخدام حبل المشنقة فقد احتاج إلى جهد أكبر لإيقافه، إذا إحتاج الأمر إلى تنفيذ الإعدام شنقاً فى سبعة من رجال (بيجين) قبل أن يتم إيقاف مثل هذا الحكم، كما استدعى الأمر أن يلحق بهم اثنان من الجنود البريطانيين برتبة سيرجنت، تم تنفيذ الإعدام فيهما شنقاً بمقصلة أقيمت خصيصاً لهذا الغرض، لا لأى ذنب ارتكباه سوى كونهما بريطانيين موجودين بفلسطين فى ذلك الوقت، وكانت حكومة (اتلى) والإدارة البريطانية فى القدس، فِى وسط هذا الجو من الإرهاب الذى يزداد جرأة، تقعان تحت ضغوط مكثفة من الرأى العام لاستعراض قوتهما، ومن ثم فقد أصبح (دوف جرانر) المهاجر اليهودى المجرى البالغ ثمانية وعشرين عاماً والذى أصيب بجراح مرتين أثناء خدمته فى الجيش البريطانى رمزاً لروح التحدى المميزة للارجون، وللإصرار البريطانى.

وقد ألقى القبض على (جرانر) فى أعقاب غارة مسلحة على مركز شرطة (رمات جان) فى ٢٣ أبريل ١٩٤٦ وكانت فرقة من الارجون قد دخلت المبنى متخفية كجنود بريطانيين جاءوا لتسليم مجموعة من المعتقلين العرب وعندما لم يعثروا على مفتاح خزينة الأسلحة، قاموا بنسف الباب، مما نبه حامل مدفع برن يقف على سطح المبنى وأحد رجال الشرطة الذى أجرى اتصالاً تليفونيًا طالباً النجدة، وفقدت (الارجون) فى هذه المعركة غير المدبرة ثلاثة من رجالها، وتحطم فك (جرانر) عندما أصيب برصاصة فيه، وكاد يفارق الحياة عندما

عثر عليه رجال الجيش، وأجريت له سلسلة من العمليات الجراحية وأصبح لائقاً للمثول أمام القضاء، حيث جرت محاكمته فى يناير سنة ١٩٤٧ بالقدس، ووجه (جرانر) أثناء شرحه للأسباب التى تجعله يرفض حق المحكمة فى مقاضاته اتهاماً إلى بريطانيا بتحويل (أرض إسرائيل التاريخية) إلى قاعدة عسكرية وباغتصابها من الشعب اليهودى (لذلك فلم يعد هناك أى أساس قانونى لحكمكم، الذى أصبح لا يقوم الآن سوى على مبدأ واحد فقط: القوة الغاشمة، الممثلة فى استخدام السلاح وسيادة الإرهاب المتخفى فى صورة القوانين المزعومة، لقد صيغت هذه القوانين بواسطة حاملى الحِرَاب، وهم يصدرونها ثم يطبقونها بما يتناقض مع الحقوق الأساسية للإنسان ويتعارض مع إرادة الشعب المحلى والقانون الدولى).

وعندما أصدر القضاة العسكريون الحكم عليه بالإعدام شنقاً، رفع صوته مرددا النشيد الصهيونى وهو يقف فى قفص الاتهام، وكان (جرانر) يفضل الحياة على الموت، ولكن على أن يكون ذلك وفقاً لمبادئه، وليس لمبادئ قضاته، وكان المعتقلون من رجال (الارجون) يعرفون جيداً الفرق بين الاستشهاد والانتحار، وكانوا يودون أن يتم إنقاذهم أو مبادلتهم، ولكن على ألا يكون المقابل هو التماس الرأفة، وأصدرت (منظمة الارجون) إنذارًا وان كان أقل تحديداً من الإنذارات السابقة:

إن إعدام أسرى الحرب يعتبر جريمة قتل مع سبق الإصرار، ونحن ننذر نظام الحكم البريطانى بإراقة الدماء رداً على ارتكاب مثل هذه الجريمة، وكان رد فعل (بيجين) المبدئى، مرة أخرى، هو اختطاف رهائن بريطانيين، فاختطف الميجور هـ. أ. كولينز الذى قيل إنه ضابط مخابرات، ولكنه كان فى واقع الأمر ضابطاً متقاعداً يشتغل فى الأعمال الحرة، وذلك أثناء تناوله الشاى بمدينة القدس، واختطف كذلك القاضى (رالف ويندام) من قاعة المحكمة فى تل أبيب، ويبدو أن عملية الاختطاف الأخيرة أزعجت البريطانيين

أكثر من الأولى، وان كان من المشكوك فيه أن السبب فى ذلك هو صلاته بالطبقة الارستقراطية كما كان يزعم (بيجين)، وبدأت الحكومة تحاول كسب الوقت بعد أن كانت قد قررت فى بداية الأمر تنفيذ حكم الإعدام على (جرانر) بصرف النظر عن العواقب، فأعلنت تأجيل تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى لرتاحة الفرصة له لتقديم التماس إلى (المجلس الملكى الخاص).

وكان هذا الإعلان بمثابة نقطة تحول فى القضية وكانت جماعة (الارجون) تواجه تفوقًا عدديًا، وقرر (بيجين) أن استمرار احتجاز الرهائن لن يحقق شيئًا خاصة وأن المخبأ الموجود به القاضى (ويندام) لم يكن آمنا على الإطلاق ولكن عندما اتضح أن البريطانيين كانوا لا يزالون مصممين على شنق (جرانر) وثلاثة آخرين - هم (يحيل دريزنير) و(مردخاى الكوشى) و(الايزر كاشانى) - لم تدبر (الارجون) عملية الإنقاذ بسرعة كافية، وكانت البلاد كلها تخضع للقوانين العسكرية، ونقل الرجال الأربعة المحكوم عليهم بالإعدام من القدس إلى حصن عكا، حيث أعدموا فى ١٦ ابريل عام ١٩٤٧، تحت ستار قانونى من الدخان، وقام بعد أسبوع واحد (فينشتابن) و(برازنى) من الارجون و(عصابة شتيرن) على التوالى بتفجير قنبلة يدوية تم تهريبها إليهما داخل برتقالة، وكانا ينويان أن يصحبا معهما الجلاد إلى القبر، ولكنهما رجعا عن ذلك عندما أصر حاخام السجن على مرافقتهما حتى حبل المشنقة.

وقد جققت (الارجون) إبان صيف ذلك العام، أكبر انتصاراتها - اقتحام حصن عكا الذى كان يبدو منيعًا منذ عهد الصليبيين - ولكنها عانت أيضاً من آلام أحكام إعدام أخرى واتخاذ القرار الصعب بشنق الجنديين اللذين يحملان رتبة سيرجنت واللذين تحتجزهما المنظمة، وتمت عملية اقتحام الحصن الكائن فى وسط المدينة العربية، عن طريق تنفيذ خطة معقدة لاختراقه من الداخل والخارج، وقد بلغ المجموع الكلى للمسجونين الذين هربوا من الفجوة التى فجرت فى الجدار الحجرى السميك ٢٥١ سجينًا منهم

١٣١ عربيًا، و١٢٠ يهوديًا، ولكن كانت الخسائر فادحة فى المقابل، حيث قتل خمسة عشر يهوديًا أثناء المطاردة كما ألقى القبض على خمسة آخرين، وكان من بين القتلى (ميتشيل آشيل) الذى كان قد نجا من حبل المشنقة منذ عام مضى، وقدم ثلاثة من المعتقلين الجدد - وهم (اشفالوم جيب) و(مائر ناكار) و(يعقوب ويز) - إلى المحاكمة بتهم عقوبتها الإعدام، وقال أحدهم للقضاة:

(إننا نعلم أن هذه المعركة ستسفر عن نتيجة واحدة، فإن شعبنا سيحصل على حريته وسيجلو المستبد عن الأرض، ولهذا فإننا نحتفظ بهدوئنا، بل الأكثر من هذا فإننا سعداء فليس هناك سعادة أكبر من أن نهب حياتنا من أجل مثل أعلى، وأن نعلم ونعلم بما لا يترك مجالاً للشك، أننا من بين أولئك الذين يلعبون دوراً مباشراً فى سبيل تحقيقه).

وأدرك (بيجين) أنه يجب على (الارجون) أن تأخذ رهائن من رتب عالية، حتى يستطيعوا إنقاذهم، ولكن منذ تنفيذ عمليات الإعدام السابقة أصبح البريطانيون على حذر، مما جعل تنفيذ ذلك أمرًا صعبًا، واضطر (الصيادون) فى نهاية الأمر إلى الاكتفاء باختطاف اثنين من جنود المخابرات برتبة سيرجنت، أثناء عودتهما إلى مسكنيهما سيراً على الأقدام وهما يرتديان الملابس المدنية بعد أن قضيا ليلة فى مصيف ناتانيا بدون تصريح، وتمت عملية الاختطاف عن طريق ضرب السيرجنت (كليفورد مارتن) و(ميرفن بيس) بالهراوات وتخديرهما بالكلوروفورم ثم نقلهما بسرعة إلى مخبأ أعد خصيصاً لهذا الغرض أسفل مصنع لصقل الماس بناتانيا، وكان حارس سجنهما هو (جيدى باجلين) رئيس عمليات الارجون، وأعلن البريطانيون تحديد إقامة جميع سكان المدينة اليهودية، وتم استجواب ١٤٢٧ شخصًا منهم، ولكن بقى الجنديان فى زنزانتهما الخانقة بمرحاضها المصنوع من قماش سميك والأوكسجين المعبأ، ونفذ حكم الإعدام فى ٢٩ يوليو عام ١٩٤٧، فى المسجونين الثلاثة من منظمة الارجون - (جيب) و(نكار)

و(فيس)..حيث اقتيدوا إلى حبل المشنقة فى عكا، وفى ظرف ساعات قليلة من ذلك لحق بهم كل من السيرجنت (مارتن) والسيرجنت (بيس)، وتولى (باجلين) بعد التشاور مع (بيجين) مؤكداً له إمكانية تنفيذ العملية وتم شقنهما بواسطة عارضة خشبية فى سقف مصنع الماس المهجور، ثم نقلا إلى غابة صغيرة من أشجار الكافور حيث تركت جثتيهما تتدليان من شجرتين.

ووضع (باجلين) لغماً بالقرب من الشجرتين على أمل أن يقتل جنديًا ثالثًا حتى يتحقق التعادل، ولكن عندما تأخر البوليس فى العثور على الجثتين أخطرت منظمة (الارجون) الشرطة بمكانهما، مع تحذيرهم من وجود ألغام فإن (باجلين) كان يخشى أن يصيب اللغم أى جندى يهودى قد يشترك فى مهمة البحث، وبناء على التحذير فإن البريطانيين سحبوا الجثتين مستخدمين الحبال والخطافات، معتقدين أن الجثتين ذاتهما ملغومتان، ومما زاد من بشاعة عملية استرداد الجثتين بالنسبة لفرقة الإنقاذ العسكرية والشرطة والصحفيين والمصورين الحاضرين، إن الجثة الأولى عند إنزالها لست اللغم الذى زرعه (باجلين) ففجرته وتطايرت أشلاؤها.

أما الشجرة التى تحمل الجثة الثانية فقد اقتلعها الانفجار من جذورها وأصيب ضابط برتبة كابتن من سلاح المهندسين الملكى كان يشرف على العملية فى وجهه وكتفه.

تردد صدى عملية شنق الجنديين فى جميع أنحاء العالم، مثلما حدث لعملية الانفجار فى فندق (الملك داوود) وعملية الهروب من حصن عكا، ومع هذا فقد كان (مناحم بيجين) الذى صدّق على العملية متحفظاً بصورة غريبة إزاء هذا القرار، وكتب يقول فى مذكراته التى نشرت فى كتابه (التمرد):

(وفى اليوم التالى تم شنق البريطانيين، لقد عاملنا عدونا بالمثل، ولقد حذرناه مراراً وتكراراً، ولكنه تجاهل تحذيراتنا بإصرار، لقد أجبرنا على الرد عليه بأسلوب (الشنق بالشنق)، وكانت أيام ساد الظلام نهارها كالليالى الخالية

من النجوم)، هذا هو كل ما قاله فى المساحة التى تقل عن صفحة واحدة والتى خصصها لعملية الشنق، عن هذا القرار أما باقى المساحة فقد ملأها بتوجيه اللوم للبريطانيين لتنفيذهم (أحكام الإعدام) التى لا معنى لها.

بيد أن قرار قتل الجنديين لم يصدر ببساطة، فقد بذل (بيجين) جهودا فائقة فى مشاورات مع زملائه بالقيادة العليا للارجون، على الرغم من عدم وجود ما يفيد بأنه كان يعارض قرار الشنق، ويعتقد (يعقوب إمرامى) أن (بيجين) لم يكن يعرف تماماً ما يجب عليه عمله، يقول (إمرامى):

(لقد سأل الجميع عن آرائهم، ولم يكن يريد أن يؤثر على الآخرين عن طريق إعلان موقفه، وأنا شخصيًا كنت أؤيد القرار، وقام بمشاورة ستة أو سبعة منا ـ مثنى وفرادى، ولم يكن هناك من يعارض القرار، وأنا لا أنفى أن البعض كانت تراودهم المخاوف، لقد كانت المسألة نسبية، وكان رأى البعض قاطعاً، بينما كان هناك آخرون لديهم بعض الشكوك ولكنهم قالوا نعم، وكان (بيجين) يريد أن يسهل المسألة على أى أحد يريد أن يقول لا، أو يعبر عن أى تحفظ.

(وكانت مشاورة كل أعضاء القيادة العليا بهذه الصورة، عملاً غير عادى، وكانت القرارات تؤخذ عادة بواسطة موافقة أغلبية الأعضاء الموجودين، ولم أسمع (بيجين) يعترف مطلقاً بعد ذلك بأنه كانت لديه بعض الشكوك، ولو أنه كان لا يوافق على القرار لعارضه بكل قوته ويدافع بقوة عن وجهة نظره، ولم يكن هناك آنذاك أى دليل على أنه كان يعارض القرار، وكان (باجلين) أقوى المؤيدين لقرار الشنق ـ فإن البريطانيين شنقوا رجاله هو).

وجدير بالذكر أن أحد الدارسين الإسرائيليين اكتشف بعد خمسة وثلاثين عاماً أن والدة السيرجنت (مارتن) كانت يهودية مصرية، وكان والده قد تزوجها أثناء عمله فى السودان كموظف مدنى من وزارة المستعمرات، ووفقاً للشرائع اليهودية فإن هذا الأمر يجعل السيرجنت يهودياً، وقد سئل أحد أعوان (بيجين) الذى كان قد أصبح رئيساً للوزراء، عما إذا كان هذا

سيؤثر فى مصير السيرجنت، لو أنه كشف عن تلك الحقيقة آنذاك، وكان رده (فى الغالب لا)، فإن تنظيم الارجون السرى قد سبق له، على أى الحالات، اغتيال يهود آخرين ممن اعتبرهم خونة.

ومهما يكن من أمر، فإن عملية شنق الجنديين البريطانيين حققت الهدف منها، فلم يتم بعد ذلك إعدام أى إرهابى يهودى، وإن كان قد تم قتل خمسة من اليهود الأبرياء عندما هاجمت جماعات من الجنود والشرطة البريطانيين فى تل أبيب كرد فعل لعملية الشنق، وأغلق (بيجين) صفحات القضية على أساس افتراض أن إعدام الجنديين البريطانيين قد أنقذ أرواح عشرات من رجاله ورجال (عصابة شتيرن) خلال العام الأخير للانتداب البريطانى.

ولكن ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن (بيجين) كان يصر باستمرار، منذ أن تولى رئاسة مجلس الوزراء على رفض مطالب زملائه من اليمينيين بإعدام الإرهابيين العرب، فقد حصل على كفايته من علميات الإعدام كما أنه كان يعلم جيداً قيمة الاستشهاد.

■ ■ ■

الفصل التاسع

الخروج من عش (الدبابير)

كان شنق كل من السيرجنت (مارتن) والسيرجنت (بيس) بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة للرأيين العام والبرلمانى فى بريطانيا.

وكان رد الفعل المبدئى هو الغضب، فاجتاحت المظاهرات المعادية لليهود فى لندن وليفربول ومانشيستر وجلاسجو وغيرها من المدن البريطانية. ولكن سرعان ما تحولت الكراهية إلى تساؤل: هل فلسطين تستحق فعلاً هذه التكاليف الباهظة التى يدفعها البريطانيون بأرواحهم ومكانتهم ومصالحهم؟ لقد أخذ الرد على هذا التساؤل يتبلور إبان صيف عام ١٩٤٧ ليصبح نقياً جازماً.

واعترف سير (آرثر جريتش - جونز) وزير المستعمرات بمجلس العموم فى ١٢ أغسطس بأن ثمة موجة شديدة من التساؤل تسود الجمهور البريطانى حول الأعباء والتكاليف التى تتحملها بريطانيا، والمأساة الناجمة عن استمرار بريطانيا فى تحمل هذه المسئولية الدولية، وكان هناك شبه إجماع كامل بين أعضاء مجلس العموم، الذين تم استدعاؤهم من إجازاتهم الصيفية لمناقشة مسألة شنق الجنديين، على المطالبة بانسحاب مبكر للقوات البريطانية، وقال (ونستون تشرشل) فى خطاب وجهه فى قصر (بلنهايم) إلى أعضاء حزب المحافظين المعارض والمجتمعين هناك:

(إن بريطانيا تحتفظ بحوالى مائة ألف جندى بريطانى فى فلسطين ونبدد من الأموال التى نحصل عليها بصعوبة ثلاثين مليون جنيه استرلينى، أو ربما أربعين مليون جنيه سنوياً هناك، وليست هناك أى مصلحة بريطانية

فى استمرار الانتداب فى فلسطين، ولقد بذلنا طوال ثلاثين عاماً تقريباً جل طاقتنا من أجل القيام بمهمة شريفة فرضناها على أنفسنا تلقائياً.. ولقد طالبت الحكومة منذ عام بإخطار الأمم المتحدة بأننا نرفض تحمل المزيد من الإهانات والخسائر، ولكن الوزراء اكتفوا بفتح أفواههم فى بلاهة وتردد بصورة مخزية فى اتخاذ القرار، ومازالوا لا يفعلون شيئاً سوى ترك أفواههم مفتوحة حتى الآن.

وقد بعث (هيودالتون) عضو الوزارة العمالية، برسالة إلى (كليمنت آتلى) رئيس الوزراء يقول له فيها:

(إننى واثق تماماً من أن الأوان قد حان تقريباً لكى نخرج كل قواتنا من فلسطين، فإن الأوضاع الموجودة هناك حالياً لا تكلفنا غالياً من حيث الأفراد والأموال فحسب، ولكنها كما يعلم كلانا لا تشكل أى قيمة حقيقية من وجهة النظر الاستراتيجية وعلى أى الحالات لا يمكن الاحتفاظ بقاعدة آمنة فوق (عش دبابير) - وفضلاً عن هذا فإن بقاءنا هنا يعرض شبابنا لأقصى التجارب بلا داعى حقيقى، مما يولد مشاعر معادية للسامية بسرعة مذهلة).

وجاءت قوة ضغط الرأى العام، عقب شنق الجنديين البريطانين على رأس قائمة الأسباب التى سردتها (إليزابيث مونرو) الخبيرة البريطانية فى شئون الشرق الأوسط، وراء حدوث (التحول الضخم) فى موقف بريطانيا فتقول:

(إن الرأى العام البريطانى اعتاد طوال سنين عديدة أن يتخطى أى عقبات تعترضه فى فلسطين، وكان ينظر إلى (الاضطرابات) و(العنف) هناك، تماماً كما كان ينظر إلى (الاضطرابات) فى أيرلندا - أى كتجربة مؤلمة على الرجل الأبيض أن يتحملها كجزء من أعبائه - ولكن هذا الاتجاه تغير فى الأول من أغسطس سنة ١٩٤٧، وكان السبب فى هذا التغيير هو تنفيذ الإعدام شنقاً فى جنديين بريطانيين شابين برتبة سيرجنت، على يد الإرهابيين اليهود الذين ارتكبوا هذا العمل كإجراء انتقامى، فلهجة جميع التعليقات التى ترددت

فى الداخل إزاء هذا العمل تختلف تماما عن التعليقات على الأعمال الإرهابية السابقة، والتى أسفر بعضها عن خسائر أفدح فى الأرواح، كعملية نسف فندق (الملك داوود) مثلاً، وقد نشرت الصحف المصورة فى صفحاتها الأولى صور الرجلين المشنوقين، وساد شعور بالاستياء العام إزاء استخدام الجثتين كشرك متفجر، بل إن الرأى الحر عبر فى عدة مدن بريطانية عن استيائه فى صورة ثورات محدودة من المشاعر المعادية للسامية).

وأدى هذا الحدث بسرعة إلى تصعيد المشاعر المناهضة لأمريكا، وذلك فى فترة غير ملائمة على الاطلاق،(وقدم وزير الخارجية البريطانى تحذيراً فى الثانى من أغسطس إلى السفير الأمريكى لويس دوجلاس، يفيد بأن بريطانيا التى تشعر بالإحباط وخيبة الأمل نتيجة للقيام بمهمة الانتداب، التى لم تحظ بالامتنان عليها، قد تضطر إلى التخلى عن هذه المسئولية، وكان الموقف فى فلسطين يعمل على تسميم العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا.

وكانت الحكومة قد بدأت بالفعل فى اتخاذ الخطوة الأولى نحو إنهاء الانتداب - على الرغم من اتهام تشرشل لأعضاء الوزارة بالبلادة - قبل خمسة أشهر من إعدام الجنديين.. فقد ألمح (يرنست بيفين) فى مجلس العموم يوم ١٨ فبراير السابق إلى أن السبيل الوحيد الباقى الآن أمامنا هو رفع المشكلة إلى الأمم المتحدة لاتخاذ قرار فيها، فقد أدرك وزير الخارجية أن بريطانيا لن تستطيع إرضاء أى من العرب أو اليهود وأنها لا تملك إمكانية فرض حل من جانبها، وكان بيفين مازا محجماً عن الاعتراف بإفلاس سياسته والتخلى عن الانتداب، غير أن بريطانيا تقدمت فى شهر ابريل بطلب إلى الأمم المتحدة لتشكيل لجنة خاصة لدراسة الاحتمالات القائمة فى فلسطين وتقديم تقرير بنتائج دراستها إلى (الجمعية العامة) فى الخريف، ويعتقد (هارولد بيلى) مستشار وزير الخارجية (بيفين) لشئون الشرق الأوسط، أن هذه المبادرة صدرت أساساً عن (اتلى) أكثر من أن تكون من

بنات أفكار وزير الخارجية، وأصدرت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين فى ٣١ أغسطس ١٩٤٧ توصياتها بإنهاء الانتداب البريطانى وبإنشاء دولتين منفصلتين واحدة يهودية وأخرى عربية، وفى ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية العامة على التقسيم بأغلبية الثلثين.

ولم يكن هذا هو الحل الذى كان (مناحم بيجين) و(الارجون زفاى ليومى) يسعيان إلى تحقيقه، وكان (بيجين) قد عقد اجتماعا سريا فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٧ مع (اميل ساندستروم) رئيس (لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين)، وقد عقد هذا الاجتماع الذى منح (الارجون) نوعاً من الاعتراف الدولى، بترتيب من كارتر دافيدسون، الصحفى الأمريكى بالأسوشيتدبرس. [illegible] مساعيه الحميدة نظير أن يكون هو الوحيد الذى يطلع على [illegible] مباحثاتهما التى استغرقت ثلاث ساعات.

وكتب (دافيد سون) يقول فى تقرير قد أجل إرساله لمدة شهر حتى تنتهى بعثة الأمم المتحدة من عملها وتغادر الشرق الأوسط إن (ساندستروم) و(بيجين) قد ناقشا فى هدوء وبأسلوب ودى التاريخ السياسى والدينى لفلسطين وكان الحديث لطيفاً ووديا لدرجة أن (ساندستروم) قام بنفسه فى النهاية بتحذير (بيجين) قائلا: إن الشارع قريب من هنا، أليس من الأفضل أن نخفض أصواتنا، ورد عليه بيجين ضاحكاً: (لا تخش شيئاً، فإن رجالنا يقفون هناك، وسيبلغوننا إذا ارتفعت أصواتنا ولفتت الانتباه.

وقد حدد قائد الارجون أهدافه، بينما كانا يرتشفان النبيذ ويأكلان الفاكهة، بمنزل الشاعر (يعقوب كوهين) فى تل أبيب، ونص برنامجه على المطالبة بمنح اليهود السيادة على جانبى الأردن على أن يتم تنفيذه وفقا للخطوات التالية:

١ - إنهاء الاحتلال البريطانى (لأرض إسرائيل).

٢ ـ نقل السلطة إلى هيئة نيابية ديمقراطية تمثل شعبنا.

٣ ـ إعادة جميع اليهود الراغبين فى ذلك إلى الوطن فى فلسطين بمساعدة من هيئة دولية.

٤ ـ إجراء انتخابات ديمقراطية عامة بعد الانتهاء من إعادة اليهود إلى الوطن.

٥ ـ الحصول على قرض دولى لاستصلاح الأرض لصالح كل من الفلاحين العبرانين العائدين والعرب، والذين يعانون من العوز الشديد وهم يرزحون تحت نير العبودية والاستغلال.

وعندما استعد ساندستروم للانصراف، صافحه (بيجين) قائلاً:

أتمنى لك التوفيق فى مباحثاتك، ولكن لا أحد منا يتصور أن قرارك سوف يجعلنا نتخلى عن النضال.

وقد قبل (ديفيد بن جوريون) قرار التقسيم على مضض، نيابة عن التنظيم اليهودى فى فلسطين (الييشوف) كما وافق عليه بصفته الشخصية، حاييم وايزمان، الذى يعتبر أكثر الدبلوماسيين الصهيونيين إصراراً ومثابرة.

غير أن (بيجين) أعلن رفضه للقرار وكأنه شئ محرم، وقد صدق وعده الذى أعلنه عند وداعه للجنة الأمم المتحدة، وظل يحارب التقسيم فعليا حتى أعلن قيام دولة إسرائيل يوم ١٤ مايو عام ١٩٤٨، ثم فى الكنيست طوال مدة الست والعشرين سنة التى قضاها فى صفوف المعارضة، وأخيراً من موقعه داخل الحكومة التى تولى رئاستها بعد عام ١٩٧٧، وذلك عن طريق بذل كافة الجهود الممكنة لضمان عدم عودة الأراضى المحتلة فى الضفة الغربية إلى الأردن أبدًا.

هذا، ولطالما انقسم الرأى العام الإسرائيلى حول مدى مساهمة (الارجون) و(عصابة شتيرن) فى إنشاء دولة إسرائيل، فبموجب تفسير (الماباى) للتاريخ، كان (المنشقون) يعتبرون بمثابة عنصر إزعاج، لا قيمة له..

أما الجهد الفعلى فى بناء الأمة فقد اضطلعت به حركة العمل (تحت رئاسة حزب الماباى)، وحلفاؤها من الطبقة المتوسطة والفئات الدينية، وهم (الصهيونيون العموميون) وحزب (مزراحى)، وشطب الدور الذى لعبه ورثة (جابوتنسكى)، ولكن عندما قام (بيجين) فى عام ١٩٧٧ بتشكيل حكومة الليكود المنتخبة تبوأ (التصحيحيون) المكانة التى يستحقونها وانقلبت الأوضاع، وأصبح (بيجين) يوصف بأنه الرجل الذى طرد البريطانيين من البلاد، بينما تحول (بن جوريون) وشركاؤه إلى مجموعة من الأشخاص خائرى القوة الذى يقبلون الحلول الوسط، ورجال لا يملكون البصيرة ولا الشجاعة التى تمكنهم من مقاتلة الطغاة الدخلاء.

ولا يقل هذا التفسير الجديد المتطرف تشويهاً للحقيقة عن سابقه، فالوثائق البريطانية والمناقشات التى دارت فى بريطانيا تبين بوضوح أن (الإرهاب اليهودى) قد لعب دوراً بارزاً فى تحطيم إرادة البقاء فى فلسطين.

وكانت لبريطانيا اهتمامات أخرى تشغلها فى الداخل والخارج، فالجنيه الاسترلينى كان يواجه ضغوطاً، كما كانت بريطانيا تعانى من نقص شديد فى الوقود بعد أن تعرضت لشتاء قاس، وكانت الهند على وشك نيل الاستقلال.

وبدأت نظرة بريطانيا الاستراتيجية تتغير مع بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية، ولم يكن فى وسع الحكومة، فى مواجهة التهديد السوفيتى المتزايد فى أوروبا أن تعرض للخطر تحالفها مع أمريكا والمساعدات المالية التى تحصل عليها منها، وأصبحت فلسطين تشكل عبئاً، خاصة أنها كما قالت (إليزابيث مونرو)، لا تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لميزان مدفوعات المملكة المتحدة أو مستوى المعيشة بها، ولا بالنسبة لأمن بريطانيا العسكرى، أو علاقاتها بالكومنولث، وبحلول عام ١٩٤٧ ارتفعت تكاليف المحافظة على سيادة القانون والنظام فى فلسطين وأصبحت باهظة، فإلى متى تستطيع بريطانيا الاحتفاظ بمائة ألف رجل مرابطين هناك؟ وعلى أى الحالات فإن مائة ألف لم يكونوا

كافين لأداء تلك المهمة، وتزايد الشعور بأن الفوائد الناجمة من وراء ذلك أصبحت فى تناقص مستمر، ولم يستطع الجنرالات ولا السياسيون إيجاد رد مقبول على حرب العصابات المستمرة التى تشنها (الارجون) و(عصابة شتيرن) فى المدن، فلم تكن ثمة سوابق يمكن الرجوع إليها، ولم يكن فى وسعهم قهر المتمردين دون أن يسحقوا (الييشوف) ككل.

وفى الوقت ذاته، كان الشباب يقتلون بعيداً عن ديارهم بلا سبب مقنع، وكانت بريطانيا تتعرض للإهانة والسخرية، ففى خلال ثلاث سنوات - أى منذ نهاية الحرب العالمية فى ١٩٤٥ إلى أن غادر آخر المندوبين الساميين للبلاد فى عام ١٩٤٨ - لقى ٣٣٨ مواطنًا بريطانيا حتفهم بأساليب عنيفة على أيدى الجماعات اليهودية، وقتل ٩٩ بريطانيًا خلال ستة أسابيع اعتباراً من أول أكتوبر وحتى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٤٦، بعدما انسحبت (قوات الهاجاناه) فى ١٦ يوليو من ذلك العام، من حركة المقاومة العبرانية، وفى يناير سنة ١٩٤٧ تم إجلاء حوالى ألفين من الرجال والنساء والأطفال إلى بريطانيا، بينما نقل باقى المدنيين للإقامة داخل (ساحة آمنة) خلف الأسلاك الشائكة، وخلال ليلة واحدة من شهر مارس قتل أكثر من عشرين بريطانياً، من بينهم اثنا عشر ضابطا عندما قامت (الارجون) بنسف ناديهم بالقدس، فضلاً عن إصابة ثلاثين بريطانياً بجراح، وأشعل رجال (عصابة شتيرن) النار فى معمل لتكرير البترول فى حيفا، واستمرت ألسنة اللهب مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع.

وأوصى رؤساء الأركان فى لندن بفرض الأحكام العسكرية فى بعض الحالات المعينة، ولكنهم أقروا أن فرض القيود فى جميع أنحاء البلاد فى وقت واحد إنما يفوق إمكانيات القوات المتاحة حالياً، كما أن فرض الأحكام العسكرية من شأنه أن يزيد من الأعباء الحالية دون مزايا تعويضية، وكما يقول (نيكولاس بيثيل):

لما كان كل واحد من الضحايا البالغ عددهم ٨٣٣ شخصاً، قد لقى حتفه

بطريقة فردية، حيث قتل بمفرده عن طريق إطلاق الرصاص عليه، أو ضمن مجموعة صغيرة بواسطة قنبلة، فإن موتهم ترك أثراً عميقاً داخل الرأى العام البريطانى لا يقل عن الأثر الذى أحدثته الخسائر الأكبر حجماً فى الأرواح البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، والتى تحملها بصبر وتصميم، فى حين بدا هؤلاء القتلى البالغ عددهم ٣٣٨ وكأنهم ماتوا بلا أى داعٍ، ولذلك فقد تضاعفت الضغوط السياسية من أجل وقف تلك الاغتيالات.

هذا وقد رفع القنصل الأمريكى فى القدس تقريرًا إلى واشنطن فى أول مايو من عام ١٩٤٧ جاء فيه ما يلى:

(لا مفر من استنتاج أن حكومة فلسطين، التى يحاول المسئولون فيها إدارة شئون البلاد من خلف الأسلاك الشائكة ومن داخل مبانٍ محاطة بحماية مكثفة، وهم يعيشون - أى أولئك المسئولين بدون زوجاتهم وأبنائهم - فى عزلة تثير الشفقة فى وسط مناطق آمنة - لا مفر من استنتاج أن هذه الحكومة لا تزيد عن كونها منظمة طريدة بلا أمل كبير فى أن تتمكن من مواجهة الأوضاع القائمة حاليا فى البلاد).

وتوصل (مايكل ج. كوهين) المؤرخ الإسرائيلى ذو الميول السياسية الصهيونية اليسارية، بعد أن أجرى دراسة مستفيضة للوثائق البريطانية والأمريكية إلى أن التاريخ يوحى على ما يبدو بأن الأساليب العنيفة التى انتهجتها جماعة (ارجون زفاى ليومى) والمكروهة فعلا من الناحية المعنوية كان لها تأثير حاسم فى تحويل مسألة الجلاء من كونها حلاً بديلاً فى فبراير ١٩٤٧، إلى قرار حازم، بحلول شهر أغسطس من ذلك العام، ينص على التخلى عن أعباء الانتداب.

ولكن، لا يمكن تقييم دور (الارجون) و(عصابة شتيرن) فى فراغ، فإن قوات الهاجاناه كانت تدبر فى الوقت ذاته حملة بأسلوب مختلف لم يكن أقل أضراراً بسمعة بريطانيا ومكانتها، وإن أدى إلى إظهار القضية اليهودية فى

صورة أفضل، فقد عملت فيما بين عام ١٩٤٥ وشهر مايو من عام ١٩٤٨ على إحضار حوالى سبعين ألف يهودى بطرق غير مشروعة إلى فلسطين، وقد تمكنت البحرية الملكية البريطانية من اعتراض طريق ٥١٥٠٠ من هؤلاء المهاجرين واحتجازهم فى قبرص، وكانت أشهر مراكب الهجرة غير المشروعة وهى (الاكسودس ١٩٤٧) (أى الخروج الجماعى ١٩٤٧)، قد أقلعت فى يوليو من ذلك العام من الميناء الفرنسى الصغير، (بورت - دى - بو)، حاملة على ظهرها ٤٥٠٠ يهودى، وقد تعقبتها طائرات السلاح الجوى الملكى وسفن الأسطول البريطانى فى رحلتها عبر البحر الأبيض المتوسط، ولما كانت معسكرات قبرص قد امتلأت عن آخرها، فقد قرر (بيفين) انتهاج سياسة جديدة لمعاقبة أولئك المتسللين بإعادتهم إلى المكان الذى أتوا منه، وفى يوم ١٨ يوليو اعتلى مشاة البحرية البريطانية ظهر (الاكسودس) أمام الساحل القريب من غزة، وانتهجت (الهاجاناه) سياسة تجمع بين المقاومة والإعلام.

فقد تم نقل صوت المعركة الدائرة مع القوات البحرية التى اعتلت المركب إلى الشاطئ من خلال أجهزة إرسال قوية واختارت (الهاجاناه) أن تعرض قضيتها على المسرح العالمى الأوسع نطاقاً بدلاً من أن تحاول إنزال بعض الركاب، فصدرت التعليمات إلى قبطان السفينة (ايك آران) باستغلالها كمظاهرة كبرى تحمل لافتات تبين مدى ضعفنا ومسكنتنا وعجزنا، ومدى قسوة البريطانيين، وأدى البريطانيون الدور المرسوم لهم فى النص الذى وضعته (الهاجاناه) بحماس يفوق كل تصوراتها إذ أنهم قاموا بتوجيهها، بعد سيطرتهم عليها، إلى داخل ميناء حيفا، حيث أصبحت هدفاً ثابتاً يقف أمام آلات التصوير ومراسلى أجهزة الإعلام العالمية، وشاهد حدث وصول السفينة، رئيس لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (اميل ساندستروم) واثنان من زملائه بدعوة من (أبا ايبان) الذى أصبح فيما بعد وزيراً لخارجية إسرائيل، وكان يعمل آنذاك بالوكالة اليهودية، وقد ذكر (ايبان) فى مذكراته

أن المهاجرين قرروا ألا يستسلموا لمحاولات الإبعاد فى هدوء، ووجه ونستون تشرشل إلى (بيفين) اتهاماً بشن حرب قذرة ضد اليهود.

وعلق ايبان على ذلك بقوله:

(لو أن أحداً أراد أن يعلم حقيقة ما يقصده (تشرشل) لعرفها بسهولة من مشاهدته للجنود البريطانيين وهم يستخدمون أعقاب البنادق والخراطيم والقنابل المسيلة للدموع ضد الناجين من معسكرات الموت، وكانوا يحملون الرجال والنساء والأطفال بالقوة إلى السفن لحبسهم، حيث يتم إلقاؤهم فى الأقفاص الموجودة فى أسفل السفن لينقلوا إلى خارج المياه الإقليمية لفلسطين.

وبينما كان (ساندستروم) و(بريليج) و(جرانادوس) يراقبون هذه الممارسات البشعة، كنت أترقب عودتهم إلى القدس بصبر نافد، ورأيت وجوههم عند عودتهم وقد علاها الشحوب من هول الصدمة، وأدركت أن سؤالاً واحداً فقط كان يشغل بالهم: إذا كان هذا هو الأسلوب الوحيد الذى يستطيع به الانتداب البريطانى أن يستمر، فمن الأفضل وقفه تماماً.

وقد ضاعف البريطانيون من حماقتهم بإعادتهم لهؤلاء المشردين إلى الميناء الفرنسى (بورت - دى - بو) حيث رفضت أغلبية اللاجئين البالغ عددهم ٤٥٠٠ شخص النزول إلى الشاطئ بالرغم من العرض الفرنسى بمنحهم حق اللجوء، وأتيحت للصحافة العالمية فرصة أخرى لتصوير الظروف الصحية السيئة فى السفينة وكتابة التقارير عنها، ووصفت الصحيفة الشيوعية الفرنسية (لومانيتيه) السفن البريطانية الثلاث بأنها تشبه معسكر (أوشفيتز عائم)، وارتكب (بيفين) عند ذاك أكبر أخطائه على الإطلاق، حيث أرسل اليهود إلى ألمانيا، وكانت سياسته الجديدة بمثابة كارثة إعلامية لبريطانيا، خاصة فى الولايات المتحدة، بينما أدت إلى تحقيق نصر ساحق للصهيونية، وكتبت (إليزابيث مونرو) تقول: (لقد استغل الصهاينة الركاب كقطع فى لعبة الشطرنج، وارتكبت الحكومة البريطانية التى تعرضت

لاستفزاز بالغ، نفس الخطأ، وأثار تصرفها بإرسال اليهود إلى المكان الذى كان يعتبر من قبل بمثابة مقبرة لهم، استياء الملايين، أكثر مما لو أرسلوهم إلى أى مكان آخر فى العالم).

وكانت الهجرة غير المشروعة تعتبر حتى تلك الفترة، حكراً على (الهاجاناه) والوكالة اليهودية، فقد استطاع (التصحيحيون) أن ينقلوا من أوروبا إلى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٧، ١٩٤٤، أربعين ألف يهودى فقط، وذلك وفقاً لأكثر تقديراتهم تفاؤلاً، ولكن نشاطهم فى هذا الصدد توقف بعد ذلك وركزوا جهودهم بدلا من هذا على النضال المسلح (للارجون) و(عصابة شتيرن).

وكان عموم الصهيونيين يحتكرون أيضاً النشاط الدبلوماسى فى لندن ونيويورك بل وفى فلسطين ذاتها، بالرغم من الرنين المرتفع لدعاية (حركة التصحيح) فى أمريكا، وإذا قلنا إن بريطانيا ما كانت ستتخلى عن الانتداب فى ذلك الحين بدون نغز حرب المتمردين، فإن الحقيقة تؤكد أيضاً أن قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ما كان سيحصل على الأغلبية لولا مفاوضات الأروقة التى كان يجريها الدبلوماسيون الممقوتون فى كل من واشنطن ونيويورك، وبالمثل، فبدون الريادة الدؤوبة لصهاينة حركة العمل وحلفائهم، لما كان هناك إعداد لقيام الدولة اليهودية ولما وجدت البنية الأساسية للسيادة، ولولا وجود المزارع الجماعية والتعاونية فى النقب والجليل لما جاء خط الحدود الإسرائيلية بهذه الصورة، بل يمكن القول إنه لما كانت هناك صناعة أو زراعة.

لقد كتب (جوزيف ب. سيشتمان، رفيق (جابوتنسكى) وكاتب سيرته يقول:

(لقد كان حزب التصحيحيين، والمنظمات المنبثقة عنه، هو الوحيد دون جميع التشكيلات الصهيونية فى فلسطين، الذى لم يكن يملك أى مستوطنات فيما عدا بعض الاستثناءات الضئيلة القليلة أو مشروعات اقتصادية أو مؤسسات خاصة به، ولقد مكنهم هذا من المحافظة على مثلهم الصهيونية

العليا وقدرتهم على حرية الحركة، مما جعلهم الطليعة العسكرية ليهود فلسطين، بيد أنهم دفعوا ثمناً باهظاً جداً نظير ذلك، فقد أصبحوا يشكلون الفئة المعوزة داخل المجتمع اليهودى، وكثيراً ما أثرت حاجتهم الاقتصادية على فرصهم السياسية).

ومرة أخرى أصبحت (الهاجاناه) تشكل نواة لجيش يهودى قادر على صد هجوم خمسة جيوش عربية وردها على أعقابها،وكانت جماعة (الارجون) و(عصابة شتيرن) مدربتين على شن هجمات فدائية والقيام بعمليات تخريبية وغارات انتقامية، ولكنهما لم تكنا مدربتين على استخدام أساليب الحرب التقليدية، وكانت القوة الاسمية للهاجاناه فى منتصف عام ١٩٤٧ تبلغ ٣٤ ألف رجل وامرأة، لكن كان ٣٢ ألفاً منهم يتبعون (الحرس الوطنى) المفتقر للتدريب والتسليح، بيد أن (الهاجاناه) كانت تملك أيضاً (قوة ميدانية) قوامها ٨ آلاف من المتطوعين المتفرغين طوال الوقت، يتدربون بانتظام، كما كانت قوات (البالماخ) النظامية تضم ٣١٠٠ رجل وامرأة، وقد جاء من بين هذه القوات الأخيرة معظم قادة الجيش الإسرائيلى الناشئ وعندما اقتربت الحرب، قامت قوات (الهاجاناه) بتنظيم نفسها فى ٥ كتائب ميدانية وتدربت على الأساليب القتالية وأنشئت ٥ مقار رياسة إقليمية، ومع ذلك فإن الهاجاناه ظلت، حتى حلول نهاية ١٩٤٧ مفتقرة بشدة للتسليح، فلم يكن تحت يدها سوى ١٧٦٠٠ بندقية متنوعة، و٣٧٠٠ مدفع نصف آلى، وأقل من ألف مدفع ماكينة ويقدر أن الارجون كانت تضم آنذاك حوالى ألفى عضو ولكن نصفهم فقط هم الذين تلقوا بعض أنواع التدريب، أما عصابة (شتيرن) فكان قوامها بضع مئات فقط، وكان مقاتلو (بن جوريون) قد أعدوا أنفسهم لشن حرب تحرير، بينما نظم مقاتلو (بيجين) عملية التمرد ضد البريطانيين، ولا يمكن استبعاد أى من هاتين العمليتين، كما لا يجب التقليل من شأنهما.

■ ■ ■

الفصل العاشر

كما حدث فى دير ياسين

(تقبل تهانى على هذا الذى يعد عملاً رائعًا وأبلغ تحياتى إلى كافة القواعد والجنود، إننا نشد على أيديكم وإننا فخورون جداً بالقيادة الممتازة وروح القتال التى سادت خلال هذا الهجوم العظيم، إننا لن ننسى القتلى ونشد على أيدى الجرحى بكل الحب، أبلغ الجنود أنكم بهذا الهجوم والغزو ساهمتهم فى صنع تاريخ إسرائيل، فلتواصلوا طريقكم حتى النصر، وكما حدث فى دير ياسين وفى غيرها فإننا سنهاجم ونسحق العدو، يا إلهى، يا إلهى لقد اخترتنا لنحقق هذا الغزو).

عندما أرسل مناحم بيجين هذا الأمر الذى يشى بالابتهاج إلى قيادته فى القدس كان لا يعرف إلا قليلاً عما حدث قبل ذلك خلال أو بعد المذبحة التى وقعت يوم ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ فى قرية دير ياسين وهى قرية عربية تقع على الطرف الشمالى الغربى من مدينة القدس، ولكنه أعلن بعد ذلك بيومين عبر إذاعة (صوت صهيون المقاتل) التابعة لجماعة الارجون زفاى ليومى أنما معركة مقدسة، اشترك فيها لأول مرة جنود من الأرجون زفاى ليومى وليخى والبالماخ، ولقد ظل قائد الارجون زهاء أكثر من ثلاثين عاماً مقتنعاً تماماً أن دير ياسين كانت عملية عسكرية تقليدية حارب فيها رجاله بشجاعة وشرف، محاولين التقليل من وقوع خسائر بين المدنيين إلى أدنى حد، متمسكين بالأخلاقيات التى درجوا عليها، وقد أدان بيجين خلال المقابلات التى أجريت معه مؤخراً وكذلك خلال تصريحاته السابقة بن جوريون وكل شخص آخر خالفه فى هذا الرأى ووصفهم بأنهم (منافقون ضيقو الأفق) بل وصل به

الأمر إلى وصفهم بالكذابين، إن هذا الثبات على المبدأ يعد دليلاً قويًا على ولاء بيجين لمقاتليه وربما يعد أيضاً دليلاً على جنون العظمة القوى لديه.

إن ما يقوله بيجين بعيد كل البعد عن ما حدث بالفعل فى تلك القرية فى صباح أحد أيام الجمعة بعد أن نفّضت بريطانيا يديها من الانتداب على فلسطين بشهر واحد.

إن دير ياسين القرية التى يقطنها ما بين ثمانمائة وألف نسمة يكسبون عيشهم من العمل فى المحاجر وقطع الأشجار مازالت تؤرق مناحم بيجين والدولة التى ساعد على إنشائها وسواء أكان الأمر مجرد صدفة أم مدبرا، وسواء أكانت يهودية أم عربية فإن دير ياسين سببت ذعرًا أدى إلى إسراع سبعمائة ألف من العرب فى الهروب من الأرض التى سرعان ما أصبحت إسرائيل، إن الاسم لم يفقد فقط رنينه ومازالت قصة دير ياسين تمثل بالنسبة للصهيونيين موضوعاً محرماً، فإن الوثائق والصور قد أسدل عليها ستار من السرية لفترة أطول مما يمكن أن يلحق الضرر بأمن إسرائيل.

ووجد الساسة والكُتاب من كلا المعسكرين الصهيونيين أنه من الحكمة إغلاق ملفات دير ياسين لأن الجميع متورطون فى المذبحة، وعلى الرغم من أن بن جوريون أسرع بإرسال برقية عزاء إلى الأمير عبدالله فى عمان فإن الهاجاناه كانت مشغولة بالفعل فى محو الدليل الأكثر بشاعة، فقد استطاع مصور لجريدة سينمائية تصوير فيلم طوله أربعمائة قدم للمرحلة الأخيرة من المذبحة ولكنه ارتكب خطأ بالحديث عن ذلك إلى أحد زملائه الذى كان يعمل لحساب مخابرات البالماخ، والذى ذهب إلى مطار اللد وقام بتبديل الفيلم قبل أن يطير إلى لندن وتلقت الجريدة السينمائية فيلماً طوله أربعمائة قدم يصور تشكل الضباب فى القدس.

كان عرب دير ياسين يعتقدون أنهم آمنون، على الرغم من الحرب غير المعلنة التى نشبت بعد تصويت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، وكانوا يثقون

فى معاهدة عدم الاعتداء التى وقعها مختار قريتهم مع الضاحية اليهودية المجاورة فى جيفات شاؤل، وكما يقول محمد عارف سامور وهو مفتش متقاعد بالمدارس الذى كان يبلغ السادسة والعشرين من عمره عند وقوع المذبحة: (كان هناك اتفاق على ألا تحدث مشاكل بينهم، فإذا قامت مجموعة من شبابهم بمهاجمة دير ياسين فإن اليهود يقومون باعتقالهم ومنعهم، وإذا هاجم أحد دير ياسين جيفات شاؤل فإن العرب يقومون بمنعه، لم تكن هناك مشاكل بين اليهود والعرب هناك فى ذلك الوقت). كانت دير ياسين بالنسبة للهاجاناه قرية عربية يجب إخضاعها للسيطرة اليهودية عاجلا أو آجلا ولكن ليس بالضرورة عن طريق الغزو، وكانت القرية تمثل أهمية إستراتيجية لسببين، أن وقوعها فى يد العدو يجعلها تمثل خطراً للضواحى اليهودية فى جيفات شاؤل، بيت حاكيرم يافانوف وبابيت فاجان بسبب موقعها فى أعلى التل، وكانت الهاجاناه تخطط لإقامة مهبط للطائرات على طول سلسلة التلال بين جيفات شاؤل ودير ياسين والذى من شأنه الإبقاء على الاتصالات بين القدس والساحل فى حالة الطوارئ، وفى حالة أبوغوش وهى قرية (محايدة) أخرى تقع على بعد أربعة أميال على الطريق المؤدى إلى تل أبيب فإن السكان العرب وافقوا على النزوح عن القرية خلال مدة الحرب وسمح لهم بالعودة إليها بعد ذلك وربما كان يجرى ترتيب لشىء مماثل بالنسبة لدير ياسين.

ولكن عصابات الارجون وشتيرن كانت لديها أفكار أخرى، فلأنهم خرجوا من تنظيمات سرية فإنهم كانوا يتوقون لإثبات معدنهم أن يظهروا للهاجاناه والعرب أنهم ليسوا مقاتلى شوارع، وكانوا كذلك يشعرون بالقلق من أن بن جوريون ربما يذعن لاقتراح الأمم المتحدة بتدويل القدس أو يقوم على الأقل بالتعامل مع الملك عبدالله.

ومع ذلك فإن أولئك المنشقين كانوا يدركون مدى النقص فى الرجال والسلاح لديهم، وكذلك لافتقارهم إلى التدريب على القتال، ويقول يهودا

لابيدوت وهو ضابط كبير فى الارجون ويعمل حالياً أستاذاً للعلوم فى الجامعة العبرية إن جماعته لم يكن لديها أكثر من ثلاثمائة مقاتل فى القدس وإن عدد جماعة شتيرن كان يبلغ المائة بالكاد، وقال لابيدوت فى شهادته المودعة فى أرشيف جابوتنسكى فى منتصف الخمسينيات: إن الفكرة الأصلية بمهاجمة دير ياسين صدرت عن ييهوشيا جولدزميدت وهو ضابط عمليات الارجون فى القدس كان السبب اقتصادياً أساساً، أى الاستيلاء على غنيمة للحفاظ على القواعد التى قمنا حينذاك بإنشائها بموارد فقيرة للغاية، وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الفكرة الأساسية هى غزو القرية بقوة مسلحة وهو شىء لم يكن معروفاً حينذاك فى البلاد وأصبح نقطة تحول فى العمليات العسكرية اليهودية وسرعان ما وافقت جماعة شتيرن الذى كانت تتطلع إلى المصالحة مع الارجون على الاقتراح التى تمت إحالته إلى اجتماع مشترك لكبار الضباط المقاتلين، أربعة من كل جماعة ووفقا لما ذكره لابيدوت الذى كان أحد أولئك الضباط، فإن عصابة شتيرن اقترحت تحويل العملية إلى غارة تأديبية يقول: (لابيدوت) فى شهادته:

بالإضافة إلى المناقشة العسكرية تقدمت جماعة ليهى باقتراح يقضى بالقضاء على سكان القرية ليرى العرب ماذا يحدث عندما تشترك ليهى والارجون زفاى ليومى فى عملية عسكرية معاً.

ولسبب أساسى آخر ـ فإن هذا سوف يحدث اضطرابًا كبيرًا فى البلاد وسيكون نقطة تحول هامة فى سير المعارك، وكان الهدف الواضح هو تحطيم الروح المعنوية لدى العرب ورفع الروح المعنوية للجالية اليهودية فى القدس إلى حد ما أوهى التى تلقت الضربة تلو الضربة، خاصة ما حدث مؤخراً من التمثيل بجثث القتلى اليهود الذين وقعوا فى يد العرب.

وأضاف بنريون كوهين قائد الارجون فى العملية والذى أصيب بجراح عند بداية تبادل إطلاق النار: (عندما وصل الأمر إلى مناقشة وضع السجناء، والنساء، والشيوخ، والأطفال، تضاربت الآراء، ولكن كان رأى

الأغلبية يقف إلى جانب القضاء على كافة الرجال فى القرية وأى قوة أخرى تعارضنا سواء كانت من الشيوخ أو النساء أو الأطفال).

(إن الرغبة فى الانتقام كانت قوية بعد الضربة التى وجهها العرب إلى جوش يتتريون واتاروت وهما مستوطنتان يهوديتان بالقرب من القدس فقدتهما إسرائيل ثم استعادتهما فى سنة ١٩٦٧.

وقد رفض ضباط الارجون اتخاذ قرار حول اقتراح عصابة شتيرن ولكنهم أحالوه إلى القيادة.. ويقول لابيدوت إن بيجين رفض الاقتراح وأصر على أن يستخدموا مكبراً للصوت لتحذير سكان القرية وإعطائهم فرصة للاستسلام دون إراقة الدماء، وقد أكدت مصادر الهاجاناه هذا، ووافق قادة الميدان من جماعة الارجون على مضض على استخدام مكبر للصوت وترددوا فى أن تفلت فرصة إحداث مفاجأة من أيديهم، ويزعم لابيدوت أن كل جندى كانت لديه تعليمات بتجنب إحداث خسائر.

كان الهدف هو حمل العرب على الاستسلام وكانت الرسالة التى كان مفروضاً إذاعتها عبر مكبر الصوت هى:

(إنكم محاصرون بقوات الارجون وليهى، ولن يحدث لكم شىء إن لم تقاتلوا).

وكان هناك أحد احتمالين:

إما السيطرة على القرية وترك السكان هناك أو نقلهم إلى القسم العربى من القدس، (إننا لم نتخذ قرارًا سريعًا وجامدًا مسبقا، بل قررنا الانتظار ورؤية ما سوف يحدث، وكان القرار الوحيد هو إحداث أقل قدر ممكن من الخسائر).

وعرف ديفيد شالتيل قائد الهاجاناه فى القدس خطة المنشقين لمهاجمة دير ياسين، وحاول فى بادئ الأمر إثناءهم عن عزمهم، فالقرية كانت تقع فى ذيل قائمة أولوياته، فهى لم تكن تطل على طريق القدس ـ تل أبيب، ولم تقم

بإيواء العصابات من العرب الرُحَّل الخارجين عن القانون وكانت الهاجاناه مشتبكة فى معركة يائسة للاستيلاء على كاستيل وهى هضبة استراتيجية تتحكم فى الطريق العام، واقترح شالتيل أن ينضم رجال الارجون وشتيرن بأسلحتهم إلى المعركة الدائرة للاستيلاء على كاستيل، ولكنهم رفضوا كما رفضوا كذلك اقتراحاً بالاستيلاء على قرية عربية أخرى قريبة على الطريق مثل قرية كولونيا بالقرب من قرية موتزا اليهودية، ويقول لابيدوت:

(كنا نريد أن نركز على القتال فى القدس وأن نترك القتال على الطريق للبالماخ والهاجاناه، ولم تكن لدينا قوة كبير كافية فى القدس، ولم يكن فى استطاعتنا تقسيمها، وكانت دير ياسين، كما يبدو، هدفاً يسهل الاستيلاء عليه).

وعلى عكس الإنكار الذى أعلنته الهاجاناه عقب المذبحة مباشرة فإن شالتيل وافق على مضض على الغارة على دير ياسين، ولكنه وضع شروطًا صارمة فى خطاب أرسله إلى قادة عصابات الارجون وشتيرن المحليين:

(نما إلى علمى أنكم تخططون للقيام بعملية ضد دير ياسين، وأود أن ألفت انتباهكم إلى حقيقة أن الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها هو مرحلة فى خطتنا الشاملة، إننى لا أعترض على قيامكم بالعملية شريطة أن تكون لديكم القوة الكافية للاحتفاظ بها، فإذا لم يكن ذلك فى مقدوركم فإننى أحذركم من تدمير القرية مما سيؤدى إلى رحيل السكان وقيام قوات خارجية باحتلال المنازل المنهارة، إن هذا الموقف سيجعل المعركة العامة أكثر صعوبة بدلاً من جعلها أكثر سهولة، وإن محاولة إعادة احتلال المكان سيلحق خسائر جسيمة برجالنا، وهناك رأى آخر أود وضعه نصب أعينكم وهو أنه إذا دخلت قوات خارجية المكان فإن هذا سيقضى على خطتنا ببناء مطار).

وكان شالتيل يأمل فى أن يثنى المنشقين بمواردهم الضئيلة عن تنفيذ ما ينوون القيام به فى دير ياسين ولكنهم كانوا مصرين على المضى قدماً.

وآثر قائد الهاجاناه إعطاء موافقته بدلاً من المخاطرة بوقوع مواجهة مسلحة بين القوات اليهودية المتنافسة، كان قرار إزرائيل جاليلى قائد الهاجاناه بعدم التعاون مع رجال الارجون وشتيرن خرقاً للأوامر الثابتة، ولكن شعر شالتيل أنه يتعين عليه استخدام الحكمة، وفى يوم الجمعة ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ زحفت قوة مشتركة مكونة من ثمانين مقاتلاً من الارجون وأربعين من شتيرن إلى دير ياسين فى هجوم من جهتين، وقبل إذاعة أى تحذير وقع مكبر الصوت فى حفرة، وعلى الرغم من أن بيجين ظل سنوات بعد ذلك يزعم أن سكان القرية تجاهلوا التحذير إلا أن شهود العيان أجمعوا على أنه لم يذع أى تحذير قط، أو على الأقل من على مسافة تسمح للعرب بسماعه.

وعلى أى حال فكما يقول لابيدوت فإن هذا ما كان يغير من الأمر شيئا، فضَّل العرب القتال وكانوا أكثر استعداداً مما كان يظن مهاجموهم، وكانت دير ياسين مثلها مثل أى قرية فى فلسطين التى يسودها الاضطراب تعين حرسا أثناء الليل، واستطاع أحدهم رؤية المهاجمين الذين ندموا فيما بعد لأنهم لم يقوموا بهجومهم تحت جنح الظلام، وأطلق الحارس تحذيره وكان كل بيت تقريباً يمتلك بندقية وإن كانت من النوع العتيق، وأمسك الرجال ببنادقهم وشرعوا فى الدفاع عن أنفسهم وعائلاتهم وكان القائد بنزيون كوهين ضمن أوائل الخمسة والثلاثين يهوديًا الذين أصيبوا بجراح، وكان إجمالى القتلى أربعة من الارجون وواحداً من شتيرن، ولم يكن هناك دليل على وجود مدافع أو غيرها من الأسلحة الثقيلة أو جنود عراقيين أو سوريين كما يزعم الارجون، وروى شهود العيان اليهود ما رأوه من إطلاق النار من القناصة الذى كان متواصلاً ودقيقاً، ووفقاً لما ذكره لابيدوت الذى تولى القيادة فإن مقاتلى الارجون وشتيرن كان لديهم نحو عشرين بندقية وثلاثة مدافع من طراز برين وكانت أكثر الأسلحة فاعلية، وما بين ثلاثين إلى أربعين مدفعاً خفيفاً من طراز ستين وإن لم يعمل معظمها لأنها مصنوعة بأيدى

الهـواة فى ورش الارجـون، فـى تل أبيب وعـدد قليل من المسـدسـات والقنابل اليدوية تقول شهادة (لابيدوت):

(كانت المشكلة الأساسية بالنسبة لدير ياسين أن العرب كانوا أقوى منا ولديهم بنادق وذخيرة أكثر وكانوا يحاربون من منزل إلى منزل، وحقيقى أن المقاومة كانت مركزة على تل واحد إلى الغرب ولكن كان هذا مركز المدينة، الذى يشكل تسعين فى المائة من مساحة القرية).

تم إرسال رسول إلى مركز قيادة الهاجاناه فى القدس فى ثكنات شينللر وأرسل شالتيل مجموعة جنود من البالماخ مع مدفع مورتر ومدفع رشاش، وقامت وحدة البالماخ بتطويق التل الغربى من الجهة اليمنى واستطاعت إسكات المقاومة دون وقوع خسائر ثم انسحبت، ومهما كان اعتقاد بيجين الذى عاد إلى تل أبيب بالنسبة للمنشقين وقتال البالماخ جنباً إلى جنب، فقد كان ذلك هو حجم الاشتراك الفعلى للهاجاناه فى المعركة، ومع انهيار الجانب الأكبر من دفاع العرب استأنف مقاتلو الارجون وشتيرن القتال مصوبين نيرانهم إلى أى شىء يتحرك وللمنازل لنسفها سواء كان السكان داخلها أم لا، وأصبح من الصعب بصورة متزايدة السيطرة على مقاتلى الارجون وشتيرن، ومما لاشك فيه أن بيجين أمر بضبط النفس ولكن كلما طال أمد العملية، ازدادت الفوضى، وبدأ أن المغيرين عادوا إلى غرائزهم الوحشية الأولية، ويقول يهوشيا جوردينتشك وهو ضابط من الارجون إنهم فكروا فى الانسحاب بعد أن لحقت بهم خسائر:

(كان لدينا أسرى وقررنا القضاء عليهم قبل الانسحاب، كذلك قضينا على الجرحى لأننا لم نكن نستطيع على أى حال علاجهم، وفى أحد الأماكن قتل نحو ثمانين من الأسرى العرب بعد أن قام بعضهم بإطلاق النار مما أسفر عن مصرع شخص ممن أتوا لعلاجهم، كذلك تم اكتشاف العرب الذين تنكروا فى زى النساء، وهكذا شرعوا فى إطلاق النار على النساء أيضاً

اللاتى لم يسرعن إلى المنطقة التى تجَمعً فيها الأسرى).

أكد يائير تاسبان هو الآن عضو فى حزب مابام اليسارى فى الكنيست قصة الرجال العرب الذين تنكروا فى زى النساء، وكان تاسبان حينذاك يبلغ السابعة عشرة من عمره ويدرس فى إحدى المدارس الثانوية فى القدس ودفعه مقاتلو الهاجاناه للاشتراك فى دفن الموتى بعد انسحابهم من ساحة المعركة، ولكن تاسبان يقدم تفسيراً مختلفاً لذلك:

(ما رأيناه كان نساءً وأطفالاً وشيوخاً والذى أصابنا بالصدمة هو وجود حالتين أو ثلاث على الأقل من الشيوخ الذين تنكروا فى زى النساء، وأتذكر عندما دخلنا حجرة المعيشة فى أحد المنازل وجدنا امرأة صغيرة ميتة فى أحد الأركان وكان ظهرها إلى الباب وعندما وصلنا إلى الجثة وجدنا أنه رجل عجوز بلحية، وكان استنتاجى لما رأيته أن ما حدث فى القرية قد أثار رعب أولئك العجائز لدرجة أنهم أدركوا أن كونهم عجائز لن يشفع لهم وكانوا يأملون فى أن التنكر فى زى النساء سينقذهم).

استطاع مائير بائيل الذى أصبح فيما بعد سياسيًا يساريًا وكان وقتذاك ضابط مخابرات فى الهاجاناه فى القدس ولم يكن معروفاً لعصابات الارجون وشتيرن أن يشهد العملية برمتها: الهجوم، والمقاومة والمذبحة، وكان قد عرف بالهجوم المرتقب وقرر دون إبلاغ رؤسائه أن يذهب وأن يرى كيفية تنفيذ المنشقين لمخططهم، وأخذ معه آلة تصوير وكان هدفه هو إبلاغ مقر القيادة بقدرتهم القتالية، وكان من المعروف أن الإنجليز سيتركون البلاد قريباً وأن الهاجاناه ستكون هى الجيش الوطنى وستعمل على ضم المنشقين إلى صفوفه سواء كوحدات متميزة أو موزعة بين المقاتلين الآخرين وعلى أسوأ الأحوال فإنهم إذا رفضوا التخلى عن وضعهم المستقل فإن الهاجاناه ستقوم بإخضاعهم بالقوة وفى كلتا الحالتين فإنه سيكون من المفيد تقييم أدائهم فى أول عملية تقليدية يقومون بها، واستهل بائيل تقريره لإزرائيل جاليلى بالأبيات

الافتتاحية لإحدى القصائد العبرية المشهورة التى كتبها حاييم ناشمان بياليك بعد مذبحة كيشينيف سنة ١٩٠٣ والتى قام خلالها الرعاع الروس بقتل تسعة وأربعين يهودياً وجرح خمسمائة آخرين:

(انهض واذهب إلى مدينة القتلى وستصل إلى الأفنية وسترى بعينيك وستلمس بيديك على الأسوار والأشجار والأحجار والحوائط دماء القتلى المتجمدة وأدمغتهم المسحوقة).

ومازال تقرير بائيل محظوراً ولكن ما يتذكره هو مذبحة غير منظمة بعد أن خمدت معظم المقاومة العربية:

(كانت مذبحة فورية لم يسبق الإعداد لها، كانت انفجاراً داخلياً لا يستطيع أحد السيطرة عليه.. كانت مجموعات الرجال تذهب من بيت إلى بيت تقوم بأعمال السلب والقتل وكنت تستطيع سماع صرخات النسوة العرب، والشيوخ العرب والأطفال العرب فى منازلهم، حاولت العثور على القادة، ولكننى لم أنجح، حاولت أن أصرخ وأن أمنعهم ولكنهم لم يكونوا يلقون بالاً إلىّ).. كانت عيونهم تلمع كانوا كما لو كانوا مخدرين، مسممين عقلياً، كانوا فى حالة من النشوة).

وبالنسبة لمحمد عارف سامور لم يكن الضحايا مجرد أشخاص مجهولين لديه كانوا أبناء عمومته، جيرانه أصدقاءه وشاهد المدرس الشاب المذبحة من منزله الواقع فى الجانب الآخر من دير ياسين حتى نجح فى الساعة الرابعة بعد الظهر من الهروب إلى عين كرم على بعد عدة أميال إلى الغرب ويقول إن معظم الناس قتلوا داخل منازلهم:

(فى إحدى الحالات وهى حالة أسرة زهران نجا شخص واحد من بين خمسة وعشرين، وفى منزل آخر أمسكوا بابن الأسرة فؤاد البالغ من العمر ستة عشر عاماً وكانت أمه تمسك به وقاموا بقتله بسكين، وقضت الأم بعد

ذلك عشرين عاماً فى أحد المستشفيات العقلية، وفى أحد الشوارع قتلت سيدة شابة وطفلاها البالغان من العمر سنتين فقط وتركت أجسادهم هناك، وانتقل المهاجمون إلى قلب القرية وشرعوا فى قتل كل من يرونه أو يسمعونه بمجرد أن يفتح بابه، كانوا يستخدمون القنابل (اليدوية) والبنادق الآلية وشبه الآلية، واستطاع ابن عمى الهرب بعد أن أصيبت ملابسه بثقوب من طلقات الرصاص، وقام أحد الضباط بوضع بندقيته الآلية فى إحدى النوافذ وشرع فى إطلاع النار فى الخارج وقتل أى شخص يتحرك، وقاموا بقتل عمى على حسن زيدان وعمتى فاطمة التى سمعته ينادى (انقذونى) فهرعت إليه ولكنهم قتلوها، وجار آخر الحاج يارح الذى سمع بعض الأصوات وخرج ليستطلع الأمر ولكنهم قتلوه هو أيضاً وسمع ابنه محمد الذى يبلغ السابعة عشرة من العمر أباه يناديه، فذهب إلى نفس المكان فقتلوه، وسمعت أمه صوته يطب إنقاذه فجرت إليه فقتلوها، حدث كل هذا قرب منزلى ورأيته).

وتحدث سامور وبائيل عن قيام مجموعة من الجنود بتنفيذ حكم الإعدام فى خمسة وعشرين رجلاً فى أحد المحاجر بين دير ياسين وجيفات شاؤل.

ويعترف سامور أنه لم يشاهد إطلاق النار ولكنه سمع عنه من إحدى النساء التى شاهدته، ومع ذلك فإن بائيل لا يساوره الشك حين يقول: (قاموا بوضعهم فى أحد المحاجر وظهورهم إلى الحائط ثم أطلقوا عليهم النار، رأيت إطلاق النار ثم قمت بعد ذلك بتصوير الجثث)، ويقول بهوشيا ارييلى وهو جندى بالجيش البريطانى كان يقود المتدربين من الهاجاناه والذى أرسل لدفن الموتى إنه رأى عدداً من الرجال (قتلى فى المحجر)، ويزعم يهودا لابوديت أنه لم يسمع قط عن تنفيذ عمليات إعدام وأنه باعتباره قائداً عاماً كان سيفعل ذلك ولكن كل الدلائل تشير إلى عكس ما يزعم.

وهناك مزيد من التقارير البشعة حول الفظائع التى ارتكبتها قوات الارجون وشتيرن التى يستعرض فيها لارى كولينز ودومينيك لابيير فى

كتابهما (القدس) مزيدًا من القصص حول عمليات الاغتصاب وما زعم حول شق بطن إحدى النساء الحوامل، وكان مصدرهما الأساسى ممثل الصليب الأحمر فى القدس جاك دى رينير والمقابلات التى أجرتها محطة سى. آى. دى البريطانية مع الذين نجوا من المذبحة ويعترف دى رينير فى تقريره المنشور أنه وصل إلى القدس يوم الأحد أى بعد يومين من القتال ولكن قوات الارجون وشتيرن كانتا لا تزالان هناك، ويرى كولينز ولابيير أن هناك (اتجاهًا عربيًا لتضخيم الأحداث عند استعادتها والتأمل فيها)، وهناك دليل آخر يشير إلى أنه لم تثبت إدانة المهاجمين.

ويقول يائير تسبان الذى شهد انسحاب الارجون وشتيرن إنه لم ير أى دماء على ملابسهم، ويضيف قائلا: (إننا عندما قمنا بدفن ضحايا لم أر أى دليل على استخدام السكاكين فى القتل، أما محمد سامور الذى ليس لديه أى سبب للتقليل من الفظائع فواثق أنه لم تحدث أى اعتداءات جنسية)، اننى لم أسمع أو أر أى اغتصاب أو اعتداءات على النساء الحوامل ولم يتحدث معى أى شخص من الناجين عن حدوث مثل هذا الأمر، فإذا حدثك شخص عن ذلك فإننى لا أصدقه، وكتب طبيبان من القدس أرسلتهما الوكالة اليهودية لفحص الجثث تقريراً قالا فيه إنهما لم يشاهدا أى أثر لوقوع تعذيب أو تمثل بالجثث.

مما لاشك فيه أن المنشقين قاموا بعملية استعراض للأسرى العرب عبر شوارع القدس اليهودية قبل إطلاق سراحهم فى الجانب العربى من المدينة، وأنهم رفضوا الاحتفاظ بدير ياسين كما أمرهم شالتيل أو دفن الضحايا، ويوافق لابيدوت فى مجال تذكره لما حدث أن رفض دفن الموتى كان خطأ فاحشاً (إنك لا تستطيع أن تترك جثث الموتى فى أرض المعركة حتى لو كانت جثث الأعداء، لم نكن منظمين لنفعل ذلك، لم نكن نعرف ما يجب علينا عمله، كانت تلك هى المرة الأولى التى نخوض فيها مثل هذه المعركة ويحدث مثل

هذا العدد الكبير من الضحايا، كنا مكدودين، كذلك كنا خائفين من أن يقوم البريطانيون بضربنا بالقنابل من الجو).

كان هذا الخوف الأخير صحيحاً وحاسماً فقد تعرفت السلطات البريطانية على المتهمين وكانت تواقة إلى تصفية الحسابات معهم ولكن لم تكن لديها فى ذلك الوقت الطائرات أو القوات المطلوبة، وبعد مواجهة عصيبة سمحت الهاجاناه لمقاتلى الارجون وشتيرن بالانسحاب، وقد تمت تعبئة يائير تسبان ومعه نحو مائة من رفاقه المدربين للقيام بعملية دفن الموتى لأن الجانب الأكبر من القيادة الصهيونة كان لا يريد أن يرى البريطانيون والصليب الأحمر أو الصحافة العالمية الفظاعة الكاملة فى دير ياسين، وتمت عملية الدفن بسرعة شديدة لدرجة أن أحداً لم يتوقف ليحصى الجثث، وبصفة عامة فإن الآراء أجمعت على أن عدد القتلى العرب وصل إلى ما بين ٢٤٠ و٢٥٠ على الرغم من أن بيجين كتب فى كتابه (التمرد): إن القتلى يبلغ عددهم نصف ذلك الرقم، ولكن ما يدعو للدهشة أن محمد عارف سامور يوافقه فى هذا القول ويقول إن ثلاثة وتسعين قد قتلوا فى القرية وثلاثة وعشرين قد أعدموا فى المحجر المجاور لها.

وهكذا يبلغ مجموع القتلى مائة وستة عشر قتيلاً، وبعد نحو ثلاثة أيام من المذبحة اجتمع ممثلون عن العشائر الخمس فى دير ياسين فى القدس فى المكاتب الإسلامية بالقرب من المسجد الأقصى ووضعوا قائمة بالأشخاص المفقودين وأحصينا الأسماء فوجدناهم مائة وستة عشر ولم يحدث شىء منذ سنة ١٩٤٨ ليحملنى على التفكير أن هذا الرقم كان خاطئًا).

ومرة أخرى فليس هناك ما يدعو سامور للمبالغة أو التقليل من عدد الضحايا ويدعم رأيه هذا يهوشيا ارييلى الذى يعمل حالياً أستاذاً للتاريخ وأحد دعاة السلام فى إسرائيل فيقول إن (رقم مائة وستة عشر رقم معقول

ولا أعتقد أنه كان باستطاعتنا دفن أكثر من ١١٠ إلى ١٤٠ جثة).

إن الرقم الحقيقى لن يمكن معرفته قط لأنه لم يتم وضع علامات على القبور ولم يسمح للعرب بالعودة إلى دير ياسين، وعلى أى حال فإن الأسطورة فاقت الإحصائيات.

■ ■ ■

الفصل الحادى عشر

تمرد على السفينة التالنيا

انتهت الحياة النشطة للارجون زفاى ليومى يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو ١٩٤٨ كان ما حدث أشبه بالفيلم المأساوى الشهير (ذهب مع الريح): إلقاء آلاف من العملات النقدية على شاطئ تل أبيب، الأخ يقتل أخاه، احتراق سفينة محملة بالأسلحة والذخيرة والمتفجرات شديدة الانفجار بالقرب من الشاطئ، الشائعات عن الحرق، الخيانة والغدر، العواطف المشبوبة والخطب الرنانة الرخيصة، وكان إغراق الجيش الإسرائيل بناء على أوامر من رئيس الوزراء لسفينة الارجون (التالنيا) الملحمية المحملة بالأسلحة صدمة أخرى تشبه (تهمة الدم) فى مقتل أرلوزوروف وخيانة شمشون وهو ما لم يغفره مناحم بيجين قط لديفيد بن جوريون وحركة العمل الصهيونية التى كان يتزعمها، ومع ذلك فإنه يجب على قائد الارجون أن يتحمل مسئوليته عن البرقيات المتعارضة وسوء التقدير التى أوصلت الدولة اليهودية الوليدة إلى حافة الحرب الأهلية.

ضعفت سيطرة بيجين على الارجون عندما خرجت عن نطاق العمل السرى، وبدأت قيادة القدس ـ التى كانت معزولة فى طرف طريق معرض للهجوم بعيدا عن مقر القيادة فى تل أبيب ـ تعمل باستقلال متزايد، وكانت وحدات الارجون قد تم إدماجها فى الجيش الوطنى الذى استمد بنيانه من الهاجاناه، وبدأت المكاتب فى الخارج تأخذ مبادرات من جانبها دون تنسيق، وبينما بدأ كبار الرفاق فى العودة إلى الوطن من المنفى أو السجن لم يعد بيجين يملك وحده احتكار الحكمة السياسية، فكان هناك رجال مثل ياكوف

ميـريدور، إلياها لا يكن، أريخ بن اليعـازر وهيليل كـوك، قـد اكتـسبوا خـبرة متراكمة فى أفريقيا، وأوروبا، والولايات المتحدة ولم يكونوا واثقين ثقة عمياء بأحكام بيجين، والشىء نفسه بالنسبة للمقاتلين الشباب مثل اميهاى باجلين الذى نضجت شخصيته وسط النيران، كانوا جميعاً يشعرون بحرية أكبر فى مناقشته، بل وربما فى الاختلاف مع قرارته أحياناً، كانت الأيام والدولة ذاتها فى حالة من عـدم الاستقرار، لم يكن هناك إجماع من الارجون بالاعتراف بالسيادة المطلقة للحكومة الانتقالية برئاسة بن جوريون، أو فى التخلى عن روح العمل السرى، وفى الوقت الذى أبحرت فيه (التالنيا) التى سميت على الاسم المستعار لجابوتنسكى عبر البحر المتوسط، اختلط الخط الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك، بين العمل السياسى والقيام بالعمليات العسكرية التى استمد منها بيجين قوته، خرج القائد من مكمنه إلى الميدان، كان ذلك عاملاً غير مألوف، إذ اعتقد رجال الارجون الآخرون أنهم أكثر دراية منه فى هذا المجال، وبسبب تشتت السلطة كان حوار بيجين مع إزرائيل جاليلى الذى كان حينذاك نائب بن جوريون فى وزارة الدفاع متردداً وغامضاً أفسدته التركة المثقلة بعدم الثقة والمنافسة السياسية، ويشير السجل التاريخى أن كلاً الجانبين كان مخطئاً فى شكوكه فلم يكن بيجين يخطط لانقلاب، كما أن بن جوريون لم يكن ينصب لقائد جماعة الارجون كميناً يهدف إلى القضاء عليه وعلى البقية من قوته، ولكن كلا الرجلين تصرف بطريقة أوحت بأنهما يتآمران ضد بعضهما البعض، فقد أساء بيجين فهم دوافع وقرارات بن جوريون، ولم يقدر كيف سيقوم رئيس الوزراء بإرساء أساس بناء الدولة والحكومة والجيش، وساعد تردد الارجون على زيادة شكوك بن جوريون، كما ساعدت على ذلك الكراهية المتأصلة فى نفسه إزاء كل شىء يمثله الارجون ومناحم بيجين من عنف، وفوضى، الأمر الذى يشكل تحدياً وقحاً للحق الإلهى لحزبه، حزب الماباى.

وما كان يجب أن تحد مأساة (التالنيا)، فقد كانت دولة إسرائيل التى ولدت قبل ذلك بشهر واحد أى فى ١٣ مايو ١٩٤٨ تقاتل من أجل بقائها، وكانت القدس اليهودية تتعرض للتهديد من الشرق وتل أبيب من الجنوب، وكان الجيش يمر فى طور التشكيل من عصابات الهاجاناه والارجون وشتيرن ومن العناصر المتنافرة من المتطوعين اليهود القادمين عبر البحار، وكان يعانى نقصاً شديداً فى الأسلحة والذخيرة، وكانت (التالنيا) تحمل نحو خمسة آلاف بندقية بريطانية من طراز لى أنفيلد، وأكثر من ثلاثة ملايين طلقة بندقية، ومائتين وخمسين بندقية من طراز برين ومائتين وخمسين بندقية من طراز ستين، ومائة وخمسين بندقية آلية ألمانية من طراز سبانداو، وخمسين مدفع مورتار، وخمسة آلاف قذيفة، وطنا من مادة ال تى. إن. تى وكذلك تسعمائة وأربعين متطوعاً ليسوا جميعاً من المتعاطفين مع الارجون، وكانت السفينة أشبه بمنحة إلهية، كانت تلك السفينة سفينة أمريكية من مخلفات الحرب، بدأت العمل فى سنة ١٩٤٤ واشتراها هيليل كوك من اللجنة العبرية للتحرير القومى، النادى الأمريكى لمؤيدى الارجون بمبلغ خمسة وسبعين ألف دولار، وقام افراهام ستافسكى بتسجيلها تحت علم بنما، وبعد بحث مضن عن الأسلحة تلقى المكتب الأوروبى للارجون حمولة السفينة من الأسلحة هدية من الحكومة الفرنسية التى كان واضحاً أنها ترد الصاع صاعين للبريطانيين لتأييدهم شارل ديجول قبل وبعد التحرير.

وقبل ثلاثة أيام من انتهاء الانتداب البريطانى أبلغ جاليلى بيجين أن بن جوريون ينوى إعلان دولة يهودية، ووافق قائد الارجون، الذى كان يخطط لإعلان الدولة بنفسه إذا لم يقم بن جوريون بذلك، وافق على الاعتراف بالحكومة المؤقتة وعرض على الفور بيع (التالنيا) إلى السلطات بمبلغ مائتين وخمسين ألف جنيه استرلينى، رفض جاليلى عرضه على أساس أن السفينة معروفة لدرجة أنه من المتعذر أن تقوم بنقل الأسلحة دون اكتشافها، وفى أول

يونيو تعهد بيجين بانضمام الارجون إلى صفوف الجيش الوطنى ووقع مع جاليلى اتفاقاً من ست نقاط:

١ ـ انضمام أعضاء الارجون إلى صفوف الجيش.

٢ ـ يجرى تشكيل وحدات خاصة من مقاتلى الارجون فى ألوية الجيش.

٣ ـ يتم تسليم الأسلحة، المعدات وتجهيز صناعة الأسلحة إلى سلطات الجيش.

٤ ـ تمارس هيئة أركان مؤقتة تتكون من ضباط من الارجون عملها نيابة عن الجيش حتى يتم انضمام كافة أعضاء الارجون (لم يتحدد موعد محدد ولكن بن جوريون رأى أن هذا سيستغرق نحو شهر يتم بعده تسريح هيئة أركان الارجون).

٥ ـ إلغاء أنشطة الشراء المنفصلة وتحويل العقود إلى الجيش.

٦ ـ تتوقف الارجون وقواتها عن العمل كوحدة عسكرية فى دولة إسرائيل وداخل مجال سلطة الحكومة الإسرائيلية.

ليس هناك ما يدعو للشك فى إخلاص بيجين بتوقيعه هذا الاتفاق، كانت ثورته موجهة ضد البريطانيين وكان هدفها إقامة دولة يهودية فى الوطن القديم، وأقر بأن بن جوريون الذى كان يتمتع بتأييد الأغلبية هو الزعيم الطبيعى لهذه الدولة وكان مستعداً بصفة أساسية التخلى عن إثارة العراقيل من أجل السياسة الديمقراطية ولكنه اختلف اختلافاً جذرياً حول نقطة حساسة وهى ـ حدود الدولة ـ مع الاتجاه السائد للقيادة الصهيونية لدرجة أنه لم يكن من الممكن النظر إلى ولائه كأمر مُسَلَّم به، رفض بيجين التقسيم وواصل الحديث والعمل كما لو كان يستخدم الارجون لإفشاله مهما كان قرار الحكومة، وكان ذلك الأساس المنطقى وراء شك بن جوريون وهو ما لم يحاول بيجين تبديده.

أعلن بيجين فى كلمة ألقاها يوم الاستقلال فى ١٥ مايو أن الارجون ستتخلى عن العمل السرى داخل حدود الدولة العبرية المستقلة، وأضاف فى تفسير اختار كلماته بعناية: (لقد لجأنا إلى العمل السرى تحت حكم القمع، الآن لدينا حكم يهودى فى جزء من وطننا، فى هذا الجزء ليس هناك حاجة إلى العمل السرى اليهودى، فى دولة إسرائيل سنكون جنودًا وبناة).

وفى الوقت الذى كانت الارجون تتفاوض فيه مع معاونى بن جوريون كتب بيجين إلى زملائه فى الخارج أن الارجون ستكون القوة المقاتلة اليهودية الوحيدة لوضع الأمة فى موضع القيادة للبلاد بأسرها، ولأن القيادة الصهيونية الرسمية والهاجاناه لن تكون مستعدة لذلك فإن الارجون ستحتاج إلى أسلحة لأجل عشرة آلاف رجل (وهو عدد أكبر بكثير مما تستطيع استخدامه فى ذلك الوقت)، وحث ممثليه على تكديس الأسلحة.. عندما اشتكت السلطات بعد توقيع اتفاق يونيو من أن الارجون ما تزال تشترى الأسلحة من الخارج وتجمع التبرعات من الداخل أجاب بيجين بأن هناك تداخلاً فنياً، ولم تقتنع الحكومة، وانتظرت بعثتها لشراء الأسلحة فى فرنسا بدون أن تتصل بها الارجون، وفى إسرائيل كرر بيجين القول خلال عرض عسكرى فى ناتانيا إن دور العمل السرى فى الخارج هو جمع الأسلحة حتى يحين الوقت لشن هجوم لغزو البلاد بأسرها، وأثار قلق ليفى أشكول الذى كان زميلاً لجاليلى خلال المفاوضات مع الارجون ما رآه من الانقسام فى القيام بالأدوار، ففى الوقت الذى يلعب فيه دور السياسى يلجأ زملاؤه إلى الخيار العسكرى، كتب الصحفى الإسرائيلى شلومو ناكديمون فى تقريره حول موضوع السفينة (التالنيا) المؤيد للارجون إلى حد كبير: (لم تستبعد فكرة أنه ربما يكون ضرورياً للارجون زفاى ليومى أن تتواجد خارج حدود البلاد وفى القدس الدولية)، وأكد هذا شامويل كاتز وهو عضو فى جماعة الارجون فى أوروبا:

(إننا لن نحل صفوفنا كلية، إننا لم ننس قط القدس، التى رفضت

الحكومة الإسرائيلية إعلان سيادتها عليها حيث سقطت المدينة القديمة وحيث تتعرض المدينة الجديدة للخطر، هناك يتعين على الارجون أن تواصل وجودها المستقل للنضال من أجل ضم المدينة بأكملها إلى الدولة اليهودية، وحتى ذلك الحين فإنه يتعين الحفاظ على بقايا الارجون فى الخارج).

ويبدو أن كلمة خارج الحدود كانت تعنى خارج حدود التقسيم.

ازدادت شكوك الحكومة فى ١٦ يناير بعد أن أبحرت (التالينا) من ميناء بورت دى بوك بالقرب من مارسيليا عندما اقتحمت إحدى وحدات الارجون أحد متاريس الجيش وازدادت أعمال التمرد المماثلة خلال أسبوع أزمة السفينة (التالينا).

وفى ٢٦ مايو كتب بن جوريون مقالاً يدعو فيه إلى إخماد تلك التهديدات التى تهدد وحدة الدولة والجيش وحظر الإبقاء على أى قوة مسلحة خارج الجيش ولم يكن هذا مرسوماً روتينياً وأكد (بن جوريون):

إن هذا يقرر مصير الدولة الجديدة ووجودها والذين يحيون فوق أرضها، إن مغزاه هو الحيلولة دون تقويض الدولة وتدمير الجيش، إن جيشا واحداً خاضعاً للدولة وللدولة فقط يعمل باسمها يمكن أن يبقى إلى الأبد وليس جيوشاً خاصة متحزبة.

ويحق لبن جوريون أن يفخر لأنه طبَّق نفس المنطق ـ دون ندم ـ على البالماخ، الجيش الخاص لليسار ولكنه انتظر حتى نهاية حرب الاستقلال.

وتسلمت الارجون يوم الأربعاء ٩ يونيو بناء على أمر من جورج بيدال وزير الخارجية الفرنسية الأسلحة التى بلغ ثمنها خمسة ملايين دولار.

وبعد يومين على الرغم من إضراب عمال الشحن أبحرت السفينة التى تزن ١,٨ طن بحمولتها كاملة، وتوافق إبحار السفينة مع بدء وقف إطلاق

النار لمدة شهر بين القوات الإسرائيلية والعربية الذى توصل إليه مراقبو الأمم المتحدة، وفى مكتب الارجون فى باريس أعرب شامويل كاتز عن استيائه من تلك الشروط باعتبارها تخل بالميزان إلى درجة كبيرة فى غير صالح اليهود، ولم تمنع الهدنة بريطانيا من شحن أسلحة إلى العراق أو الأردن أو مصر حيث موانيها بعيدة عن منطقة القتال، وكان الحظر الوحيد الفعال ضد إسرائيل، كتب كاتز:

(عَّقدت الهدنة من حساباتنا إزاء سفينة التالينا التى ستكون الآن معرضة للهجوم من جانب المصريين أو البريطانيين، كانتهاك للهدنة، قررنا أنه على ضوء خطورة الموقف بالنسبة للأسلحة فإننا سنقوم بالمخاطرة التى ربما تنشأ عن انتهاك رسمى للهدنة، ولذلك فإنه يجب أن تبحر السفينة وأن يقوم قائدها بالقيام بما يراه ضرورياً لتجنب أو مقاومة الأعمال العدائية، أى أنه يتعين على القائد أن يفعل كل ما هو ممكن لتجنب مراقبة الأمم المتحدة).

كان ذلك قراراً من جانب واحد اتخذه مكتب باريس الذى احتفظ سراً بموعد إبحار السفينة عن مقر الارجون فى تل أبيب، وكانت باريس تعرف أن بيجين لديه تحفظات حول انتهاك الهدنة على الرغم من أنه كان يعارضها من حيث المبدأ، وكان يقول لزملائه: ليس مهماً موقفنا إزاء الهدنة ولكننا لا نريد أن نتحمل مسئولية النتائج المحتملة التى تنتج عن انتهاكها، ولكن كان مكتب باريس واثقاً أن الحكومة ستخضع للأمر الواقع ولم تكن لديه النية للسماح لتل أبيب بتقرير موعد إبحار السفينة أو إذا كانت ستبحر أم لا، إن القول إنه كانت هناك مخاوف من أن يتم اعتراض برقية أو مكالمة تليفونية كان عذراً واهياً، وعلى أى حال فإن مغادرة السفينة عرفت على الفور وعرف بيجين بأمر الإبحار من محطة ال بى. بى. سى، كما عرف عن أزمة أخرى حدثت بعد ذلك، وقام بيجين بإرسال برقية إلى كاتز، الذى أكد ـ بعد ثلاثة أيام ـ أن الشحنة فى طريقها، وفضَّل بيجين أن يدع الحكومة تقرر ما إذا

كانت ستخاطر بانتهاك الهدنة بالسماح للسفينة بالدخول إلى ميناء إسرائيلى، وقام بمخاطبة مونرى فين قبطان السفينة وإلياهو لانكين قائد كتيبة الارجون على السفينة عن طريق الراديو وأمرهما بالبقاء بعيداً وانتظار مزيد من التعليمات، وعلى الرغم من أن لانكين تلقى الرسالة إلا أنه اختار أن يتجاهلها وواصلت السفينة إبحارها.

وخلال اجتماع عقد فى ١٥ يونيو أبلغ بيجين وأريخ بن اليعازر ـ الذى كان قد وصل من فرنسا ـ جاليلى عن السفينة وحمولتها الثمينة، وفى هذه المرة تجاهل بيجين اعتراضات زملائه وأبلغ الحكومة عن حمولة السفينة وكان قد احتفظ حتى ذلك الحين بسر هدية بيدال، وبعد التشاور مع بن جوريون أبلغ جاليلى تليفونياً موافقة الحكومة على السماح للسفينة بالاقتراب من الشاطئ ولكن أمر الارجون بسحبها إلى كفارفيتكين وهى مستوطنة بين ناتانيا وقاصرية وليس إلى شاطئ تل أبيب ملتقى الأنظار.

وقد أشار بيجين فيما بعد إلى رسو السفينة فى كفارفيتكين وهى أحد معاقل الماباى على أنه دليل على أنه لم يكن يخطط للقيام بعصيان، وافترض جاليلى أن بيجين سيقوم بتسليم السفينة وحمولتها إلى الحكومة بدون شروط، وعبَّر مفاوضو الارجون الذين صدمتهم بعض أسئلة جاليلى التى اتسمت بالخشونة عن شعورهم لأول مرة بعدم ارتياح إزاء دوافعه.

وخلال المحادثات التى جرت فى ١٧ و١٨ يونيو ثارت شكوك متبادلة، وعندما وافق جاليلى على أنه يتعين إرسال عشرين فى المائة من الأسلحة إلى مقاتلى الارجون الذين مازالوا يعملون بصورة مستقلة فى المدينة، بينما قال جاليلى إنه يعنى أن تذهب الأسلحة إلى الجيش النظامى (لم تفصل الحكومة، كما فعلت الارجون بين القدس وبقية البلاد وأحصت قوات الهاجاناه السابقة هناك باعتبارها جزءاً من قوات الدفاع الإسرائيلية).

ورفض جاليلى كلية طلباً ثانياً بأن توزع الثمانين فى المائة الباقية من

الأسلحة على وحدات الارجون العاملة فى الجيش الوطنى أولاً، ورأى أن هذا يعد بداية لوضع إسفين لأنه إذا ما وافقت الحكومة على مطالب الارجون بالنسبة للأسلحة فإنها سرعان ما ستحاول إرغامها على التخلى عن التزامها بقرار التسليم، أصر جاليلى على أن تتسلم وحدات الارجون الأسلحة بنفس الشروط التى تتسلم بها الوحدات الأخرى، وفى يوم ٢٢ يونيو أعلن بيجين فى كلمة شهيرة أذيعت بالراديو بعد ليلة تدمير (التالنيا) أن رجاله ما كانوا سيستمعون له إذا ما خضع لمطالبهم بأن تكون لهم الأولوية، وكشف خلال حديثه النقاب عن رفضه التام لفكرة ترويض نفسه على دمج كتائب الارجون، وقال فى تلك الكلمة:

(لقد حلموا بتلك الأسلحة منذ سنوات، ما الذى لم يفعلوه، ما الذى لم يضحوا به من أجل كل بندقية وكل مدفع؟ والآن عندما وصلت أسلحة التحرر هذه، هذه الكمية الضخمة من الأسلحة الحديثة، كيف لا نعطى هذه الأسلحة إلى مقاتلينا فى الجيش؟ كيف نمتنع عن التأكد من أن يتسلم رجالنا هذه الأسلحة أولاً؟ لقد أحضرناها، فكيف إذن نمتنع عن تسليحهم بها؟.

ولكن إصرار بيجين قابلت معارضة قوية من جانب هيليل كوك الذى قامت لجنته الأمريكية بشراء (التالنيا)، وكان كوك الذى يزور تل أبيب قبل إنهاء أعمال الارجون فى الولايات المتحدة شديد الغضب:

لقد فقدت السيطرة على أعصابى، قلت أنظر إن هذه أول وآخر سفينة لنا، هناك عدة سفن فى طريقها إلى الهاجاناه، إن علينا عمل كل ما يمكننا حتى لا تقع أى تفرقة ضد مقاتلى الارجون فى الجيش، فإذا بدأت فى التفرقة لصالح الارجون فإنك ستعطيهم رخصة للتفرقة ضدنا بعد شهرين أو ثلاثة من الآن.

وبعد مشاورات أجراها مع اثنين من كبار زملائه وهما ياكوف ميريدور وحاييم لاندو وافق بيجين وأجرى اتصالاً تليفونياً مع جاليلى، ووفقاً لما ذكره كوك فإن بيجين وافق على أن تذهب نسبة الثمانين فى المائة من الأسلحة إلى

الجيش ككل، ولكن بمجرد تسوية هذا الخلاف نشأ خلاف آخر، أصر بيجين على أن يحضر ممثلاً عن الارجون، أى هو نفسه، استعراضاً للوحدات عند استلام الأسلحة وتسليمها باسم الارجون، ويقول كوك: ضحكت فيما بينى وبين نفسى ظناً منى أنه يريد إلقاء خطاب.. بحث جاليلى الموقف ثم قرر ألا تكون هناك شروط، ويعتقد كوك أن غرور بيجين كان سبباً فى دوام الخلاف بدون مبرر، ويقول: إن السمة المميزة فى بيجين هى الاهتمام بالمظهر قبل الجوهر فمن أجل رغبته فى إلقاء خطاب ضاعت السفينة واختلف الجانبان كذلك حول من سيقوم بتفريغ السفينة (التالنيا) ومكان تخزين الأسلحة، وأصرت الارجون على أن توكل إليها مهمة التفريغ وأن يتم تخزين الأسلحة فى مخازن الارجون تحت حراسة مشتركة من الارجون زفاى ليومى وقوات الدفاع الإسرائيلية، وأصرت وزارة الدفاع على أن يتحمل الجيش بمفرده مسئولية التفريغ والتخزين، وتبنى جيدى باجلين قائد عمليات الارجون موقفاً أشد تشدداً مما كان ينويه بيجين، ووفقا لما ذكره (ميريدور) فإن قائد الارجون لم يكن يقصد فرض أى شروط ولكن (باجلين) جره إلى موقف متشدد،أبلغ (نبهاس فازى) رئيس هيئة شراء قوات الدفاع الإسرائيلية وديفيد هاكوهين ضابط الاتصال بقوات الدفاع الإسرائيلية اللذين كانا يقومان بالمفاوضات بهذا الشأن وصول المفاوضات إلى طريق مسدود.. استنتج جاليلى أن الارجون تستعد للعمل بمفردها، وفى يوم السبت ١٩ يونيو أبلغ جاليلى بن جوريون بأنه نشأ موقف جديد خطير يتمثل فى المطالبة بجيش خاص بأسلحة خاصة لوحدات معينة فى الجيش.

لقد كانت مأساة (التالنيا) تقترب من نقطة اللاعودة، ووسط التقارير القائلة إن السفينة كانت تقترب من الساحل الإسرائيلى وإن مئات من جنود الارجون كانوا يهجرون وحداتهم ويتدفقون عبر كفارفيتكين، دعا بن جوريون الوزارة إلى جلسة طارئة يوم السبت ٢٠ يونيو، وتجددت المخاوف القديمة نتيجة للأنباء التى ذكرت أن بيجين وبقية قيادة الارجون ينتظرون على الشاطئ.

فانفجر بن جوريون قائلا فى غضب: لن تكون هناك دولتان ولن يكون هناك جيشان ولن يفعل مستر بيجين ما يريده، علينا أن نقرر عما إذا كنا سنقوم بتسليم السلطة لبيجين أو مطالبته بالكف عن أنشطته الانفصالية وإذا لم يستسلم فإننا سنطلق النار.

وافقت الوزارة بالإجماع على اقتراح من جملة واحدة: (تَعْهَد الحكومة إلى وزارة الدفاع باتخاذ ما تراه متمشياً مع قوانين البلاد)، وأضاف بن جوريون (الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع دفعاً لأى لبس إزاء ما يقررونه (إن القيام بعمل يعنى إطلاق النار)، أبلغ جاليلى والجنرال ياجيل يادين رئيس الأركان الذى تم استدعاؤه إلى الاجتماع أن السفينة ستصل فى الساعة التاسعة مساء ذلك اليوم وأن ستمائة من رجال قوات الدفاع الإسرائيلية موجودون بالفعل بالقرب من المكان، وأنه يمكن إحضار كتيبتين أخريين، وصدرت الأوامر بالتجميع لمواجهة أى عمل، وأصدر القائد أوامره بأن يبذل الضابط المسئول كل جهده لتجنب استخدام القوة، ولكن إذا لم تنفذ أوامره فإنه سيجرى استخدام القوة)، حث بن جوريون الذى أدهشه إجماع الوزارة، يادين على العمل بسرعة، وفسر جاليلى تصويت الوزارة بالإجماع على أنه قرار إجماعى بتجريد الارجون من كافة الأسلحة، أوضح الجنرال دان إيفين قائد الجيش المحلى لرجاله أن الهدف من العملية الوشيكة هو: (إرغام الارجون زفاى ليومى على تسليم السفينة والأسلحة وتجريدهم من الأسلحة التى شرعوها ضدنا).

كان جاليلى متردداً فى الضرب دون بذل جهد آخر للتوصل إلى اتفاق وقام بإرسال فازيه إلى كفار فيتكين لدعوة بيجين إلى التباحث، منع ميريدور بيجين من الذهاب لأنه كما أوضح فيما بعد أن تلك كانت خدعة للقضاء على بيجين فى الطريق، ووفقاً لما ذكره فازيه فإن باجلين رفض الحديث إليه، وقال إنه إذا أراد جاليلى رؤية بيجين فإنه يجب أن يأتى إلى كفار فيتكين،

وعندما قفل فازيه عائداً بالرد كتب جاليلى إنذاراً إلى بيجين قام بالتوقيع عليه الجنرال إيفين:

(بناء على أمر خاص من قائد أركان قوات الدفاع الإسرائيلية آمر بمصادرة كافة الأسلحة والعتاد الحربى الذى وصل إلى الشواطئ الإسرائيلية فى نطاق سلطاتى ووضعها على الفور تحت تصرف دولة إسرائيل.

لقد صدرت إلىّ الأوامر أن أطالبكم بكل الأسلحة التى وصلت إلى الشاطئ لوضعها تحت حراستى وأبلغكم أنه مطلوب منكم الاتصال بالقيادة العليا وأطالبكم بالامتثال لهذا الأمر على الفور، فإذا لم توافقوا على القيام بهذا فإننى سألجأ على الفور إلى استخدام كل الوسائل التى أملكها لتنفيذ الأمر وأبلغك أن المنطقة بأسرها محاطة بوحدات الجيش وأن الطريق مسدودة، وتقع عليك بالكامل مسئولية النتائج المترتبة عن رفض الانصياع لهذا الأمر وأمامك عشر دقائق للرد).

يزعم جاليلى أن الإنذار قدم لبيجين وسيلة مشرفة للانسحاب على الرغم من أن صياغة الإنذار لم تنم عن ذلك، ويقول إن مهلة العشر دقائق كانت كافية، لأن الأرجون لم يكن أمامها سوى خيارين لا ثالث لهما، إما الرفض أو الإيجاب، ولكن بيجين لم يأخذ هذا الإنذار الغبى مأخذ الجد، وقال فيما بعد إنه اعتقد أن إيفين كان يتصرف من تلقاء نفسه دون معرفية خلفية الأحداث، وعلى أية حال فإن جاليلى لم ينفذ مهلة العشر دقائق، ففى الوقت الذى استمر فيه رجال الارجون فى تفريغ الأسلحة أرسلت الحكومة أوفيد بن أمى عمدة ناتانيا للتوسط بين الطرفين، كان بن أمى مقتنعاً بأن الارجون لم تكن تخطط للقيام بانقلاب ولكنه فشل فى التقريب بين وجهات نظر الطرفين.

كان بيجين مازال يواجه المتاعب مع مرؤوسيه وأعلن (باجلين) فى جو تسوده روح الشعور بالاضطهاد أن الجيش يقوم بنصب كمين وبدأ فى إعادة

تحميل بعض الأسلحة التى كانت قد أفرغت بالفعل من السفينة وأراد أن يعيدها إلى البحر حتى انتهاء الهدنة ثم يتم تفريغها فى غزة أو العريش جنوبا، كان بيجين مازال يعتقد أنه يستطيع خداع الجيش، وقال (لباجلين): (اتركها، اننا سنقوم بتفريغ الأسلحة هنا قبل وصول مراقبى الأمم المتحدة، إننى لا أعتقد أن لدى الجيش نوايا سيئة تجاهنا، إن المشكلة تكمن فى الأمم المتحدة).

خلاصة الأمر أن بيجين قام بإعفاء (باجلين) من منصبه وعين (ميريدور) بدلاً منه، ولكنه سرعان ما عرف أن نوايا الجيش كانت أبعد ما تكون عن النوايا الحسنة بعد أن أبلغ جاليلى رفض إنذار إيفين قرر بن جوريون عدم إجراء أى مفاوضات أخرى: (لم يعد ممكنا التوصل إلى حل، فإما أن يمتثلوا للأوامر وينفذوها، أو سنقوم بإطلاق النار، إننى أعارض أى مفاوضات واتفاق معهم، لقد انقضى وقت الاتفاق.. إذا توافرت القوة فإنه يجب استخدام القوة بدون تردد).

أضاف بن جوريون بخط يده كلمة (فوراً) وفى كفار فيتكين فى الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم الاثنين ٢١ يونيو توقف تفريغ الأسلحة فى الوقت الذى كان يحاول فيه ميريدور، ومونروفين وافراهام ستافسكى الذين سافروا من فرنسا على ظهر السفينة إقناع بيجين بأخذ السفينة إلى تل أبيب حيث سيكون السكان أكثر وداً وحيث تكون الحكومة أكثر ترددا فى بدء معركة، بدأ إطلاق النار بينما كان بيجين يقوم باستعراض قواته، ووجه قائد الارجون فى حديث بالراديو اللوم إلى الجيش لهجومه، من كافة الاتجاهات وبكافة أنواع الأسلحة، قال ناكديمون إن قوات الدفاع الإسرائيلى أطلقت النار دون صدور أوامر لها وكتب يقول إنه خلال حالة الفوضى الشاملة التى حدثت فإن الارجون ردت على النار بالمثل، ولكن يزعم هيليل كوك الذى كان على الشاطئ، فى كفار فيتكين أن قوات الارجون كانت البادئة بإطلاق النار ليس على الجيش ولكن باتجاه البحر كما لو كانوا يريدون أن يقولوا إنهم

جادون ومستعدون لعمل أى شىء، ومهما كانت الحقيقة فإن الارجون فقدت ستة قتلى وتسعة عشر جريحاً وقوات الدفاع الإسرائيلى فقدت قتيلين وستة جرحى خلال القتال الذى دار خلال الليل، وأصر بيجين الذى انبطح أرضاً على الرمال لتجنب الطلقات المنهمرة، علي عدم مغادرة المكان لأن هذا سيعد انسحاباً مخزياً، لكن عندما أحاط طراادان بحريان بالزورق الذى أقل فيروستافسكى إلى الشاطئ، قاما بحمل بيجين وإلقائه فى الزورق بعيداً.

فأخذ يسب ويحتج باللغة العبرية واليدية وأخذ الزورق يناور حتى عاد إلى السفينة، لم ينقذه هو وفين من التعرض للإصابة سوى مهارة فين الملاحية التى تعلمها بالأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى.

غادرت (التالنيا) كفار فيتكين فى الساعة ٩,٣٥ ليلاً يتعقبها أسطول صغير من السفن الحربية الإسرائيلية المعادية، ووصلت تل أبيب فى نحو منتصف الليل، وفى ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو أذاع مكبر للصوت عرضاً نهائياً من الحكومة: (أنصتوا، أنصتوا، سيقوم ممثل عن الحكومة والجيش بالصعود إلى السفينة لإخلاء الموجودين على ظهرها وتقديم المساعدة للجرحى وتفريغ الشحنة)، مرة أخرى تجاهل بيجين وزملاؤه الفرصة لتسوية الأمور دون إراقة دماء، وعلى ظهر السفينة اقترح أنه يجب على بيجين أن ينزل إلى الشاطئ ويتفاوض ولكن أوقفه إلياهو لانكين خوفاً من أن يتعرض للأذى، واعترف لانكين فيما بعد أنه ربما كان من الأصوب ترك بيجين يذهب للتفاوض، ربما كان من الممكن تجنب ما حدث بعد ذلك، ولكن ربما كان بيجين قد قتل.

لم تكن الحكومة يساورها القلق فقط من جراء رفض الارجون الامتثال لأوامرها، بل ومن تجمع مؤيدى بيجين على شاطئ تل أبيب وفرار ألوية الارجون من معسكر صرفند وغيره من المعسكرات، وكان رأى بن جوريون أن سيادة الدولة فى خطر، وخلال اجتماع للقيادة العليا أخذ رئيس الوزراء يرغى

ويزيد ويحادث نفسه وهو فى حالة شديدة من الغضب، ووصفه أحد الشهود بأنه كان أشبه ب (أسد حبيس فى قفص)، وقد طلب من شامويل ياناى قائد العمليات البحرية إبداى رأيه كخبير فيما يمكن عمله إزاء السفينة التالنيا:

(طرحت كافة الأفكار، قذفت قنابل دخان لإجبارها على الرحيل، الاستيلاء على السفينة من القوارب، تفريغ الشحنة... رفض بن جوريون كافة مقترحاتى بإشارة من يده، لم أصب الهدف وفهمت فيما بعد فقط ما كان يريد سماعه منى - ما هو هدفه الحقيقى، كان تدمير السفينة التى أصبحت ذريعة للصراع بين الأشقاء.

كان يريد تدميرها لإزالة الموضوع الذى كان الناس مستعدين للقتال حوله، وستكون هناك فيما بعد خلافات واتهامات مضادة متبادلة ولكن لن تعود هناك ذريعة للقتال.

بنفس الروح أمر بن جوريون يادين: عليك أن تقوم بكافة الخطوات: تجمع وحدات الجيش، النيران، قاذفى اللهب وكافة الوسائل الأخرى التى فى حوزتنا لتحقيق الاستسلام غير المشروط للسفينة، وكانت كل تلك القوى سيتم استخدامها إذا ما أصدرت الحكومة تعليماتها بذلك، وخلال اجتماع طارئ عقده مجلس الوزراء تغلب رئيس الوزراء على أى تحفظات أثيرت، ورد بن جوريون على أولئك الوزراء الذين فضلوا تقديم تنازلات بدلاً من الحرب.. إن ما حدث.. يعرض الدولة للخطر.. إن هذه محاولة لتحطيم الجيش وهذه محاولة للقضاء على الدولة ولا يمكن فى رأيى التوصل إلى حل وسط بالنسبة لهاتين النقطتين، وإذا ما أصبح من الضرورى - لسوء حظنا البالغ - القتال لهذا الغرض فإن علينا أن نقاتل، لم يرد المتشككون بشىء وصوتت الوزارة بأغلبية سبعة ضد اثنين بمطالبة الارجون بتسليم التالنيا إلى الحكومة واستخدام القوة إذا استدعى الأمر، وعلى الفور أمر بن جوريون يادين بالتصرف.

أصبحت التالنيا التى رست فى أكثر الأماكن ازدحاماً على شاطئ تل

أبيب على مرأى من الزوار، والمراسلين، ومراقبى الأمم المتحدة فى شرفات فنادقهم، قبلة للرائحين والغادين من الجنود المؤيدين للحكومة والمؤيدين لبيجين فى ملابسهم الرسمية وحاملين أسلحتهم، وتدفق المدنيون إلى الشاطئ كما لو كانوا مشاهدين فى مباراة نهائية للكأس، وكان رجال الارجون المؤيدون لبيحين يرددون الهتافات المعادية للحكومة، وأخذ الجيش يناضل من أجل منع تعزيزات الارجون، بدأ إنزال أحد القوارب المحملة بالرجال المسلحين من التالنيا وبدأ إطلاق النار خلال دوامة الفوضى التى حدثت تولى إيجال آلون القائد الشاب لقوات البالماخ العملية.. وكانت الأوامر الصادرة إليه من بن جوريون صارمة ومحددة: (اقبض على بيجين! اقبض على بيجين!).

فى الوقت الذى بدأت فيه المصادمات تنتشر ومناشدة الارجون عبر مكبر الصوت سكان تل أبيب بالانضمام إلى جانبهم أرسل آلون فى طلب مدفع، وتم إخلاء الشوارع التى كانت على مرمى نيران التالنيا، وقام آلون ونائبه إسحق رابين بمعاينة أرض المعركة من مقر البالماخ فى فندق ريتز، وبعد الظهر تم التوصل إلى وقف لإطلاق النار لإخلاء الجرحى.

ووفقاً لأحد التقارير فإن قادة البالماخ رأوا الارجون يضعون مدفعاً آلياً ثقيلا على سطح السفينة مصوباً إلى فندق ريتز، سعى آلون إلى الحصول على إذن باستخدام المدفع ووافق بن جوريون حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وبدأ القصف، كان بيجين مقتنعاً أن آلون لديه النية تماماً فى قصف التالنيا وكتب يقول فى كتابه (التمرد): (فجأة سمعنا أزيزا فوق رؤوسنا ونادينا على قائد البالماخ مذكرين إياه أنه وعد بوقف كامل لإطلاق النار، لم يرد علينا ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة ورابعة، لقد أحاطوا بالسفينة وهم يزحفون لتحقيق هدفهم).

زعم آلون الذى أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية ونائباً لرئيس الوزراء أنه قام بإطلاق (طلقات تحذيرية) كمحاولة أخيرة لإقناع السفينة بالاستسلام،

ووفقاً لرواية البالماخ فإن خمس أو ست طلقات فقط قد أطلقت، وقال آلون إنه اندهش لأن السفينة أصيبت وأمر رجاله على الفور بوقف نيران المدفعية، سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فإن الإصابة المباشرة نفذت أوامر وتعليمات بن جوريون وأشلعت النار فى التالنيا، وأشلعت نيران الحرب الأهلية غير المرغوب فيها وغير المخطط لها، وسهلت الحل السريع للارجون لتتحول إلى قوة عسكرية منفصلة، كان الهدف الوحيد الذى لم يصبه آلون هو مناحم بيجين ولكن إذا كان قائد الارجون مصيباً فإن ذلك لم يكن بسبب عدم المحاولة: (ففى كل مرة أذهب فيها إلى منصة ربان السفينة كانت تتعرض بصفة خاصة إلى نيران كثيفة وعندما أغادر المنصة كانت النيران تتوجه إلى ناحية أخرى)، كانت الطلقة تثقب وسط سطح السفينة ثم تنفجر فى مخزن السفينة، انتشر الدخان وانفجرت الذخيرة، نجح مونروفين فى تشغيل المضخات، وغمر المخزن بالمياه ولكن مع استمرار إطلاق النار بدأ الأمر وكأنه مسألة وقت فقط قبل أن تنفجر السفينة المشتعلة، وعلى الرغم من اعتراضات بيجين الشديدة رفع القبطان علماً أبيض مؤقتاً ودعا البالماخ إلى وقف إطلاق النار، كان بيجين منبطحاً على السطح وكانت ركبة أحد البحارة فوق ظهره، ورفض مغادرة السفينة قبل أن يغادرها آخر رجل من رجاله، وقال فى حديث أذاعه فى تلك الليلة إن مرؤوسيه هددوا باستخدام القوة لإرغامه على مغادرة السفينة ولكنه رفض مغادرتها:

إذا كنت قد استمررت فى البقاء فوق السفينة فإن هذا لم يكن من منطلق الوطنية بل من منطلق الشعور بالواجب، فكيف لى أن أغادر السفينة التى كانت فى طريقها إلى الانفجار وكان هناك جرحى على سطحها! ويمكن أن تحدث الكارثة فى أى لحظة وقال لى القائد: (أعدك أننا سنخرج جميعاً، سنخرج، وبالفعل تم إخراج معظم الجرحى، وهكذا قفزت إلى الماء).

قال آخرون إن اثنين من بحارة مونروفين الأقوياء قاما بإلقائه إلى البحر، وكان آخر من غادر السفينة فين ولانكين قبطان السفينة وقائد مقاتليها من

الارجون.. كلفت معركة شاطئ تل أبيب الارجون أربعة عشر قتيلاً وتسعة وتسعين جريحاً فى مقابل مقتل اثنين من قوات الدفاع الإسرائيلى وستة جرحى، وكان من بين القتلى افراهام ستافسكى صديق طفولة بيجين الذى كان قد قبض عليه ثم أعلنت براءته من قتل حاييم أروسورف على نفس ذلك الشاطئ الرطب منذ خمسة عشر عاماً، وتم فيما بعد إنقاذ بعض الأسلحة من السفينة المحطمة التى بقى حطامها على مرأى من تل أبيب كشاهد على حماقة السياسيين ـ سواء بن جوريون أو بيجين وفقاً للتحيز لأى منهما ـ ولم يكن غرق السفينة التالنيا أسعد اللحظات فى حياة قائد الارجون ولا كانت الكلمة التى ألقاها فى تلك الليلة بعد ساعتين من غرقها من إذاعة الارجون السرية بأفضل خطبه، لقد فقد بيجين السيطرة على نفسه وانفجر فى بكاء مرير وسب بن جوريون ووصفه بذلك الغبى، ذلك الأحمق الذى تآمر لقتله وأردف ذلك بحركة من يده تشير إلى أنه يستطيع القضاء عليه وهدد بالويل والثبور لكل من تسول له نفسه إيذاء أسرى الارجون، وبعد ذلك فى نفس الليلة نشرت الارجون بيانا وصفت فيه بن جوريون بأنه ديكتاتور مجنون، وحكومته بأنها حكومة من الطغاة المجرمين، والخونة والقتلة، وألغى البيان الأمر السابق لقوات الارجون بالانضمام إلى الجيش، ولكن بيجين حذر رجاله من إطلاق النار على قوات الدفاع الإسرائيلى قائلا : (إنه لن يكون هناك قتال بين الأخوة فى الوقت الذى يقف فيه العدو على الباب).

أما إزرائيل جاليلى فقد خصه بيجين بأسوأ أنواع القذف، فوصفه بأنه (تاجر حقير يتاجر فى الدماء والممتلكات اليهودية)، ودرج قائد الارجون لسنوات عديدة بعد ذلك أن يذكر رجلاً مجهولاً يشغل منصباً كبيراً فى الدولة وهو أحد المقربين من بن جوريون الذى نسب إليه أنه قال له: (إن بن جوريون قد خدع فى مسألة السفينة التالنيا)، وعلى الرغم من أنه لم يذكر المتآمر إلا أنه كان يعتقد أن جاليلى هو الذى خدع بن جوريون، وليس من

المستغرب أن ينكر جاليلى بشدة كل شىء عن ذلك الأمر (إن هذا القول إما أن يكون حقداً أو حماقة أو كليهما وليس له أساس من الحقيقة، لم تكن هناك تفاصيل حول اتصالات مع الارجون على أى مستوى لم تعلم بها وزارة الدفاع بالكامل وعلى الفور) أنكر بن جوريون الاتهام كذلك، ويزعم جاليلى أن بن جوريون كان أكثر عدوانية منه بكثير.

عندما كنت فى المقر فى كفار فيتكين تلقيت رسالة منه يقول فيها إنه لا يفهم لماذا لا نعمل، لم يكن هناك خلاف كبير فى الهدف أو الإدراك بين زعيمى العمل، وتشير الدلائل إلى أن جاليلى تردد أكثر من مرة فى القيام بعمل، كان يريد أن يمنح بيجين الفرصة لإطاعة أوامر الحكومة وكان رأينا أن بن جوريون هو الذى أرغم الآخرين على الإسراع فى العمل وكان بن جوريون هو الذى قال خلال اجتماع عقد فى ليلة وقوع كارثة السفينة التالنيا للجنة الشعبية: (فليبارك الله المدفع الذى قصف السفينة).

كان ذلك دعاء بالبركة لم يستطع إلا قليل من الإسرائيليين حتى من بين المعجبين ببن جوريون أن يرددوا بغير ارتياح كلمة (آمين).

■ ■ ■

الفصل الثانى عشر

اختيار جانب المعارضة

لعل مناحم بيجين هو زعيم الحزب الوحيد فى العالم الديمقراطى الذى خسر فى ثمانى انتخابات متعاقبة واستطاع الصمود حتى كسب الانتخابات التاسعة والعاشرة، وليس صحيحا أنه كان محصَّناً ضد النقد من جانب زملائه المتطرفين فى الوطنية، كان يتعرض دائما للتحدى ولكن مُتَحدوه يملكون الاحترام والنفوذ، والجاذبية الشعبية والمهارة السياسية التى تمكنهم من احتلال مكانته، وتحولت (حركة الحرية) التى أسسها فى أغسطس ١٩٤٨ خلال اجتماع عقده الرفاق القدامى فى العمل السرى إلى حزب الارجون زفاى ليومى، وكان أهم أعضائه ولمدة أكثر من ثلاثين عاما يشكلون ما أسماه بيجين (بالعائلة المقاتلة)، حيث يتمتع بين أفراده بسلطة شخصية غير قابلة للهجوم، ومازال بيجين هو القائد ومازالوا هم أولاده وينادون بعضهم البعض بأسمائهم الكودية ويشتركون فى تبادل الذكريات حول أساطير النصر، والتضحية والاضطهاد، وخلال أول انتخابات للكنيست فى يناير سنة ١٩٤٩ لم يكن حيروت المطالب الوحيد بتركه فالديمير جابوتنسكى، كان هناك ثلاثة أحزاب أخرى هى: التصحيحيون من المدرسة القديمة الذين كانوا يعاملون من الارجون باحتقار خلال سنوات الثورة، وحزب المقاتلين بقيادة عصابة شتيرن، والحزب الرسمى بقيادة مائير جروسمان الذى انفصل عن جابوتنسكى فى سنة ١٩٣١، وكانت كل تلك الأحزاب تتنافس معه للحصول على أصوات الناخبين، ولكن كان أخطر منافسى بيجين هم التصحيحيون الذين مازالوا ممثلين فى المؤسسات الصهيونية والذين استطاع بسرعة تطويقهم بإقناع

رئيس الاتحاد الدولى للتصحيحيين بالاعتراف بحيروت باعتباره الفرع الإسرائيلى للحركة، اتبع بيجين أسلوباً تكرر كثيراً فيما بعد للتخلص من معارضى زعامته وهو ما فعله مع كثير من التصحيحيين المحنكين، إنه يهاجم من الداخل، يعزل معارضه ويجمد عضويتهم فى الحزب، وعبر السنوات أبعد أولئك المنتقدين يملؤهم شعور المرارة ولكن بدون حول ولا قوة ـ مثل ايرى جابوتنسكى، ابن النبى، وهيليل كوك، الذى دخل مجددا فى معاك دستورية غامضة، وشامويل تايمر فى سعيه لتحقيق مستقبل قانونى ناجح، ولكنه يدين بالفضل لبيجين لأى نفوذ يأمل فى ممارسته على هامش الحياة السياسية، وعيزرا فايتسمان الذى يقبع فى انتظار مثل ديجول، دعوته إلى إنقاذ الأمة.

كان حزب حيروت منذ نشأته حليفاً للأيدلوجيين أتباع جابوتنسكى ويثير سخط الناخبين اليهود الشرقيين وكان ما يربطهم معاً هو مناحم بيجين الذى أنشأ الحزب ورعاه حتى نما وازدهر، لم تكن هناك مشكلة من الفروع المحلية النشطة بين الانتخابات وكانت (بيتار) اتحاداً رياضياً أكثر منه حركة شبابية، وتأكدت سيطرة بيجين مع انتخابات أول كنيست، عندما وضع قائمة المرشحين وهو مجال خصب لإسباغ الرعاية فى نظام التمثيل النسبى باعتباره بطلاً قومياً، غريباً لدى اليهود، واستطاع فى البرلمان أن يستعرض موهبته الخطابية، مؤكداً مواهبه وهى نادرة فى حيروت كزعيم شعبى، واستطاع الوصول إلى أولئك العازفين عن التعقيد المذهبى، وورث بيجين موهبته الشخصية التى أورثها جابوتنسكى للتصحيحيين.

عزل الزعيم نفسه عن الدائرة الداخلية لمحنكى الارجون مبتعداً عن الخلافات الداخلية فى الحزب مستخدماً أصدقاءه فى القتال نيابة عنه، ولم يمض وقت طويل فى إعداد نفسه للخلافة، كان يفضل مبدأ فرق تسد.. كان يترك الطموحين ينافسون بعضهم بعضاً والمخلصين يشقون طريقهم إلى جانب القائد القديم، وخلال التمرد الأول واجههم بالنتائج بعرض استقالته، وحدث

فى إحدى المرات أن قام بتأجير غرفة فى القدس واستأنف دراسته للمحاماة، وبعد كارثة انتخابات ١٩٥١ للدورة الثانية للكنيست عندما انخفض عدد الكراسى التى حصل عليها حزب حيروت من أربعة عشر مقعدًا إلى ثمانية مقاعد وانخفض عدد الأصوات التى حصل عليها إلى أربعة آلاف صوت على الرغم من زيادة عدد الناخبين بـ ٨١٤ ألف صوت، أبحر بيجين فى إجازة إلى إيطاليا وترك وراءه خطاب استقالته مع نائبه أريخ بن اليعازر، ولكن يوهانان بادير أحد شيوخ الحزب منع أى شخص من فتح الخطاب.

بعد فوز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ سئل سكرتيره السياسى بيهايل كادشاى: كيف استطاع الزعيم مقاومة الهزيمة لمدة تسعة وعشرين عاماً؟ أجاب قائلاً: (لا أعتقد أننا توقعنا الفوز قط)، فى الخمسينيات كانت برامج حزب حيروت يزينها شعار: (إن الله اختارنا لنحكم)، وكان بيجين دائماً يحذر ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء من انتقامه عندما يتولى السلطة، ولكن كلا الشعار والجدل كانا يعكسان أحلاماً للخلاص أكثر منها أى حلم بالسلطة، كان حزب حيروت يعتبر حزباً للمعارضة وكانت رسالته الحفاظ على راية الصهيونية الحقيقية مرفوعة، والنضال من أجل إسرائيل أبية وغير مقسمة ودحض لبراجماتية أغلبية الماباى.

على الرغم من أن بيجين تخلى عن العمل السرى وتفرغ لإلقاء الخطب بمجرد إعلان بن جوريون للدولة اليهودية فإن التزامه بالديمقراطية البرلمانية ظل متكافئاً، كان معجباً بنموذج البرلمان الإنجليزى على الرغم من كراهيته للحكم البريطانى فى فلسطين وكان ينادى بالحصانة والحماية الدستورية للأفراد عندما جرت فى الكنيست مناقشة (القوانين الأساسية) المختلفة.

ولكن كان هناك حنين يراوده دائماً للثورة وإن لم يكن للديكتاتورية، كانت الحكومة فى رأيه مخطئة دائماً، والكنيست لم يكن المكان النهائى للحكمة والشرعية. وعلى سبيل المثال، ففى أول مؤتمر صحفى يعقده بيجين كزعيم لحزب

حيروت أنكر صلة الحزب بقتل عصابة شتيرن لكونت فولك برنادوت السويدى ووسيط الأمم المتحدة، ولكنه لم يستطع مقاومة إلقاء المسئولية المباشرة على البريطانيين الذين حاكوا المؤامرة، وكذلك على شركائهم الظاهرين والمستترين فى وزارة الخارجية الأمريكية، وكذلك السياسية الخاطئة للحكومة المؤقتة فى إسرائيل.

(حذرنا الحكومة المؤقتة من أن تقيم دعائمها على حكم استبدادى فى الجبهة الداخلية ومحاولة الاسترضاء على الجبهة الخارجية، الأمر الذى يعد عملاً سرياً جديداً لقد أعلنا هذا التحذير فى ١٥ مايو ولكن الحكومة المؤقتة التى تتحدث عالياً عن السيادة فى الوقت الذى تمارس فيه الاستبداد والاستسلام المخزى لم تلق بالاً إلى تحذيرنا، ولذلك فإنه لا يمكن استبعادها كلية من تحمل المسئولية غير المباشرة لمأساة القدس بسبب سياستها.

وعلى الرغم من تظاهره بالشجاعة شن بيجين حرب عصابات ضد (استرضاء) التقسيم بالكلمات وليس بقوة السلاح وحتى لو أراد فإنه لم يكن يملك الوسائل ليفعل شيئا آخر، جرى اعتقال كثير من الذين فروا من الجيش من جنود الارجون بعد مسألة السفينة التالنيا، وفى القدس استسلمت آخر وحدات مستقلة من الارجون لإنذار الحكومة الصادر فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨.

وقال بن جوريون: (إن بيجين، وهو أبعد الناس عن العمل الخيرى، يعرف سلطة القوة واستسلم للقوة فقط)، وتولى زعيم حزب حيروت مهمة النضال من أجل أرض إسرائيل بعد ثلاثة أسابيع من اجتماع أول دورة للكنيست وبعد أسبوعين من توقيع اتفاقية الهدنة بين إسرائيل ومصر، قال بيجين إن التفكير بأن إسرائيل تدخل مرحلة سلام وهم بالغ:

(وجد الآن فى الجزء الشرقى من إسرائيل، كما فى الأردن احتلال بريطانى غير مباشر.. لن يكون هناك سلام لدولتنا ولن يكون هنا سلام لشعبنا إذا لم نحرر هذا الجزء من الوطن من القوات الغازية... إن سياستنا

الخارجية الرسمية تسير فى اتجاه تجميد الحدود المصطنعة، حدود التمزيق).

عاد بيجين إلى الهجوم فى ابريل سنة ١٩٤٩ عندما تفاوض الدبلوماسيون والضباط الإسرائيليون للتوصل إلى هدنة مع الملك عبدالله فى رودس، وفى محاولة لتقسيم ائتلاف بن جوريون غلف منطقه بمزيج من العبارات اللاهوتية والسياسية:

(لقد وقَّعت هذه الحكومة اتفاقية عبودية مع خادم بريطانيا، مع حاكم الدولة التى تسمى نفسها المملكة الأردنية الهاشمية ـ ولعارنا العظيم هذا الاسم الذى تمت الموافقة عليه فى وثيقة رسمية وقَّعتها حكومة إسرائيل مع المملكة الأردنية التى تمتد ـ بموافقة حكومة إسرائيل على الواقع ـ على طول ضفتى نهر الأردن.. إن معنى هذه الاتفاقية أن البريطانيين يستطيعون العودة إلى غرب إسرائيل وإقامة قواعد عسكرية لهم هناك... أريد توجيه بضع كلمات إلى أعضاء الكنيست من الوجهة الدينية، سادتى أريد أن أسأل ضمائركم ـ وأنا واحد من المؤمنين فى إسرائيل ـ كيف لم تهتز أيديكم عند موافقتكم على مشروع يتضمن الاعتراف بالمملكة الأردنية الهاشمية، وبكلمات أخرى التخلى عن الأردن ـ كل الأردن إلى أيدى الأعداء؟ كيف لم تهتز أيديكم عند الاعتراف رسمياً بسيطرة عبدالله على مدينة القدس القديمة؟).

على الرغم من وجود حراسة أردنية على حوائط القدس القديمة، وعلى الرغم من محنة حرب الاستقلال التى فقدت فيها إسرائيل ٦٥ ألفاً من بين السكان البالغ عددهم ٦٧٥ ألف نسمة وبالرغم من المشاكل التى تواجه الدولة الوليدة التى ضاعفت سكانها خلال أربع سنوات عن طريق الهجرة، بالرغم من كل ذلك أصر بيجين على إبقاء شعلة (أرض إسرائيل) متوهجة.

كان إيمان بيجين قوياً فى عدم قبول أى حل وسط (لا تقولوا لنا إنه لا جدوى من إصدار إعلانات) قال ذلك فى مقام اقتراحه بأن يقوم الكنيست بإعلان (القدس الموحدة) وليس فقط القسم الغربى من المدينة، عاصمتها، إن

الدول الأجنبية يجب أن تعرف أن القدس لنا، كلها لنا ـ الهيكل ـ الحائط الشرقى ـ والقدس كلها على جانبى الحائط لنا، والقدس عاصمتنا ليس فقط من الناحية النظرية بل من الناحية العملية.

بالنسبة لبيجين كانت القدس بكاملها العاصمة (أرض إسرائيل) كلها، ضفتى نهر الأردن كما حددها جابوتنسكى، كانت الوطن اليهودى سواء كانت إسرائيل فى موقف يسمح لها باستردادها أم لا، كان يلح بأن رباط آمون (عمان) مثلها مثل شيكم (نابلس)، وجليد مثل السامرا والباشا مثل الشارون هى (وطننا) ومهما كان غضب الرئيس جيمى كارتر خلال محادثات كامب ديفيد سنة ١٩٧٨ فإنه لم يكن يستطيع اتهام الزعيم الإسرائيلى بالتضارب، إلا أن ارتباط بيجين كان لمفهوم المكان، للأسماء ولأصدائها التاريخية، لم يكن لديه شىء من حب موشى ديان للأرض لذاتها ولا شىء من ألفة (الصبرا) معها.

فى مايو سنة ١٩٥٠ عندما ضمت الأردن الضفة الغربية رسمياً وجه بيجين اللوم لموشى شاريت وزير الخارجية لإعطائه الضوء الأخضر لعبدالله وحكومة بيفين التى وقفت وراءه لتحويل النهب والغزو إلى عمل قانونى ومعترف به سياسيا، ظلت المملكة الهاشمية بالنسبة لبيجين الأراضى التى تحتلها بريطانيا من (أرض إسرائيل) إذا استطاعت الكلمات أن تغزو.. أخذ بيجين يسأل بن جوريون: من الذى أعطى للحكومة السلطة.للاعتراف باستسلام القدس، والهيكل، ومقبرة البطريرك وقبر راشيل، والخليل، وبيت لحم، وشيكسم وجليد وباشان؟.

لقد انتخبتم لتسيير شئون الدولة، ربما يقوم الشعب باختيار من يحل محلكم، وقد يجدد انتخابكم، ولكن من أعطاكم الحق، وفى أى انتخابات أعطيتم السلطة للتخلى باسم شعب إسرائيل عن ميراث الأجداد، ميثاق الأجيال، قيادة التاريخ التى كان ثمنها دماء الملايين عبر مسيرة مائة وعشرين جيلاً؟.. لم تعط أى انتخابات هذه السلطة ومن المؤكد أنها لم تمنح لكم فى

الانتخابات الأخيرة، دعونى أناقش هذا السؤال (إذا أردتم السلطة فلنخرج إلى الشعب ونسألهم إذا كانوا مستعدين أن يعلنوا أن عبدالله ولسنا نحن الذين يجب أن نحصل على القدس، والخليل وبيت لحم).

وجه بيجين فى نفس المناقشة إنذارا بأن اعتراف الحكومة بالضم الأردنى ليس ملزما لحزب حيروت.. (عندما تأتى حكومة أخرى ـ وسوف تأتى ـ سوف تعلن أن هذا التوقيع غير سار المفعول، إن كل أرض إسرائيل تخص شعب إسرائيل ولن تعترف بحق عبدالله أو بحق البريطانيين فى حكم بوصة واحدة من وطننا).

كان النضال من أجل (أرض إسرائيل)، على الرغم من مثالياته على ضوء حقائق الخمسينيات يحترم حدود الديمقراطية البرلمانية، كان بيجين يضع علامات أكثر من تسلق الثكنات، ولم تظهر مثل هذه الشكوك فى معركته التاريخية الثانية مع حكومة بن جوريون فى هذه الفترة ـ المعركة ضد قبول إسرائيل للتعويضات الألمانية، عاد زعيم حزب حيروت إلى سياسات الشارع محرضاً الجماهير على الزحف إلى الكنيست معرضاً مستقبله السياسى للخطر وهو فى كامل وعيه، كان هذا الموضوع الذى جاء بعد الإبادة النازية لليهود مباشرة يثير مشاعر عنيفة فى المجتمع الإسرائيلى، كان حزب المابام اليسارى الذى ظل بعيدا عن الائتلاف الحاكم يعارض أى تعامل مع بون بنفس القوة التى كان يعارض بها حزب حيروت، وكان للحركتين جذور مشتركة فى النازية البولندية، وتعرض اليهود البولنديون أكثر من أى يهود آخرين للإبادة تحت الحل النهائى، ولكن بيجين وحده رفع راية الاضطهاد.

كان اقتراح بن جوريون للمستشار الألمانى كونراد اديناور ملجأ أخيراً اتسم بالغباء، لم يكن الهدف منه عقد مصالحة سريعة بين القتلى والمقتولين بل كان محاولة يائسة ليواصل الاقتصاد الإسرائيلى المجهد مسيرته وتدعيم الدولة اليهودية فى مواجهة أعدائها العرب، أقر رئيس الوزراء أن إسرائيل لا

يمكنها البقاء فى عزلة وتحتاج إلى حليف قوى، واتجه أولاً إلى بريطانيا، بل ألمح أن إسرائيل مستعدة للانضمام إلى الكومنولث، ثم اتجه إلى الولايات المتحدة ولكن كلتا الدولتين الغنيتين سببت له خيبة الأمل.

بدأت حكومة العمال والمحافظين البريطانية محادثات تمهيدية ولكن سرعان ما خمد الاهتمام، واستنتج مستشارو بن جوريون أن وزارة الخارجية البريطانية كانت ضد الفكرة منذ البداية، وتأكدوا أنه ليس هناك فرصة، وفى واشنطن كان جون فوستر دالاس وزير الخارجية أكثر اهتماماً باستعادة العلاقات الأمريكية مع العرب، وأعلن أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ: (إن مشكلتنا الأساسية هى تحسين موقف الدول الإسلامية إزاء الديمقراطيات الغربية لأن هيبتنا تتضاءل فى المنطقة بصورة مستمرة منذ الحرب)، ولم يلق اقتراح بن جوريون بجعل إسرائيل (قاعدة الغرب ومخزن غلاله وورشته فى الشرق الأوسط آذانا صاغية)، ولقيت مناشدة اليهود الأمريكيين تعاطفاً أكثر، فقد افتتح رئيس الوزراء حملة لبيع الأسهم الإسرائيلية فى اجتماع ضخم فى ميدان حديقة ماديسون فى مايو ١٩٥١، ولكن على الرغم من نجاح الحملة فإن مؤرخ حياة بن جوريون كتب يقول: (إن الأموال التى تدفقت لم تكن كافية لتحقيق استقرار طويل الأمد لاقتصاد الدولة المزعزع، كانت إسرائيل تحتاج إلى مساعدة مالية طويلة وضخمة).

قامت إسرائيل بأول محاولة مترددة للحصول على تعويضات فى مارس سنة ١٩٥١ ولكنها حاولت تجنب التعامل مباشرة مع الألمان، وقدمت طلباً للحصول على بليون ونصف بليون دولار إلى قوات الاحتلال وهى: الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتى، بريطانيا، وفرنسا تعويضاً عن الممتلكات اليهودية التى استولى عليها النازيون، ولكن الدول الكبرى رفضت القيام بأى شىء إزاء هذا الطلب، كانت التعويضات مسألة تخص الألمان، وجاء هذا الطلب فى المرحلة التى أشار فيها أديناور الزعيم الجديد لألمانيا الاتحادية المعادى

للنازية إلى استعداده لدفع تعويضات لإسرائيل، كتب تيريس بريتى المؤلف البريطانى فى تأريخه لحياة أديناور إنه لم يكن هناك ثمة شك فى تسوية حساب الألمان مع اليهود (كان الشىء الممكن هو جعل أقصى حد لإعادة ممتلكات اليهود فى نطاق الوسائل المتاحة لألمانيا، كان يبدو دائماً أن أديناور يفهم ذلك وأنه كان يعتبر أن هذا العمل واجب عليه).

ومع ذلك فإن عددًا كبيرًا من الإسرائيليين ومن بينهم أعضاء فى وزارة بن جوريون وزعماء حزبه المابام شعروا بالذعر من الفكرة، ومع ذلك فإن رئيس الوزراء لم يجد أى متاعب فى تهدئة ضميره وكان يعرف أن الطريق الوحيد لجعل التعويضات مقبولة لدى الإسرائيليين هو وضع كل ثقله وراء الحصول على تلك التعويضات، وقال: (فى عبارة واحدة فإن السبب يكمن فى وصية الستة ملايين، ضحايا النازى، الذين كان قتلهم بمثابة صرخة مدوية لإسرائيل من أن تنهض، أن تكون قوية ومزدهرة لحماية أمنها وسلامتها، وهكذا نمنع وقوع هذه الكارثة التى حاقت بالشعب اليهودى من أن تحدث مرة أخرى).

ولم يكن بن جوريون أقل براعة فى الدفاع عن وجهة نظره فى الكنيست حيث قال:

(تعرض أكثر من ستة ملايين يهودى للقتل عن طريق التعذيب، والتجويع، والمذابح الجماعية والاختناق الجماعى.. وحدثت عمليات السلب قبل وأثناء وبعد هذا القتل الجماعى ـ بطريقة لم يسبق لها مثيل كذلك.. إن جريمة بهذا الحجم الضخم لا يمكن أن يكون لها تعويض مادى، إن أى تعويض، مهما كان حجمه لن يكون تعويضاً عن فقد الحياة الإنسانية أو نهاية لمعاناة وآلام الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، والرضع ومع ذلك فإنه حتى هزيمة نظام هتلر استمر الشعب الألمانى فى التمتع بثمار المذبحة والسلب والنهب والسرقة من اليهود الذين قتلوا، وتعتبر حكومة إسرائيل نفسها ملزمة بمطالبة الشعب

الألمانى برد هذه الملكيات اليهودية المسروقة، دعونا لا نجعل قتلة شعبنا المستفيدين أيضاً من ممتلكاته).

انفجر مناحم بيجين الذى كان والداه وأخوه من بين الستة ملايين قتيل فى ثورة غضب شديدة، لم يكن هناك شك فى إخلاصه فى محاولته العنيفة للحفاظ على احترام الذات لليهود، ولكن البعض الآخر فى حركة حيروت انتهزوا فرصة موضوع التعويضات كوسيلة لإعادة الحيوية إلى الحركة وإرجاع بيجين إلى الحياة السياسية بعد نكسة انتخابات سنة ١٩٥١، وجد بيجين متعة بالغة فى الدور الذى أوكل إليه، ووصف يهوشيا أوفير الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مراسلاً فى صحيفة الحزب (حيروت) الزيارة التى قام بها إلى ياكوف روين سكرتير عام الحركة:

(قرأ صحيفة (يديعوت أحرونوت) التى كانت بحوزتى ولاحظ خبراً صغيراً جاء فيه أن الدكتور ناحوم جولدمان سيقوم بزيارة إلى ألمانيا لاستكمال اتفاقية التعويضات، وفجأة نادى على أريخ بن اليعازر: (أريخ، أريخ،هذا سوف يعيده، مناحم سيعود لهذه الحملة، هذه حملة من أجل شرف الأمة، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يقودها، بعد ذلك بأسبوعين عاد بيجين من أوروبا وخرجت حركة حيروت من جمودها العميق).

بعد ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٩٥٢ خاطب بيجين حشداً تراوح عدده بين ٢٠٠٠ (كما قال البوليس) و١٥٠٠٠ (كما قال بيجين) من سكان القدس من شرفة فندق تل أبيب فى ميدان صهيون كان هناك رذاذ خفيف يتساقط ولكن خطابه كان ملتهباً.

كتبت صحيفة (جيروزالم بوست) تصف الموقف:

(كان مستر بيجين يتحدث بحماس، وكان كثيراً ما يصيح ويقرن كلماته بكلمات مؤثرة كثيرة من التوراة، وأشار إلى بيان الحكومة المؤيد لمحادثات

التعويضات الألمانية باعتباره ذروة سياسات ذلك المجنون الذى أصبح الآن رئيساً للوزراء، وجذب وسط إلقائه خطابه ورقة من جيبه وبسطها بطريقة درامية وقال: (إننى لم أجئ إلى هنا لإثارتكم ولكن هذه الورقة التى سلمت إلى الآن تقول إن البوليس لديه قنابل يدوية تحتوى على غاز مصنوع فى ألمانيا ـ نفس الغاز الذى استخدم لقتل آبائنا وأمهاتنا، إننا على استعداد لتحمل أى شىء حجرات التعذيب، معسكرات الاعتقال، السجون السرية فى سبيل عدم اتخاذ أى قرار بالتعامل مع الألمان).

يبدو أن الإشارة إلى الغاز الألمانى كانت مثالا كلاسيكياً لعدم اهتمام بيجين بالحقائق، فمهما يكن أصل غاز الدموع فإنه ليس مثل غاز زيكلون ـ بى، ولكن هذا التلميح أتى ثماره، ووجه بيجين ـ الذى كان يتحدث على بعد عدة مئات من الياردات من مبنى الكنيست حيث كان بن جوريون يدافع عن سياسة الحكومة ـ تحذيراً إلى رئيس الحكومة:

(عندما وجهت إلينا نيران المدفع، أصدرت أمرًا: لا!، واليوم سأصدر أمرًا: نعم! وستكون هذه معركة حياة أو موتاً.. اليوم سيعلن رئيس الوزراء اليهودى أنه سيذهب إلى ألمانيا ليحصل على أموال، انه سيبيع شرف الشعب اليهودى من أجل مكسب مادى جالباً له العار الأبدى.. ليس هناك ألمانى واحد لم يشترك فى قتل آبائنا، كل ألمانى نازى، كل ألمانى قاتل، أديناور قاتل، كل مساعديه قتلة، لكن كل تقديراتهم الأموال، الأموال إنهم سيكفرون عن هذا الشىء البغيض بدفع ستة ملايين دولار!).

سار بيجين عبر شارع بن يهودا مردداً صيحة (الحرية أو الموت، لا سبيل للتراجع)، ليتحدى بن جوريون فى الكنيست، وسارت الجماهير وراء بيجين ونشرت صحيفة (جيروزالم بوست) أن العنف اندفع فى الشوارع لمدة ساعتين. اخترقت الجماهير متاريس البوليس المحاطة بالأسلاك الشائكة وقامت بقلب

السيارات الواقفة فى الشوارع وإلقاء الحجارة على مبنى الكنيست وعلى البوليس المنوط به حماية المبنى، ووصل عدد الجرحى من رجال البوليس إلى اثنين وتسعين، وستة وثلاثين مدنياً حتى الساعة السابعة مساء،

وفى الساعة السابعة والنصف أعيد النظام إلى مسرح الأحداث بوصول فرقة من الجيش أحاطت بمبنى الكنيست وأصبحت الشوارع أمامه مهجورة تماماً.

من داخل الكنيست كتب مراسل آخر يصف المناقشة التى جرت فى جو من العنف لم يسبق له مثيل فى الحياة البرلمانية الإسرائيلية:

(كانت تخترق قاعة الكنيست صيحات الجماهير، لم تكن بعيدة أصوات سيارات البوليس المتقطعة وصوت سيارات الإسعاف والانفجارات المتقطعة لقنابل الغاز وألسنة اللهب من سيارة تحترق، ثم تحطم زجاج النوافذ نتيجة لقذف الحجارة واخترق دخان القنابل المسيلة للدموع من الشارع، حيث تجرى المعركة خارج القاعة وأصيب أحد الأعضاء بحجر فى رأسه).

واستمر الاجتماع على الرغم من كل هذا الاضطراب وتم إخلاء القسم من القاعة التى كانت تتساقط فيها الأحجار والشظايا الزجاجية، والتى تضم مقاعد المابام، والصهيونيين العموميين وهابويل هاميزراحى، وجلس الأعضاء فى أماكن أخرى، ولكن فيما بعد جرت مقاطعة المناقشة ذاتها داخل الكنيست عندما وصف مناحم بيجين (حيروت) رئيس الوزراء بأنه سفاح، ورفض أن يتراجع عما قاله، ورفض كذلك مغادرة منصة الخطابة عندما طلب منه نائب رئيس المجلس ذلك قائلاً: إذا لم أتكلم فلن يتكلم أحد وقام نائب الرئيس بفض الاجتماع وسط الضجيج.

كان خطاب بيجين ضد التعويضات الألمانية ربما كان سيصبح من أعظم خطبه البرلمانية لو كان فى ظروف مختلفة، فعند قراءته بهدوء بعد عشرات السنين من إلقائه يتضح أنه خطاب عاطفى، فصيح، متعقل، إنه نداء إلى

الكبرياء اليهودى ونقد قاسٍ لأولئك الذين كانوا على استعداد للمساومة بشأنه.

قطعة من المسرح مفعمة بالحزن والشجاعة وإن كان مبالغاً فيها قليلاً، ولكن فى النهاية يجرى تذكرها تحت ظلال أعمال الشغب، والأحجار، والقنابل المسيلة للدموع والزجاج المحطم التى صاحبت المناقشة وجنوح بيجين إلى لغة غير برلمانية والتبجح المنافى للديمقراطية كان مدركاً للمخاطر وخاضها بأعين مفتوحة، بعد سحبه فى النهاية لوصفه بن جوريون بالسفاح وإصراره على أنه (إذا لم أتكلم فلن يتكلم غيرى)، وافق على طلب رئيس المجلس بالانسحاب (ليس نتيجة للتهديدات بأننى سأطرد من الكنيسست ـ إننى أنظر إلى طردى من الكنيسست باستخفاف، عندما نتكلم عن الحملة الراهنة فإننى أؤيدها لأنه مازال أمامى مهمة أقوم بها هنا وربما تكون الأخيرة، وسأقوم بها إلى النهاية).

كانت الحجة الأساسية التى دافع بها عن قضيته أن الشعب الألمانى بأكمله مذنب فى المسألة برمتها ـ الملايين الذين صوتوا لصالح النازيين، الذين خدموا فى جيش هتلر، الجستابو ال اس. اس. وال اس. ١ دبلوماسيى أديناور الذين كانوا دبلوماسيى رينتروب.. (من وجهة النظر اليهودية لا يوجد ألمانى واحد ليس نازياً وليس هناك ألمانى واحد ليس قاتلاً وأنتم تريدون الذهاب إليهم لتلقى الأموال منهم)، كان بيجين يساوره القلق حول الطريقة التى سيتقبل بها العالم قبول تعويضات حيث قال:

(إن الألمان سوف ترى حقيقة واحدة، وهى أنكم جلستم مع قتلة شعبكم واعترفتم أنهم قادرون على توقيع اتفاقية، إنهم قادرون على المحافظة على اتفاقية، انهم أمة بين الأمم.. إن الألمان لا يكرهوننا فقط ولم يقتلونا ويحرقونا فقط، لم يؤذونا وليسوا غيورين منا فقط ولكنهم يكنون لنا بصفة خاصة شعورا بالاحتقار، وفى هذا الجيل الذى نطلق عليه آخر جيل يتعرض للعبودية وأول جيل يتحرر من عبوديته ـ فى الجيل الذى كسبنا فيه مركز

الشرف الذى خرجنا فيه من العبودية إلى الحرية، تأتون الآن ومن أجل عدة ملايين من الدولارات الملعونة، من أجل بضائع فاسدة وتلقون بالقدر الضئيل من الكرامة الذى اكتسبناه... إنكم تجعلون الأرض تميد تحت أقدامنا، إنكم تعرضون شرفنا واستقلالنا للخطر، كم سنتعرض للاحتقار).

بعد أن ناشد بيجين بن جوريون إجراء استفتاء بدلاً من تحدى ما يعتقد أنه إرادة غالبية الإسرائيليين، أعلن بيجين عن رأيه النهائى الحاسم، وقال إن هناك أشياء فى الحياة أسوأ من الموت ذاته:

(هذه هى أحد الأشياء التى سنضحى بحياتنا من أجلها ونكون مستعدين للموت فى سبيلها، سنترك عائلاتنا، سنفارق أطفالنا ولا يكون هناك مفاوضات مع ألمانيا.. أعرف أن لديكم قوة، لديكم سجوناً، معسكرات اعتقالاً، جيش، قوة بوليس، جواسيس، مدافع، بنادق آلية، كل هذا لا يهم.. حول هذا الموضوع ستتناثر القوة مثل تناثر الزجاج على الصخر، سنقاتل للنهاية لأجل قضية العدالة ولا جدوى للقوة البدنية فى مثل هذه الحالات.. إنها هراء وتفاهة، اننى أحذر ولكنى لا أهدد، من الذى أهدده؟ إننى أعرف أنكم ستجروننا إلى معسكرات الاعتقال، انكم تسجنون المئات اليوم وربما ستسجنون الآلاف، لا يهم، سيذهبون، سيجلسون، سنجلس معهم، وإذا اقتضى الأمر فإننا سنقتل معهم ولن تكون هناك تعويضات مع ألمانيا وليساعدنا الله فى منع كارثة ستحيق بشعبنا، ومستقبلنا وشرفنا).

مهما كانت نوايا بيجين ليلة السابع من يناير سنة ١٩٥٢ فإن خطابه تحول إلى مجرد كلمات خطابية جوفاء، حيث وافق الكنيست على سياسة بن جوريون إزاء التعويضات الألمانية بأغلبية واحد وستين صوتاً ضد خمسين صوتاً بينهم أحد أعضاء حيروت الذى أصيب بأزمة قلبية وتم إحضاره إلى قاعة الكنيست على نقالة، وبعد أسبوعين صوَّت الكنيست بأغلبية ستة وخمسين صوتاً ضد سبعة وأربعين صوتاً لتعليق عضوية بيجين للثلاثة أشهر

الباقية على دورة الكنيست كعقوبة على مسلكه غير البرلمانى خلال المناقشة، وفى شهر مارس قام بيجين بإلقاء خطاب أمام مظاهرة من ٧٠ ألفاً من معارضى اتفاقية التعويضات فى تل أبيب ولكنه توسل إلى مستمعيه بعدم اللجوء إلى العنف ـ وفقا لما ذكره منتقدوه فإنه تلقى نصيحة بأن آلافاً من سكان الكيبوتزات مفتولى العضلات حضروا إلى المدينة لحراسة المبانى العامة والقضاء على أى أعمال شغب ـ.. صاح بيجين قائلا: (مستر بن جوريون إن إله إسرائيل سيقرر من منا المصيب).

بعد ذلك بوقت قصير تم توقيع اتفاقية مع ألمانيا، تعهدت بون بإمداد إسرائيل بما قيمته ٧١٥ مليون دولار فى شكل بضائع وخدمات على مدى أحد عشر عاما وأن تدفع ١٠٧ ملايين أخرى إلى لجنة تمثل المنظمات اليهودية العالمية، وكان ضمن المعدات الضخمة التى تلقتها إسرائيل إحدى وأربعون سفينة تجارية، وأربع ناقلات بترول، وحوض سفن عائم ومصنع للصلب وصهر النحاس، ورفض أديناور ـ على الرغم من شكوك بيجين فى أنه خدم فترة من الوقت فى سجن أحد المعسكرات النازية ـ تهديدات العرب لاقتصاد ألمانيا الغربية قائلا لهم: (هناك أشياء أكبر يتعين التفكير فيها أكثر من مجرد اتفاقيات عمل لا بأس بها، إننا نريد ألمانيا مختلفة عن ألمانيا هتلر).

لم يستطع مناحم بيجين توطين نفسه على قبول ألمانيا (الجديدة) هذه وخلال باقى الخمسينيات والستينيات، سنوات المعارضة الطويلة المحيطة لم يترك بيجين أى فرصة منه لمهاجمة الحكومة لتوصلها إلى اتفاق مع (قتلة الشعب اليهودى)، وشجب تبادل الزيارات بين المدارس الألمانية والمدارس الإسرائيلية، وندد بعنف ببيع مدافع شبه آلية من طراز (عوزى) إلى بون، وألقى واحدة من خطبه الرنانة (إنى أتهم) ضد إقامة علاقات دبلوماسية فى سنة ١٩٦٥، ودعا إلى يوم حداد قومى عندما قدم أول سفير لألمانيا أوراق اعتماده، ولكن لم يكن هناك شهداء، أو زنزانات أو معسكرات اعتقال لأولئك الذين قاوموا التعويضات ونتائجها، كما لم يمت بيجين أو رفاقه فى الخندق الأخير.

كان ذلك انتصارًا حلوًا مشوبًا بالمرارة لبن جوريون فى مبارزة حامية حتى الموت كانت أحياناً مبارزة نبيلة ودائماً حقيرة أصبحت مثل مباراة رياضية يشاهدها الإسرائيليون، كانت مبارزة شخصية أساساً، كان بن جوريون يأخذ زمام المبادرة بوجه عام أو يحرض بيجين لذلك، رفض رئيس الوزراء فى إحدى المراحل الاعتراف بوجود زعيم حزب حيروت، مشيراً إليه فى الكنيست على أنه (العضو الذى يجلس إلى جانب د. بادير ويترك قاعة الكنيست عندما يصعد بيجين إلى المنصة، وكان يثأر لنفسه بترديد صلاة (شبهبهبانيون): (لنشكر الرب لإبقائنا أحياءً ومساندتنا وجعلنا نعيش هذا الزمن)، وذلك فى المناسبات التى يبقى بن جوريون جالساً فى مقعده، ووصلت مبارزة الاتهامات إلى ذروتها أو ربما إلى دركها الأسفل بمناقشة كريهة ومتأخرة عن موعدها حول موضوع السفينة التالنيا فى يناير ١٩٥٩، اتهم بن جوريون بيجين بأنه لم يشترك فى حرب الاستقلال، وسخر بيجين من بن جوريون واتهمه بمقاتلة البريطانيين وسط ملاهى باريس ووبخه بن جوريون قائلاً: (لا تقاطعنى، ليس لديك على الأقل شيكا أو جستابو، وعندما دعا بيجين رئيس الوزراء إلى إخراج موضوع السفينة التالنيا من الكنيست إلى لجنة تحقيق أجاب بن جوريون: (لا يا سيدى لن أذهب إلى أى مكان معك خارج الكنيست، إننى هنا خاضع للقانون وأنا أحترم القانون ويجب أن أولى اهتمامى بك وبكل عضو آخر فى الكنيست.. هنا يتمتع كل عضو بحقوق وواجبات متساوية، وليس لدى أى نية للاجتماع بك فى نفس الغرفة خارج هذا المكان).

كان بيجين قد أبلغ حزبه قبل ذلك بثلاث سنوات أنه لن يحضر لجنة العلاقات الخارجية فى الكنيست إذا كان بن جوريون حاضراً لأنه لا يتحمل الجلوس فى نفس الحجرة مع رئيس الوزراء الذى جرح مشاعره عدة مرات خلال العام الماضى.

وخلال مناقشة موضوع التالنيا اتهم بن جوريون بيجين بالكذب: (هذه الكذبة الوحيدة التى قالها هنا كافية بالنسبة لى لمعرفة الحقيقة التى يقدر

على قولها، إننى لا أظن أنه يتعمد الكذب إنه ببساطة غير قادر على التمييز بين الحقيقة والخيال)، ولكن عداء رئيس الوزراء لبيجين كان أعمق من الكراهية الشخصية، كان يكمن وراء الخلاف اعتقاده أن حيروت مثلها مثل الارجون شكلت خلال أزمة التالنيا تحدياً لديمقراطية إسرائيل التى لم تثبّت دعائمها بعد، وقال: (إنها نفس الحركة واكتشف مستر أبا أهيمير طبيعتها فى مقال كتبه بعنوان (من مذكرات فاشيستى)، ولم يتردد بن جوريون فى مقارنة بيجين بهتلر، وهو انطباع عززه بيجين بخوضه الانتخابات العامة فى سنة ١٩٥٥ فى سيارة كاديلاك مفتوحة وبحراسة مجموعة من شباب الغرباء، وقد ظلت هذه الصورة مطبوعة فى أذهان الناخبين بعد فترة طويلة من نسيان معايرة بن جوريون له.

إذا كان بن جوريون البادئ فى تبادلهما القذف، فإن بيجين كانت له الكلمة الأخيرة، وفى مايو ١٩٦٢ عندما اختلف المحارب القديم اختلافاً شديداً مع حزبه حاول بدهاء هزيمة خصمه:

(ستشعر هذه الدولة بالراحة، وستشعر الأمة أنها فى حال أفضل، وستنتهى الكراهية والعداء، ويبرز الاحترام المتبادل، وسيختفى الحقد وستبرز المنافسة المفيدة ولو كانت منافسة مريرة ولكنها ستكون أمنية وجليلة، وسيختفى التحريف وتزدهر الحقيقة، وستقل المسافة بين القلوب وسيعمق الإحساس بالوحدة، وسيختفى النفاق وتبرز الصراحة، وستوضع نهاية للتملق البيزنطى، وستعود الشجاعة وحرية التفكير ليحتلا مكانهما، وسيتقدم الشعب فى كل المجالات الأخلاقية، والسياسية، والأمنية والاقتصادية، عندما يتقاعد زعيم الماباى الذى يعمل رئيساً للوزراء وكلما كان هذا قريباً كان ذلك أفضل).

■ ■ ■

الفصل الثالث عشر

الخروج من التيه

على الرغم من عدائهما المستمر كان بن جوريون أول من يمنح بيجين أول شعور بالاحترام والتكريم اللائق بزعيم معارض مخلص، ففى يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ استدعى رئيس الوزراء بيجين إلى فراشه فى تل أبيب حيث كان يعانى من حمى شديدة وأبلغه أن إسرائيل بسبيلها إلى مهاجمة مصر، وكان بن جوريون قد أطلع مجلس وزرائه فى وقت سابق من نفس اليوم على الخدعة العسكرية الأنجلو ـ فرنسية، والتى عرفها العالم فيما بعد بحرب السويس، والإسرائيليون بحملة سيناء، وكان بن جوريون يريد التأكد من تأييد الكنيست والبلاد بالكامل، وقام باستقبال جميع زعماء كافة الأحزاب المعارضة ما عدا الشيوعيين فى مسكنه بشارع كيرين كايميت.

ولم يكن بيجين هو الوحيد موضع ثقته ولكن مغزى الاجتماع لم يغب عن أى منهما، وكان بن جوريون بعد كل انتخابات يعلن أنه مستعد لتشكيل ائتلاف مع كافة الأحزاب ما عدا حيروت والشيوعيين.. كان أعضاء حيروت مازالوا منبوذين فى تولى المناصب العامة وكان أعضاؤه مضطرين للنضال من أجل الحصول على ترقيات فى الجيش النظامى، كما أن أبواب النقابات كانت مغلقة فى وجوههم، وكانت حركة العمل تسيطر على معظم المشروعات.

كان حزب بيجين يتعرض للتهكم وفقدان الثقة، وكان التصحيحيون مازالوا منبوذى الصهيونية، كان استدعاء بن جوريون لبيجين إيماءة بالقبول على الرغم من محدوديتها.

أمسك بيجين، الذى كان ينادى دائماً بشن حرب وقائية منذ بداية العام وتبنى استراتيجية (الفعالية الإيجابية)، رداً على تسلل الفدائيين العرب قبل ذلك، بيد بن جوريون وقال له: (إننى أحيى قرارك الشجاع) وأكد له: (إنك تستطيع الاعتماد على تأييدنا) وخلال مناقشة الحرب فى الكنيست أثبت زعيم حيروت أنه صادق فى وعده، ولكن هذا التقارب لم يدم، حيث صب بيجين جام غضبه القديم على بن جوريون فى يناير التالى عقب خضوع رئيس الوزراء للضغط الأمريكى وسحب الجيش من سيناء، واتهم بن جوريون قائلاً: (إن إسرائيل حصلت على نصر عسكرى ولكنها عانت هزيمة سياسية)، تذكر أنه بعد هذا الانسحاب فإن مؤيدى الحكومة، أى الأغلبية ليست على حق دائماً)، بل إن بيجين كان أكثر قسوة بعد ذلك بشهرين عندما قام بن جوريون بسحب قواته من قطاع غزة: (جزء محرر من وطننا).

وقال: إن رئيس الوزراء سار بنعال خشنة فوق أجساد ممثلى الشعب المنتخبين (ويل للأعين التى تقرأ والآذان التى تسمع هذه الكلمات)، ظلت رحلة بيجين الشاقة عبر غابة السياسة بطيئة ومضطربة وخلال الحقبة بين حرب السويس وحرب الأيام الست استطاع حيروت أن يدعم صفوفه ليصبح ثانى أكبر الأحزاب بعد حزب الماباى ولكنه لم يستطع اختراق الصفوف ليهدد هيمنة حزب العمل، وفاز فى سنة ١٩٥٥ بخمسة عشر مقعداً من مقاعد الكنيست المائة والعشرين وحصل على سبعة عشر مقعداً فى سنة ١٩٥٩ وسنة ١٩٦١ ولكن نصيب الماباى من المقاعد لم ينخفض قط إلى أقل من أربعين مقعدًا، الذى كان مع غيره من أحزاب العمل ـ المابام واحدوت وهافودا يضفيون إلى ثقل اليسار الديمقراطى.

يرجع التذمر من أسلوب وتطلع زعامة بيجين إلى بداية الخمسينيات، كان يلجأ عقب كل انتخابات تقريباً إلى العمل السرى وهو الأسلوب الذى ألفه عندما كان رئيساً للوزراء، كان بيجين يحب الانتصار ويستمتع بخوض

المعارك التى كانت تخرج منه أفضل وأسوأ ما فيه، الرجل الاستعراضى، والخطيب، والمشاكس المجبر.. وكان سعيداً بشعوره بالاضطهاد.. كان أقل ذكر للسفينة التالنيا وأقل سخرية من الارجون كفيلاً بإثارته، ولكنه لم يحب قط تعليل وقوع كارثة، كان يشعر بالملل من الأشياء العادية لأنها تخالف طبيعته الرومانسية، وبنهاية الخمسينيات أصاب بعض رفاق بيجين التعب من المعارضة الدائمة كتب أحدهم وهو عضو فى (الأسرة المقاتلة) من مخضرمى الارجون سراً إلى بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ يشكو من أن دعاية الحزب موجهة فقط إلى أولئك الذين التزموا بالفعل بتأييد الحزب وليس إلى الناخب المتردد، وكتب العضو فى خطابه يقول: (إن حيروت معارض للمابام، ولكن ليس لأجل أى شىء يمكن أن يمنحه الثقة، وأن كثيراً من الناخبين يرفضون تملق رجل واحد ولا داعى لذكر حراسة الدراجة البخارية، وهناك الكثير من (سلطة بيجين) وليس (حيروت) واستحكمت الانتهازية قبضتها، وهناك السعى وراء الانتصارات الرخيصة ومناشدة مبسطة للجماهير بدلاً من حملة معلومات موجهة إلى الجماهير المفكرة، وتم اتخاذ قرارات كثيرة للغاية وفقاً لأهواء الزعيم، وتوقفت الحركة عن تعليم الشباب ولا تقدم أفكاراً جديدة، كذلك فإن المنتقدين أعربوا عن عدم ارتياحهم إزاء السعى لخطب ود الناخب المتين، خاصة عندما يستتبع ذلك التضحية بالحرية الفردية، وبعد خيبة الأمل التى أصابت حيروت فى انتخابات سنة ١٩٥٩ عندما حصل على مقعدين آخرين فقط أدان شامويل تامير وهو من أصغر الأعضاء زعامة بيجين علناً ووصفها بأنها زعامة (مفلسة).

أثبتت تلك السخرية وجود صيحة عامة ضد بيجين، الأمر الذى شكّل أخطر تحد يواجه بيجين منذ سنة ١٩٤٨، ثورة بدت كما لو كانت دعوة لاستخدامه خداعة، والسماح له بالاستقالة وتأجلت المواجهة نتيجة اتفاق بين حيروت والليبراليين، ورثة حركة الصهيونية القومية من الطبقة المتوسطة

لتشكيل تحالف جاحال (وهى كلمة مركبة من جوش حيروت ـ الليبرالية وكتلة حيروت ـ الليبرالى)، ولم يكن ذلك اندماجًا كاملاً فظل كل حزب محتفظاً بهويته، وسياسته المنفصلة وتنظيمه، ولكنها كانت خطوة هامة من أجل إيجاد بديل يمين ـ وسط عريض للعمل، وأدخلت حيروت إلى مجال نشاط السياسات الإسرائيلية، وبذلت المحاولات الأولى فى بداية سنة ١٩٥٠ عندما اقترح ازرائيل روكاش عمدة تل أبيب على بيجين أن يضم حيروت والصهيونيون العموميون صفوفهم خلال الانتخابات البلدية الوشيكة.

رفض بيجين العرض، ولكن فى سنة ١٩٥٥ عندما تخطى حيروت الصهيونيين العموميين فى الكنيست جاء الدور على بيجين لاتخاذ زمام المبادرة التى رفضت هذه المرة لأن حيروت كان شديد التطرف بالنسبة لحلفائهم فى الحزب الصغير التقدمى الذى انفصل فى النهاية لتشكيل الحزب المستقل الليبرالى بزعامة موشى كول وجدعون هوسنر.. فشلت المفاوضات السرية مرة أخرى بعد حرب السويس ولكنها كانت أكثر نجاحًا قبل انتخابات سنة ١٩٦٥، وتم التوصل إلى الاتفاق فى ٢٦ ابريل سنة ١٩٦٥ والذى فتح الطريق أمام حيروت إلى اتحاد نقابات الهستدروت المنتشرة، وأكد بيجين لشركائه الجدد بقيادة يوسف سابير وأمليخ ريمالت الليبراليين المخضرمين أنهم لن يظلوا فى المعارضة طويلاً بعد ذلك، كان الاتحاد زواجاً مفيداً وليس التقاء عقول، ونجح لأن الليبراليين كانوا مستعدين للمثول عند رأى حيروت فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والدفاعية، بينما تخلى بيجين لهم عن السياسة الاقتصادية، ولكن آمال بيجين تحطمت فى انتخابات ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥، حيث فاز جاحال بستة وعشرين مقعداً أقل بمقعد واحد قبل اتفاق حيروت والليبراليين.. بينما فاز تحالف العمل بخمسة وأربعين مقعداً بزيادة أربعة مقاعد عن مقاعده قبل الانتخابات على الرغم من عيوب بن جوريون الذى فاز حزبه رافى بعشرة مقاعد، وبعد تسعة عشر عاماً كان

شباب حيروت قد تحمل الكثير وانضم إلى شامول تامير وهو محام طموح فى تل أبيب وضابط مخابرات سابق فى الارجون، فى تمرده ضد زعامة بيجين، اليعيزر شوشتاك وأفراهام تايير من اتحاد العمل الوطنى المنافس اليمينى القليل العدد ولكن المنظم تنظيماً جيداً للهستدروت، وكان يوهان بادير قد حذر بيجين من ترقية تامير بسرعة كبيرة ولكن أجابه بأنه (لديه ثقة غير محدودة به)، ألقى شوشتاك بالقفاز خلال اجتماع اللجنة المركزية لحيروت بعد أسبوعين من الانتخابات وقال إن الخلاف بينهما يعود إلى أيام إنشاء الدولة فى سنة ١٩٤٨.

توصل بيجين إلى استنتاج أن مسيرة حركة التصحيح حتى إنشاء الدولة لم تؤد إلى تولى الحكم، ولكن هذا الطريق سيقود حيروت إلى السلطة، وطالب بمنحه الثقة: (أعطونى الفرصة وسأثبت لكم أن الحركة ستنجح بطريقتى)، هكذا كانت العلاقة بين الحركة وبيجين غامضة، وتم قبول أشياء كثيرة لم يكن يفهمها الأعضاء أو كانوا يوافقون عليها على أمل أن يثبت أنه على صواب).

واجه بيجين التحدى وجهاً لوجه، وقال: (منذ دورة الكنيست الثانية والرابعة كانت هناك إشاعات وهمسات وسأقوم أنا هذه المرة بإثارة الموضوع).

منحت اللجنة المركزية الزعيم اقتراعاً بالثقة بأغلبية ساحقة تسعة وعشرين صوتاً فى مقابل خمسة مع امتناع أحد عشر عضواً عن التصويت، ولكن كان يجرى الإعداد للمؤتمر القومى التاسع لحيروت فى قرية مكابيا خارج تل أبيب فى نهاية يونيو ١٩٦٦.

نظمت المعسكرات المؤيدة والمعارضة لبيجين قواتها خلسة، كما كان يفصل المتآمرون القدامى فى العمل السرى، ولم تفصح الخطب الافتتاحية عن وجود معارضة مركزة، ولكن المعارضة برزت عند التصويت على الرئاسة.

قدمت قوائم متنافسة إلى المندوبين البالغ عددهم ستمائة، وفازت

المعارضة بنسبة أكثر من اثنين إلى واحد من مجموع الحاضرين والمقترعين (٢٥٣ ـ ١٣١) مما دعا إيهود أولمرت أحد زعماء حيروت فى الجامعة العبرية لأن يقول بدون تفكير إن الإمبراطور لا يرتدى ملابس، قال: (حتى الآن قاد بيجين مسيرة الحركة باعتبارها حركة معارضة للنظام الحاكم ولكنه لم ينجح فى قيادتها إلى تولى الحكم وعليه أن يقبل النتائج ويستقيل مع كل قيادة الحركة)، انفجر الصخب فى القاعة عندما بدأ المندوبون الموالون لبيجين فى التلويح بقبضاتهم والمناداة بسقوط الشاب المغرور، سارع بيجين الذى ربما لم يكن يفهم بعد خطورة التحدى إلى الدفاع عن أولمرت وقال إنه إذا لم يسمحوا له بالاستمرار فى الحديث فإنه سيغادر المؤتمر.

وقال إنه شعر بالفخر لوجود مثل أولئك المندوبين المستعدين للتعبير عن مثل هذه الآراء وتقديم مثل هذه الاقتراحات، واصل أولمرت وهو ابن أحد أعضاء حيروت القدامى وعضو الكنيست عن الليكود فيما بعد انتقاد الصورة الأخلاقية للحركة، وافتقارها إلى الديمقراطية الداخلية وتوزيع بطاقات العضوية بالجملة، وعندما تلجأ القيادة إلى الهجوم، فإنها تستخدم الهجوم ضد هدف حقيقى وهو شامول تامير وحلفاؤه من اتحاد العمل الوطنى.

فى اليوم الثالث من المؤتمر حول بيجين التيار المعارض له بأن قدم استقالته من زعامة الحزب وعرض التخلى عن مقعده فى الكنيست، ولكن هذا العرض رفضه على الفور المندوبون الذين أصابتهم الدهشة البالغة وكتبت صحيفة (جيروزالم بوست) تصف ما حدث: (ولكن رفض مستر بيجين تغيير قراره، وكان قد قال أمام اللجنة المركزية فى وقت سابق من اليوم نفسه، عندما نفوز فى الانتخابات فإننا نصبح جميعا منتصرين، ولكن عندما نخسر فأنا الملوم)، وفهم الموالون القدامى التلميح وضغط بادير على المندوبين لإعادة انتخاب بيجين على الفور، وحث رئيس المؤتمر أفراهام شسترمان بيجين على العدول عن استقالته: (إنه ليس شخصاً خاصاً أنه ينتمى إلى

الحركة وجزء من تاريخ الأمة)، عاد بيجين إلى المنصة لتعديل بيانه السابق، ووافق على البقاء كعضو فى اللجنة التنفيذية للحزب، واستعادت القيادة سيطرتها وفازت قائمتها الرسمية للمراكز الأساسية فى اللجنة بزيادة أربعة أصوات (٢٥٣ ـ ٢٤٩) خلال اقتراع سرى فى الساعة الثالثة صباحا ولكن لم ينته التمرد، وأثار تامير الغضب بالحديث عن التميز بين رجال الماضى ورجال المستقبل، سياسيى الشتات وسياسيى الصابرا التواقين للسلطة: (باعتبارى رجلاً حراً مولوداً فى هذه البلاد، وباعتبارى مرؤوسك فى الارجون زفاى ليومى، أجئ الآن وأعارضكم فى العلن، وأعلن أننى لا أعارض الأيديولوجية بل الأساليب)، ولدهشة بيجين والمندوبين المجتمعين أخرجت المعارضة ارنباً من القبعة، إذ صعد اميهاى باجلين رئيس عمليات الارجون السابق الذى لم يقم بأى دور فى السياسة منذ سنة ١٩٤٨ إلى المنصة وبدأ فى صب احتقاره على القيادة.

انفض المؤتمر دون حل المشكلة بَعد خطاب مفعم بالمشاعر الجياشة ألقاه بيجين واستغرق ثلاث ساعات:

(هناك حد لما يمكن أن تتحمله الشخصية العامة، هناك حد للقسوة العامة من رجل ما، إنهم يطالبوننى بالتقاعد من الحياة العامة ولم أتقاعد ليس لأننى مكروه أو أننى محبوب، ولكن ما هو الخطأ الذى ارتكبته ضد هذا الشعب طوال حياتى؟ ما الخطأ الذى ارتكبته ضد مستر بن جوريون حتى يكن لى كل هذه الكراهية؟ هل كان ذلك لأننى أنا وأصدقائى حاربنا من أجل الدولة التى أصبح بن جوريون أول رئيس لوزرائها بموافقتى؟

صفى بيجين بعض حساباته مع الصحافة، ثم بدأ فى توجيه اللوم إلى المعارضة الداخلية: (شوستاك وتامير وتايير كانوا يعملون من وراء ظهرى شكلوا ائتلافاً فيما بينهم ولم يبلغونى، كان مستر تامير يعرف أننى كنت أنوى الاستقالة وتركونى مثل رجل أعمى أتخبط فى الظلام، هل كان يظنون أننى

رئيس وزراء موناكو لإكراهى على الوزارة دون علمى؟).

كتب مارك سيجال وهو مراسل سياسى إسرائيلى غير معروف عنه تعاطفه مع زعيم حيروت تعليقاً جاء فيه:

(كان الخطاب تجربة مؤلمة بسبب الاعتراف بالتعرض للأذى الشخصى العميق، واعترف بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون على مائدة الصحافة والذين تحدثت معهم بعد ذلك أنهم شعروا بالحرج إلى حد ما لجلوسهم وسط هذا الحشد للاستماع إلى هذا الاعتراف الحميم من الذى يقف على المنصة فى حالة هياج شديد، بينما تجلس حولنا النساء الباكيات، شعرنا أننا نشهد تحطيم شخصية عامة).

ولكن لم تكن مائدة الصحافة هى شرفة المسرح التى كان بيجين يلعب دوره أمامها ويوجه لها اهتمامه، وكما كتب سيجال يصف تلك الليلة: (دوت القاعة بتصفيق مدو، بينما كان الرجل الشاحب أحمر العينين يتسلل تاركاً المنصة) كان بيجين حريصاً على أن تقتصر استقالته على مدة الدورة التاسعة لمؤتمر حيروت، لم يتم انتخاب خليفة آخر فى قرية ماكابيا، المقر الدائم للبطولات الرياضية اليهودية الدولية، حل بادير مؤقتاً محل بيجين كرئيس لمجموعات الكنيست وياكوف ميريدور كرئيس للحزب بدلاً منه.

نجح بادير المخادع فى استرضاء المعارضة ولكنه احتفظ بأغلبية للحرس القديم فى اللجنة المركزية، ووافق باعتباره رئيساً للجنة القيادة على اقتراح يمنح المعارضة فرصة متكافئة فى اللجنة المركزية بشرط أن يخدم بها كل أعضاء الكنيست من حيروت أيضاً، قام كل جانب بتعيين ستة وأربعين عضواً فى اللجنة ولكن كان للموالين أغلبية اثنا عشر فى مقابل ثلاثة بين أعضاء الكنيست، وقال بادير: (إننى أفضل أن أبقى فى التيه السياسى مع مناحم بيجين بدلاً من الجلوس فى الوزارة مع شامويل تامير، وفى نوفمبر التالى عندما واصل حيروت طريقه استأنف بيجين تولى القيادة بهدوء.

وواصل تامير، وشوستاك، والشاب اليهودى أولمرت شق طريقهم بعد فضيحة حول خطاب مزور معادٍ لبيجين أرسل إلى صحيفة (هاآرتس) ولكنهم عادوا مرة أخرى وسط تشكيلة من الرايات الممزقة ليجلسوا فى مقاعد الحكومة بعد ذلك بعشر سنوات.

على الرغم من شكوك الليبراليين عقب انتخابات سنة ١٩٦٥ والضجة التى ثارت خلال صراع الزعامة فى حيروت لم يصب جاحال بأى أذى، كان الليبراليون لا يحرزون أى تقدم وينظرون فى الاتجاه الآخر، ولكن تآمرت الأحداث لتجمعهم مع مناحم بيجين فى حكومة واحدة أسرع مما كان يتخيل أى منهم، ففى ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ وبينما كانت إسرائيل تحتفل بالذكرى التاسعة عشرة للاستقلال قام الرئيس المصرى جمال عبدالناصر بإرسال دباباته إلى سيناء عبر قناة السويس مثيراً أزمة ثقة تبدو عند تذكرها فى غير موضعها بدرجة غير معقولة، كان العرب يتحرقون للحرب، وكان الإسرائيليون يشعرون بأنهم معرضون للهجوم، وللمرة الأولى خلال التاريخ القصير للدولة اليهودية افتقدوا الثقة فى قدرة زعمائهم على مواجهة مثل هذا التحدى، كان بن جوريون قد اعتزل الحياة السياسية وذهب إلى كيبوتز سيدح بوكر فى صحراء النقب وكان خليفته ليفى أشكول مشهوراً عنه عدم الحسم ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يمتلك خلفية عسكرية على الرغم من دهائه كسياسى فى الحزب وكان مثله مثل بن جوريون يشغل منصب وزير الدفاع، وعلى النقيض من بن جوريون لم يكن جديراً بالقيام بالمهمة.

تم التشاور مع بيجين وإبلاغه عن تطورات الأزمة باعتباره زعيماً لكتلة المعارضة، كان بيجين مدركاً تماماً لحالة الفراغ فى قمة السلطة والقلق المتزايد فى البلاد، كان تفكيره الأول إعادة بن جوريون إلى الحكم على الرغم من عدائهما الطويل والمتبادل، كان بيجين يحترم بن جوريون، وإن كان يضن عليه بهذا الاحترام - باعتباره الرجل الذى قاد اليهود إلى الاستقلال بعد ألفى سنة

من النفى، وكان يفضل وجود علاقة مختلفة معه، كن بن جوريون كما يراه بيجين فوق كل شىء سياسياً نشطاً، رجل دولة لم يتهرب من اتخاذ قرارات صعبة، كان الشىء الذى لا يعرفه فى ربيع سنة ١٩٦٧ هو أن بن جوريون الذى بلغ الثمانين من عمره لم يعد الأسد القديم الذى يوثق به، وكان الجنرال إسحاق رابين قائد الأركان الذى كان يشكو من أنه يطلب منه تحمل الكثير من العبء العسكرى والسياسى كذلك، قد توجه إلى بن جوريون ليحصل منه على تأييد معنوى ولكنه أصيب بخيبة الأمل وكتب يقول بعد ذلك بسنوات:

(كان مؤلماً رؤيته فى حالته الراهنة، بعيد كلية عن أى مصادر للمعلومات، والأسوأ أنه يتمسك بقوة بمفاهيم قديمة وأخطأ فى تقييمه لقوة قوات الدفاع الإسرائيلى، كان مقتنعاً أن إسرائيل فى موقف سياسى غير محتمل ويشك فى أن تستطيع تخليص نفسها من الخطر ببدء حرب مع مصر).

استطلع بيجين آراء زعماء الأحزاب المعارضة الأخرى ومن بينهم شيمون بيريز السكرتير العام لحزب بن جوريون «رافى» الذى انفصل عن العمل فى سنة ١٩٥٦، وشعر بالرضا لأنهم يشاركونه تشخيصه ويوافقون على وصفه للعلاج، وفى ٢٤ مايو وهو اليوم الذى جعل بعده ناصر الحرب أمرًا حتميًا بإغلاقه مضايف تيران - شريان الحياة لميناء إيلات الإسرائيلى على البحر الأحمر - اقترح بيجين سراً على أشكول دعوة بن جوريون لرئاسة حكومة وحدة وطنية، وكان رد أشكول الذى لم يكن خلافه مع بن جوريون أقل حدة من خلاف بيجين معه: (إن العربة الواحدة لا يمكن أن يجرها حصانان)، وعلى الرغم من أن بيجين كان متأثراً بالرد النهائى لأشكول فإنه قبل دعوة

للانضمام إلى زعماء الأحزاب المعارضة الأخرى لعقد اجتماع خاص فى منزل بن جوريون فى تل أبيب، ولكنه شعر بنفس الفزع الذى شعر به إسحاق رابين، كان الرجل العجوز مازال يحارب حربه الشخصية مع مؤسسة العمل

ورفض قيام إسرائيل بضربة وقائية ووصفها بأنها مغامرة خطيرة، وحث الحكومة على طلب مساعدة الدول الكبرى، تخلى بيجين عن فكرة تعبئة بن جوريون للعمل وأبلغ رئيس الوزراء أن جاحال مستعد للانضمام إلى ائتلاف شامل بشرط أن يشغل موشى ديان وهو عضو بالكنيست عن «رافى» منصب وزير الدفاع بدلاً من أشكول وقال إنه (الرجل المناسب فى المكان المناسب).

كان التيار يتجه بالفعل إلى ديان الذى كان رئيساً للأركان خلال حرب السويس، ولكن جولدا مائير سكرتير عام حزب العمل كانت تمانع فى نسيان الماضى، ومع ذلك فقد أصر بيجين أن جاحال لن يشترك فى الحكومة بدون رافى، ووفقاً لما ذكره (كاديشاى) سكرتيره السياسى ـ فإن بيجين كان أقل اهتماماً بسمعة ديان الحزبية من اهتمامه بتأمين أكبر قدر ممكن من الوحدة، وفى النهاية أذعن أشكول لمطالبة الرأى العام ولبيجين.

وفى أول يونيو ١٩٦٧ عاد مناحم بيجين إلى الأضواء وانضم إلى حكومة إسرائيل ورثة جابوتنسكى، الإرهابيون المحتقرون من جماعة الارجون زفاى ليومى، احترم بيجين ديونه التاريخية ودعا أخلص ثلاثة من رفاقه ياكوف ميريدور، وأريخ بن اليعازر، ويوهانن بادير للذهاب معه إلى مكتب رئيس الوزراء حيث عانقهم ثم انصرف، وفى صباح اليوم التالى وهو فى طريقه إلى الكنيست فى القدس وقف بيجين للحظة إلى جانب قبر معلمه، وكانت حكومة أشكول قد قامت قبل ذلك بثلاث سنوات بإحضار رفات جابوتنسكى بطريقة ملائمة وأعادت دفنها على جبل هيرزل جنباً إلى جنب مع زعماء صهيون، وذكر موشى ديان أنه بعد أن قام رئيس الوزراء بالترحيب بالوزراء الجدد فى أول اجتماع لهم مع الوزارة، رد بيجين بخطاب قصير مفعم بالعواطف حافل بحكم من التوراة أخذ أشكول الذى كان يتمتع بروح الدعابة يؤكدها بقوله: (آمين، آمين).

■ ■ ■

الفصل الرابع عشر

التدريب على الحكم

فى هذه الحرب لم يجد مناحم بيجين نفسه مضطرًا لانتظار دعوة وباعتباره وزيراً فى الوزارة وإن كان لم يتقلد منصبه بعد أن انضم إلى حشد من السياسيين والجنرالات المتقاعدين المفصولين فى مكتب رئيس الوزراء فى تل أبيب فى صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، وكان أول من سمع بالغارة الجوية المنسقة التى باغتت القوات الجوية المصرية أثناء تناول الإفطار وكفلت لإسرائيل السيطرة الحاسمة على سماء المعركة، فمنذ الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين نجحت موجات من المقاتلات القاذفة من طراز الميراج الفرنسية الصنع التى كانت تطير على ارتفاع منخفض بعيداً عن مجال الرادار فى تدمير نحو ثلاثمائة طائرة حربية مصرية وعطلت كل القواعد الجوية المصرية الهامة من سيناء حتى مصر العليا، وعند حلول موعد الغداء حدث نفس الشىء بالنسبة للقوات الجوية الأردنية والسورية، كانت سعادة بيجين بهذا الانتصار والإثارة التى أحس بها لكونه وحداً من الدائرة الداخلية التى سمح لها بالإطلاع على السر تتسم بالطفولية، كان ينفجر فرحاً بالأنباء التى حجبت عن الصحافة وعن العدو، وعانق حاييم لاشكوف قائد الأركان السابق وهو ضابط قديم عمل فى الجيش البريطانى وفى حرب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وأخبره بما حدث، وخلال توجهه إلى القدس فى وقت لاحق من نفس اليوم أخذ يلوح بعلم أمام سيارة جولدا مائير وضرب معها موعداً وكانت رئيسة الوزراء المستقيلة عن حزب العمل تشغل منصب سكرتير عام الحزب وليست عضواً فى الوزارة

وفى الكنيست، بحث بيجين عن بن جوريون خوفاً من أن يكونوا قد نسوا إبلاغ الرجل العجوز.

بينما كان بيجين مازال خارج حجرة ليفى أشكول عقد تحالفاً غير رسمى مع منافسه القديم من البالماخ ايجال آلون الذى أصبح الآن وزيرا للعمل، وأدرك كلاهما الاحتمالات المتاحة نتيجة النصر الإسرائيلى الأول، وكان أشكول قد بعث برسالة إلى الملك حسين ملك الأردن عن طريق الأمم المتحدة يحثه فيها على إبعاد الأردن عن الحرب، فإذا وافق فإن إسرائيل تتعهد بعدم مهاجمة المملكة الهاشمية، كانت الوزارة مستعدة من أجل تجنب الدخول فى حرب على ثلاث جبهات إضاعة فرصة غزو الضفة الغربية والقدس الشرقية العربية، لم يعارض بيجين أو آلون قرار إرسال البرقية إلى عمان ولكن بمجرد أن اتضح فى صباح يوم الاثنين أن حسين تجاهل البرقية بدءاً فى الضغط على رئيس الوزراء بإعطاء أولوية لإعادة توحيد العاصمة المقسمة، قال له آلون بغمزة ساخرة: (بيجين وأنا نريد القدس.. فأجابه أشكول باللغة العبرية القديمة: (ليست هذه فكرة سيئة).

وعندما وصل بيجين إلى القدس لحضور جلسة خاصة فى مبنى الكنيست الجديد الذى بنى على أرض مغتصبة فى أعلى منطقة فى جيفات رام والذى تم افتتاحه قبل عام وتعرض المبنى للقصف من ناحية بيت لحم، أدرك بيجين أن حلمه فى طريقه إلى التحقيق ربما أسرع مما كان يتوقع، وعندما عرف أن أشكول لم يصل بعد طلب من سكرتيره السياسى الوقوف عند مدخل الأعضاء وطلب منه إبلاغه بمجرد رؤية سيارة رئيس الوزراء، أحاط بيجين بأشكول عند دخوله المبنى وطلب منه عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء قبل انعقاد الكنيست، وافق أشكول واجتمع الوزراء فى حجرة الوزارة بالطابق الثانى، ولكن سرعان ما قام حراس المبنى بدفعهم إلى مخبأ سرى ضيق تسوده الفوضى، كانت قنابل المورتر تتساقط بالقرب من المبنى بدرجة

خطيرة وانفجرت إحداها بين الأعشاب فى الخارج، صوَّت الاجتماع بالإجماع على الاستيلاء على المدينة القديمة محطة إذاعة ال بى. بى. سى، وينتظر الطبعات الأولى من الصحف الصباحية، كانت القدس قد تم حينذاك تطويقها بالدبابات الإسرائيلية.. وسيطر جنود المشاة على جبل سكوس وجبل الزيتون، المرتفعات الهامة فوق المدينة القديمة وبعد منتصف الليل استمع بيجين فى الإذاعة أن الأمم المتحدة تستعد لإصدار أمر بوقف إطلاق النار على كافة الجبهات.

طاردت بيجين ذكرى سنة ١٩٤٨ عندما أصيبت عصابات الهاجاناه والارجون وشتيرن بالإحباط نتيجة وقف إطلاق النار الذى حال بينهم وبين القيام بمحاولة أخرى لاستعادة القسم اليهودى القديم من أيدى الفيلق العربى بقيادة الملك عبدالله، تناولت أول صحيفة تصل إلى عتبة بيته وهى صحيفة المابام اليسارية (عال همشمار) تفاصيل أخرى عن القصة، كان قرار وقف إطلاق النار وشيكاً فى الساعة الرابعة صباحا، أيقظ بيجين أشكول واقترح أن يصدروا أوامر إلى الجيش بدخول المدينة القديمة قبل فوات الأوان.. طلب رئيس الوزراء من بيجين محادثة موشى ديان تليفونياً.

قال بيجين لوزير الدفاع: (على الرغم من أننا اتفقنا أمس على مواصلة تطويق المدينة القديمة إلا أن قرار مجلس الأمن يغير كل شىء، ولا يمكننا الانتظار.. بعد ذلك وافق ديان الذى كان حتى حينذاك يتزعم الدعوة إلى استراتيجية أكثر حذراً، وتحدث بيجين بناءً على اقتراحه إلى رئيس الوزراء مرة أخرى وطلب منه القيام بعمل فورى، اتفق معه أشكول فى الرأى واستشار زملاءه وأصدر أوامره إلى الكولونيل موردخاى جور ولواء مظلاته باقتحام الحوائط للمرة الأولى منذ قيام السلطان التركى سليمان الأعظم ببنائها فى سنة ١٥٤٠ وفى الساعة ١٠,١٥ من صباح يوم الأربعاء ٧ يونيو وبعد قتال عنيف فى الأزقة الضيقة المؤدية إلى بوابة سانت ستيفانس، كانت نجمة داود

تخفق فوق الهيكل وكانت حفنة من جنود المظلات الذين يغطيهم غبار المعركة والعرق يؤدون صلاة شكر عند الحائط الغربى، لم يسر تنفيذ وقف إطلاق النار لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى مما أتاح لإسرائيل استكمال غزوها للضفة الغربية لنهر الأردن وشبه جزيرة سيناء، وعلى الرغم مما يكتنف ذلك من المخاطر باستثارة السوفيت حلفاء سوريا فإن إسرائيل واصلت هجومها لتستولى على مرتفعات الجولان السورية فى اليومين الخامس والسادس.

لم تكد تنقضى ثلاثة أسابيع أى فى ٢٧ يونيو حتى قامت إسرائيل بتطبيق قوانينها فى القدس الشرقية، وهكذا تحقق حلم بيجين المثالى فى قدس موحدة تحت السيادة اليهودية، وتم اتخاذ خطوة حاسمة حتى يضمن ألا يعاد تقسيمها مرة أخرى إذا منيت إسرائيل بهزيمة فى حرب.. حتى معظم الإسرائيليين من العلمانيين انتباهم إحساس بأن شيئاً أشبه بالمعجزة قد حدث، كان من التحرر من شىء كان يمثل خطراً شديداً والدهشة من تحطيم الحواجز المادية والنفسية التى قسمت المدينة المقدسة، اندفع عشرات من الإسرائليين إلى الحائط الغربى للحج بدون نظام، ليل نهار وسواء كانت مبادرة بيجين التى اقترحها عند الفجر هى السبب وراء الاستيلاء على المدينة القديمة أم لا فإنه كان راضياً على أنه قام بدوره.

شاركت حيروت فى الإجماع القومى حول القدس، فلم يناد أى تنظيم بعودة القسم الشرقى من المدينة إلى الحكم العربى، ولكن بالنسبة ليهودا والسامرة فى الضفة الغربية التى احتلتها إسرائيل مؤخراً كان بيجين يتحدث باسم الأقلية، لم يكن يتخيل الكثيرون أنه بعد حقبتين من الزمن فإن إسرائيل ستسيطر على كل فلسطين غرب النهر، تحدث زعماء العمل عن انتظار مكالمة تليفونية من عمان، وأعلن موردخاى ببنتوف وزير الإسكان أن (الأراضى محفوظة فى أمان حتى يكون الملك حسين مستعداً لاستعادتها) لم يكن الحزب الدينى القومى قد تطرف بعد، وأعلن زعيمه حاييم موشى

شـابيـرو أمـام مـؤتمر الحـزب فـى سنة ١٩٦٨ أن التـوصل إلى تسـوية بشـأن الأراضى أمـر أسـاسـى، ولكن بيـجين كـان مصـمماً منذ البداية لبذل المستحيل للحيلولة دون إعادة تقسم (أرض إسـرائيل)، لم يعـترض عندما قررت الحكومة إرسال من يقوم بجس نبض الأردنيين ولكن أبا إيبان الذى كان يشـغل وقتذاك منصب وزير الخـارجـيـة أعـرب عن شكه فـى أنه إذا اسـتـجـاب حسـين فـإن بيجين سيستقيل.

قال أبا إيبان (إننى أتذكر كيف ضحك بيجين فى سره عندما سمع عبارة (الرفض التام) فى رد الملك حسين، وفى شهر يوليو سنة ١٩٦٧ ساعد بيجين ايبان ووراها فيتج على صياغة خطاب يفتح الطريق أمام التوصل إلى حل وسط بين حقوق إسرائيل القومية فى القدس ومصالح المجتمع الدولى، ونص الخطاب على: (إن إسرائيل لا تطالب بالسيطرة على القدس من جانب واحد أو بالسلطة المنفردة فى الأماكن المقدسة للمسيحية والإسلام).

وستكون إسرائيل فى أى تسوية سلمية مستعدة لتقديم صياغة مناسبة لتحقيق هذا المبدأ، ولكن هذا الإعلان لم يتضمن عرضاً للتوصل إلى حل حول السيادة الإسرائيلية، كان ايبان يأمل أن يخلق هذا احتمالاً بالتوصل إلى حل ضمنى بالنسبة للمسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهى الأماكن الإسلامية المقدسة فى الهيكل إذا ما تم التفاوض من أجل تسوية سياسية مع الأردن كان بيجين مستعداً للقيام بتلك المخاطرة.

بعد انتهاء الحرب كرَّس يجين كل براعته اللفظية فى تأكيد أن إسرائيل تقبل قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بأكثر الألفاظ بعداً عن الالتزام بشىء، وكان هذا القرار الذى صاغته بريطانيا فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ كأدنى حد للاتفاق حول قاعدة لإجراء مفاوضات بين إسرائيل والعرب للتوصل إلى حل شامل، يؤكد عدم السماح بالاستيلاء على الأراضى عن طريق العرب، ويدعو من بين أشياء أخرى إلى انسحاب القوات المسلحة

الإسرائيلية من أراض محل النزاع الأخير، كان اعتراض بيجين الأول هو منع استخدام الحكومة الإسرائيلية لكلمة (انسحاب) وكان يتباهى بعد ذلك أن حيروت نجح فى تحقيق هذا بعد عامين ونصف العام:

تم تقديم اقتراح إلى الوزراء ثلاث مرات باستخدام كلمة (انسحاب) ورفضت الوزارة خلال إحدى الجلسات قرار ليفى أشكول هذا، تم تقديم اقتراح إلينا لاستخدام كلمة (انسحاب) وكنت ضد استخدامها، اقترحنا كلمة (انتشار) القوات.. سأل أحد زملائى رئيس الوزراء ما هو الفرق بين انسحاب وانتشار القوات أجاب بطريقة مميزة:

(إذا قلنا انسحاب فعندئذٍ نحن ملزمون به وإذا قلنا انتشار القوات فإن إيبان سيفسرها بالطريقة التى يراها صواباً وسيفسرها بيجين بالطريقة التى يراها صواباً).

أعلن بيجين بعد إثارته كثيراً من التفاصيل التافهة أن كلمة (انتشار) ليست ملائمة لمعاهدة سلام، لأن انتشار تعنى دائماً تنشيط القوات للقيام بهجوم، واستقر رأى الحكومة فى النهاية على أن يكون تنظيم القوات بالتوافق الكامل مع الحدود الدائمة التى تتحدد فى معاهدات السلام.

بالنسبة لبيجين كان الاختلاف بين (الانسحاب) و(التنظيم) قاطعاً، كان حريصاً على عدم استخدام لفظ (إعادة) فلم تذكر حكومة إسرائيل (إعادة انتشار) أو (إعادة تنظيم) فلم تكن تلزم نفسها بالانسحاب، وشرح بيجين الفرق قائلا: (الانسحاب يعنى التحرك إلى الخلف وفى كلمة تنظيم ليس هناك حركة، إن ذلك ستقرره الحدود كما تتحدد فى معاهدة السلام).

قال إيبان وهو واحد من أكثر الوزراء مرونة فى مجال سرده لذكرياته:

لم يكن سهلاً بالنسبة لى صياغة مقترحات معتدلة فى وزارة تتكون من كافة الأحزاب بما فيهم جاحال الذى يعتقد ممثلوه أنه يمكن التوصل إلى معاهدات سلام دون التضحية بأى أراضٍ على الإطلاق، ومع ذلك فإن بيجين لم

يمارس حق الفيتو على الدبلوماسية الإسرائيلية، يقول ايبان: (أشكول كان يمنحنى سراً وبهدوء تأييده للصيغ التى لم تكن تلقى ترحيب بيجين وزملائه)، ومع ذلك فإن جاحال توقف فى مرحلة حرجة قبل أن يوضع الاحتلال فى قالبه.

استكمل اشتراك جاحال فى حكومة الوحدة الوطنية ـ برئاسة أشكول حتى وفاته بنوبة قلبية فى فبراير سنة ١٩٦٩ وبرئاسة جولدا مائير حتى أغسطس سنة ١٩٧٠ ـ انتقال مناحم بيجين إلى رتبة يصبح فيها جديراً بالاحترام، كان من الصعب إرضاؤه خلال حضور جلسات الكنيست واجتماعات الوزراء، كانت علاقاته مع أعدائه السابقين ودية وعملية، بل أنه هادن بن جوريون الهرِم، وقد تصادف أن تقابلا فى أحد الأيام فى مطعم الريجنس فى فندق الملك داوود ودعا بن جوريون بيجين للانضمام إليه فى تناول الغداء وكتب له المحارب القديم يقول له بعد ذلك:

(كانت زوجتى بولا لسبب ما معجبة بك، لقد عارضت طريقتك بقوة أحياناً، قبل وبعد قيام الدولة، كما لو كنت سأعارض طريقة جابوتنسكى، عارضت بشدة عدداً من أعمالك وآرائك بعد إقامة الدولة، ولست نادماً على معارضتى لأننى كنت مصيباً فى رأيى ولكننى لا أحمل لك أى ضغينة شخصية وكلما عرفتك أفضل خلال السنوات الأخيرة يزداد تقديرى لك وتشاركنى زوجتى بولا فى هذا).

ابتهج بيجين بالإطراء بالرغم من أنه ربما كان يفتقر إلى الصياغة البارعة وسر بنفس القدر لأن أشكول كان رئيساً للوزراء أكثر قوة مما كان يتوقع أن ما كانت تؤهله له سمعته، وشهد فيما بعد أن أشكول أثبت أنه رجل يستطيع اتخاذ قرارات:

(رأيته يعمل فى أوقات صعبة، وأكرر أنه كان البادئ أو الشريك أو العامل الحاسم فى اتخاذ قرارات حاسمة، تلك التى كانت أقرب القرارات

إلى نفسى ـ القرارات المتعلقة بالقدس، وبمرتفعات الجولان، والمتعلقة بتوحيد القدس وأعرف مدى تأثيره فى اتخاذ تلك القرارات).

كان زعيم حيروت وزيراً بين وزراء آخرين، فلم يكن يتمتع بعلاقة متميزة مع أشكول، ولكن تم قبوله وفقاً لنفس الشروط، ويقول ياكوف شمشون شابيرو وزير العدل وأحد المخضرمين فى الماباى: (كان أسلوب أشكول معاملة الوزراء على قدم المساواة، كان يميل إلى قبول الجانب الآخر من العملة وليس كبن جوريون وشاريت بصفة خاصة الذى كان يعتبر نفسه ينبوع الحكمة كلها.

بدا تولى جولدا مائير لرئاسة الوزراء فى أول الأمر تهديداً بانتهاء شهر العسل، وكانت رئيسة الوزارة الجديدة قد قاومت تشكيل ائتلاف من كافة الأحزاب عشية حرب يونيو، وكانت أكثر اهتماماً بإبعاد موشى ديان ـ الذى لم تستطع أن تغفر له تركه الحزب مع بن جوريون ـ من إبعاد بيجين ولكنها كانت امرأة ذات آراء صريحة تمثل الولاء التاريخى وتحيزات الماباى.. وكانت مسز مائير من الشخصيات التى إذا كرهت أحداً فإن كراهيتها تكون شديدة وظل مناحم بيجين لفترة طويلة هدفاً لكراهيتها.

ولكنها كانت تعرف كيف تسحر وتتكيف، وكانت مثل أشكول تقدر أهمية حكومة وحدة وطنية بمجرد بدء الحكومة العمل، كانت مصممة على نجاحها وإذا كان ذلك يعنى التعايش مع بيجين فليكن ذلك، ولدهشة المجتمع السياسى تعاون الاثنان بسهولة، بل بود فى الوقت الذى استمر فيه الائتلاف، وعلى الرغم من أن مسز مائير لم تكن تشاركه التزامه الكامل بأرض إسرائيل إلا أنها كانت تشاركه شكوكه تجاه نوايا الفلسطينيين، وكانت فخورة مثله بيهوديتها.

عمل بيجين الذى كانت له نقطة ضعفه كمدنى تجاه الأبطال العكسريين على توطيد علاقته فى هذا الوقت مع ديان وكان التقدير متبادلاً بينهما مما أدى فى نهاية الأمر إلى تجنيد الخارج عن حزب العمل ليخدم فى حكومة يشكلها حيروت، كانت هناك صلة روحية تربط بين الاثنين، فديان من جيل ولد

فى إسرائيل ويعرف العرب كبشر وليس كأعداء مجهولين، كان يعرف الأرض بطولها وعرضها بكل حواسه، كان بيجين يشعر كما لو كان فى بيته فى القدس، فى تل أبيب وفى أحلامه المتعلقة بالتوراة ولكن داخل الوزارة أصبحا نواة ما أطلق عليه أحد المعلقين الإسرائيليين: (ائتلاف صقور تخطى الحدود الحزبية، اشتركا معاً فى معارضة الموافقة على مشروع آلون الذى وضع تمييزًا بين السيادة والأمن، ويصور انسحابًا إسرائيليًا من المراكز الأساسية للسكان العرب عند التوصل إلى اتفاق مع الأردن، توصل بيجين وديان إلى موقف مشترك نابع من منطلقات مختلفة، كانا متشابهين فى إيمانهما بالروحانيات كان بيجين يؤمن بالحق الإلهى لليهود فى أرض فلسطين كلها، وكان ديان يتذكر تجولاته فى الصبا، وقضاء الليالى تحت ضوء النجوم ويرفض أى حل يمكن أن يحرم يهوداً آخرين من نفس العلاقة الحميمة، كان الضم يثير استفزازًا غير ضرورى ولكن يجب أن تكون هناك حدود لا يمكن الإضرار بها.

كانت الثلاث سنوات التى قضاها بيجين للتدريب على الحكم من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٠ سنوات مثمرة ولكنها أصابته بالإحباط دائماً، فلم توكل إليه مسئوليات عندما كان وزيراً بلا وزارة، فالوزراء الإداريون غيورون بطبيعتهم ممن هم أعلى منهم، حريصون على ألا يتركوا فراغاً لغيرهم، وبدأ بيجين دائماً كما لو كان يخلق لنفسه عملاً، فكان يشكل لجاناً فرعية جديدة، ويستقبل الصحفيين، ويرد على منتقدى الحكومة.

كذلك فإن فرصته البرلمانية كانت محدودة، وكان ذلك يكدره وهو أحد النجوم الأوائل للكنيست، فنادراً ما كان الأعضاء فى المقاعد الخلفية يناقشون الوزراء بدون وزارة، كما أن مديرى الحزب لم يعطوا للأعداء القدامى فرصة التألق خاصة أنهم ربما يعودون إلى صفوف المعارضة فى أى لحظة، وعندما وقع الانشقاق فى النهاية شعر ايبان من جانبه أن بيجين (تخلى عن مائدة الوزراء فى مقابل منبر الكنيست وهو يشعر بالارتياح).

عندمـا خلفت مسـز مـائيـر أشكول فى رئاسـة الوزارة لم يكن اسـتمـرار عـضـوية جاحـال فـى الائـتـلاف أوتومـاتيكيـاً بأى حـال، كان بيجـين وزمـلاؤه يشعرون بعدم الارتياح إزاء الاتجاه نحو التوصل لتسوية فيما يتعلق بالأراضى بين أغلبـيـة الوزارة، وحـسـاسـيـتـهم المتـزايدة من خطـر أن ينـجح اللوبى الإسـرائيلى الأكبـر فى إخـراجهم من اليمـين، ولكنهم فـرضـوا الموضـوع على السيـاسـة الداخليـة وإن لم يكن على السـيـاسـة الخـارجيـة، ففـى الوقت الذى ازدادت فيـه الـروح القـتـاليـة بين العمـال الإسـرائيليين طالب بيجـين بتـشـريع يقضى بجعل التحكيم إجبـارياً فى الصناعـات الأسـاسـية والخـدمات، وعندما رفض حـزب العـمل بجـذوره المـتـدة فى الحـركـة النقـابيـة والتـزامـه بحق الإضراب، أعلن بيجين عن استعداده للرجوع إلى مقاعد المعارضة ولكن الذى أقنعه بالعدول عن موقفه هو تفجر موضوع أرض إسرائيل وهو نفس الموضوع الذى أدى فى النهـاية إلى خروج جاحـال من الحكم، وفـى شهـر ديسمبر ١٩٦٩ بدأ جونار يارنج مهمة الأمم المتحدة للسلام بعد أن طوى النسيان القرار رقم ٢٤٢ الذى كان قد تبنـاه مجلس الأمن وكـان قتال عنيف قد نشب بين القوات الإسـرائيليـة والمصرية على ضفتى قناة السويس، وكـانت هجمـات الفـدائيين الفلسطينيين تتصـاعـد من الأردن وسـوريا، وبدأ العـالم يخشى وقـوع مواجـهـة أخرى، وفى واشنطن قدرت إدارة الرئيس نيكسون أن الوقت قد أزف للقيـام بمبـادرة دولية جديدة لإعـادة الشرق الأوسط لصوابه، وفى ٩ ديسـمبـر أعلن وليـام روجـرز وزير الخـارجيـة الأمـريكية أن الدول الأربـع الكبـرى فى مـجلس الأمن سـتـتـعـاون مع يارنج للتـوصل إلى تسـوية وفـقـاً للقـرار رقم ٢٤٢ وكـان الأمريكيون قد قـرروا أيضا (التشاور مع الاتحـاد السـوفيتى مباشـرة على أمل تحـقـيق أكـبـر قـدر ممكن من الاتفـاق بيننا)، أصـاب إسـرائيل الذعـر من كـلا النقطتين ـ البـحث عن تسـوية فى إطـار القـرار رقم ٢٤٢ واشتـراك الاتحـاد السوفيتى، صديق أعدائها الذى قام بقطع العلاقات الدبلوماسية معها خلال حـرب ١٩٦٧.. ومما زاد من شـدة المقـاومـة للاقـتـراح الأمـريكى مـا أوضـحـه

روجرز حول سياسة الإدارة الأمريكية إزاء الحدود، فقد أعلن أن الولايات المتحدة تؤيد مبدأ عدم الاستيلاء على الأراضى بالحرب، وانسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراضٍ احتلتها فى سنة ١٩٦٧.

(أقيمت الحدود التى نشبت منها حرب سنة ١٩٦٧ بناء على اتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩، وحددت مناطق السلطة الوطنية فى الشرق الأوسط لمدة عشرين عاما، وتلك الحدود كانت خطوط الهدنة وليست حدودا سياسية نهائية، وكانت تحكم حقوق ودعاوى ومواقف الأطراف إزاء التوصل إلى تسوية سلمية نهائية اتفاقيات الهدنة، ولم يكن قرار مجلس الأمن يوافق أو ينادى بتلك الحدود السياسية المحددة، ومع ذلك فإنه يدعو إلى الانسحاب من الأراضى المحتلة، وعدم الاستيلاء على الأراضى نتيجة الحرب وإقامة حدود آمنة ومعترف بها.

إننا نعتقد أنه فى الوقت الذى يتعين فيه إقامة حدود سياسية معترف بها ومتفق عليها من جانب الأطراف، كما أن أى تغيير فى الخطوط القائمة لا يجب أن يعكس ثقل الغزو ويجب أن يقتصر على التغييرات الطفيفة المطلوبة لتحقيق الأمن المتبادل، إننا لا نؤيد السياسة التوسعية ونعتقد أنه يجب سحب القوات كما ينص القرار، إننا نؤيد أمن إسرائيل وأمن الدول العربية كذلك، إننا نؤيد إقامة سلام دائم يحقق الأمن لكليهما).

هكذا كان مشروع روجرز عند صياغته الأولى، كان أكثر اعتدالاً مما اعترف به الإسرائيليون ولكن ما لم يستسيغوه هو فكرة الانسحاب الفعلى من كافة الأراضى وما يشتم من فرض حل كان ذلك كافيا لبقاء مناحم بيجين فى الحكومة، بدا أن علاقات حزب العمل أصبحت تافهة، وفجأة، وقَّع جاحال اتفاق ائتلاف جديداً وارتفع عدد وزرائه من اثنين إلى ستة وزراء من بينهم عيزرا وايزمان الذى انتقل مباشرة من الرجل الثانى فى قوات الدفاع الإسرائيلية إلى حيروت ثم إلى الوزارة كوزير للنقل وفى ٢٢ ديسمبر رفضت

الحكومة مشروع روجرز جملة وتفصيلاً وقالت إن المقترحات الأمريكية:

(تتحيز ضد فرص إقامة سلام، وتتجاهل الحاجة الأساسية لتقرير حدود آمنة يتفق عليها عن طريق توقيع معاهدات سلام بطريق المفاوضات المباشرة، وتؤثر على حقوق إسرائيل السيادية وأمنها فى صياغة قرارات تتعلق بالفدائيين ووضع مدينة القدس، ولا تتضمن أى التزام فعلى من جانب الدول العربية لوقف الأنشطة المعادية لمنظمات الإرهاب والتخريب).

كان بيجين راضياً ولكن قلقاً، فقد رفضت الوزارة مشروع روجرز بتشجيع من موقف جاحال المتشدد ولكن لم يتوقع أحد أن يؤدى الرفض الإسرائيلى إلى القضاء على المبادرة الأمريكية، خاصة أن حرب الاستنزاف فى قناة السويس تزداد يوماً بعد يوم وكذلك الخسائر الإسرائيلية، غيَّر زعيم حيروت موقفه نتيجة بيان حول السياسة الخارجية صيغت كلماته بعناية فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٧٠ حيث اقتربت مسز مائير من أى وقت مضى من قبول القرار رقم ٢٤٢ دون سابق إنذار، وشكا بيجين من أن جاحال لم يستشره.

ولكن رئيسة الوزراء عملت على تهدئته بصفة مؤقتة بالتأكيد على أن شيئا لم يتغير، وخلال الاقتراع الذى جرى فى الكنيست حول بيانها امتنع نواب جاحال الستة والعشرون الذين عادوا إلى الكنيست خلال انتخابات سنة ١٩٦٩ عن التصويت ولكن كتلة حيروت الليبراليين ظلوا فى الائتلاف لمقاومة تقديم مزيد من التنازلات للأمريكيين، لكن بيجين لم ينتظر طويلاً لخوض التحدى.

فى يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ أقدم روجرز على خطوته الثانية، فاقترحت الولايات المتحدة على إسرائيل ومصر والأردن بدء المفاوضات تحت إشراف يارنج للتوصل إلى اتفاق سلام قائم على الاعتراف المتبادل بين إسرائيل والأردن بالسيادة، ووحدة الأراضى والاستقلال السياسى وانسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة فى سنة ١٩٦٧، وفى نفس الوقت تلتزم الأطراف بوقف إطلاق النار التزاماً كاملاً لمدة ثلاثة أشهر على الأقل، ولتخفيف حدة

المقترحات كان الرئيس ريتشارد نيكسون أكثر تحديداً عن ذى قبل فى تأكيد أمن إسرائيل وكان قد ألمح فى شهر مايو خلال مقابلة مع ايبان فى البيت الأبيض أن إسرائيل تستطيع الاعتماد عليه فى الحصول على طائرات فانتوم قاذفة ـ مقاتلة إذا احتاجتها فى حرب الاستنزاف ووفقاً لما ذكره وزير الخارجية الإسرائيلى فإن نيكسون عمق الآن التزامه:

(جعلنا نفهم أن تعهده لى حول طائرات الفانتوم يجب أن يؤخذ مأخذ الجد وأكد أنه لن يكون متوقعاً من إسرائيل سحب جندى واحد من أى خطوط وقف إطلاق النار إلا فى إطار اتفاقية سلام متبادلة تعتبرها إسرائيل مرضية لأمنها، كان هناك أيضاً تعهد باستخدام الفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن لمقاومة أى قرارات تدعو إلى الانسحاب الكامل إلى خطوط ما قبل خطوط سنة ١٩٦٧).

استنتج ايبان ومسز مائير أن مخاطرة الاقتراح الأمريكى أقل من المخاطرة برفضه فإن التوصل إلى وقف كامل لإطلاق النار سيؤدى إلى استمرار الحرب مع مصر، واحتمال التورط مع الاتحاد السوفيتى وهبوط التأييد الأمريكى لإسرائيل، ومع ذلك فإن بيجين رأى فى ذلك خيانة للقضية، وقال أمام أعضاء جاحال بالكنيست (شُلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة)، وحذر بيجين من قيام مظاهرة معادية لمشروع روجرز لمنع حدوث ميونيخ أخرى فى الشرق الأوسط. من أجل الحفاظ على الوطن التاريخى فإن إسرائيل ستعتمد على (أنفسنا، على جنودنا وعلى البناء).. كان جاحال يريد وقف إطلاق النار ولكنه يرفض الموافقة على أى مفاوضات حول الانسحاب حتى يتحقق السلام، وحاولت مسز مائير إقناع بيجين أن إسرائيل لا يمكنها الحصول على نصف الصفقة دون نصفها الآخر، كذلك إنها لن تتوقع الحصول على أى أسلحة من الولايات المتحدة.. كانت إجابة بيجين أن الأمريكيين لم يقدموا أسلحة إلى إسرائيل بسبب طيبة قلوبهم فإن إسرائيل قد فعلت لأمريكا أكثر مما فعلته أمريكا لإسرائيل، أعربت مسز مائير عن سخطها فى مذكراتها:

(لم أستطع إفهامه أنه على الرغم من أن الالتزام الأمريكى تجاه بقاء إسرائيل كان كبيراً بالتأكيد فإننا كنا نحتاج إلى مستر نيكسون ومستر روجرز أكثر بكثير مما يحتاجاننا ولا يمكن إقامة سياسات إسرائيل بالكامل على افتراض أن اليهود الأمريكيين سيعملون أو يستطيعون إجبار مستر نيكسون على تبنى موقف ضد إرادته أو تقديره، ولكن جاحال الذى أسكرته كلماته الجوفاء أقنع نفسه أن كل ما علينا أن نفعله هو مواصلة إبلاغ الولايات المتحدة أننا لن نخضع لأى ضغط مهما كان وإذا فعلنا ذلك لمدة طويلة وبصوت عالٍ هذا الضغط سيتلاشى يوماً ما).

لم يكن جاحال يقف كوحدة متراصة كما اعتقدت رئيسة الوزراء، كان الليبراليون يتعاطفون مع موقف بيجين المعارض للانسحاب ولكنهم لم يكونوا يريدون ترك الائتلاف بسبب موضوع مازال افتراضياً، كان اريخ دولزين أحد وزراء جاحال ورئيس اللجنة الليبرالية المركزية المتحدث باسمهم ضد العودة إلى المعارضة، يقول: (إننا لا نتأثر بالبيانات إن رأينا الأساسى هو أننا سنترك الائتلاف فقط إذا اتخذت الحكومة (قرارا) بالانسحاب لنبقى فى الحكومة حتى نتأكد أنه لن يكون هناك (انسحاب).

تبنت أقلية فى حيروت بمن فيهم عيزرا وايزمان وجهة النظر ذاتها، وكتب يقول: (كنت مقتنعا أن إذعان إسرائيل لمشروع روجرز سيكون كارثة، ولكن لنفس ذلك السبب على وجه الدقة اقتنعت أنه يجب علينا أن نبقى فى الائتلاف وألا نترك للوزارة اتخاذ قرار حول ذلك المشروع دون وزراء حيروت)، ولكن ما كان بيجين ليغير من موقفه، فكان يرى أنه بمجرد أن توافق إسرائيل على (الانسحاب)، فإنها ستقف على الحافة المنحرفة المؤدية إلى التخطى عن (ملكية أجدادنا)، إن التنازل عن الحق اليهودى فى الأرض ليس إلا خطوة قصيرة من التنازل عن الأرض ذاتها.. استخدم بيجين كل قواه لحث حيروت على البقاء فى الائتلاف، ولكنه لم يكن لديه نفس التأثير على الليبراليين.

حسم الموضوع خلال اجتماع مشترك للجنة المركزية لكل من حيروت والليبراليين فى مبنى اليانصيب القومى، وقام كل حزب بإرسال ١٧ مندوبًا.. حاولت مسز مائير التأثير على نتيجة الاجتماع بالسماح لأعضاء جاحال فى الكنيست بالتصويت ضد روجرز فى الكنيست دون الاضطرار إلى ترك الائتلاف:

يقول دالزين فى مجال روايته لذكرياته: (حاول بيجين بشدة اقناعنا.. لم يكن يحاول اللجوء إلى التهديد معنا، لم يكن يغضب كان يحاول دائماً الاقناع، حاول جاهداً ولكنه لم ينجح).

كان التصويت بالاقتراع السرى بوضع أوراق التصويت فى صناديق خاصة، وصل التوتر إلى أقصاه عندما جرى تفريغ الصندوق الأخير فى الساعة الثالثة صباحاً، فاز بيجين بأقل أغلبية يفوز بها فى حياته، حيث حصل على ثلاثة أصوات بين ٢٣٤ صوتاً، صوَّت نحو ثمانية من المنشقين الليبراليين مع حيروت، يعتقد دالزين أنهم كانوا يصوتون ضد زعامتهم أكثر من تصويتهم ضد بيجين، صوَّت عدد أقل من منشقى حيروت بالبقاء فى الائتلاف، وقبل الليبراليون الحكم بدلاً من إبعاد جاحال عن الائتلاف، وأصر دالزين على أنه يجب عليهم الوفاء بوعدهم: (لقد دخلنا الحكومة معاً ويجب أن نخرج معاً، لقد أعطينا كلمتنا ومهما كانت نتيجة التصويت فعلينا احترامها)، ولكن إذعان الليبراليين كان سياسياً وأخلاقياً كذلك، كان طويل الأجل وقصير الأجل كذلك ويرى دالزين أنه (كان هناك احتمال واحد لإيجاد بديل لحزب العمل وكان ذلك معاً، وهذا هو سبب تشكيلنا لجاحال، من الناحية التاريخية كان من الخطأ القول إننا تركنا الحكومة ولكن كان من الصواب أننا لم ننفصل عن حيروت).

استقال مناحم بيجين وخمسة من زملائه فى جاحال من الوزارة فى ٤ أغسطس سنة ١٩٧٠، وهو اليوم الذى أبلغت فيه جولدا مائير الأمريكيين

والكنيست أن إسرائيل قبلت القرار رقم ٢٤٢ (بكافة بنوده) بهدف تحقيق - من بين أشياء أخرى - انسحاب القوات الإسرائيلية من أراض احتلت فى حرب سنة ١٩٦٧، انهار الحائط الذى اعتقد بيجين أنه بناه حول شعب إسرائيل ولكنه رفض أن يكون طرفاً فى الهدم، وأعلن أمام جمع من زملائه فى حيروت أنه لم يكن أكثر سلاماً مع ضميره مثلما هو الآن، كان قرار الحكومة انتصاراً لحمائم حزب العمل ولكن ارتياحهم لترك جاحال للائتلاف كان يشوبه ندم طفيف، كتب أبا ايبان بسخاء غير عادى - وهو من أكثر الحمائم اعتدالاً: (ترك رحيل بيجين وزملائه البارعين مائدة مجلس الوزراء أكثر اندماجاً وهدوءاً ولكننا افتقدنا نكهة وحيوية الجدل الفكرى).

كان الانقسام محتماً إن عاجلاً أو آجلاً، فى السياسة الإسرائيلية فإن حكومات الوحدة الوطنية أفضل فى صنع الحرب من صنع السلام، مازالت آثار هذه الأحداث مثاراً للحدث والخلاف، فزعمت مسز مائير أن حرب يوم كيبور سنة ١٩٧٣ أثبتت صحة قرارها، فبدون ذلك القرار لم تكن إسرائيل مؤهلة لمواجهة الهجوم المفاجئ للمصريين والسوريين، حافظ الرئيس نيكسون على وعده ووصلت إلى إسرائيل بالفعل طائرات الفانتوم وغيرها من الأسلحة الأمريكية بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٣، ويعتقد أريخ دالزين أنه إذا كان جاحال قد ظل فى الحكومة فإن الحرب ما كانت تحدث قط: (بعد تركنا الحكومة توقفت لجنة الأمن الوزارية، كان بيجين واحداً من العوامل الرئيسية فى هذه اللجنة وكان الأمن مجال اهتمامه الرئيسى، كانت الحكومة ستكون أكثر وعياً بالموقف الأمنى، وما كانت ستعتمد على شخص أسطورى مثل ديان باعتباره ضماناً لكل شىء، ويرى الليبراليون كذلك أنهم إذا كانوا قد انفصلوا عن تحالف جاحال فإن بيجين ما كان يستطيع الفوز فى انتخابات سنة ١٩٧٧، ولكن هذا يفترض أن افتراق السبل ما كان يمكن تغييره إلى عكسه،

ولكن هناك شىء لا يقبل الجدل وهو أن توقعات بيجين لم تتحقق، وافقت إسرائيل على القرار رقم ٢٤٢ بما فى ذلك مبدأ الانسحاب ولكن سواء أكان ذلك خيراً أم شراً فإن إسرائيل لم تُرغم على التخلى عن بوصة واحدة من أرض إسرائيل غرب الأردن.

■ ■ ■

الفصل الخامس عشر

وحدة أم إخفاق

أعاد ارتداد جاحال من حكومة الوحدة الوطنية برئاسة جولدا مائير فى شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ موضوع السلطة فى مواجهة المبدأ إلى جدول أعمال حيروت، كان مناحم بيجين فخوراً بأن حزبه صدق عهده مع ناخبيه والتزامه بأرض إسرائيل غير المقسمة كان سعيداً ليصيب بالإحباط كل أولئك الصحفيين الأذكياء ورسامى الكاريكاتير الذين كانوا على أتم استعداد فقط للسخرية قائلين: (إنك لا تستطيع إخراج جاحال من الحكومة حتى ولو ببلدوزر).

إن أولئك الناس ذاقوا حلاوة المنصب الوزارى (المكتب والسيارة) ولن يتخلوا عن المنصب (أو تلك الأشياء).. ولكن أعضاء حيروت الآخرين الأكثر شباباً كانوا أقل رضا وأقل ميلاً إلى القناعة بحياة متقشفة ورعة.. أصبح عيزرا وايزمان قائداً لحركتهم، كان الجنرال السابق رجل أفعال لا أقوال، كان يشارك بيجين فى وطنيته اليمينية، وكان يعتقد أيضاً أن التخلى عن دعوى إسرائيل فى الضفة الغربية لنهر الأردن كان يعنى القبول بتسوية مذلة ولكنه كان يفتقر إلى الدعامة الأيديولوجية التى كان يتمتع بها زعيمه، سلك وايزمان مجال السياسة لتنفيذ أشياء هى إنهاء احتكار الماباى، وعدم العبادة عند ضريح جابوتنسكى كان من (الصابرا) ابن أخى أول رئيس لإسرائيل حاييم وايزمان، كانت جذور صهيونيته فى حيفا وليس فى بريست - ليتوفسك، وفى قوابت الدفاع الإسرائيلى وليس فى الارجون، فايى ليومى، وباعتباره مهندس السلاح الجوى الإسرائيلى الحديث عرف إحساس الرضا النابع عن القيادة والإنجاز، وبمجرد أن أدرك أنه لن يصبح قط رئيساً

للأركان فإنه أصبح تواقاً إلى نقل نشاطه إلى الحياة المدنية.

لم يكن هناك شيء أكثر إشباعاً لغروره من المهرجان الذى أقامه بيجين للترحيب به بين صفوف حيروت، أو من الانتقال السريع من صفوف الجيش إلى مائدة الوزارة ولكن هذه السعادة الغامرة لا يمكن أن تدوم.

كان بيجين يريد وايزمان كنجم، وكبطل حرب وكصائد للأصوات، وكأحد رجال الحاشية وليس منافساً له، وكان حيروت مازال حزبه وهو وحده الذى الذى بيده تقرير سياساته وأهدافه.

برز الصراع خلال مؤتمر الحزب فى تل أبيب فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ بدأ بيجين الهجوم من البداية محذراً المتمردين ومؤيديهم أن نجاح التحدى لسلطته ربما يرغمه على التقاعد وقال: (إننى سأجد أنه سيكون أكثر من الشعب العمل مع لجنة مركزية غير مقبولة لدى، كان ذلك مسرحية مألوفة ولكنها نجحت مرة أخرى، فهم المندوبون الإيماءة وأعطوا الموالية أغلبية الثلثين فى اللجنة المركزية، بعد تعرض وايزمان لهجوم مدمر من بيجين لم يجد أمامه خياراً سوى الاستقالة من رئاسة اللجنة التنفيذية للحزب التى كان بيجين قد عينه فيها وقال (لقد تعلمت بعض الدروس الهامة للغاية عن المسيرة الديمقراطية)، وتساءل فى حديث خاص مع بيجين عما كان قد رغب قط فى الانتقال من المعارضة إلى الحكومة، فرد زعيم الحزب قائلا: (إننا نخلص للمبادئ وليس لمقاعد الوزارة)، كان ذلك فيما يتعلق ببيجين فى نهاية المناقشة، أصر بيجين على موقفه وفشلت كافة المحاولات التى بذلت للصلح بينهما، كان بيجين واثقاً كما لو كان قد تملك حكمة أحد أنبياء العهد القديم ولم يكن يساوره أى شك، كتب يقول فى صحيفة (معاريف): إننا لم نخطئ قط، لقد حكمنا دائماً على الأشياء بطريقة صحيحة، ولهذا فإننا لم نتغير قط لأننا لم نحتاج إلى التغيير قط.

وبنفس الروح استبعد بيجين مجرد تشجيع المعارضة داخل حيروت

باعتبارها أمراً غير ديمقراطى، ويستطيع وايزمان أن يهاجم بعنف من مقاعد الأقلية فقط، (إن هذه حركة أشخاص سلبيين، خائفين من التغيير، إنها لا تبرز صورة حركة سياسية حيوية)، وعندما شعر بيجين بالانتصار الكامل عَهِدَ إلى حاييم لاندو تابعه الأمين القديم فى الارجون بتوجيه الضربة القاضية.

كتب وايزمان فى كتابه (على أجنحة الملائكة): (لا ترو لى الحكايات حول تجديد الحركة عندما يكون هدفنا جميعاً هو السلطة، لو نظرنا إلى بنيان الحزب وتسلسله الهرمى وطبيعة العلاقات على مستوى القمة يتضح أنه لم يكن هناك مجال أمام مخلوق مثلى).

ووصل فى مجلد آخر من مذكراته إلى استنتاج أن حيروت كان مكاناً صغيراً لحفظ التوابل المعرضة للخطر.

فى هذه الفترة قام القائد القديم للارجون بزيارته الأولى غير السعيدة إلى بريطانيا وهى الزيارة التى أظهرت جميع غرائزه المولعة بالقتال، كان الزمن قد مضى، وكان مستعداً لنسيان الماضى ولكن البريطانيين أو بالأحرى صحافتهم وأعضاء البرلمان المؤيدين للعرب لم ينسوا.. ففى مقال بعنوان (زيارة قاتل)، ذكَّرت صحيفة (صنداى اكسبريس) قراءها بشنق اثنين من الجنود البريطانيين وقالت إن بيجين لم يلق عقابه على وحشيته، كما قالت:

(إن من الأمور البالغة الغرابة، أن يرغب بيجين فى زيارة بلد يُكِن له هذا القدر من الكراهية، بل والأكثر غرابة هو تصرفاته والتى قال فيها إنه يشعر أنه قد مرت فترة زمنية كافية وأنه يتوقع استقباله بكرم الضيافة التقليدى أى نوع من الناس يظننا؟ إن أحداً لا يستطيع أن يعيش إلى الأبد مع الغضب والظمأ إلى الانتقام.

وفى بريطانيا هناك حقيقة نوايا طيبة ضخمة تجاه إسرائيل ولكن ليس هناك نوايا طيبة تجاه القتلة، هل يتخيل بيجين حقيقة أنه حتى بعد مضى ربع

قرن، فإن الشعب البريطانى سيكون تواقاً للترحيب بقاتل لم يلق جزاءه؟!).

ونشرت صحيفة (التايمز) نقداً لاذعاً يشبّه دير ياسين بمذبحة ماى لاى فى فيتنام، وركزت صحيفة (الجارديان) هجومها على الوقت الراهن حيث قالت: (إن هدفه هو سحب التأييد من حكومته المستعدة للتفاوض من أجل الانسحاب وما يقوم به مستر بيجين يجعل مشكلة الشرق الأوسط أكثر تعقيدا ويزيد من احتمال نشوب حرب، إنه ليس عاملاً مساعداً أو موضع فخر لإسرائيل).

انتهز بيجين كل فرصة للرد على الصحافة، فى الراديو وفى التليفزيون وعندما سأله أحد الصحفيين ما هو شعوره عندما يجد البوليس البريطانى يحرسه بدلا من مطاردته أجاب (هذه واحدة من أمتع فترات حياتى وأظن أن هذا مؤثر للغاية، إن رجال البوليس لديكم مخلصون للغاية، وعندما أبلغ أن بعض السفراء العرب طلبوا من الحكومة البريطانية تسلمه لمحاكمته باتهامات عن جرائم حرب ارتكبها فى دولة عربية رد مبتسما: (سأكون أول عضو من الكنيست يقوم بزيارة دولة عربية، ربما يكون هذا بداية مفاوضات مباشرة للتوصل إلى سلام دائم وعادل، على الرغم من التهديدات بتفجير قنبلة، والمظاهرات المعادية والأسئلة التى وجهت إليه فى المجلس رفض بيجين إلغاء رحلته التى استغرقت ثلاثة أيام ولكن دعت معالمات التهديد التليفونية مديرى فندق رويال جاردن وسنترال هول، ووسنمنيستر إلى إلغاء الاجتماعات العامة الهامة التى رتبها حيروت البريطانى، وعند عودته إلى إسرائيل وصف بيجين الزيارة بسعادة، وقال: (إنها كانت أروع ثلاثة أيام فى حياتى) ولكن ذاكرة العدو القديم التى لم تغفر له تركت لديه مذاقًا مريرًا، فبرغم كل شىء فإن هناك زعماء وطنيين آخرين من الذين وصموا بالإرهاب خلال الأيام الغابرة للإمبراطورية البريطانية من أمثال جومو كينياتا، والأسقف مكاريوس - ولكنهم يستقبلون الآن باحترام فى لندن وكذلك الإمبراطور هيروهيتو

إمبـراطور اليابان، لم يكن بيجين يحتاج إلى إثارة شعوره بالاضطهاد حتى يشتم المعاداة للسامية.

كان الجنرال آرييل شارون مثله مثل عيزرا وايزمان يمينياً متطرفاً، وربما شديد الغرور أيضاً لما لا يمكنه بالتأكيد من تحقيق طموحه العسكرى تحت حكومة العمل، وكان شارون قد ترك الخدمة فى الجيش فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٣، وانغمس فى سياسات جاحال واختار بدلاً من حيروت الحزب الليبرالى لا لسبب إلا أنه يبدو أكثر استعدادا للإغراء، فخلال شهرين غيَّر من وجهة اليمين الديمقراطى الإسرائيلى ـ ودفع مناحم بيجين خطوة حاسمة فى اتجاه رئاسة الوزراء، لم يكن هدفه مجرد تحويل جاحال إلى حزب للحكومة ولكن توسيع قاعدته حتى يمثل بديلاً لهيمنة العمل.

واقترب شارون من تحقيق مهمته بنفس الحماس الذى اكتسب تملق قوات مظلاته وخوف رؤسائه، كان سياسيا مبتدئا لا يتسم بالتواضع، كان يشق طريقه بحذر وتملق وكان يرفض كلمة «لا» وخلال أسبوعين منح حيروت بركاته لكتلة (ليكود) (الوحدة) الجديدة وهى تضم حزبى جاحال، بالإضافة إلى الوسط الحر بزعامة شامويل تامير والقائمة الرسمية وهى جماعة منشقة من جماعة منشقة من منشقى بن جوريون الذين لم يعودوا إلى العمل، وعلى الرغم من تحفظاته على تامير المتمرد الذى كان قد طرده من حيروت فى سنة ١٩٦٦، كان بيجين من أكثر مؤيدى شارون حماسة، فالشريك الأكبر سيظل حزب حيروت وسيظل حيروت هو بيجين ولم يكن شارون يشكل أى تحدٍ لهيبة الزعيم.

وعلى الرغم من دفعه للمفاوضات فإنها تحولت إلى شىء كريه وسارت على نحو بطىء حتى شهر سبتمبر، تجادل الحزبان الصغيران حول من سيحتل المركز الخامس والثلاثين أو السادس والثلاثين فى القائمة المشتركة لانتخابات الكنيست المقرر إجراؤها فى ٣٠ أكتوبر، رد اليميلاخ ريمالت وهو

زعيم ليبرالى صبور ومثقف على تامير بعنف قائلا: (إن أى شخص يراوغ للحصول على المركز الخامس والثلاثين فى هذه المرحلة من المحادثات لا يريد الليكود حقيقة، ولأسباب تكتيكية غيَّر بيجين مفاوضى حيروت فوضع بروهانان بادير الموالى القديم الذى لم يستطع أن يغفر لتامير تمرده فى قرية مكابيا بدلاً من بنجامين هاليفى المؤيد صراحة لليكود، عمل تامير بقوة ليحصل لنفسه على المركز الخامس بدلا من الثامن، أما عيزرا وايزمان الذى شجعه احتمال التوصل إلى تحالف أوسع على الصلح مع بيجين فكان يشعر بالغثيان لدرجة أنه انسحب مرة أخرى.

وكتب يقول فى خطاب أرسله إلى زعيم حيروت:

(إننى لم أشترك قط فى مثل هذه العملية القبيحة والمخزية التى وقعت فى جماعة من المفترض أن تكون مثالاً للأمانة والزعامة.

ولست أعفى نفسى من اللوم.. لقد ساهمنا جميعا فى خلق هذا المشهد السلبى، اشتركنا جميعا فى التنازع حول مقاعد الكنيست بتبادل القذف والأكاذيب الرهيبة، إن ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية أكد فشلنا فى تقديم الزعامة وأشعر أنه من الضرورى من أجل الصحة ـ العامة ـ أن أترجل من عربة الحزب التى كنت أجلس فيها وأعود إلى الخمول السياسى من أجل البحث عن الذات ـ والبحث عن طريق سياسى).

ولم يكن بيجين فى حالة نفسية تسمح له بالدخول فى مواجهة أخرى مع القائد السابق للقوات الجوية، ورد قائلا: (أعتقد أنه يتعين على كل شخص التصرف وفقا لضميره وفهمه وذلك بدلاً من مناشدة وايزمان البقاء، ثم سمح بيجين لمساعديه بتسريب أنباء الخطابات المتبادلة إلى الصحافة.

كان آرييل شارون يتمتع بصلابة أكثر كان يهدئ ويستحث ويكره محترفى الحزب على الوحدة: (إما كل شئ أو لا شئ)، وبينما الانتخابات على

الأبواب فى ١٦ سبتمبر سنة ٧٣ تم التوقيع على اتفاق ليكود، قال أحد زملاء شارون من الليبراليين وهو بين الإعجاب والصدمة (إنه اغتصب أربعة أحزاب).

تنبأ بعض المعلقين الإسرائيليين أن تشكيل الكتلة الجديدة سيعنى بداية النهاية لمستقبل بيجين، كتب بيجين مقالاً ساخرًا فى صحيفة (معاريف) كان ممكناً أن تتحقق رغبتهم ولكن كان ممكناً كذلك بنفس القدر أن يصابوا بخيبة الأمل، وفى نفس الوقت فإنه حدد الأهداف الثلاثة الرئيسية بأنها: الحصول على أغلبية فى الكنيست تسمح برفض أى اقتراح - بإعادة تقسيم أرض إسرائيل والقيام بمبادرة عملية للقضاء على الفقر، والاندماج لإيجاد بديل لحزب العمل، ومضى يقول فى عشية السنة اليهودية الجديدة: (ولكن بالنسبة للآن فإن أحداً من بيننا ليس فى طريقه إلى بداية نهايته السياسية، إننا جميعا فى بداية سنة جديدة وربما - من يعرف؟ - فى بداية عهد جديد.

أثبت بيجين أنه أقرب ما يكون إلى نبى أكثر مما توقع هو أو توقع قراؤه.

وفى ٢٦ سبتمبر عشية السنة الجديدة قام موشى ديان وزير الدفاع بجولة فى الجبهة الإسرائيلية فى مرتفعات الجولان، كانت هناك تقارير معلقة حول تدعيم سوريا لقواتها المسلحة ولأنه شاهد بنفسه أمر بتعزيزات محدودة للقوات الإسرائيلية فى الجولان، ثم أبلغ الأركان العامة (لدينا على الحدود الأردنية مستوطنات مدينة وليس أعداء وعلى الحدود المصرية لدينا عدو وليس مستوطنات، وعلى الحدود السورية لدينا الاثنان وإذا ما وصل السوريون إلى مستوطناتنا فإن هذا سيكون نذيرا بوقوع كارثة، بعد ذلك بأحد عشر يوما وفى يوم كيبور وهو من أقدس الأيام فى التقويم اليهودى قامت الجيوش المصرية والسورية فى نفس الوقت بالهجوم على الجولان وقناة السويس.

وعلى الرغم من الدلائل المنذرة بالسوء فإن إسرائيل لم تكن مستعدة تماما، وللمرة الأولى منذ سنة ١٩٤٨ كانت تخوض حرباً يائسة دفاعاً عن بقائها القومى.

وحد السياسيون صفوفهم وعاد آرييل شارون إلى الجيش وقاد إحدى الفرق العسكرية التى أعاقت الهجوم المصرى، ثم قاد قوة الهجوم التى أعادت المعركة مرة أخرى عبر القناة وكانت جولدا مائير قد أطلعت بيجين باعتباره زعيما للمعارضة على تقارير المخابرات الإسرائيلية بأن الغزو وشيك الوقوع ومع ذلك فإنه دهش مثل غيره عندما فتحت الجيوش العربية النار، فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر قبل الموعد المحدد بأربع ساعات كان زعيم حيروت يصلى فى معبد مقر حزبه فى تل أبيب عندما أبلغته ابنته يائيل بالأنباء.

امتنع بيجين طوال الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها الحرب عن انتقاد الحكومة أو القيادة العليا على الخطأ الذى كاد يسبب كارثة للبلاد، لم يكن هذا هو الوقت المناسب لمعارضة مسئولة لانتهاز الفرصة لجمع أصوات للحزب، ولكنه كان ينتظر فقط فرصة مناسبة، ولكن مع تحديد موعد إجراء الانتخابات فى نهاية العام ومطالبة الأمة برؤوس (المذنبين)، أمسك بيجين بهراوته وطالب خلال مناقشة فى الكنيست فى ١٤ نوفمبر باستقالة مسز مائير وتساءل المرة تلو الأخرى بعبارة - عبرية - منغمة: (لماذا لم تقومى بتعبئة الاحتياطى قبل يوم كيبور؟.

لماذا لم تقومى بتحريك التعزيزات إلى الجبهات؟

يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها هؤلاء الجنود الذين يقاتلون دفاعا عنها، ولكن لا يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها تلك الحكومة لتقودها.. أصيبت رئيسة الوزراء بالصدمة إزاء تدفق بلاغة بيجين بتلك السهولة، وكتبت تقول: (ليته كان قد تلعثم أو تردد.. كان المتحدثون من المعارضة يتحدثون عن اقتراب كارثة، عن الرجال الذين قتلوا أو أصيبوا بالعجز عن أشياء فظيعة، ولكنهم يتكلمون بسلاسة دون توقف وشعرت بالغثيان).

كان الشعور القومى يقترب من بيجين أكثر من مسز مائير، كانت عائلات القتلى تقذف ديان على القبور.. تلاشت فقاقيع حرب ١٩٦٧ والثقة المبالغ

فيها بتفوقها العسكرى ـ وقعت الحكومة والجيش فى كمين من صنع أيديهم لقد افترضوا أنه طالما أن العرب لا يستطيعون كسب حرب فإنهم لا يستطيعون بدء.. فعلي الرغم من أن الجيش قلب الموائد على الغزاة المصريين والسوريين فى نهاية الأمر إلا أن ثقة النفس لدى إسرائيل قد اهتزت بعنف ووجه معظم الناس اللوم للحكومة خاصة ديان الذى كان يتعين أن تجعله خبرته العسكرية فى موقف التأهب للأخطار.

لم يخض بجين قط حملته فى ظروف أكثر ملائمة ولكن نتيجة الانتخابات التى أجريت فى ٣١ ديسمبر كانت مخيبة للآمال، عاقب الناخبون حزب العمل ولكنهم لم يطردوه، فاز الحزب الحاكم وحلفاؤه بأربعة وخمسين مقعدا فى مقابل تسعة وثلاثين لليكود، كان ذلك يعنى فقد العمل لستة مقاعد وفوز أحزاب الليكود بسبعة مقاعد وهو أفضل إنجاز حققه ولكن كانت أصوات المعارضة مقسمة.. فازت حركة حقوق المواطنين بزعامة شولمتى ألونى بثلاثة مقاعد وهى قائمة يسار ـ وسط دخلت الانتخابات فى آخر دقيقة.

لم يكن الإسرائيليون مستعدين تماما لقبول حكومة برئاسة بيجين ولكن الاتجاه كان قد أرسيت دعائمه، وكان ليكود يتمتع بشعبية كبيرة بين الشباب الناخبين فى الجيش، أما اليهود الشرقيون فى المدن النامية ومهاجرو الموشاف والأحياء الفقيرة فى المدن فكانوا يعيبون خلافهم فى جماعة الماباى وكانت انتخابات سنة ١٩٧٣أول نذير بوقوع زلزال.

■ ■ ■

الفصل السادس عشر

زلـزال صيـف

خاض بيجين انتخابات الكنيست الثامنة وهو مصمم على الفوز، بينما كان حزب العمل الذى حكم بصفة مستمرة على رأس ائتلاف متجانس فى حالة فوضى وقد أبرزت حرب يوم كيبور أنه ليس قادرًا، وأنه تولى الحكم كثيراً جداً.

وكما لوكان توليه للحكم قد أصبح مسلماً به.

أدى انتصار سنة ١٩٦٧ إلى تآكل يقظة الحكومة وبدأت المحسوبية التى كان يسمح بها على نطاق واسع خلال مرحلة الريادة تتحول إلى فساد، اهتزت قيادة العمل وإن لم تفلت تماماً، وكان عدم الرضا عن أداء الحزب ينتشر إلى ما هو أبعد من صفوف الناخبين المعارضين التقليديين عند افتتاح دورة الكنيست.

فى يناير سنة ١٩٧٤ كان هناك الكثير مما يحارب بيجين من أجله، وعلى الرغم من تنبؤ القليلين بفوز الليكود عند إجرائنا انتخابات قادمة فإن التحالف الجديد كان يبدو بديلاً معقولاً، كان بيجين يقود كتلة الليكود المكونة من تسعة وثلاثين عضوا يمثلون ٣٠,١٪ من مجموع الناخبين وكان من الصعب تجاهله أو التعامل معه على أنه مجرد مثير للقلاقل على هامش السياسة الإسرائيلية، أصبح المقاتل السرى القديم لين العريكة فى أسلوبه وإن لم يكن فى أفكاره وأصبح أكثر امتلاءً، حلق شاربه، كان شعره يلمع، وتوقف عن تدخين سجائره التى اعتاد عليها، واشتهر فى الكنيست بأنه برلمانى بارع ومجتهد، ليس فقط على المنصة، بل فى قاعة اللجان وفى قاعة

طعام الأعضاء، كان على طبيعته مع كافة زملائه الأعضاء من الأحزاب الأخرى، متفتحاً على الصحافة، ومرحباً بالزائرين الأجانب وعلى لسانه دائما عبارة ترحيب: (أهلا بكم فى بلدنا) أثبتت الثلاث سنوات التى قضاها فى حكومة الوحدة الوطنية أنه يمكن أن يكون شخصاً بنَّاء مثلما هو شخص انتقادى، وعلى الرغم من استقباله العدائى فى لندن فى سنة ١٩٧٢، فإن زعيم المعارضة أصبح ضيفاً يلقى الترحيب فى احتفالات السفير البريطانى بعيد ميلاد الملكة سنوياً.

وفى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل ما تزال تدفع ثمن رضائها عن نفسها بعد أكتوبر لم تعد لبيجين أهداف يهاجمها، وأن بيجين يكون فى أفضل حالاته كخطيب وكرجل استعراضى عندما يهاجم، وفى أعقاب الكارثة الكئيبة التى خسرت فيها إسرائيل سياسياً وإن لم تخسر فى ميدان المعركة بدت انتقاداته اللاذعة مشروعة أكثر مما سبق، وكان الكثيرون يشاركونه شكوكه.

ومع ذلك فإن التاريخ سيثبت أنه كان مخطئاً فى شكوكه فى تأكيد الرئيس أنور السادات رغبته فى السلام وعدم ثقته فى دبلوماسية هنرى كسينجر فى الشرق الأوسط لقد أصبح ممكناً نتيجة (للعبور العظيم) أن تتوصل مصر وهى أكبر دولة عربية إلى اتفاق مع إسرائيل وتضع اتفاقيات سيناء فى سنة ١٩٧٤، ١٩٧٥ الأساس للحيلولة دون وقوع غزو جديد، ولكن ما كان بمقدور أكثر المتنبئين جسارة أن يتنبأ بأنه خلال خمس سنوات سيقتسم بيجين والسادات جائزة نوبل للسلام.

وسط رياح باردة ومطر منهمر فى الليلة التى قامت فيها إسرائيل بأول انسحاب لها أعلن بيجين أمام ٤ آلاف شخص تظاهروا احتجاجاً على الانسحاب وكانوا يحملون المظلات فى أحد ميادين تل أبيب: (إن هذه مظاهرة ضد سياسة المظلة لشمبرلين) التقط آرييل شارون الذى كان قد تحول من الجيش إلى السياسة ونجم تلك الليلة أصداء محاولة التهدئة واتهم

الحكومة بأنها تضيع أفضل أوراق إسرائيل قائلا: (إن جيشنا المنتصر ينسحب تحت زعامة حكومة منهزمة وانهزامية من أرض دفعت فى سبيلها حياة الآلاف ولم نحصل فى مقابلها على شىء).

كان الليكود يتحدث بصوت واحد على الرغم من أنه لم يكن قد اندمج فى حزب واحد، وأعرب اليملينج ريمالت زعيم الليبراليين عن خوفه من أن تقوم جولدا مائير بقيادة إسرائيل إلى الانسحاب حتى حدود سنة ١٩٤٨.

وأضاف شامويل تامير تحذيراً ضد ميونيخ أخرى فى الشرق الأوسط، وفى الكنيست بدأ بيجين إطلاق اسم (الإدارة الانتقالية) على الحكومة، وبدأ يتحدى مراراً بقليل من التردد (متذكراً عملهما المنسجم فى حكومة الوحدة الوطنية)، واقتناع ديان أن السادات يسعى بإخلاص للسلام، وتساءل من قال ذلك لك لدرجة أنك ضللت هذه الأمة؟ إن الحكومة لم تكن تقلل من قواتنا إنها كانت تقلل من أمن إسرائيل، زادت شكوك بيجين تجاه كيسنجر بسبب أصل وزير الخارجية اليهودى.. قال بيجين: يجب تذكير كيسنجر أنه ليس أول يهودى فى التاريخ يصل إلى مركز كبير، لقد عانى يهود آخرون أيضاً من عقدة أنه ربما يوجه إليهم الاتهام لمحاباة إخوانهم اليهود، ولهذا ساروا فى الاتجاه العكسى تماما (وقال إن هذه عبودية فى وسط الحرية)، وعندما سأله أحد أعضاء الحكومة عما إذا كان يستطيع مواجهة كيسنجر بمثل هذا الحديث أجاب بيجين: (إننى سأفعل بالتأكيد).

لكن على الرغم من كل ذلك فإن بيجين لم يكن محصنًا ضد أن تصيبه عدوى السلام، ففى خلال مؤتمر حيروت فى سنة ١٩٧٥ الذى افتتح وسط احتفال رمزى فى كيريات عربة، وهى مستوطنة يهودية فى ضواحى الخليل، قدم بيجين مشروع سلام إلى العالم العربى يتكون من ثمانى نقاط ويشمل هدنة لمدة ثلاث سنوات فى البر والبحر والجو وإجراء مفاوضات للتوصل الفعلى لمعاهدات سلام بين إسرائيل وجيرانها تقضى بتجديد الجدود

النهائية، ومحاولة لإيجاد حل إنسانى لمشكلة اللاجئين العرب ومطالبة اليهود الخاصة بملكياتهم التى تركوها عند مغادرة البلاد العربية إلى إسرائيل، ولكن النمر لم يغير جلده، ففى نفس الخطاب دافع بيجين عن العقيدة التى كرسنا لها حياتنا، الحق اليهودى فى كل أرض إسرائيل.

وأضاف بيجين يقول إنه إذا لم يتم التوصل إلى سلام فإنه يتعين على إسرائيل ألا تقوم بمزيد من الانسحاب الذى عمل فقط على اقتراب العدو من مراكز السكان الإسرائيليين وعرَّض للخطر أمن اليهود، إن الانسحاب بدون سلام تدمير لكل فرصة لتحقيق السلام.

أثبتت حكومة جولدا مائير بحق أنها إدارة انتقالية وعلى الرغم من أن لجنة تحقيق (أجرانت) التى قامت بالتحقيق فى نواحى القصور التى أدت إلى حرب أكتوبر، ألقت باللوم على الجنود أكثر من السياسيين فإن ثقة الجماهير فى الحرس القديم بدأت تضعف، وبمجرد توقيع اتفاق فصل القوات الأول مع سوريا فى أواخر مايو سنة ١٩٧٤ رضيت رئيس الوزراء التى كانت تشكو من المرض بالتقاعد بشرف ولحق بها موشى ديان وزير الدفاع، ولكن رغبة الجماهير فى رؤية وجوه جديدة قوبلت بتصعيد جيل آخر من قيادات حزب العمل وليس بإجراء تغيير للحزب أو على الأقل تشكيل حكومة وحدة وطنية ثانية وهو ما كان يطالب به بيجين، سعى إسحاق رابين - وهو من مواليد إسرائيل والذى عمل سفيراً لإسرائيل فى واشنطن بعد تقاعده من منصب رئيس الأركان - إلى رئاسة الوزراء بعد ستة أشهر فقط من وجوده فى الكنيست، كان اسمه يقترن بالنجاح، حرب الستة أيام والفترة المثمرة فى العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية وأكثر من ذلك فإن اسمه لم يقترن بأزمة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان على الليكود أن ينتظر إجراء انتخابات أخرى قبل أن يأمل فى تولى السلطة.

لم يضطرب بيجين بشدة فهو قد استطاع لمدة ستة وعشرين عاماً فى

مقاعد المعارضة أن يترك بصمة واضحة، كان آرييل شارون أقل صبراً، إن الحياة البرلمانية بتقاليدها المهذبة والثرثرة لساعات بلا معنى لم تجذبه، وقد اكتسب خلال عمله فى الجيش سمعة بأنه شخص مستقل، ومقاتل يجسد الروح العدوانية لقوات الدفاع الإسرائيلى وشخصية انفرادية يطلق النار أولاً ثم يناقش بعد ذلك، ففى خلال حرب السويس لم يخضع شارون للأوامر وهبط مع قوات مظلاته فى ممر تلا.

وكانت تلك العملية مكلفة وغير ضرورية قتل فيها ثمانية وثلاثون إسرائيلياً وأصيب مائة وعشرون وقد اتهمه أربعة ضباط من مرؤوسيه (تولى اثنان منهم فيما بعد رئاسة الأركان وتولى آخر رئاسة الموساد) بأنه يقوم بإرسال رجاله إلى حتفهم لأجل مجده الشخصى، كتب موشى ديان رئيس الأركان فى مذكراته فى سنة ١٩٥٦ أن شارون لم يقدم إلى المحكمة العسكرية لأن الجيش الإسرائيلى لا يعاقب قائداً لأنه قام بالكثير بل للتقصير فى عمله، وكان شارون قد دخل ميدان السياسة فى سنة ١٩٧٣، لأن مستقبله العسكرى وصل إلى ذروته، ولم يكن يسعى إلى التقاعد بهدوء ولكن كان يسعى إلى السير فى طريق جديد يضع فيه بصمته الذاتية على الأمة وعندما بدا أن ذلك لم يتحقق تخلى عن مقعده فى الكنيست وقبل قيادة إحدى وحدات الاحتياط، وفى يونيو سنة ١٩٧٥ أصبح شارون مستشاراً لشئون الأمن لزميله السابق فى السلاح اسحاق رابين وعندما اتضح كذلك أن ذلك عمل تافه وعندما أدرك أن هذا لن يمنحه فرصة أخرى لتولى رئاسة الأركان قفل راجعا إلى مزرعته فى صحراء النقب، وكان على الليكود أو هذا ما كان يبدو، أن يواصل طريقه بدون الرجل الذى حثه على الوحدة.

خيب أول رئيس وزراء لإسرائيل من (الصبرا) آمال الكثيرين الذين علقوا آمالهم عليه، أثبت رابين أنه مفاوض عنيد ما كان كيسنجر يضغط للتوصل إلى اتفاق ثانٍ حول سيناء ومنح الاتفاق الذى وقعه فى سبتمبر سنة ١٩٧٥ح

إسرائيل أساساً أفضل للدفاع عن نفسها أكثر من ذلك الاتفاق الذى حاول وزير الخارجية الأمريكى فرضه عليه فى مارس.

لم يدخل الجيش المصرى ممرات الجدى ومتلا الإستراتيجية، كما أن التحركات شرق قناة السويس تتم مراقبتها بمحطات إنذار مبكر إسرائيلية - أمريكية ولكن اتهام بيجين بأن رابين غيَّر موقفه السابق وجد آذاناً صاغية بين البسطاء الذين رأوا فقط أن إسرائيل تتخلى عن المضايق وحقول بترول أبورديس المربحة دون وعد مصرى بإنهاء حالة الحرب وأن رئيس الوزراء كان يعادى الأمريكيين بدون داع خلال العملية، وفى نفس الوقت شعر الحمائم بالحزن بسبب اتجاه رابين المُتشدد إزاء الضفة الغربية.

كان يساوره القلق مثل بيجين من أخطار وجود دولة فلسطينية، وبرفضه اقتراح من الملك حسين بالتفاوض من أجل التوصل إلى اتفاق لفصل القوات فى أريحا شبيه بالاتفاق فى سيناء ومرتفعات الجولان ترك الأردن دون دفاع فى مواجهة العرب الراديكاليين الذين أقنعوا مؤتمر الرباط للدول العربية باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى.

كان الانتصار الباهر الذى حققه رابين هو عملية الإنقاذ فى مطار عنتيبى فى يوليو سنة ١٩٧٦ كانت عملاً بطولياً لم يسبق له مثيل فى الإقدام والمهارة وفى الحس السياسى والتخطيط العسكرى على حد سواء ولكن زعماء العمل أحجموا عن سرقة الأضواء من قوات المظلات بالخروج بمكاسب سياسية من العملية، ولكن بيجين الذى لم يقم بأى دور فى العملية اللهم إلا احترامه لثقة رئيس الوزراء التى أولاها إياه بإطلاعه على العملية لم تكن لديه مثل تلك الموانع.

ذهب إلى مطار بن جوريون حاملا زجاجة ويسكى لتحية الرهائن العائدين، وكان معظمهم من الإسرائيليين من موالد المغرب والذين كانوا فى طريقهم إلى باريس على متن الطائرة المختطفة فما كان من الرهائن ومن عائلاتهم إلا أن

حملوه على الأكتاف وبدءوا يهتفون: «بيجين» كما لو كان بطل الساعة.

وعلى الصعيد الداخلى لم يكن لرابين أصدقاء كثيرين كان الإسرائيليون يحترمون عقليته التحليلية، وحذره كجندى ولكنهم وجدوا أنه شديد الانطواء مع زملائه ومع الجماهير، كئيب إلى حد يثير السخرية خلال خطبه ومقابلاته التليفزيونية، كان يفتقر إلى قرون استشعار السياسى والصبر على خلق القيادة النافعة، لم يكن يستطيع دائماً فى عزلته التى فرضها على نفسه اكتشاف الخطر فى وقت مبكر، فقد تآمر عليه من وزارة الدفاع شيمون بيريز الذى هزمه للفوز فى زعامة العمل ولكنه لم يعرف كيف يواجهه.

وعلى الرغم من جذور عائلته فى حركة العمل فإن رابين أمضى سنوات تكوينه فى الجيش، يستطيع القائد حتى فى قوات الدفاع الإسرائيلى كملجأ أخير أن يفرض رتبته ويتوقع أن يطاع، ولكن رابين وجد أن السياسة لا تسير على هذاالنحو ولذلك وجد الطريق صعباً.

ازداد الإحساس أن العمل يفقد سيطرته، جاءت الفضيحة تلو الفضيحة ارتكبها رجال آخرون ويرجع تاريخها إلى أوج أيام بنحاس سابير وزير المالية العملى ورجل السياسة الخارق الذى اكتسب سمعة أنه يسيطر على الاقتصاد الإسرائيلى من نوتة صغيرة، سوداء اللون، وقد حكم على أحد الذين كان يشملهم بحمايته وهو ميشيل تاسور مدير المجلس البلدى الإسرائيلى بالسجن خمسة عشر عاماً بعد اعترافه بأنه مذنب بأربع عشرة تهمة وهى الرشوة، السرقة، خيانة الثقة، تحويل غير قانونى للنقد، إجراء مبادلات غير قانونية فى النقد الأجنبى، تزوير المستندات وشملت هذه الأعمال ملايين من الدولارات المقدمة من المستثمرين الأجانب لتدعيم الصناعة الإسرائيلية، كذلك فإن أشير بادلين مدير نقابة كوبات هوليم التى تعانى من مشاكل مالية وكان (سواء لسوء الحظ وربما لسوء التقدير)، مرشح رابين ليكون محافظاً لبنك إسرائيل، حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات بتهمة الرشوة وتقديم

إقرارات ضريبية كاذبة، ورفض القاضى ما زعمه أشير بأنه قام بتحويل بعض تلك الأموال إلى حسابات حزب العمل.

كما انتحر أفراهام أوفير وزير الإسكان وسط أنباء غير مؤكدة أنه قام بالاستيلاء على أموال لنفسه خلال إدارته لشركة التنمية التابعة للهستدروت كان ذلك مادة ـ صالحة للمتهكمين والمعارضين، كانوا يقولون إن السلطة أفسدت حزب العمل ولم تحدث الإشاعات المضادة حول سوء تصرف حيروت فى أموال تل ـ هاى إلا تأثيراً ضئيلاً أو أنها لم تحدث أى تأثير.

وسط هذا المناخ من الانحلال الأخلاقى عَمِد الحزب الدينى القومى والذى ظل لمدة ثلاثين عاما أكثر الشركاء التصاقا بحزب العمل، إلى تضخيم موضوع انتهاك إجازة يوم السبت لإسقاط الائتلاف، كانت إسرائيل بعد ظهر يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٩٧٩، تحتفل باستلام أول ثلاث طائرات مقاتلة من طراز إف ـ ١٥ العملاقة من مصانع ماكدونيل دوجلاس، وبينما كانت الطائرات الثلاث تقوم باستعراضات جوية أمام المجتمعين من كبار الشخصيات صاح رئيس الوزراء فى فرح: (إن هذا يوم عطلة يوحى لنا بالإيمان والثقة التى نحتاجها ـ الثقة فى قواتنا والإيمان فى مستقبل أفضل).

وأضاف الجنرال موردخاى جور رئيس الأركان: (إن دولة إسرائيل اليوم دولة مختلفة وقوات الدفاع الإسرائيلية قوات مختلفة، ولسوء حظ رابين فإن طائرات إف ـ ١٥ وهى أكثر الطائرات المتقدمة التى تسلمتها إسرائيل حتى ذلك الوقت وصلت فى وقت خطر قريب من يوم السبت، وخاطر الضيوف بانتهاك القانون الدينى بقيادة سياراتهم خلال العودة إلى منازلهم بعد حلول الظلام، قدَّم بوالى أجودات إسرائيل وهو حزب متطرف صغير كان خارج الائتلاف اقتراحا بعدم الثقة، وعند طرح الاقتراح للتصويت فى ١٤ ديسمبر امتنع عن التصويت تسعة أعضاء من بين الأعضاء العشرة من الحزب الدينى القومى، على الرغم من الاعتذار الذى قدمه رابين، تراجعت الحكومة ولكن قام رئيس

الوزراء بإقالة الوزراء الثلاثة من الحزب الدينى القومى مؤكدا: (أن الحكومة التى لا تستطيع الالتزام بمبدأ المسئولية الجماعية لا تستطيع العمل كحكومة).

بعد ذلك بأسبوع لم يعد واثقاً من حصوله على أغلبية، فاستقال من رئاسة الوزارة ودعا إلى إجراء انتخابات مبكرة.

فى النظام الإسرائيلى فإن هذا القول أسهل من العمل لأنه يتعين أن يصدر الكنيست تشريعاً بتحديد موعد الانتخابات ويخوض كل حزب مساومات ضخمة قبل نشر قائمة مرشحيه ويسمح للموظفين العامين وضباط الجيش بمائة يوم للاستقالة وتقديم أنفسهم لمقار الترشيح للانتخابات ويستغرق طباعة أوراق التصويت أسابيع غير محددة، فى هذه الحالة تحدد موعد الانتخابات فى ١٧ مايو ـ وهو وقت كافٍ لوقوع فضيحة أخرى كفيلة بوضع مسمار آخر فى نعش حزب العمل وفى نعش أول رئيس للوزراء من (الصبرا).

فقبل شهرين من الانتخابات فى ١٥ مارس نشر مراسل صحيفة (هآرتس) فى واشنطن أن ليا زوجة رابين لديها حساب بالدولار فى أحد البنوك الأمريكية بعد أن أنهى زوجها جولته الدبلوماسية فى سنة ١٩٧٢، ويعد هذا انتهاكا للقوانين الإسرائيلية فى تداول النقد.

وأصر آهارون باراك المحامى العام إقامة الدعوى ضد مسز رابين لأن المبلغ لا يقل عن ١٠ آلاف دولار، ولا أحد فوق القانون فقبل منتصف الليل بقليل فى يوم الخميس ٧ أبريل والجماهير تنتظر فوز نادى ماكابى تل أبيب فى بطولة كرة السلة الأوروبية بفارق نقطة واحدة، أعلن رئيس الوزراء فى التليفزيون والإذاعة أنه ينسحب من المعركة الانتخابية ويتحمل مسئولية متساوية بالنسبة لحساب زوجته فى البنك وعلى الرغم من أن الدستور يمنع استقالته من رئاسة الوزراء فى حكومة انتقالية فإنه عهد بواجباته وترشيحه على رأس قائمة العمل إلى شيمون بيريز وزير الدفاع، أما ليا رابين فقد

قامت بدفع غرامة تعادل ٢٧ ألف دولار.

خاض الليكود انتخابات سنة ١٩٧٧ باسم مناحم بيجين ولكن زعيم الحزب لم يشترك فى الحملة الانتخابية إلا بأدنى قدر، وكان ذلك اختيارا من ناحية وضرورة من ناحية أخرى، فخلال الأسبوع الأخير من شهر مارس وكان مازال باقيا على الانتخابات شهران تقريباً أصيب بيجين بأول أزمة قلبية وأكثرها خطورة ودخل أحد مستشفيات تل أبيب ولكن استراتيجية الليكود كانت قد تحددت قبل ذلك بكثير، وكانت تلك أول انتخابات تجرى فى إسرائيل بالوكالة، فقد تم تعيين عيزرا وايزمان الذى كان قد عاد إلى الحزب لإدارة الحملة وأصر على إدارتها بشروطه بمساعدة اليعيزر زورابين وهو وكيل إعلانات مشهور، حث وايزمان المراسلين بعد أن أطلق البداية: (اقرأوا ما بين السطور وابحثوا عن ما ليس هناك).

وكتب يوسف جوئيل فى صحيفة جيروزاليم بوست: (ما لم يكن هناك هو ذلك الجزء من الصورة السياسية لليكود وحيروت الذى يشك فى أنه نفر الكثير من الناخبين فى الماضى حتى لا يحصل على نصر انتخابى، لم يكن هناك هجوم غير ضرورى ولا أى إشارة إلى موضوع الأراضى التى تحتلها إسرائيل والتى تثير الخلاف.

ظل بيجين أكثر مصادر القوة رواجاً بالنسبة لليكود ولكنه أصبح أكثر اعتدالاً - رجل لا يخاف الناخب المتردد، يقول وايزمان: (إنه رجل أمين لا يهتم بالأشياء التافهة فى تلك الأيام.. إنه يعيش بتواضع وليس لمجرد تحقيق أهداف علاقات عامة، ولا يضيع وقته سدى فى الحديث عما يؤيده وعما يعارضه.

أصبح بيجين ديمقراطيًا، مقاتلاً (منذ سن السادسة عشرة كرَّس مناحم بيجين كل جهده، وموهبته وقدراته لقضية واحدة، توطيد أقدام الشعب اليهودى على أرضه) إنه الرجل الشريف المتواضع، ذو العمل الخالص، ورجل

العائلة، كان التناقض واضحا بينه وبين معارضيه من حزب العمل، ولم يكن الليكود فى حاجة إلى كشفها، فقد كان الناخبون مدركين تماما للفضائح الأخيرة ولسمعة بيريز فى الالتواء والتناقض، كان بيجين يظهر وهو يداعب أحفاده، يخطب، ويزور الجيش، ويحمل حفيده الطفل عند الاحتفال بختانه، وفى المقابل أخذ العمل يسخر من بيجين: (اكتشف الليكود اكتشافا خطيراً وهو أن بيجين إنسان بالفعل).

وأعلن الياهو بن اليعازر رئيس لجنة دعاية الليكود المشتركة أمام عمال الحزب:

(أيها السادة إننى أريد أن أقدم لكم وعن طريقكم شكل الحياة تحت حكم الليكود، تحت حكم مناحم بيجين، ستكون بلادا جميلة، وسيكون من دواعى السرور والفخر العيش فيها، حيث لا تكون هناك رغبة فى الإضراب وحيث يخجل الشخص من السرقة، سيكون هناك احترام بين اليهودى والآخر، بلاد لا يشعر أبناؤها بالخجل من كونهم يهوداً أو صهيونيين، إننا سنقوم بتعليم الشباب حتى تصبح الخدمة لصالح الدولة وفى الجيش أو فى أى جهاز وطنى آخر شرفًا وامتيازًا).

لم يرد أى ذكر للأراضى المحتلة، أو للحقوق اليهودية أو للخدمة أو الشهداء القدامى وهم يعلقون على المشنقة، ولكن كان (بيجين) مازال يسيطر على السياسة من وراء الكواليس، لقد تخلى عن الحملة الانتخابية لعيزرا وايزمان ورجاله الجدد، ولكن لم يتخل عن الحزب.

ويشهد ابن اليعازر أن برنامج الحزب كان دائما من وضعه فى سنة ١٩٧٧، كما فى السنوات السابقة كان يحدد الخط السياسى، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمشكلة الفلسطينية والسلام والحرب، ويهودا والسامرا.

خرج بيجين من المستشفى ومن مناظرة تليفزيونية مع شيمون بيريز - وهى

بدعة أخرى فى الانتخابات الإسرائيلية ـ ظافراً، لم يستطع النقاد تحديد الفائز النهائى.. كان بيريز متحفظا خلال المناظرة بينما صال بيجين خلالها وجال، ولكن ما كان يهم الليكود هو أن المناظرة أخمدت أى شكوك حول صحة بيجين، كان مقاتلا ـ غير متوتر، مازحا، وكان واضحا.. إنه متمالك لنفسه ومادته ومثير لدهشة بيريز باقتباسه عبارات من أقوال وزير الدفاع نفسه.

أظهرت استطلاعات الرأى النهائية أن حزب العمل مازال متقدماً تقدماً طفيفاً ولكن الليكود كان يكتسب أرضاً بسرعة وقال واحد على الأقل ممن شملهم الاستطلاع إن بيجين ربما ينجح إذا ما حصل على دفعة، ولكن لم يؤخذ رأيه بجدية سوى عدد قليل من المعلقين، لكن الإدعاءات القديمة تموت بسرعة، فعلى الرغم من كل شىء كان «العمل» يمر فى لحظاته الأخيرة كحزب يشكل حكومة، كان بيجين مازال فى دور النقاهة ولكنه تجول فى مراكز التصويت خلال النهار، ثم عاد إلى منزله فى تل أبيب الواقع فى شارع روزينيوم ليستريح مع زوجته أليزا وابنتيه ماسيا وليا وصديقين من أصدقاء العائلة القدامى، ماكس ويهوديت فيرير، وبعد أن تناولوا عشاء بسيطاً، شاهدوا التليفزيون فى الحجرة الضيقة التى يستخدمها بيجين وزوجته كحجرة معيشة، ونوم ومكتب، وكانت هناك حجرة نوم أخرى فى الشقة التى عاشا فيها منذ سنة ١٩٤٦ اشترك فى النوم فيها أولاد بيجين الثلاثة خلال فترة المراهقة، وهناك أيضا صالة صغيرة، وحمام ومطبخ كان ابن بيجين بنجامين يدرس فى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه فى الجيولوجيا وكان أكثر أولاد بيجين ميلاً إلى السياسة ولكنه أقل حباً للظهور وهو شاب يقدر خصوصيته.

فى الساعة الحادية عشرة مساء بعد إنهاء التصويت مباشرة أدهش حاييم يافين كبير مذيعى التليفزيون الإسرائيلى المشاهدين بالتنبؤ بفوز الليكود اعتمادا على عينة التليفزيون غير الرسمية للتصويت، وفى شارع روزينيوم لم تستطع بنتا بيجين السيطرة على انفعالاتهما ولكن والدهما

استقبل الأنباء بهدوء، بل بشك فالنتيجة لم تكن نهائية ولا رسمية بعد وتسترجع هاسيا ذكرياتها فتقول: (كان والدنا أكثر هدوءاً خاصة والدتنا - جلس والدى فى كرسيه المفضل مرتدياً روب دى شامبر على قميص وبنطلون.. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث كما لو أن شيئاً خاصاً لم يحدث.

تجمع حشد كبير من الناس خارج المنزل، حرس من البوليس - دلائل التغيير - اتخذوا أماكنهم لحماية رئيس الوزراء الجديد، كان بيجين مازال ينتظر، كان الوقت مبكراً جداً للاحتفال، عندما وصل سكرتيره السياسى يهيل كاديشاى فى الساعة الواحدة والنصف ظهرا لدعوته للذهاب إلى مقر الحزب الذى يقع على مسيرة خمس دقائق أجاب بيجين: (مازال أمامنا وقت، إن هذا مجرد تخمين من الأولاد فى التليفزيون)، وجده وراءه فى قلعة جابوتنسكى (كان مرتدياً ملابسه ولكن بدون رباط عنق أو سترة).

ذهب ليحلق ذقنه ثم عاد ومضى يشاهد التليفزيون، وفى نحو الساعة الثانية والربع فقط قرر أن الوقت قد حان للذهاب إلى مقر الحزب وعندما أصبحت النتائج واضحة، احتشد المئات من مؤيدى الليكود فى الطابق الثانى من قاعة الاستقبال فى شارع الملك جورج، حاول عيزرا وايزمان إبعاد بعض أعضاء الحزب غير المهمين ولكن كانت تلك ليلة طال انتظارها، ولم يكن أحد منهم يريد أن تفوته ذروتها، عندما امتلأت نشرات التليفزيون بأنباء الانتصار غابوا فى دوامة من الصدمة والابتهاج الغامر: هل يمكن أن يحدث هذا حقيقة؟ جييف شافيتس، مهاجر أمريكى شاب جنده الليبراليون للعمل فى مكتب صحافة الليكود، انضم بحماس إلى الصخب والمرح: (اننا نحتفل جميعا، لقد عملنا بجد وكسبنا الانتخابات)، فجأة قام أحد أعضاء الارجون القدامى بإمساكه من قميصه، كان شديد الغضب وسأله: (من أنت؟، إنك كنت هنا من عدة شهور فقط، أما أنا فقد انتظرت ثلاثين عاما من أجل هذا).

سرت الإشاعات المتناقضة بيجين سيأتى، لا لن يأتى، وأخيراً فى نحو الساعة الثانية والنصف وصل الزعيم وعائلته، كان بيجين يبدو نحيفا وضعيفا

نتيجة للأزمة القلبية الأخيرة، حاول مساعدوه حمايته من اندفاع الجماهير ولكنه عانق بسعادة سيمحا ارليخ الزعيم الليبرالى وعيزرا وايزمان مدير حملة الليكود الانتخابية، أوقف أحد الحراس أليزا وابنتها على الباب، كان بالداخل ما يكفى من الأشخاص، بالفعل استعطفته الابنة قائلة: (هذه أمى مسز بيجين، أتينا مع أبى مع بيجين) لم يتأثر الحارس لكلامها حتى جاء لإنقاذهم اسحاق شامير الذى أصبح فيما بعد وزير الخارجية وخلفا لبيجين فى النهاية.

وعلى المسرح انضم بيجين إلى الحشد فى غناء: (يحيا شعب إسرائيل) مصفقا بيديه على أنغام الوطنية، كان الجميع يتدافعون ليكونوا على مقربة منه بقدر الإمكان، السياسيون والعاملون فى الحملة الانتخابية على أمل الظهور فى الصور التاريخية والأفلام السينمائية، أمكن فى النهاية إفساح مكان ووقف بيجين بمفرده، تحت صورتين كبيرتين لجابوتنسكى وهيرتزل، أخرج غطاء أسود للرأس من جيب بدلته، وكتابا أسود صغيرا أخذ يتلو منه الترانيم كان الخطاب الذى ألقاه بعد ذلك مسالما بصورة غير متوقعة، لا زهو بالانتصار ولا تهديدات، اقتبس بيجين فقرات من خطاب ابراهام لنكولن الذى ألقاه عند توليه الرئاسة للمرة الثانية: (بدون حقد على أحد، بالخير للجميع، بالثبات فى الحق لأن الله يهدينا لرؤية الحق فلنسع لإتمام العمل المنوط بنا، تضميد جراح الأمة.. وشكر اليزا للسنوات التى كرستها من عمرها للوقوف إلى جانبه مقتبسا كلمات من النبى زيرماح: (إننى أذكرك، عطف شبابك حب معتقداتك عندما يتبعنى فى التيه، فى أرض لم ينبت بها زرع)، وبعد استرجاع ذكرى جابوتنسكى دعا بيجين كافة الأحزاب الصهيونية بما فى ذلك حزب العمل - للاشتراك فى حكومة وحدة وطنية، اختلط أعضاء وأنصار الليكود وسط صخب وضجيج رجال البوليس، والصحفيين، والمصورين، غادر بيجين المكان على غير توقع كما حضر محاطاً بالمساعدين الحريصين عليه، جاء زلزال الصيف ومضى، أبعد الناخب الإسرائيلى ورثة بن جوريون وانتخب ورثة جابوتنسكى وأصبح الخارجون هم الممثلون للنظام.

فاز الليكود فى انتخابات سنة ١٩٧٧ بأغلبية متواضعة وخسرها العمل بهبوط مدمر.. ارتفع نصيب بيجين من مجموع الأصوات بنسبة ٢,٣٪ فقط وحصل حزبه على ثلاثة وأربعين مقعدا بالمقارنة بتسعة وثلاثين مقعدا حصل عليها فى سنة ١٩٧٣ وقل نصيب العمل بنسبة ١٥٪ عقب انخفاض مماثل فى سنة ١٩٦٩، وسنة ١٩٧٣ أى أنه فقد أكثر من نصف مؤيديه فى الانتخابات التى جرت مرتين خلال السبعينيات وانخفض تمثيل العمل فى الكنيست من واحد وخمسين، بالإضافة إلى نائب عربى واحد فى سنة ١٩٧٧ كان أكبر الانتصارات فى سنة ١٩٧٧ تلك التى سجلها حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير، وهو حزب جديد للوسط بقيادة إيجال يادين عالم الآثار المسادا وجنرال سابق، حصلت قائمة يادين على خمسة عشر مقعدا (١,٦٪ من مجموع الأصوات) فى أول معركة انتخابية يخوضها الحزب، وعلى الرغم من وجود شامويل تامير المنشق عن الليكود اليمينى على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير فإن القدر الأكبر من التأييد حصل عليه من الناخبين المتحررين من وهّم العمل والذين سمحوا لأنفسهم برفاهية الوقوف ضد الحزب كانوا يعاقبون «العمل» دون - أو هكذا تخيلوا - مكافأة الليكود، حصل يادين على أصوات من الليبراليين فى الليكود وأحزاب وسط أصغر ولكن نتائج انتخابات سنة ١٩٧٧ أكدت تغييرا جذريا أكثر بكثير مما أحدثته الطبقة المتوسطة الساخطة تمثّل فى تحول فى الولاء الذى كان يهدد بتغيير وجه الحياة السياسية فى إسرائيل على مدى جيل بأكمله، لقد صوّت اليهود الشرقيون بقلوبهم بدلاً من جيوبهم وكان اليهود الشرقيون يشكلون بالفعل نصف إجمالى عدد السكان وسيصبحون قريبا نصف عدد الناخبين فى المدن النامية، والقرى والمدن غير الكبيرة حيث يشكل اليهود الشرقيون (اليهود الذين نشأوا فى الدول التى تتحدث العربية)، أغلبية ساحقة حصل الليكود على ضعف الأصوات التى حصل عليها العمل، بينما حصلت الأحزاب الدينية على أصوات أقل، وفى المدن التى جميع سكانها من اليهود الشرقيين مثل

أوفاكييم ونيتيفوت فى الجنوب وكيريات شمونة وبيت شعين فى الشمال زاد عدد الأصوات التى حصل عليها الليكود بنسبة ١١٪ بينما قل نصيب العمل بنسبة ١٧٪ (حصلت الأحزاب الدينية على نسبة الـ ٦ ٪ الباقية) كان الاتجاه مماثلا فى المدن التى يسكنها خليط من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، ولكن بالاتجاه إلى الليكود بنسبة معاكسة لعدد الغربيين وكلما زاد عدد اليهود من أصل أمريكى أو أوروبى كلما قل الاتجاه إلى الليكود، أما القدس التى تسكنها أغلبية من اليهود الشرقيين وجماعة دينية كبيرة فقد أعطت لبيجين دفعة قوية.

وقللت تل أبيب التى تسكنها أغلبية من اليهود الغربيين نصيب بيجين من الأصوات بنسبة ٢٪ فقط وأعطت يادين ٣,١٪ وفى حيفا حيث يشكل اليهود الغربيون الأغلبية الساحقة قل نصيب الليكود بالفعل بنسبة ٢٪ من عدد أصوات المدينة.

ترجع محاولة استمالة اليهود الشرقيين واليهود السافرديم (أولئك الذين طرد أجدادهم من إسبانيا فى سنة ١٤٩٢)، إلى فجر حركة التصحيح كإحدى الحركات الصهيونية، قام جابوتنسكى بزيارتهم وتعهدهم بل أنه أضاف لغة لادينو (اليهودية ـ الإسبانية) إلى لغاته العشر، وحث الحركة الصهيونية على إعطائهم نصيباً متكافئاً فى الاستيطان فى الأرض وأثنى على نطقهم للغة العبرية وسارت الارجون زفاى ليومى على نهجه وجنَّدت لخدمة اليهود الشرقيين فى الوقت الذى ركزت فيه الهاجاناه والبالماخ على سكان الكيبوتزات خاصة من بين جريجى المدارس العليا من اليهود الغربيين.

وبعد إقامة الدولة جنَّد بيجين نفسه مدافعاً عن اليهود المظلومين المفدين الذين ينظر إليهم إخوانهم باحتقار، وعرَّف حيروت نفسه على أنه حزب الفقراء المفدين والمتهورين، ويروى بيجين أن أحد الهاجاناه سأله ذات مرة كيف استطاعت الارجون حل مشكلة الجماعات اليهوية الشرقية، فأجابه أن

الارجون ليست لديها مثل هذه المشكلة:

(لكنَ لأنه أصر على أن أشرح له ذلك وفهمت ما الذى كان يضايقه، أوضحت له أنه خلال القتال السرى كانت المراكز العليا يجرى توزيعها دون تفرقة فى الأصل عندئذٍ فهم، هذه هى الطريقة التى يحل بها المرء المشكلة، ويتغلب عليها ويتوصل إلى الحل الكفيل بإنهاء المشكلة).

فى الحقيقة فإن كلا من الارجون وحيروت كانا أبطأ مما زعم بيجين فى إعطاء السلطة لليهود الشرقيين، كشىء منفصل عن القيام بدور نشط، كانت القيادة العليا من الارجون قاصرة على الأوربيين وحتى فى سنة ١٩٧٧ رشح الليكود عددا أقل من العمل من أعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين على الرغم من أن بيجين كان أكثر كرماً فى تعيين وزراء من اليهود الشرقيين فى وزارته.

سعى بيجين منذ الأيام الأولى للهجرة الجماعية بعد سنة ١٩٤٨ للحصول على أصوات الناخبين، كان يقوم بجولات فى خيام المهاجرين دون أن يبدو أنه يتفضل عليهم، لم يتوقف قط عن أن يكون يهودياً بولندياً، ولكنه كان يخاطب اليهود الشرقيين بلغتهم العاطفية العميقة ذاكراً الله دون إثارة للعواطف، لم يلقنهم تعاليم جابوتنسكى ولكنه كان يدعو إلى القوة اليهودية ويحتقر تأسيس العمل الصهيونى، كان هدفه تحقيق شىء واحد وهو أن بيجين واحد منهم ولا يهم ماذا يأكل أو كيف يلبس.

إن حزب العمل لا يلومن إلا نفسه، كانت أيديولوجيته فرعاً من الثورات الوطنية والاشتراكية التى وقعت خلال القرن التاسع عشر فى أوروبا.. كان هدفه هو خلق نموذج جديد لليهودى، للفلاح، للعامل وللبنَّاء، كان أساسه علمانياً، وهو إنكار متعمد لقيم الجيتو، كان اليهود الشرقيون يعيشون فى إيقاع أبطأ، كانوا فى توافق مع تقاليدهم، لم يتعلم شبابهم من أجل إحداث التغيير، جاءوا إلى إسرائيل من منطلق التقوى أو الضرورة، شعر زعماء العمل بالذعر من تدفق اليهود الشرقيين إلى إسرائيل لخوفهم من أن يحولوا الدولة

إلى دولة (شرقية) وبدون سؤال القادمين الجدد عن المكان الذى يفضلون الذهاب إليه أرسلوهم لتعمير الحدود وملء الأماكن الخالية، لقد ذهب الرواد إلى هناك كذلك، ولكن وفقا لإرادتهم الحرة، عملت حكومات العمل على إسكان المهاجرين وإيجاد أعمال لهم ـ ولم يكن هذا إنجازاً سيئاً ولكن بطريقة توحى دائماً بالتنازل.

استوعبوهم فى سياسات الماباى، فى شبكة الوظائف والإدارة ولكن كمرؤوسين وليس كرؤساء، تشكل الجيل الأول الذى كان عاطلاً عند وصوله إلى إسرائيل بطابع واحد، كانوا يذعنون للقوة الحاكمة كما لو كانوا يفعلون فى شمال أفريقيا أو العراق، ولكن داخل بيوتهم، كانوا يعربون عن استيائهم منها، وكان أطفالهم يسمعون.

صاح أحد الشباب: (جاء والدى من شمال أفريقيا) فى كيبوتز أموز أوز الجديدة عندما تسلم ورقة للذهاب إلى إحدى المدن النامية: (حسنا، من المغرب ماذا إذن؟ ألم يحصلوا على احترام الذات؟ لا؟ قيمهم؟ إيمانهم؟ اننى لست شخصًا متدينًا، اننى أسافر يوم السبت ولكن والدى، لماذا يسخرون من إيمانهم؟ لماذا نظفوهم بالليزول فى ميناء حيفا؟ لماذا؟.

أصبح الجيل الثانى إسرائيلياً لم يعودوا يدينون بشىء للعمل وعرفوا كيف يؤكدون ذاتهم، علَّمهم بيجين أن ليس فيهم شىء يخجلون منه، ولكن فى الوقت الذى أعاد لهم كرامتهم أجاز كراهيتهم لليهود الغربيين الاشكانزيم وكل ما يمثلونه، السلبى والايجابى كذلك، الطاقة الخلاقة والتبلد الثقافى المؤسسات الديمقراطية وإدعاء التفوق، كان ينثر الريح.

■ ■ ■

الفصل السابع عشر

تجربة ثقة رهيبة

(إن هذه ليس أراضى محتلة، لقد استخدمتم هذا التعبير لمدة عشر سنوات ولكن منذ مايو سنة ١٩٧٧ آمل أن تبدأوا فى استخدام كلمة الأراضى المحررة، إن لكل يهودى الحق فى الاستيطان فى هذه الأراضى المحررة من الأرض اليهودية)، خلال ثمانى وأربعين ساعة من فوزه فى الانتخابات أعلن بيجين تحذيرًا إلى المجتمع الدولى الذى أذهلته مفاجآت انتخاب بيجين، إن بيجين رئيس الوزراء سيكون هو نفسه الزعيم الدائم للمعارضة.. عقد بيجين مؤتمرًا صحفيًا مرتجلاً خلال زيارته لمجموعة من المستوطنين العسكريين فى (قادوم) بالقرب من (نابلس)، أكبر المدن العربية فى الضفة الغربية وكانت تلك المجموعة قد تم نقلها إلى قادوم داخل حدود معسكر للجيش، بعد إقامة مستوطنة رمزية أطلق عليها أيلون مدراخ، كتحد لحكومة العمل، وسط أنقاض سابستا المذكورة فى التوراة، وكانت زيارة بيجين قد تم ترتيبها مقدما للاحتفال بوضع لفائف الشريعة فى معبد قادوم، ولكن الانتخابات حولتها إلى حدث إعلامى وبداية استيعاب المتمردين من جماعة جوش امونيم فى بنية إدارة الضفة الغربية، وعد بيجين المستوطنين: (خلال أسابيع أو شهور قليلة سيكون هناك الكثير من المستوطنات مثل أيلون ماروخ.

وقال: (لن تكون هناك حاجة إلى قادوم)، عندما سأل أحد الصحفيين رئيس الوزراء المقبل عما إذا كانت حكومته ستقوم بضم الأراضى فقال: (إننا لا نستخدم كلمة ضم، انك تضم أرضا أجنبية) وليس بلدك نفسها (وسأله آخر أكثر فطنة فى استخدام لغة الصهيونية الجديدة: (هل سيطبق القانون

الإسرائيلى فى الضفة الغربية)، وبخه بيجين قائلا: (قل يهودا والسامرا، استخدام الاسم دائماً)، كانت الألفاظ واضحة تماماً، ولكن بيجين أخذ يتلاعب بمضمون السؤال: (إن هذه مسألة تقديرية، عندما تتشكل الحكومة فإننا سنذهب إلى الكنيست ونطلب اقتراعاً بالثقة ثم نقوم بدراسة الخطوات التى يمكن اتخاذها)، كان بيان الليكود الرسمى حول الضم أقل لياقة، ظهر سبب حذره هذا بعد أسبوع وقد أدهش ذلك حزبه كما أدهش المعارضة والأمة بأسرها.

دعا بيجين موشى ديان، الذى كان قد أعيد انتخابه للكنيست على تذكرة العمل الانتخابية للعمل وزيرا لخارجيته، وعلى الرغم من عودته إلى المستشفى لمعاودة متاعبه من مرض القلب، قاوم بيجين المطالب القوية التى قدمها الليبراليون لإسناد المنصب إليهم، يزعم أريخ دلزين أنه بينما لم يكن هناك تعهد شخصى من بيجين فإنه كان هناك اتفاق بين حيروت والزعماء الليبراليين بين بيجين وسيمحا أرليخ على أن يتم تقسيم المناصب الأربعة الكبرى بين حزبيهما حيث يحصل حيروت على رئاسة الوزراء ويحصل الليبراليون على المالية والخارجية، توقع الليبراليون أن يحافظ بيجين على الاتفاق، ولكن أفكاره الآن كانت تسبق سياسات الائتلاف، كذلك لم يلق بالاً إلى رد الفعل الغاضب الذى أبداه حزب العمل والصحافة وتجدد المظاهرات المعادية لديان التى نظمتها العائلات التى نكبت بفقد ذويها فى حرب يوم كيبور والتى قامت بإلقاء الحجارة على شقة بيجين فى شارع روزينيوم، كان مقتنعاً أن سمعة ديان فى الخارج مازالت عالية حتى ولو لم يغفر له مواطنوه، كان الرجل ذو الرقعة على عينه مازال مستر إسرائيل.. قال بيجين من فراشه فى المستشفى:

(قررت ترشيح مستر ديان لمنصب وزير الخارجية، بغض النظر عن كافة الاعتبارات الحزبية، لأننا نحتاج خلال السنوات القادمة إلى وزير خارجية

يتمتع بمكانة واحترام عالمى، ولا يساورنى الشك فى أن مستر ديان سيحظى باحترام شديد بين السفراء ووزراء الخارجية وغيرهم من الزعماء وهذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة لعلاقات إسرائيل مع الشعوب القريبة والبعيدة).

لم يكن غصن الزيتون الذى مده بيجين للعرب حيلة دعائية، كان يريد استكشاف الاحتمالات خاصة مع مصر، وعلى العكس كان مرتاباً فى نوايا السادات، ولكنه كان يريد الآن اختبارهم بنفسه، فإذا أثبت السادات إخلاصه فإنه سيكون من السهل التوصل إلى سلام مع مصر أكثر من الشعوب القريبة الأخرى، لم تكن سيناء جزءًا من أرض إسرائيل، كان اختيار ديان اعترافا من الليكود بأنه ليس لديه مرشح يقارن بديان فى مقدرته أو خبرته، فمن بين وزراء الليكود المحتملين لم يكن هناك أحد سوى عيزرا وايزمان الذى كان وزيرا فى حكومة الوحدة الوطنية التى رأستها جولدا مائير، أكد تعيين ديان كذلك الاستمرارية، وهو ما أكده احتفاظ بيجين بكبار العاملين فى مكتب رئيس الوزراء والذين كانوا على صلة وثيقة بسلفه من حزب العمل: مثل دان باتير المتحدث الرسمى، ويهودا افينر مستشارعلاقات الدياسبوا وكاتب خطب رئيس الوزراء التى يلقيها بالإنجليزية والبريجيدير - جنرال افريم بوران السكرتير العسكرى وايلى مزراحى مدير مكتب رئيس الوزراء، كان يريد أن يظهر للعالم أن انتقال الرئاسة إليه كان انتقالاً ديمقراطياً وليس انقلاباً قامت به حفنة من الإرهابيين المتقاعدين.

كان ديان قد ترك منصبه مع مسز مائير فى سنة ١٩٧٤ ولكنه استعاد مقعده فى الكنيست وكان أحد أعضاء الهيئة التى وضعت برنامج حزب العمل لانتخابات سنة ١٩٧٧، وأجاب على التساؤلات بقوله أنه طالما خدم الدولة تحت شخصيات عملاقة مثل بن جوريون وجولدا مائير فإنه لن يقوم بدور ثانوى تحت امرة زعماء أصغر (وأقل) مثل اسحاق رابين وشيمون بيريز، ويبدو أنه كان يعد بيجين واحداً من جيل الأبطال حتى ولو كان أكبر بسنتين

فقط من ديان، كانت جذور وزير الدفاع السابق عميقة فى حركة العمل، ولد ديان فى دجانيا وهى أول كيبوتز، وكبر فى ناحلال وهى أول موشاف، ولكنه كان دائماً ذئباً وحيداً، رجلاً غير ثابت الولاء لا يعترف بالديون الشخصية أو الفكرية، كانت لديه ثقة لا تهتز فى حكمه الشخصى، ولكنه لا يسمح قط لهذه الثقة أن تتحول إلى عقيدة ثابتة، أثبت التقاعد أنه شىء أصعب مما كان يتوقع، فإذا كان هناك ما يمكن عمله فإنه يريد أن يشارك فيه ولكن ليس بدون شروط، كتب ديان يقول: (قدرت إنه سيتعين على إسرائيل قريباً أن تتخذ قرارات السياسة فإننى أستطيع ممارسة تأثير ضخم على قرارات الحكومة تلك) كانت العقبة بالنسبة لديان هى مصير الضفة الغربية وقطاع غزة، كان ضد ضمهما وبالمثل كان يعارض عودتهما إلى السيادة العربية، كان يحلم بتسوية مؤقتة ترضى على نحو ما كل من إسرائيل والأردن دون اللجوء إلى الابتكارات الأوروبية مثل الحدود الوطنية، وافق بيجين بناء على توصية ديان أن لا يتم ضم الأراضى (فى الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات)، وأن يستمر السكان العرب فى إرسال مندوبيهم إلى البرلمان الأردنى وتلقى مساعدة مالية من الدول العربية عن طريق عمان، تبنى ديان سياسة (الجسور المفتوحة) فى سنة ١٩٦٧ وكان لا يريد أن يشهد موتها بعد عشر سنوات، وقد أرضت تعهدات بيجين التى أكدها فى جناحه بالمستشفى ديان، وكتب لى أحد المنتقدين فى إحدى الكيبوتزات يقول:

(إن البديل عن ترتيبات أمنية مع العرب سيكون هو الحرب بالتأكيد، هل يمكن أن تكون حكومة برئاسة بيجين أفضل لإسرائيل بدونى؟ وإذا ما انضممت إليها فهل ستكون هناك فرصة لتحقيق أهدافنا ـ كما أراها؟ هل لدى، فى الحقيقة حل لمشكلة ـ نزاعنا مع العرب وهل سأكون قادراً على العمل وفقا لتصوراتى فى مثل هذه الحكومة؟ إذا كانت الإجابة على السؤال الأخير بالإيجاب فهل يتعين علىَّ، رغم ذلك، أن أرفض عرض بيجين؟).

كانت المقامرة قد بدأت، من الصعب تصديق أن ديان تردد طويلا فى اتخاذ قراره.. قال لزميل من أعضاء الكنيست عن حزب العمل وهو جاد باكوبى: (كان السؤال الذى كان علىَّ أن أواجهه هو: ماذا كان قبولى لعرض بيجين والعمل معه يمكن أن يغير بشكل أساسى الموقف لصالح إسرائيل؟)، كان ديان مختالاً بدرجة كافية ليجيب بدون تردد بنعم وليثبت أنه على صواب.

لم يكن عرض بيجين على ديان مفاجئًا، فقد جرت محاولات أولية لجس النبض خلال الأيام الأولى من الحملة الانتخابية عندما قام زعيم حيروت بزيارة إلى فيلا ديان فى تل أبيب فى حى الضباط المتقاعدين فى زاحالة، ووفقا لرواية ديان فإنهما كانا يبحثان عرضا بأن يدخل ديان الانتخابات على قائمة الليكود، لكنه رفض لأن بيجين كان لا يستطيع خلال تلك المرحلة إعطاءه التأكيدات التى كان يسعى للحصول عليها حول الضفة الغربية وقطاع غزة،اقترح بيجين أن يتركا الباب مفتوحاً، وخلال إحدى مناقشات الكنيست بعد ذلك بخمس سنوات فسر رئيس الوزراء تلك المحادثات تفسيرًا مختلفًا قائلاً إن موشى ديان قام بالمبادرة وتطوع من تلقاء نفسه بإعلان استعداده للعمل تحت رئاسة بيجين إذا قام بتشكيل حكومة قادمة، يضيف يهيل كاديشاى أن محاولات الاستكشاف استمرت بعد دخول بيجين مستشفى اتشيلوف فى شهر مارس، ووفقا لكاديشاى فإن بيجين دخل المستشفى لإجراء فحص عام وأنه أصيب بأول أزمة قلبية خلال زيارة ديان له.

على الرغم من تعاونهما فى حكومة الوحدة الوطنية فإن الغزل بين بيجين وديان كان مسألة عقلية بحتة، يقول نافتالى لافى الذى كان متحدثا باسم ديان فى حكومتى مائير وبيجين إن ديان لم يكن يحمل الحب لزعيم حيروت:

(كان يقدر تصميمه، قوته والطريقة التى كان يعرف كيف يمارس بها هذه القوة، كان ديان يقدر أكثر من أى شئ آخر إخلاص بيجين ليهودا والسامرا على الرغم من أن دوافعه للحصول عليهما باعتبارهما جزءاً من

أرض إسرائيل لم تكن قبل دوافع ديان، ولكنه كان يكره أسلوب بيجين، لغته الطنانة، ومبالغاته مما كان يعتبره تمثيلاً رخيصاً، كان يعتقد أن بيجين لا يفهم العرب ولا يعرف كيفية التعامل معهم وكيفية التوصل معهم إلى اتفاق معقول لا يجرح كرامتهم، اتفاق يعطيهم أقصى ما تستطيع إسرائيل عرضه عليهم دون القيام بمخاطرة ضخمة بأمتنا نحن).

كان ديان يقبل حلاً سياسياً لا تكون فيه الضفة الغربية جزءاً من إسرائيل، كان تعلقه بالأماكن هناك لا يعنى أننا علينا أن نستولى عليها، كان ديان مستعداً لأن يعيش آخرون هناك وفقاً لأسلوب حياتهم، ولكنه كان شديد الخوف من أن يتحول حكم العرب إلى شىء لا يمكننا السيطرة عليه، كان يعارض الضم بشدة ويجب أن يكون اليهود حساسين فى ألا يضموا أشخاصا أجانب ومعادين وإرغامهم على أن يكونوا إسرائيليين، إن الفلسطينيين فى الضفة الغربية يجب ألا يكون لديهم جيش خاص بهم أو دعوة جيوش عربية أخرى، وخلاصة الأمر أن ديان كان مستعدا لإعطائهم الكثير، وكان يفضل إعطاء الأردن دورًا كبيرًا فى إقامة مجتمع يتمتع بالحكم الذاتى.

أما فيما يتعلق بموقف بيجين إزاء ديان فإن أحد موظفيه وصفه على هذا النحو: (إنه قام بتعيين ديان أولاً وقبل كل شىء بسبب سمعته الدولية وكان أيضا يكن احتراما لديان، ذلك الاحترام الذى يستحقه كل من كان جنرالاً بارزاً فى القوات المسلحة الإسرائيلية، كان يتسامح فى رغبة ديان فى الاستقلال بآرائه).

استغرقت إسرائيل وقتا طويلا فى تشكيل حكومة مثل الوقت الذى استغرقه إجراء انتخابات عامة، كان على بيجين أن ينتظر ثلاثة أسابيع بعد فوزه فى الانتخابات قبل أن يستكمل الرئيس افراهام كاتزير مشاوراته الشبيهة بالطقوس مع جميع الأحزاب الثلاثة عشر التى حصلت على مقاعد فى الدورة التاسعة للكنيست، ثم عرض عليه رئاسة الوزارة، وخلال تلك الفترة قام بيجين

بتغيير سياسة حزب العمل فى إبقاء المستوطنات اليهودية بعيدا عن المدن الجبلية فى يهودا والسامرا حيث يتركز معظم عرب الضفة الغربية، وانتزع موشى ديان من مقاعد حزب العمل وخرج من المستشفى الذى دخله للمرة الثانية دون أعراض تذكر سوى التهاب فى الغشاء المحيط بالقلب.

فى مقر الرئيس الإسرائيلى فى القدس التقطت الصور لبيجين وهو يصافح رئيس الدولة ويقبل مسز نينا كاتريز، كان يتصرف بشهامة كما لو كان أحد نبلاء العصور الوسطى، ومن منزل الرئيس ذهب إلى الحائط الغربى حيث وضع غطاء الرأس الأسود، كان بيجين أول رئيس وزراء يعين هويته باعتباره يهودياً أكثر منه إسرائيلياً، كانت الدولة بالنسبة له هى أرض اليهود وليس فقط تلك الأقلية من الجنس البشرى التى تصادف أن تعيش هناك، وبالنسبة له فإن اليهودية لا يمكن أن تفصل عن الديانة اليهودية، كانت الزيارة عملا من أعمال التكريس قام بها رجل يعتبر نفسه حاكما بين اليهود وليس مجرد رئيس وزراء إسرائيل، وعندما ذهب إلى هناك مرة أخرى بعد انتخابات سنة ١٩٨١ ارتدى غطاء الرأس الذى أصبح شارة مستوطنى جوش أمونيم.

كان يجب مرور أسبوعين آخرين قبل أن يستعد بيجين لتقديم حكومته إلى الكنيست وحلف اليمين، كان السؤال الأساسى موضع الخلاف فى مفاوضات الائتلاف المطولة هو عما إذا كان فريق الحكم سيضم حزب إيجال يادين الجديد ـ الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ـ الذى خرج من أول انتخابات يخوضها وهو ثالث أكبر الأحزاب بعد الليكود والعمل، كان الديمقراطيون تواقين للحكم، كانوا حركة إصلاحية تعهدوا بإحياء الأمة بعد انتشار الفساد والمصالح الذاتية خلال حكم حزب العمل فى السنوات الأخيرة، كانت القوة الدافعة لبرنامجهم هى السياسة الداخلية وليس الخارجية على الرغم من أنهم أعلنوا تأييدهم للتوصل إلى تسوية حول الأراضى فى الضفة الغربية، كان زعماء الحركة يشملون الخارجين عن

اليمين وكذلك عن اليسار، كانوا يحتاجون إلى تولى الحكم، وإلى فرصة لتحقيق نتائج ليوفوا بوعودهم للناخبين، لم تكن المعارضة كافية وما كانت يمكن أن ترضى طموحات رجال مثل يادين وشمويل تامير، كانت المشكلة أن بيجين يستطيع تشكيل ائتلاف قوى دون مقاعد الديمقراطيين الخمسة عشر، كان التوصل إلى اتفاق مع الحزب الدينى القومى، وأجودات إسرائيل، شديد التطرف سيعطى الليكود - مدعما بآرييل شارون - الذى حصل على مقعدين بقائمة خاصة ولكنه سرعان ما انضم إلى حيروت - اثنان وستون مقعداً من مجموعة المقاعد فى الكنيست البالغة مائة وعشرين، فإذا استقال ديان من عضوية العمل فإنه سيحتفظ بمقعده فى الكنيست، فعندئذ سيرتفع عدد المقاعد إلى ثلاثة وستين مما يعطى بيجين أغلبية ستة على الأقل (عضو مستقل آخر هو شمويل) فالتو شارون الذى كان مطلوبا بتهمة جنحة مالية فى فرنسا وعد بتأييد الحكومة ولكن كان الليكود حريصا على إبعاده).

استطاع بيجين مناورة يادين تعضده تجربة ثلاثين عاما من الخداع الحزبى، كان يريد الديمقراطيين فى الائتلاف، إنهم سيعملون على توسيع قاعدة الائتلاف حتى لا يستطيع أحد اتهامه بأنه يقود تحالف من الأيديولوجيين اليمينيين والمتعصبين النظريين، كانوا سيمنحونه أمناً فى عدد المقاعد ولكنه كان يريدهم وفق شروطه، اعترض يادين على تعيين ديان وعلى اتفاق بيجين مع وزير خارجيته المرشح حول صيغة الضفة الغربية، سارع زعيم الليكود بإجراء المفاوضات وأرغم يادين على التركيز على موضوعات السياسة الخارجية والأمن، طالب يادين بسحب العرض المقدم لديان لتولى الخارجية وأن يترك الائتلاف الاحتمال مفتوحاً أمام التوصل إلى تسوية حول الأراضى ولكنه لم يكن نداً لبيجين، فوضت اللجنة المركزية لليكود زعيمها موصلة التفاوض للتوصل إلى أوسع ائتلاف ممكن، وقررت بالتحديد أن أى قرار بإسناد الوزارات ستنتظر حتى المرحلة النهائية من عملية التفاوض، وفى

نفس الوقت أخذت اللجنة المركزية مذكرة باقتراح بيجين بأنه يجب تولى ديان لوزارة الخارجية، وقال سيمحا أرليخ ليهدأ المتشككون: (إننا سنتكلم عن هذا عند تعيين المناصب)، لم يتغير شىء فى التطبيق، كان بيجين يريد ديان وفى النهاية ما كان باستطاعة أحد مخالفته ولكن هذا أعطى الديمقراطيين ذريعة للعودة إلى مائدة الوزارة، وبالمثل فإن بيجين وافق على عدم ضم الضفة الغربية، وأكد استعداد حكومته للاشتراك فى محادثات السلام فى جنيف عندما تعقدها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على أساس قرارى مجلس الأمر رقمى ٢٤٢، ٣٣٨.. كان بيجين قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بسحب حزبه من حكومة الوحدة الوطنية بسبب موافقة جولدا مائير على القرار رقم ٢٤٢، كان التعهد بالتخلى عن تلك الموافقة غير ملائم بالنسبة لحمائم الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ولكنه شجع أولئك الذين كانوا يحتاجون للتشجيع، قدم بيجين وزارته إلى الكنيست فى الموعد المحدد ولكنه ترك ثلاثة مقاعد خالية بصفة مؤقتة للديمقراطيين، وبعد أربعة شهور أثمرت حيلة بيجين التى توصل إليها بالصبر والتهديد والإغراء كما أرادها بالضبط، انضم يادين إلى الائتلاف كنائب لرئيس الوزراء ولم يكن يملك سوى حق التأخير (وليس الفيتو)، حول بناء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية والقيام بدور أسمى كمنسق للسياسة الاجتماعية.

ارتفعت أغلبية بيجين من ستة مقاعد إلى ستة وثلاثين بين عشية وضحاها بينما واصل حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير، ببراءة، طريق الحلول الوسط والتفسخ حتى أصبحت الحركة لا تعدو أن تكون ذكرى وتحذيراً عندما حان الوقت للدعوة إلى انتخابات أخرى فى سنة ١٩٨١.

دفع بيجين عن طيب خاطر ثمنا باهظا فى مقابل أصوات الأحزاب الدينية خاصة أصوات أجودات إسرائيل الذى كانت تسيطر عليه من خارج الكنيست هيئة من الحكماء الموقرين، كان الحزب الدينى القومى حاملا لواء

الصهيونية الدينية، يكافح دائما من أجل الحفاظ على الوضع القائم فى التوازن بين ما هو علمانى وما هو مقدس فى الدولة اليهودية، وقد حال دون السماح بإدخال الزواج والطلاق المدنى وحافظ على الاحتكار المؤسس للتيار الأرثوذكسى المتشدد فى اليهودية، وقاوم الاتجاه إلى الابتعاد عن مراعاة الشعائر اليهودية فيما يتعلق بيوم السبت فى الخدمات العامة، كان حزب أجودات إسرائيل يسعى إلى المضى أبعد من ذلك وتغيير التوازن لصالح الثيوقراطية (حكومة دينية) كان الحزب يجاهد من أجل ذلك لأنه ـ بالإضافة إلى الحصول على الأموال العامة من أجل نظام تعليمه الخاص ـ كان دافعه الوحيد للدخول إلى الساحة السياسية، كانت السياسة الخارجية، وسياسة الأمن خارج إدراكه، كانت لدى بيجين موانع أقل مما كانت لدى رؤساء الوزراء من حزب العمل للتوصل إلى تفاهم، كان يعلن بسعادة ـ أنه (أحد المؤمنين فى إسرائيل)، بالنسبة له كان هناك نوع واحد من اليهودية وإسرائيل مدينة لأجيال من اليهود الأتقياء باحترام قيمتها وممارساتها.

كانت جميع فقرات اتفاق الائتلاف الموقع فى ٩ يونيو سنة ١٩٧٧ الثلاث والأربعين ـ ما عدا عشر فقرات ـ تتناول التطبيقات والمزايا الدينية، وخلال أول حكومة لبيجين وجدت الفتيات من (العائلات المحافظة) من السهل الهروب من الخدمة العسكرية وأصبح من الصعب الإجهاض فى حدود القانون وفرضت قيود على الأطباء فى القيام بتشريح الجثث مما أدى إلى حدوث عجز فى الكلى وغيرها من (قطع الغيار) اللازمة لعمليات زرع الأعضاء، ومنع النشاط التبشيرى المسيحى.

بعد أربع سنوات من حرب يوم الغفران شعر بيجين بالرضا لأنه استطاع إقامة ائتلاف حاكم لم تكن أسسه ثابتة فى الداخل فقط ولكنه كان جديرا بالثقة بدرجة كافية تردع أى دولة معادية من التفكير فى إعادة الكرة وتكرار ما حدث فى أكتوبر، كانت وزارته تضم فى وقت من الأوقات خمسة جنرالات متقاعدين هم: يادين، وديان، ووايزمان (الذى كوفئ بإسناد وزارة الدفاع إليه

لنجاحه فى إدارة الحملة الانتخابية) وشارون (الزراعة والمستوطنات) ومائير اميت (رئيس المخابرات السابق تم انتخابه على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير وعمل لفترة قصيرة وزيرا للنقل).

أثار تولى بيجين لرئاسة الوزراء عاصفة من التوجس والعداء فى الغرب خاصة فى بريطانيا حيث ثارت ذكريات الارجون زفاى ليومى كما لو كان لم يحدث شىء منذ سنة ١٩٤٨، كتب لويس هيرين فى صحيفة (التايمز) اللندنية يقول: (إن مؤسس إسرائيل يجنى ثمار الإرهاب، الإرهاب يؤتى ثماره ويجب تشجيع عرفات)، وكتب عضو قديم فى الوحدة السادسة المحمولة جوا الذى فقد إحدى رجليه فى هجوم قامت به الارجون فى ناتانيا إلى السفارة الإسرائيلية يقول: (إذا جاء بيجين إلى هنا فإننى سأقتله)، وفى الولايات المتحدة أعربت صحيفة (نيويورك تايمز) عن قلقها إزاء السياسات فى الشرق الأوسط.

أما (التايم) فقد أثارت شعور بيجين بجنون العظمة وعندما نصحت قراءها بأن (بيجين يتطابق مع فاجن).

ذهل بيجين من ذاكرة العالم القوية، والرفض العنيد لرؤية الارجون من خلال عيون قائدها، وطلب اعتذار من شبكة تليفزيون سى. بى. اس الأمريكية لوصفه بالإرهابى السابق، وأجيب إلى طلبه، وقال لأحد المذيعين الإسرائيليين الذى أجرى معه مقابلة:

(إذا قدمنى أحد على أننى إرهابى وقدم ياسر عرفات على أنه فدائى مقاتل فإننى لا أحل له سوى الاحتقار، لقد حاربنا لتحرير شعبنا عندما كان يتعرض للإبادة فى أوروبا، وأعتقد أن ردود الفعل الغبية هذه ستتلاشى عندما أشكل الحكومة، وأنا مدعو للاجتماع بالرئيس كارتر فإذا لم تتوقف حتى حينذاك فإننى سأعرف كيف أتصرف).

كان الإسرائيليون من كافة القناعات السياسية يقدرون بوضوح أكثر من الأجانب أنهم قد انتخبوا أول رئيس وزراء أيديولوجى، الرجل ظل يردد نفس

الأغنية لمدة أربعين عاما ويعنى كل حرف فيها: (إنه سيكون مستعدا لتأييد كل كلمة حتى آخر دولار أو آخر قذيفة)، إنه جدير بالثقة لدرجة مخيفة، وفى الحقيقة فإن بيجين جاء إلى السلطة وهو أوضح من أى من أسلافه ولكنه كان يعترف صراحة أنه يتطلع إلى مؤرخيه المفضلين وكتّاب السير الذاتية لإمداده بالجمل المأثورة للاستشهاد بها فى خطبه، ظل عالمه هو عالم المؤتمر الصهيونى، كانت رؤيته غير واضحة، وعرقية، كان يبقى من أجل المعاناة اليهودية ويدعو إلى التمسك بالكرامة اليهودية ويفخر بالقوة اليهودية، فإذا كان مستعداً لإجراء محادثات مع العرب للتوصل إلى سلام فإنه يفعل ذلك من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف، وقال عند تقديم وزارته إلى الكنيست فى ٢٠ يونيو لن تطلب من أى دولة الاعتراف بحقها فى الوجود:

(إن إله آبائنا هو الذى منحنا حق الوجود منذ وميض فجر الحضارة الإنسانية منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة، ومن أجل الحق الذى جرى فى الدم اليهودى من جيل إلى جيل، دفعنا ثمنا له فى تاريخ الأمم.

حقيقة أن هذه الحقيقة لا تمحى أو تضعف حقنا بل على العكس، ولهذا فإننى أؤكد مرة أخرى أننا لا نتوقع أن يقوم أحد بالنيابة عنا بالاعتراف بحقنا فى الوجود فى أرض أجدادنا، إنه اعتراف مختلف ذلك المطلوب بيننا وبين جيراننا، اعتراف بالسيادة وبالحاجة المشتركة إلى حياة يسودها السلام والتفاهم، إن هذا هو الاعتراف المتبادل الذى نتطلع إليه وسنبذل من أجله كل جهد ممكن).

وفيما يتعلق بالعلاقات مع الولايات المتحدة، وضع بيجين تفرقة بين الرؤية والسياسة، كان يؤكد أن إسرائيل حليف ومصدر قوة، فأمريكا تحتاج إسرائيل بنفس القدر الذى تحتاج به إسرائيل إلى أمريكا، خلال أزمة سنة ١٩٧٧ حول مشروع روجرز سخرت جولدا مائير وأبا ايبان من (سذاجة) بيجين، ولكن بالنسبة للموضوعات التى تهمه كان رئيس الوزراء الجديد مستعداً للتودد إلى أمريكا ومقاومة ضغطها فى نفس الوقت، كان مصمماً على تثبيت حدود أرض إسرائيل

نهائيا، ومهما كانت حقائق القوة فإنه نادراً ما كان يلجأ إلى الخداع، ولم يوضع استعداده (لأكل السمن الصناعى) إذا لزم الأمر موضع الاختيار، قال أحد خبرائه فى الشئون الأمريكية (إنه مقتنع كلية أن الشعب الإسرائيلى سيواصل المسيرة معه، كان يؤمن بقوة الإقناع، بالكلمات، بقدراته على الإقناع، إننى ليس لدى شك إطلاقا فى أنه إذا حدثت مواجهة مع الولايات المتحدة حول موضوع ذى أهمية بالغة بالنسبة له فإنه لن ينحنى).

خلال زيارة بيجين الأولى إلى واشنطن فى يوليو سنة ١٩٧٧ حثه الرئيس جيمى كارتر على إظهار مرونة حول الضفة الغربية فما كان من بيجين إلا أن قام ببسط (خريطة للأمن القومى) أحضرها معه تحسبا لهذه اللحظة وأخذ يشرح المخاطر الناجمة عن السماح للمدفعية العربية بالعودة إلى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧، وقال للرئيس كارتر الذى شعر بالارتباك، (إننا شعب ثلاثى) وكان يعنى أنه من بين كل ثلاثة يهود قتل يهودى فى الهولوكست النازى، ومضى يقول: (لم يكن باستطاعة الرجال اليهود الدفاع عن نسائهم، كان عليهم أن يسلموهن إلى القاتل، ثم بدأ يقول: لقد أخذت على نفسى عهدًا...) ثم انفجر فى موجة انفعال، وعندما حذره كارتر فى نفس الجلسة فى حجرة اجتماع الحكومة الأمريكية فى البيت الأبيض من المضى فى برنامج الاستيطان الضخم الذى وعد بالقيام به فى الأراضى المحتلة قدم له رئيس الوزراء قائمة معدة مسبقا بعدد المدن الموجودة فى الولايات المتحدة وتحمل أسماء عبرية مثل ساليم والقدس وتساءل قائلا: (ماذا ستقول إذا قال حكام تلك الولايات إنه لا يمكن أن يعيش يهودى فى تلك المدن؟.. كان مسئولو السفارة الإسرائيلية المصاحبون لبيجين للمرة الأولى يعرفون أن هذه لا يمكن أن تكون كلمة إسرائيل الأخيرة، وأصيبوا بالانزعاج إزاء حدة كارتر حول موضوع المستوطنات وعندما عادوا من البيت الأبيض إلى بلير هاوس، قصر الضيافة الفخم سألوا رئيس الوزراء عما ينوى القيام به، رد بيجين قائلا إنه سيقوم ببناء المستوطنات كما هو مخطط، وتنبأ بأن الأمريكيين سيتحمسون لمدة ستة أشهر ثم

يعودون إلى الحالة الطبيعية.

كان أول حاكم عربى يتقرب إليه بيجين فى بحثه عن السلام وأكثرهم قابلية وتفتحا هو الملك حسين ملك الأردن، كان وزراء إسرائيليون يقومون بالاجتماع به سراً منذ ما قبل حرب سنة ١٩٦٧ عندما كان لا يزال يحكم الضفة الغربية والقدس الشرقية واستمر الحوار خلال حكومات ليفى أشكول، وجولدا مائير واسحاق رابين، أما أكثر المقابلات وجهاً لوجه فقد قام بها إيجال آلون وزير الخارجية الراحل الذى اجتمع بالملك أربع عشرة مرة، بينما اجتمع به رابين ووزير دفاعه شيمون بيريز ثمانى مرات، واجتمعت به مسز مائير لأول مرة فى باريس قبل حرب الأيام الستة عندما لم تكن رئيسة وزراء بعد، وفى إسرائيل بعد ذلك عندما أصبحت رئيسة للوزراء، ويضيف نافتالى لافى أن ديان قد تحدث إلى الملك (عدة مرات) بما فى ذلك عدد من المرات عقب استقالته كوزير للدفاع فى سنة ١٩٧٤، وخلال فترة حكم رابين عقدت كل الاجتماعات فى إسرائيل، ويقول أحد شهود العيان إنه على الرغم من أن تلك الاجتماعات لم تحقق أى نتائج فإنها كانت اجتماعات جميلة، ومناقشات حرة، مفتوحة وودية بين جنتلمان وآخرين على شاكلته.

وفور تولى السلطة، ألمح بيجين عن طريق الوسطاء إلى أنه يرغب فى الانضمام إلى اجتماعات حسين.

وجاء الرد من عمان بالرفض القاطع، الأمر الذى أغضبه كثيرا، وعلى الرغم من ذلك فقد فوض ديان فى حضور اجتماع خاص مساء يوم ٢٢ أغسطس بعد أن تخلص وزير الخارجية الإسرائيلى من حارسه الخاص بدخوله منزلا آخر من خلال الباب الأمامى والتوارى فى سيارة كانت فى انتظاره فى الخلف.

وعلى الرغم من أن المحادثات استمرت ليوم آخر بناء على طلب الملك حسين، إلا أنها لم تكن مثمرة بالمرة، وقال الملك إنه نفض يده من الضفة

الغربية والمشكلة الفلسطينية، وأعلنت الدول العربية أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى، وإذا كانوا لا يريدونه، فبوسعهم إدارة دفة شئون الفلسطينيين بدونه.

وكتب ديان يقول إن محاولة إيجاد ترتيب مناسب ومتفق عليه لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة هى محاولة تتسم بعدم الاكتراث فيما يبدو.. وفى الاجتماع الثانى، أوضح الملك حسين موقفه بشأن احتمال تقسيم الضفة الغربية بين إسرائيل والأردن، أى تسوية إقليمية.

وقد رفضها على الفور، إذ أن أى ترتيب للسلام يقوم على أساس تقسيم الضفة الغربية من شأنه أنه يعنى أن يوافق حسين على ضم جزء منها إلى دولة إسرائيل، وقال يجب أن أفهم أنه بصفته ملكاً عربياً لا يمكنه أن يقترح حتى على شعب قرية واحدة أن يقطعوا أوصالهم مع أشقائهم العرب ويصبحوا إسرائيليين، وسيتم النظر إلى موافقته على خطة من هذا القبيل على أنها خيانة، وسيتعرض للاتهام بأنه باع أرضاً عربية إلى اليهود حتى يستطيع توسيع مملكته.. وقال إن الحل الوحيد لتحقيق السلام هو أن تعود إسرائيل إلى حدود ما قبل شهر يونيو عام ١٩٦٧.. وفيما يتعلق بمسألة السيادة، يجب أن نعيد إلى الأردن كافة الأراضى التى استولينا عليها فى عام ١٩٦٧.

وصرح ديان لمساعديه عندما عاد إلى القدس بأنه لم يندهش لموقف حسين ولم يندهش كذلك رئيس الوزراء، وطبقا لما ذكره أحد أصدقاء بيجين المقربين، فإن بيجين لم يعتقد أبداً أن أى تسوية إقليمية ستغرى الملك حسين على التفاوض.

لقد كان يريد أن يستريح ضميره، ويحصل عليها بعيدا عن نظامه، وجس نبض حسين، ولم يؤمن ديان بذلك على أى حال، وقد عرفنا موقف حسين من المحادثات السابقة، واستوضحه بيجين من جدول أعمال ديان ولو كان حسين قال نعم، لما تغير شىء، إلا أنه لم تحدث حتى المقامرة نفسها، إننا نعرف الرد مسبقاً.

وطبقا لما ذكره مصدر مطلع، فإنه على الرغم من ذلك، أوحى ديان قبل أن يفترقا بأن الملك قد يجتمع مع بيجين، ورد حسين بأنه لا يرى جدوى من ذلك، فآراء بيجين معروفة تماما، وفى حدود ما هو معروف.. كان اجتماع ديان هو آخر اجتماع يحضره العاهل الأردنى مع وزير إسرائيلى، وكان بيجين على استعداد للبحث فى أى مكان آخر.

■ ■ ■

الفصل الثامن عشر

السلام وفق شروطنا

كان ذلك بعد الثامنة من مساء التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وكان الياهو بن اليسار، مدير مكتب رئيس الوزراء وعميل سرى سابق يحمل درجة الدكتوراه فى التاريخ ويطلق لحية سوداء تشبه لحية تيودور هيرتزل، كان يقرأ وهو مضطجع فى سريره فى شقة بالقرب من مسكن الرئيس فى القدس.

وكان ذلك اليوم يوماً طويلاً ومرهقاً، وقد خرق المقاتلون الفلسطينيون وقف إطلاق النار عبر الحدود اللبنانية وتسببوا فى قتل مدنى إسرائيلى ومصرع خمسة آخرين بصواريخ كاتيوشا وردت القوات الجوية بقصف استمر خمساً وستين دقيقة لمخيمات الفلسطينيين. وكان العنصر البارز فى أخبار التليفزيون المسائية تناول المزاعم والمزاعم المضادة حول الإصابات بين المدنيين، وكذلك تأكيدات رئيس الأركان بأن إسرائيل سوف تحترم وقف إطلاق النار إذا ما فعل الجانب الآخر الشىء نفسه. وتلقى بيجين تقارير عن الحادث وأدلى أيضا بمشورته. ولم يكن هناك شىء جديد فى نشرة أخبار التليفزيون وكان فى استطاعة بن اليسار أن يسترخى ولكن لم يكن هذا الاسترخاء ليطول أمده.

فلقد دق جرس الهاتف إلى جوار السرير، وكان المتحدث هو عنان صفاوى، محرر شئون الشرق الأوسط فى صحيفة جيروزاليم بوست، وكان صفاوى قد تابع الاستماع إلى إذاعة حية (على الهواء) من إذاعة القاهرة لخطاب أنور السادات الذى وجهه فى افتتاح الدورة السنوية للبرلمان المصرى

المسمى (مجلس الشعب)، وبعد أن أعلن استعداده للتوجه إلى مؤتمر فى جنيف والذى يحاول الأمريكيون إحياءه من جديد، وبعد أن هاجم إسرائيل لجدلها حول كل كلمة وكل فصلة وكل شرطة، ألقى السادات قنبلة لقد قال إنه مستعد لأن يذهب إلى نهاية العالم من أجل محادثات السلام، وقال السادات: (إن إسرائيل سوف يصعقها أن تسمع أنى أخبركم باستعدادى للذهاب إلى إسرائيل نفسها إلى الكنيست، لأتباحث معهم من أجل أن أحول دون جرح جندى مصرى واحد، أعضاء مجلس الشعب، ليس لدينا وقت نضيعه).

ولقد قوبل هذا العرض الذى قدمه الرئيس السادات بالنداء الحماسى (الله أكبر) من الأعضاء، لكن بعض الذين استمعوا له لم يتنبهوا كثيراً لما قال أو اعتبروا ما قاله نوعاً من الصيغ البلاغية فى الخطاب، تماماً كما اعتبروا تهديد السادات منذ أربع سنوات مضت بالتضحية بمليون جندى مصرى فى سبيل استعادة الأرض العربية من الغاصب الصهيونى، لكن حرب يوم الغفران قد علمت أنان صفاوى أن الرئيس فى العادة يعنى ما يقول، وقد ذهب إلى بيجين ليعلمه بالقضية وليعلم رد فعل بيجين لها.

كان بن اليسار غير مصدق لما سمع، لكن هذا المسئول الإسرائيلى لم يرد أن يستبعد ما سمع استبعادًا تامّاً.

لقد سألته هل أنت متأكد من أن هذا هو ما أعلنه السادات؟ إننى لا أصدق فبالرغم من كل ما نعرفه مقدما إلا أننى دهشت من سماع السادات على استعداد للحضور إلى القدس، ورد قائلا إنه متأكد كل التأكيد، وسأله عما إذا كان قد تلقى برقيات من وكالات الأنباء، ورد بأنه لم يتلق بعد أى رسالة، وقلت: أرجوك أن تتأكد فإذا ما كان هذا صحيحاً وصح ما أعلنه السادات فعليك أن تكتب إليه بأنه سيلقى كل الترحاب فى القدس.

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة جيروزاليم بوست قول أحد كبار مساعدى رئيس الوزراء مناحم بيجين بأن السادات سوف يلقى كل الترحيب هنا وأنه

سوف يستقبل استقبالاً لائقاً، لكن الإسرائيليين كانوا أو لازالوا مترددين فى مواجهة هذه المبادرة بجدية، ولم تنشر صحيفة جيروزاليم بوست رواية صفاوى بعناوين رئيسية.. فى الصفحة الأولى.. ولم يعكر بن اليسار أمسية بيجين بهذه الأخبار ولكنه انتظر حتى بعد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى.

ولم يذع راديو إسرائيل بيان رئيس الوزراء بأن السادات سوف يلقى الترحيب إلا فى الساعة الثامنة صباحاً ولكن الاحتمالات لم تزل تبدو غير واقعية، ولما كان السادات قد استمر فى وضع التأكيد كله على مؤتمر جنيف وطلبه بتعهد إسرائيل مقدماً بالانسحاب من كل الأراضى المحتلة، فإن الحيرة قد أصابت إسرائيل آخذة فى الاعتبار أيضاً أن جميع المقابلات السابقة بين الإسرائيليين والزعماء العرب كانت كلها سرية ابتداء من زيارة جولدا مائير للملك عبدالله ١٩٤٨ إلى مقابلة ديان لحفيد الملك عبدالله بعد تسعة وعشرين عاماً.. وكانت إسرائيل مدركة تماماً للحساسية العربية لدرجة استخدام الرقابة العسكرية للحفاظ على سرية هذه اللقاءات، ولكن ماذا عليك أن تفعل إذا ما سمعت رئيس أكبر دولة عربية يعلن جهارًا أنه مستعد للحضور إلى القدس ومخاطبة الكنيست، فهل سوف يؤذيه بين شعبه أن يتلقى دعوة علانية، أن بيجين شأنه شأن سابقيه قال مراراً إنه مستعد للذهاب إلى أى مكان من أجل محادثات السلام وفى أى وقت، وعلى أى حال فإن مصر لازالت فى حالة حرب مع الدولة اليهودية رسميّاً، فكيف يمكن استقبال عدو فى عاصمة دولة لا يعترف بها ومما زاد الأمر حيرة عدم وضوح الرؤيا فى إشارة السادات، فإلى أى شىء كان يهدف؟

وبالرغم من العلاقات الحارة التى أقامها بالفعل مع جيمى كارتر، إلا أن السادات لم يستشر الأمريكيين مقدماً حول إعلانه هذا فى مجلس الشعب، وطبقاً لما قاله سيروس فانس وزير الخارجية الأمريكية أنه أخطر الرئيس قبل إعلانه بيوم واحد عن تفكيره فى الذهاب إلى إسرائيل، ونظراً لأنه قد

عوَّم فكرة عقد مؤتمر قمة فى القدس الشرقية يضم الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الأمن ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك إسرائيل وجيرانها المباشرين، فإن رسالة كهذه لم تقبل بمعناها الواضح الظاهرى.

ولكن ما إن أدلى بتصريحه هذا حتى أصبحت الولايات المتحدة ساعى البريد السعيد على حد قول صموئيل لويس السفير الأمريكى فى تل أبيب.

وجاءت الرسائل وعادت عن طريق القنوات الدبلوماسية وعن طريق أعضاء الكونجرس الذين زاروا المنطقة، وبصورة حيوية عن طريق الصحافة وفى إذاعة باللغة الإنجليزية موجهة إلى السفير المصرى ـ سك بيجين هذا القسم للأمتين، (لا حروب جديدة ولا سفك للدماء ولا تهديدات بعد اليوم) وأجرى كرونكايت وبربرا وولتز المعروفين بلقائهما فى التليفزيون الأمريكى مع النجوم والقادة، لقاءً مع كل من السادات وبيجين، وأضاف هذا اللقاء المزيد من الكرنيفال السائد فى المنطقة وإن كان بعض الدبلوماسيين المغرضين قد أشاروا إلى أن هذا ليس بالطريقة الوحيدة أو الرئيسية للاتصالات بين القدس والقاهرة، وكان لقاء كرونكايت هو أول لقاء مشترك عن طريق القمر الصناعى من نيويورك وقال السادات إنه لابد من استلامه لدعوة مكتوبة، ووافق بيجين على إرسال هذه الدعوة واستجاب السادات لذلك بقوله إنه سوف يكون مستعداً للذهاب إلى إسرائيل فى أقرب وقت ممكن، وفى الخامس عشر من نوفمبر بعث بيجين برسالة إلى القاهرة عن طريق حامل رسائل أمريكى قال فيها:

(بالأصالة عن حكومة إسرائيل فإن لى الشرف أن أقدم لكم دعوتى الودية للحضور إلى القدس وزيارة بلدنا، إن استعداد سعادتكم للقيام بمثل هذه الزيارة كما عبرتم عنها فى خطابكم لمجلس الشعب المصرى، قد قوبل هنا بالاهتمام العميق والإيجابى، شأنها شأن بيانكم بأنكم ترغبون فى مخاطبة أعضاء برلماننا، الكنيست، ومقابلتى، فإذا ما قبلتم دعوتى، وهذا ما آمله

فسوف تجرى الترتيبات لكى تخاطبوا الكنيست من فوق منبره وسوف تمكنوه، إذا ما رغبتم فى ذلك، من مقابلة مختلف المجموعات البرلمانية.. المؤيدين منهم للحكومة والمعارضين لها، ودعنى أؤكد لكم سيدى الرئيس أن البرلمان والحكومة والشعب فى إسرائيل سوف يستقبلونكم بكل احترام ومحبة).

وجاء رد السادات بنفس الإيجابية فقد أخبر وفداً أمريكياً من مجلس النواب مكوناً من أربعة عشر عضواً أنه يعتبر الزيارة المقترحة (مهمة مقدسة)، وأنه سوف يذهب فى أقرب فرصة ممكنة، ثم استطرد قائلا:

(وعلينا أن نفعل المستحيل لكسر الحلقة المفرغة التى أخذ العرب والإسرائيليون يتحركون فيها لمدة ثلاثين عاماً، وهذا من أجل الأجيال القادمة، ومن هنا جاءت قدسية هذه المهمة، وانني إذا لم أحاول كسر هذه الحلقة المفرغة فإن الله سوف يحاسبنى وكذا سوف تحاسبنى الأجيال القادمة.

وبالنسبة لى فإن ٧٠٪ من الصراع العربى ـ الإسرائيلى سببها مشاكل نفسية و٣٠٪ ترجع إلى أسباب مادية، وعلينا أن نتغلب على المشاكل النفسية ثم نتجه إلى الأسباب المادية، ومن أجل ذلك فسوف أذهب إلى الكنيست، وإذا ما لزم الأمر فسوف أفتح باب المناقشة مع أعضاء الكنيست المائة والعشرين لتزويدهم بالحقائق المجردة هنا فى المنطقة ـ أى وجهة النظر الأخرى ـ حتى يستطيعوا أن يقرروا لأنفسهم).

ولقيت الزيارة الوشيكة وقوع صدى فى نفس بيجين وتقديره لذاته وفى إحساسه المعيب للتاريخ، فهذه المحادثات من شأنها أن تبرهن لأولئك الذين تساورهم الشكوك على أن حكومته تسير فى الطريق السليم. وأشار فى الخطاب الذى أدلى به أمام اللجنة المركزية لحزب حيروت إلى أنه يتوقع دعوة مقابلة لزيارة العاصمة المصرية وقال.. هناك تبادلية فى هذه الأمور، وبمشيئة الله سأزور القاهرة فى يوم من الأيام، وسأشاهد أيضاً الأهرامات، وعلى أى حال فإننا ساعدنا فى بنائها)، واحتاج رئيس الوزراء إلى ثمانية

عشر شهراً من الدبلوماسية فقد اقتنع بأن أبناء إسرائيل لم يبنوا الأهرامات.

إن مبادرة السادات لم تولد من فراغ، فقد ساعد فى مولدها حاكمان من طرفين متضادين على المسرح الدولى وهما رئيس شيوعى وملك عربى، ففى شهر أغسطس، بعد عودته من واشنطن، قام بيجين بزيارة رسمية إلى رومانيا، وهى الدولة الوحيدة من دول الستار الحديدى التى احتفظت بعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧، وقد قضى ثمانى ساعات فى اجتماع مغلق مع نيقولاى شاوشيسكو، زعيمها المتشدد وإن كان مستقلاً فى رأيه، وذهب السادات وراء بيجين إلى بوخارست، وكان يتوق لسماع انطباعات شاوشيسكو عن رئيس الوزراء الإسرائيلى الجديد، وهل هو متعصب كما يبدو؟ وأكد له شاوشيسكو بأن بيجين يريد حلاً، وألح السادات على السؤال القائل: (هل بيجين أمين وهل هو زعيم قوى بدرجة تمكنه من العطاء؟ وكان رد الرئيس الرومانى على السؤالين هو أجل).

وكان ذلك كافياً بالنسبة للسادات، الذى كان مصمماً على كسر سلسلة حروب الشرق الأوسط، وكان لديه أسبابه القوية التى تدعوه لتقوية الروابط الدبلوماسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة، الراعى التقليدى لإسرائيل.

وقام الرئيس الشيوعى بدوره وجاء الآن دور الملك العربى. لقد كان الملك الحسن ملك المغرب رئيس الدولة العربى الأكثر قبولا لفكرة إجراء حوار مع إسرائيل، وزاره إسحاق رابين بصفته رئيساً للوزراء متنكراً باستخدام شعر مستعار ونظارة شباب، وفى شهر سبتمبر بعد جلسة تمهيدية مع ممثل كبير للموساد وهو جهاز المخابرات، وجه الملك دعوة إلى موشى ديان لزيارة القصر الملكى فى مراكش، وبناءً على طلب من وزير الخارجية، أرسل الملك الحسن رسالة للقاهرة تقترح عقد لقاء مصرى إسرائيلى على مستوى عال.

وفى غضون أربعة أيام من عودة ديان إلى القدس، جاء الرد بأن المصريين على استعداد لذلك، واقترحوا عقد اجتماع إما بين السادات

وبيجين أو بين حسن التهامى نائب رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين وموشى ديان، وعلى الرغم من التحفظات التى أبداها ديان فإن بيجين كان مستعداً للتوجه فوراً إلى اجتماع القمة، إلا أن المصريين فى ذلك الحين أعادوا النظر فى الموضوع.

واستقر الرأى على إجراء المحادثات بين ديان والتهامى فى الرباط يوم ١٦ سبتمبر.

وبالرغم من أنه كان من المفترض أن تكون تلك المحادثات سرية، فقد كان الأمريكيون على علم بها من خلال المغرب فيما يبدو، وتوقف وزير الخارجية فى أوربا وهو فى طريقه للولايات المتحدة، واختفى فى بروكسل وانطلق بطريق البر إلى باريس ثم بطائرة خاصة إلى المغرب، بعد أن وضع شعراً مستعاراً وشارباً ونظارة شمسية على عينيه طوال الطريق، أما مسز راشيل ديان ومساعد وزير الخارجية فقد اتجهوا إلى نيويورك على متن الطائرة (سابينا) واعتذروا للطيار هنرى ليفى الذى كان قد تم إنقاذه من الطائرة سابينا المختطفة فى مطار اللد فى عام ١٩٧٢، عندما كان ديان وزيراً للدفاع وكان يتطلع لمكافأته على ضيافته.

وعلى الرغم من احترام كافة المجاملات فإن النجاح لم يحالف مؤتمر الرباط، وقال التهامى إن السادات وافق على فتح حوار مع إسرائيل، إلا أنه لن يجتمع مع رئيس وزراء إسرائيل ويصافح يده إلا بعد أن يقبل بيجين مبدأ الانسحاب الكامل من الأراضى المحتلة، وكان الانسحاب الإسرائيلى هو المشكلة الأساسية، وكان يشمل كما حدث قضايا السيادة والشرف الوطنى وبقاء السادات فى السلطة، وكان ديان فاتراً ولكن غير ملتزم وكان عليه أن يرد على رئيس الوزراء، وعلى نحو كان متوقعاً، عندما فعل ذلك، رفض بيجين تقديم أى تعهد بالانسحاب الشامل، والتزم التهامى بقوله وهو مسلم متشدد لا يشعر بالمودة تجاه إسرائيل، وأبلغ ديان بأنه لن ينعقد أى اجتماع للقمة حتى يجلو آخر

جندى إسرائيلى من الأرض العربية، وتقرر إجراء جولة ثانية من المحادثات بين ديان والتهامى بمجرد أن يتلقوا تعليمات جديدة من القدس والقاهرة.

إلا أن السادات لم يكن لديه صبر على الدبلوماسية السرية البطيئة، وكان يشعر بضيق تجاه التفاصيل وبعدم اكتراث تجاه البروتوكول، وكان عرضه الخاص بالذهاب إلى القدس ضربة نموذجية كبيرة ومذهلة اجتازت حاجز الشك التاريخى وأعلنت التحدى بجرأتها وبساطتها، إلا أنه أيا كانت توقعاته لم يكن بمقدور هذه المبادرة وحدها تبديد نسبة السبعين فى المائة التى تمثلها الأسباب النفسية فى الصراع العربى الإسرائيلى، بل إنها فجرت بالكاد نسبة الثلاثين فى المائة التى تمثلها الأسباب المادية.

وبالنسبة لمعظم الإسرائيليين كانت زيارة السادات خيالاً تحول إلى حقيقة وعندما وصل إلى مطار بن جوريون بعد انتهاء السبت اليهودى يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧، كان مضيفوه مازالوا يمزحون حول استحالتها وارتجالها.. نقل قائد فرقة موسيقات الجيش النشيد المصرى من إذاعة القاهرة، وقام صانع الأعلام فى القدس بصناعة المئات من الأعلام المصرية ذات اللون الأحمر والأبيض والأسود، وقام أحد أصحاب المطابع بتقديم ملصوق تذكارى باللغة العبرية والعربية والإنجليزية مكتوب عليها كلمة (السلام)، وتنافست أشهر وأرقى فنادق القدس الثلاثة على إرضاء زبائنهم المصريين والتشريف بهم بحللهم الملكية (وكانت من طراز الملك داود) وأعلن وكيل إحدى المنشآت عن مبنى فاخر مكون من أربع عشرة حجرة، فى مكان مناسب وبشروط يمكن التفاوض حولها يصلح لأن يكون مقراً للسفارة المصرية وعرضت (متاجر السلام) المعروفة تخفيضاً قدره ١٠٪ على جميع المبيعات من متاجرها.

وأعلن مذيع التليفزيون وهو يلهث فى مكبر الصوت بينما كان الرئيس المصرى ينزل درجات سلم الطائرة بوينج ٧٠٧ أن عهداً جديداً قد بدأ، وردد أحد مذيعى الراديو (إننى أراه ولكننى لا أصدقه) وكانت جولدا مائير واقفة بين

علية القوم الذين جاءوا لاستقبال السادات، وقال السادات: (سيدتى) لقد انتظرت طويلاً مترقباً لحظة لقائك، وردت السيدة البالغة من العمر ثمانين عاماً والتى صلت ودعت فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ أن يأتى اليوم الذى ينتبه فيه أحد القادة العرب ويحزن على موت شباب بلاده وسقوطهم فى ساحة القتال: (وأنا انتظرت طويلا مترقبة لقاءك، وها قد حان الوقت وها أنا فى انتظارك): وتوقف الرئيس لحظة ثم بدأ يصافح المستقبلين وانغمر فى مناقشة حية مع آرييل شارون الجنرال الذى تحول إلى رجل سياسة، وهو الذى غير مجرى حرب يوم الغفران بعبوره قناة السويس، وكان رئيس الأركان مودرخاى جور قد حذر الأمة فى مقابلة صحفية أثارت جدلاً كثيراً من أن يكون السادات قد خطط لشن هجوم مفاجئ تحت ستار زيارته لإسرائيل، وقال: قد تكون العملية كلها مجرد خدعة، وعندما قدموه للسادات ابتسم السادات وقال: (إننى لم أكن أخادع) ووقف الرئيسان كاتزير رئيس دولة إسرائيل والسادات رئيس مصر وكتفاهما متلاصقان وإلى جانبهما وقف مناحم بيجين بينما أخذت فرقة الموسيقى تعزف النشيدين الوطنيين للبلدين، وفيما بعد أخذت المدفعية تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف، وتقدمت المسيرة إلى القدس ثمانى عشرة حمامة بيضاء أطلقت فى الجو ووقف ما يقرب من ٢٠ ألف إسرائيلى وقد غمرتهم البهجة يستقبلون الموكب عند أبواب العاصمة بالخبز والملح وأناشيد السلام، وأخذت الأجراس تدق بينما اقترب موكب سيارات الليموزين من فندق الملك داود وأخذت حشود أخرى من الجماهير تنشد باسم السادات، وبعد ما أثاره وصول السادات من المشاعر وبعد جولته صباح يوم الأحد فى المدينة القديمة وأدائه صلاة الظهر فى المسجد الأقصى كانت الكلمات التى ألقيت فى الكنيست هى قمة هذا الحدث، وبالرغم من التوقعات التى سادت المجلس الذى ازدحم بأعضاء البرلمان السابقين والحاليين وبالدبلوماسيين وبالمحررين ومراسلى الصحف، فقد أوضح السادات وبيجين للحاضرين ولكل من استمع إليهما فى أرجاء العالم أن السلام لن يتحقق عن طريق الخطب، وما لم يعتزم أى من الزعيمين أى شىء غير عادى

بصورة كافية يمكن أن يحفز الطرف الثانى على تغيير موقفه، فقد كان السادات مصراً على أن يحقق السلام بشروط مصرية، ولم يكن بيجين بأقل منه فى شروطه الإسرائيلية. وإذا ما حكمنا على أداء الاثنين وممارستهما فى العلاقات الدولية نجد أن السادات قد ربح بسهولة مدهشة، فقد بدأ متحدياً ومرحاً، وهكذا أخذت إسرائيل موقف المدافع، وكان بيجين متعباً ولم يقل شيئاً غير متوقع، وهذا شأنه دائماً حيث لا يكون فى أحسن حالاته عندما يلقى خطاباً رسمياً، فهو لم يقدم أى فكرة جديدة، وليس هذا فحسب بل إنه لم يجد كلمات جديدة للتعبير عن الأفكار القديمة.

وفى خطابه الذى ألقاه باللغة العربية والذى استغرق خمساً وخمسين دقيقة عبر السادات بأسلوب أكثر دقة من ذى قبل عن استعداده لقبول إسرائيل كحقيقة واقعة فى حياة الشرق الأوسط، وقال: (إننا نرحب بكم لتعيشوا بيننا فى سلام وأمن، ولكى يتم تحقيق السلام مع العدل أقترح قيام حدود آمنة ضد العدوان وأى ضمانات أخرى دولية قد ترغب إسرائيل فيها، وفى مقابل ذلك تلا السادات قائمة كاملة بالمطالب العربية باستثناء ملحوظ وهو اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى، وأصر السادات وهو يجفف عرقه من على جبهته والجزء الأصلع من رأسه على الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى العربية التى تم احتلالها بالقوة بما فى ذلك القدس.. فالأرض ليست قابلة للتفاوض إنه لن يتنازل عن بوصة واحدة أو حتى مجرد قبول مبدأ المساومة حول الأرض.

وينبغى أن تكون القدس مدينة حرة ومفتوحة لجميع المؤمنين، وينبغى ألا يحرم منها أولئك الذين اعتبروها موطناً لهم لعدة قرون، وفوق ذلك أكد الرئيس المصرى أنه لن يوقع اتفاقية سلام مصرية ـ إسرائيلية منفصلة وكذلك فإنه لن يتفاوض على ترتيب جزئى آخر سوف لا يكون من شأنه سوى تأجيل الوصول إلى حلول حقيقية وبالرغم من تجاهله لمنظمة التحرير

الفلسطينية إلا أنه وصف المشكلة الفلسطينية بأنها لب وجوهر النزاع، وأكد قائلا إنه سوف يكون خطأ خطيراً تجاهل الحقوق الفلسطينية الخاصة بحقهم فى إقامة دولة وفى حقهم فى العودة.

وقاوم بيجين كل إغراء بالتفاوض من فوق هذا المنبر، وقال أحد السفراء الغربيين وكان حاضراً هذه الجلسة إن الأمريكيين قد حذروا رئيس الوزراء الإسرائيلى من الانزلاق إلى هذا الموقف، وأعلن بيجين عن رغبته فى قيام سلام حقيقى يتضمن تسوية كاملة بين الشعب اليهودى والشعوب العربية دون الانزلاق فى ذكريات الماضى، وعلى أى حال فإنه قد عرض على السادات دراسات التاريخ اليهودى الحديث، مشيرا إلى مغزى مذبحة حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ والتى قال عنها إنها فرضت على إسرائيل الضعيفة بواسطة جيرانها العرب الأقوياء. وأردف يقول: (إن الجيل الذى تعرض للإبادة قد أقسم على ألا يعرض الشعب اليهودى مرة أخرى للخطر، وقال رئيس الوزراء إن السادات يعلم أن مواقفهما من مسألة الحدود مواقف مختلفة متباينة ولكن لا يعنى هذا أنهما لا يستطيعان التفاوض، واقترح أن يتفاوضا على كل موضوع خلاف وألا يضع أى من الطرفين شروطاً مسبقة وقال (إننا سوف نتفاوض كأنداد، فليس بيننا مهزوم ومنتصر).

وبناء على مبادرة من بيجين تصافح الزعيمان فى نهاية خطاب رئيس الوزراء الذى ألقاه بالعبرية والذى استغرق أربعين دقيقة.

ولكن كان هناك شعور بخيبة الأمل بين الصحفيين وبين أعضاء المجلس، وربما ما كان ينبغى توقع حدوث معجزات، وبدلا من حدوث معجزات فقد تم تحديد الخطوط الفاصلة للسلام، وفى مؤتمر صحفى مشترك فى اليوم التالى أنهى السادات زيارته بأن وضع المسئولية والعبء كله على أكتاف بيجين قائلا:

(أدعو الله أن يرشد خطوات رئيس الوزراء بيجين وخطوات الكنيست

ذلك لأننا فى حاجة ماسة لاتخاذ قرارات صعبة وحاسمة، وإنما قد حملت نصيبى بالفعل بقرارى الحضور إلى هنا وأنا فى انتظار القرارات التى سوف يتخذها رئيس الوزراء بيجين وكذلك الكنيست).

وأصبح هذا يتردد كثيراً على ألسنة المصريين، فلقد قدم الرئيس التنازل الأكبر بذهابه إلى القدس وبالاعتراف بإسرائيل مغامرًا بحياته فى مصر وفى العالم العربى كله، وأليس هذا هو غاية ما كان يطمع ويتوق إليه الإسرائيليون دائمًا؟ والآن قد حان الوقت لمقابلة ذلك بالمثل، وعلى أى حال فإنه من الصعب الاعتقاد بأن السادات كان يتوقع إحراز نصر بسهولة، هذا فضلا عن وجود عنصر التمثيل فيما أقدم عليه، ولم يكن يؤخذ فى الخارج على محمل البراءة، وهو لم يكن بأقل من بيجين فى سجله التآمرى، وبالرغم من أنه يكره ويمقت التصرف المكتوب والمخطط، إلا أنه ما كان لينطلق فى تصرفه بناء على وحى الساعة، فكل مبادراته ابتداءً من عبور أكتوبر ثم توجهه إلى القدس إنما هى قائمة على الحسابات، وكان محقّاً فى توقعه من حدوث استجابة إسرائيلية كريمة، وهى المقابل الذى يمكن أن يلوح بها فى وجه منتقديه من العرب، ولكن بعد ثلاثين عاماً من الحرب فإنه سيكون من السذاجة توقع انهيار الجدران أمام أول نفخة فى النفير.

وكان بيجين، شأنه شأن معظم الإسرائيليين يذكر تاريخ السادات المتعدد الألوان، فهذا نشاطه المؤيد للنازية أثناء الحرب العالمية الثانية، وهذا دوره فى الثورة الناصرية ضد الملك فاروق، ثم شنه حرب يوم الغفران، لكن بيجين استبعد عداءه الغريزى ضد الزعيم المصرى إلا عندما يشعر بأن السادات يلعب لعبة قذرة.. فى اجتماعاته الخاصة مع رجاله كان يسمح لكراهيته بالظهور فكان يقول (إن السادات كاذب) وكان بيجين يميل إلى احتقار العرب بصفة عامة ولذلك فإنه كان يحتقر السادات بصفته عربيّاً.

ولكن فوق هذا كله فإن بيجين يدرك أن السادات يريد السلام وأنه ركب

المخاطر من أجل ذلك، ولقد لخص يحيل قديش موقف رئيس الوزراء بأنه موقف (الاحترام والشك) وفى إحدى المناسبات عندما حثه أحد أصدقائه بأن يفتح عينيه على السادات المراوغ والمخادع أجاب قائلا: (لقد وهبنا الله القدير عقولاً نحن أيضاً)، وكان بيجين يصدق دعايته هو نفسه حول تعرض إسرائيل للخطر، وكان مصرّاً على ألا يتخذ أى خطوة قد تعرض الدولة اليهودية للخطر، وحتى لو كان بيجين لا يشارك جنرال جور فى شكوكه العميقة إلا أنه لم يكن على استعداد ليأخذ صداقة السادات بثقة تامة، لكن كان الزعيم المصرى عدوّاً لفترة طويلة، وكان بيجين فى حاجة إلى دليل عملى على حسن نية السادات.

وهو أيضاً لم يكن يحب أن يبتعد كثيراً عن خلصائه فى حزب حيروت الذين آزروه فى حملته ضد حكومة العمل حول اتفاقيات سيناء، لقد كانوا فى حاجة إلى التأكد وكانوا فى حاجة إلى الوقت لكى يلحقوا ببيجين، وفوق ذلك كله فإن بيجين كان مصرا على ألا يقع فى شرك سلام شامل قد يؤدى إلى إعادة تقسيم أرض إسرائيل إنه كان يريد السلام ولكن ليس على حساب كل شىء حارب من أجله فى الانتخابات وفى الحكومة، إن السلام مع مصر له جاذبية خاصة لعدة أسباب فمصر أكبر دولة عربية وأكثرها قوة، وبدون مصر فلن يستطيع العرب شن حرب.. إن سيناء على عكس الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن التخلى عنها طالما أمكن الإبقاء عليها خالية من القوات المصرية والمطارات العسكرية، هذا وكان بيجين يأمل فى التوصل إلى وسيلة يمكن بها الاحتفاظ بالمستوطنة اليهودية. وبالرغم من احتجاجات السادات ضد ذلك وبالرغم من تشاؤم ديان تفاوضت إسرائيل على افتراض أن مصر سوف تكون قانعة بتحقيق سلام منفصل، إن كل ما يريده السادات وكان يسعى إليه هو استعادة أرضه السليبة ومساعدة أمريكية فى حل مشاكل مصر الاقتصادية الرهيبة، فإذا ما كان السادات فى حاجة إلى دليل يقدمه على أنه لم يتخل

عن الفلسطينيين فإن بيجين سوف يحاول أن يقدم له هذا الدليل.

وبهذه الروح توجه بيجين إلى الإسماعيلية في أعياد الميلاد سنة ١٩٧٧ في أول زيارة له لمصر وثاني لقاء قمة مع السادات، وإذا كان الإسرائيليون قد توقعوا استقبالاً حاراً وتلقائياً في مدينة القناة كالذي استقبل به السادات في القدس فإنهم سرعان ما أصيبوا بخيبة أمل، لقد تأججت المشاعر في طائرة العال ٤٤٧ التي انطلقت من مطار بن جوريون عندما أحاطت إحدى المضيفات بذراعيها برقبة بيجين وقد انفجرت في البكاء، لقد كان زوجها قد سقط صريعًا على الجبهة المصرية في حرب سنة ١٩٧٣، لكن المناخ في مطار أبوصوير العسكري كان باردًا بصورة واضحة فلقد أرسل السادات نائبه حسني مبارك لاستقبال الجانب الإسرائيلي، ولم تكن هناك أعلام ولا موسيقى ولا أناشيد، وعند الوصول إلى الإسماعيلية سمع عيزرا وايزمان رفيقه ديان وهو يهمس لبيجين: (انظر ليس هناك علم واحد إسرائيلي وليس هناك لافتة واحدة ترحب بقدومنا)، وعلى نقيض ذلك كانت الإسماعيلية تعج بالصور واللافتات والملصقات والأعلام وأقواس النصر ولكنها تمجد مصر ورئيسها وليس هناك أي مظهر لنجمة داود أو أي صورة لبيجين، وليس هناك أي ترحيب بالإنجليزية أو العبرية، هذا النمط الواحد أخذ يكرر نفسه طوال أشهر المفاوضات، ولكن الإسماعيلية قد صدمت الإسرائيليين أكثر من أي استقبال آخر، ذلك لأنها كانت أول بلد عقد فيها اجتماع على مستوى الوزراء، وكان المصريون العاديون وسائقو التاكسي والجرسونات وأصحاب المحلات التجارية كرماء ولطفاء وكانوا يقابلون الإسرائيليين بكلمة سلام - وشالوم العبرية، ولكن مصر ظلت مجتمعًا مغلقًا.

وقال أحد محرري الصحف العربية إن السلطات كانت تسعى إلى إقامة صلح دنيوي يرضي العقل ولا يرضي النفس. وكان السادات لازال يرمي ببصره إلى العرب وإلى العالم الثالث، ولقد أدهشه ألا تقف إلى جانبه أكثر

الدول العربية اعتدالا مثل الأردن والمملكة العربية السعودية بعد زيارته للقدس، وقال بطرس غالى وزير الدولة المصرى للشئون الخارجية إن هذا قد انعكس على موقف السادات الشخصى تجاه بيجين.

إن أول الاتصالات بين السادات وبيجين لم يكن بالأمر السهل، إن الاتصال الجيد هو الذى تحقق مع عيزرا وايزمان فقط، إنه كان الوسيط بين بيجين والسادات، وحتى لحظة توقيع معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩ لم تكن العلاقات بين بيجين والسادات طيبة، وبعد توقيع المعاهدة بدأ السادات يثق فى بيجين ـ لكنك فى إمكانك أن تثق بدون أى عواطف ـ وكان هناك دائما تحفظ فى علاقاتهما.

وبعد بدايتين زائفتين على مستوى أقل حاول بيجين فى الإسماعيلية أن يأخذ المبادرة من أجل إسرائيل، لقد حصل السادات على تقدير العالم كله خاصة فى الولايات المتحدة حيث رحبت إدارة كارتر بإخلاصه وصراحته الواضحة وجاذبيته وتعقله، وبدت إسرائيل وضيعة التفكير ومتمسكة بالنظريات، ورد بيجين على ذلك بمشروع سلام إسرائيلى كان يأمل فى أن يكون جذاباً بنفس المستوى، وفى سيناء اقترحت إسرائيل انسحابًا إسرائيلياً مرحليّاً ومتوازنًا بعملية نزع للسلاح على أن تبقى المستوطنات اليهودية فى نتوء رفح وأن يظل الجيش الإسرائيلى مسئولاً عن الدفاع عنها، أما فى الضفة الغربية وقطاع غزة فإن العرب الفلسطينيين الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسرائيلى منذ سنة ١٩٦٧ سوف يمنحون (حكمًا إداريّاً ذاتيّاً) فى ظل مجلس منتخب، وتحتفظ إسرائيل بالسيطرة على الأمن والنظام العام وأن يكون المواطنون الإسرائيليون أحراراً فى اقتناء الأرض والاستيطان فى هذه الأرض، ونصت المادة ٢٤ على تمسك إسرائيل بحق السيادة هناك، ولكن لما كانت هناك مزاعم أخرى بهذا الحق فإن إسرائيل تقترح ترك هذه المسألة مفتوحة واقترحت المادة السادسة والعشرين الأخيرة مراجعة الاتفاقية كلها بعد خمس

سنوات، ولكن فى المناقشات التالية التى جرت بين الأمريكيين والمصريين اتضح أن بيجين يعتبر هذا الحكم الإدارى الذاتى ترتيبًا نهائيًا وليس مرحلة انتقالية مؤدية للاستقلال، وهذا هو كل ما يمكن أن يطمع فيه الفلسطينيون.

ورفض السادات الشقين من هذا المشروع الإسرائيلى وأصر على عدم بقاء أى إسرائيلى مدنى أو عسكرى فى سيناء، أما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد طالب المصريون بانسحاب إسرائيلى كامل وبأن يقرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم وبعدم توقيع سلام منفصل، وفى مناقشاتهما الخاصة قال السادات لبيجين: (لا أستطيع أن أوافق على تسليم بوصة واحدة من الأراضى العربية.. إنها مقدسة ورد بيجين بقوله: (سيدى الرئيس إننى لا أستطيع أن أتنازل عن بوصة واحدة من أرض إسرائيل، إنها مقدسة).

وعاد ديان إلى إسرائيل وهو راض لأن الزعيمين لم يقطعا المحادثات، وهو قانع أيضاً بأن مصر جادة (لقد أقلقنى كثيرًا الثمن الذى تصر مصر على الحصول عليه منا وهو الانسحاب الكامل من سيناء، والالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية ومن الجولان وقيام دولة فلسطينية.

ولقد أدركت وجود مشاعر عميقة من وراء هذه الكلمات، إنها لم تكن مجرد كلمات تلقى وساورنى الشك فى أن إسرائيل عليها أن تواجه بديلين كلاهما صعب، فإما أن تقدم تنازلات قوية ثقيلة أو أنها لا تصل إلى معاهدة سلام مع مصر).

لقد صاغ بيجين مشروعه للحكم الذاتى فى سرية كاملة، ففى أول الأمر أملى صيغة المشروع باللغة العبرية، ثم أعاد كتابته باللغة الإنجليزية وبخط يده هو، ولما كانت كتابة رئيس الوزراء معروفة بعدم الوضوح للجميع إلا للقلة القليلة، لذلك فقط طلب من يهودا انفير المتخصص فى قراءة خط بيجين أن يكتب نسخة واضحة من هذه الخطة، وحمل بيجين هذه النسخة معه فى رحلة استكشافية لكل من واشنطن ولندن، حيث حاول أن يعرض آراءه على

كل من كارتر ورئيس وزراء بريطانيا جيمس كالاهان.

ولقد وجد كلا الرئيسين هذه الوثيقة أساسًا مشجعًا للتفاوض، ولكنهما أصيبا بالإحباط والقلق عند سماع بيجين يترجم آراءهما التى أسرّاً بها إلى بيجين إلى موافقة وتأييد وكانت هذه أولى المناسبات العديدة التى شعر فيها كارتر أن بيجين يرتكب خدعة معه.. وفقط عندما وصل بيجين إلى واشنطن سمح للفريق المرافق له بنسخ الخطة على الآلة الكاتبة.. بواسطة سكرتيرة فى السفارة الإسرائيلية كان بيجين حريصاً للغاية على تجنب أى مخاطرة بتسريب أى شىء ولو ضئيل عن المشروع.

وقد كره عيزرا وايزمان وزير الدفاع فى حكومة بيجين هذا الأسلوب الذى تنتهجه الحكومة القائمة على السرية البالغة، ولم يكن مقته لهذا الأسلوب مرجعه إلى أنه كان يترك فى الظل فحسب بل إن نقده لهذا الأسلوب قد يلقى ضوءًا على أسلوب بيجين كرئيس للوزراء فقال:

(لا يعمل بيجين بالاشتراك مع الحكومة إنما هو يعمل من خلال مكتب تابع له.. وزعماء على مثل هذه الشاكلة لا يحتاجون إلى مستشارين، إنهم يستغنون عن المستشارين المساعدين، ومثله غير قادر على أن يأخذ فى اعتباره وجهات نظر أو مقترحات لا تتطابق مع فلسفته الأساسية والناس الذين يعملون بالقرب من بيجين لا يقدمون مقترحات مختلفة، أو يقدمون سلسلة عريضة من البدائل، وهذا يعود إلى تجربتهم السابقة، تلك التجربة التى علمتهم أن مثل هذه البدائل ليست أمامها أى فرصة لأن تأخذ مكانها من التنفيذ، ويعود هذا أيضا إلى أن بيجين قد اختار مساعديه من نمط معين من الأشخاص والهويات السياسية المعينة، إنهم يفكرون كما يفكر هو، لقد تعلموا تخمين ما يريده بيجين وهم يتنافسون فى تقديم واقتراح الآراء التى يحبها بيجين ويفضلها، وبذلك يحوزون على موافقته).

وعلى الفور أدرك وايزمان الذى أصبح من حمائم الحكومة أن بيجين

يرى فى الحكم الذاتى وسيلة لتحديد الحكم الإسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من أن يكون أول خطوة نحو قيام دولة فلسطينية، ويقول وزير الدفاع إن هذا هو السبب الذى من أجله لا يتشاور بيجين مع أى شخص قد يحاول أن يبعده عن طريقه هذا.

وبالرغم من أن الحكم الذاتى فشل أمام أول اختبار له فى الإسماعيلية فقد ظل الإطار لجميع المفاوضات التى تلت ذلك بين إسرائيل ومصر حول المسألة الفلسطينية. ولم يكن السادات راضياً عن هذا المفهوم برمته ولكنه لم يتقدم بأى بديل قد يهيئ فرصة للتوصل إلى حل متفق عليه، وكذلك لم يفعل الأمريكيون.. لقد نجح بيجين فى تحديد شروط الحوار.

وتدهورت العلاقات بين إسرائيل وكل من مصر والولايات المتحدة فى الأشهر الثمانية الأولى لعام ١٩٧٧ من سيئ إلى أسوأ، ونظراً للهوة بين دولتى الشرق الأوسط أصبحت أمريكا شريكاً فى المفاوضات لا غنى عنه ولا بديل له، وصمم بيجين بأنه الطرف السيئ وأنه (عقبة فى سبيل السلام) لكنه لم يتزحزح عن موقفه الأساسى، وقال بيجين للجنة المركزية لحزب حيروت فى شهر يوليو: (أعتقد أننى عقبة حقيقية ـ ولكننى عقبة فى طريق الاستسلام ـ إلى جانب رفاقى فى الحكومة وفى الكنيست وفى الحركة).

ووعد منتقديه فى حزب حيروت وكذلك مؤيديه فى الحزب بأن مشروع إسرائيل للسلام سوف يفتح الآفاق أمام السلام والأمن واستقرار أرض إسرائيل.

وعندما فاز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ أدركت واشنطن موقفه المتطرف من مسألة الأرض، ولكن وزارة الخارجية الأمريكية كانت تميل إلى التقليل من مدى التزامه بأرض إسرائيل التى تمتد من البحر الأبيض إلى الأردن. ويقول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الأمريكى السابق لشئون الشرق الأوسط: إن وزارة الخارجية تلقت المشورة من أناس يعرفون أن بيجين يمكن أن يكون أيضاً سياسياً براجماتياً (عملياً)، وقد أوضح سوندرز

ذلك بقوله:

(لقد تم إقناعنا بأننا نستطيع أن نعمل معه، وإننا لن نتوقع بالضرورة الاصطدام بحائط صخرى من الأيديولوجية، إننا كنا نعرف أنه حازم فى وجهة نظره وكنا نعرف وجهة نظره هذه، وقد قيل لنا إنه فى مناسبات سابقة فى الحياة السياسية الإسرائيلية قد أدرك الحاجة إلى تغيير وجهة نظره فى مواجهة الرياح السياسية العاتية، وأعتقد أننا لم نتبين على التو الاختلافات بينه وبين الحكومة السابقة والمصاعب فى زحزحة بيجين).

وقد استطاع ويم كاندت، مستشار كارتر للأمن القومى لشئون الشرق الأوسط أن يرى بثاقب وبعد النظر قوة بيجين فى معرفته لما يريده، ومعرفة مدى استعداده لأن يدفع مقابل ما يريده فقد قال:

يتميز بيجين بأشياء لا تجدها عادة فى السياسيين أنه يتميز بوضوح إدراك - لما يريد أن يفعله وكذلك إدراك للحقائق السياسية وكيفية التعامل معها، أنه يعلم أن عليه أن يناور، وفى بعض الأحيان كان عليه أن يؤجل المناورة ولكنه لم يفقد قط وضوح رؤية هدفه، إنه كان يعرف دائماً إلى أين هو سائر، ولكنه كان قادرًا تمامًا على التكييف التكتيكى من حين لآخر، لقد كنت دائماً أذهل من كفاءته السياسية إذا ما أخذنا فى الاعتبار أكذوبة الأرض وأيضا القوى التى كان عليه أن يتعامل معها.

ومن الأمثلة على قدرته على المناورة صراحته الواضحة فيما يتصل بالضفة الغربية أثناء محادثاته مع كارتر فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ عندما كشف عن مشروعه الخاص بالحكم الذاتى، لقد كتب الرئيس كارتر فى مذكراته: (بدأ بيجين أكثر ليونة مما كنت أتوقع ولكننى اكتشفت أن كلماته الطيبة لها العديد من المعانى الأمر الذى لم يدركه مستشارى ولا أنا فى ذلك الوقت).. واشتكى المصريون من أن بيجين قد أدخل الأيديولوجية فى المفاوضات، ولقد انزعج بطرس غالى من براعته فى التحول من النهج القانونى إلى المنهج

الجدلى وغير من ذلك بقوله:

(يتفاوض بيجين كما لو كان محامياً، إنه مزيج من المحامى والبرلمانى البارع، إنه يستطيع أن يمزج ما بين الجدل القانونى والجدل الديماجوجى وأيضاً الجدل الأيديولوجى، ويستطيع أن ينتقل من مجال إلى آخر طبقا لإستراتيجيته الخاصة فإذا ما وجد نفسه ضعيفاً فى المناقشة القانونية فإنه يقفز إلى المنهج الديماجوجى أو الأيديولوجى ولقد اعتاد على هذا النوع من المناقشة البرلمانية فهو مجادل جيد.. وهو يستخدم نفس التكتيك فى المناقشة الخاصة كما فعل على منبر الكنيست).

ومن الصعب القول بما إذا كان هذا الأسلوب أسلوباً محسوباً ومسيطراً عليه، وما إذا كان متطابقاً مع عواطف حقيقية أو مشاعر دينية، وليس ذلك هو الحال مع عيزرا وايزمان أو مع رجل دين مثل يوسف بورج (وزير الداخلية وزعيم الحزب الدينى القومى والذى ترأس الفريق الإسرائيلى للحكم الذاتى).

فلا تراودنا نفس المشاعر، فلدى بورج وبيجين نفس المزيج من العقيدة الدينية والصهيونية وكل منهما رجل دين، لكن بيجين يفضل المنهج الدرامى والمسرحى.

لم يدرك المصريون بسرعة أن أيديولوجية بيجين ليست نسيجاً خارجيّاً طعم بها بل هى جذع الشجرة ذاتها، فالرجل هو الأيديولوجية، والأيديولوجية هى الرجل وعندما سأله مراسل (البى بى سى) المخضرم مايكل الكنز كيف يريد أن يذكره التاريخ أجاب بيجين: (على أننى الرجل الذى رسم حدود أرض إسرائيل وإلى الأبد)، لم يكن هذا طموحاً اكتشفه فى شيخوخته، فمنذ صباه فى بولندا عاش بيجين فى دير حركة جابوتيسكى الثقافى والفكرى، ولم يكن له حماس خارجى مثل شغف ديان بعلم الحفريات، ولم يكن له تاريخ منفصل.

تاريخ وايزمان فى القوات الجوية أو تاريخ يعقوب مريدور فى المهام الخارجية، لقد كان بيجين سياسيّاً طوال الأربع والعشرين ساعة من اليوم،

ويستطيع أن يكون مرحاً ولكنه نادراً ما يكون مسترخياً، إن اجتماعاته ونزوعه إلى العيش مع الآخرين إنما هو نتاج مهنته التى تملى عليه أن يكون مترقباً ويقظاً، ذلك أن النضال كان شغله الشاغل وبدرجات متفاوتة من الطلاقة يعرف بيجين تسع لغات هى العبرية والبيدشية والبولندية والروسية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والإسبانية واللاتينية، وفى شبابه كرس نفسه لدراسة الآداب الكلاسيكية الأوربية، وفى مرة أرسل برقية إلى زوجة الرئيس السادات يصحح لها سوء اقتباسها من مسرحية الملك لير لـ (شكسبير) ولكنه قرأ قليلا ولم يقرأ شيئاً البتة فى الأدب الحديث بعد ابسن، وفى سنوات المعارضة كان يجب أن يقرأ فى التاريخ والتراجم، ولكنه هجر الكتب تماماً عندما أصبح رئيساً للوزراء وإن كان قد قرأ مذكرات كيسنجر ونيكسون وهو فى المستشفى.

وهو يتصفح معظم الصحف العبرية وكذلك ما يقرب من نصف دستة من الصحف الأمريكية والأوربية، وقبل أن يصبح رئيساً للوزراء كان يذهب مرتين فى الأسبوع إلى السينما خاصة لمشاهدة الأفلام الغربية، وكان يتسلل إلى مقعده فى السينما بعد إطفاء الأنوار وكان يتسلل خارجاً قبل أن تضاء الأنوار إيذاناً بانتهاء العرض، وهو مولع بالإذاعة والتليفزيون وكان مسلسل دالاس من العروض المفضلة لديه، بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة، ولكنه نادراً ما يحضر حفلاً موسيقياً أو يتوجه إلى المسرح أو صالات العروض الفنية، ويوماً عندما اشترك فى أداء إحدى الأغنيات قالت له ابنته حاسيا إنه أفضل فى إلقاء الخطب من الغناء، وهو يعيش حياة مقتصدة غير متزمتة ذلك لأن أى شىء فاخر أو دخل فى الطعام أو فى الزخرف فهو غريب عنه، لقد كان بيجين رجلا من جيل الصحراء بصورة لا يمكن تغييرها أو شفاؤه منها.

ومنذ الأيام الأولى لمبادرة السادات تبنى الممثلون الإسرائيليون الثلاثة الرئيسيون - بيجين وديان ووايزمان - أدواراً منفصلة ولكنها مكملة بعضها للبعض الآخر، فقد وضع رئيس الوزراء الأهداف وأسلوب الدبلوماسية

الإسرائيلية وهو الذى اتخذ القرارات، أما ديان فقد كان دائم البحث والتنقيب عن تسوية الخلافات وإعادة تحديد بنود الاتفاق محاولا انتزاع التنازلات من زعيمه ومقدماً بعض الأفكار، ولم يكن إسهام وايزمان بأقل أهمية فى الفترة التى سبقت مؤتمر كامب ديفيد، فقد عمل على استمرار الاتصالات الشخصية، وفى أدنى نقاط المفاوضات ظل وايزمان هو الإسرائيلى الذى كان فى إمكان المصريين التحدث معه، وهو الإسرائيلى الذى أقنع السادات بأنه لازال فى الإمكان التوصل إلى سلام، وكان وايزمان أول إسرائيلى باستثناء بيجين قابله الرئيس المصرى على انفراد أثناء زيارته للقدس، وقد قال السادات لرئيس الوزراء بيجين: (إننى أحب عزرا) وقد مضت عدة شهور بعد ذلك قبل أن ينطق اسمه (عيزرا) بصورة صحيحة.

وكان ديان ووايزمان مُصرين تماماً على ألا يدعا فرصة السلام هذه تفلت من أيديهم، وبالرغم من أن وزير الدفاع كان عضواً فى حزب حيروت إلا أن إخلاصهما لرئيس الوزراء ولمبادئه ومثله لم يكن بالإخلاص الذى لا حدود له.

وكان هذا ميزة وأيضاً نقيصة فى نفس الوقت، لقد مكن هذا من تحقيق نوع من المرونة ولكنه فى نفس الوقت كان تحذيرًا لرئيس الوزراء لأن يحكم قبضته عليهما.

لقد كان ديان يحظى بإصغاء الأمريكيين له، أما وايزمان فقد كان على صلة طيبة بالمصريين، وكان سيروس فانس يشعر بالقلق إزاء غليان وحماس وايزمان الشديد وقد قال:

(إن عيزرا رجل شديد الجاذبية، وشديد الحماس وكفء إلا أنه ينزع إلى أن يكون شديد التفاؤل بصورة مبالغ فيها إنه لا يواجه الحقيقة بصورة كافية، وهذا ما لا تستطيع أن تتهم به ديان، فديان يستطيع أن يرى كل المآزق والشراك، وأحيانا ما يجرف وايزمان الحماس، ولذلك فإننى كنت أشعر براحة

أكثر عندما انتُزع شىء من ديان ذلك لأنك تشعر بأنه يرى الحقيقة المجردة القاسية، ولم أكن لأشعر بهذا الشعور مع عيزرا، إننى شديد الميل إلى عيزرا وأنا متأكد أنه وزير دفاع رائع ولكن ليست لديه الطاقة التى لدى ديان).

وفى مجلس الأمن القومى قال وليم كوانت عن وايزمان إنه نافد الصبر فى مواجهة مجادلات بيجين الشرعية والقانونية وفى مواجهة ما كان يقوم به بيجين من صياغة وإعادة صياغته للاتفاقية، لقد كان وايزمان يتوق إلى التوصل إلى اتفاق، وكما قال كوانت إنه كان مستعداً لأن يقول فى أى لحظة من لحظات المحادثات: (دعونا نوقع ونخرج من هنا).

لكن أحد كبار الدبلوماسيين الأمريكيين، الذين لازالوا يتعاملون مع مشاكل الشرق الأوسط، ولذلك ينبغى أن يظل اسمه مجهولا، قد قال إن السلام ما كان ليتحقق بدون اشتراك هؤلاء الإسرائيليين الثلاثة.

(لقد كان إسهام وايزمان هو منع الإحباط الذى كان يشعر به المصريون خاصة السادات من دبلوماسية بيجين ومنع الغليان، بحيث لا تدمر عملية السلام، لقد نجح المرة تلو الأخرى فى الحفاظ على استمرار العلاقات الشخصية بين القادة الإسرائيليين والمصريين وإعطائهم الأمل فى الاستمرار حتى بعد أن يكونوا قد فقدوا الأمل).

ونادراً ما كان المصريون يشعرون بالراحة فى تعاملهم مع ديان، وقال المتحدث الرسمى باسم ديان وهو تفتالى لافى: (لقد كان هناك برود يخيم على العلاقة بين ديان والسادات منذ اللحظة الأولى التى التقيا فيها فى مساء يوم السبت من شهر نوفمبر عندما نزل السادات من الطائرة).

لقد قال له السادات: (لا تقلق فكل شىء سوف يسير سيراً طيباً)، وفى السيارة التى أقلت ديان ود. بطرس غالى إلى القدس سأل ديان بطرس غالى قائلا:

هل أنتم مستعدون لتوقيع سلام منفصل؟ وأجاب بطرس غالى: (لا) وقال

ديان إنه أساء فهم رد فعل العرب، ونقل بطرس غالى هذا الحوار إلى السادات وإلى الأمريكيين، وفسر السادات ذلك على أنه يعنى أن ديان لا يثق فيه، وقال أحد مساعدى السادات إن السادات لم يكن يشعر بارتياح فى وجود ديان، فقد كان يشعر بأنه الإسرائيلى الذى لا تستطيع كسبه.

لقد كان كل من السادات وديان سياسيّاً داهية، ولم يكن أحدهما يثق فى الآخر كثيراً، ولذلك فإن ديان لم يشترك فى ذلك النوع من العلاقة المصطنعة التى قامت بين وايزمان والسادات.

ويقول بطرس غالى إن ذلك لا يعود إلى ذكريات المصريين لحرب ١٩٥٦، ١٩٦٧ أو إلى شهرة ديان فى المراوغة والخداع، إن ما باعد بينهما هو ما عرف عن ديان من أنه خليط من الخجل والغطرسة، ولعب وايزمان دور الوسيط بين السادات وديان وكذلك بين السادات وبيجين، ويذكر غالى قائلا:

(إنه - ويقصد وايزمان - قد يقول إن ديان يشعر بالاكتئاب، فما رأيكم فى دعوته على العشاء، أو ما رأيكم فى الاتصال به هاتفيّاً؟ إنه قد يقول أشياء كهذه: (إننى فى وضع صعب، لقد رآنى السادات أربع مرات، وديان رجل خجول ولكنه لم يقابل السادات.. (إن بيجين يكن احترامًا شديدًا لديان كرجل من رجال الصابرا (اليهودى المولود فى فلسطين)، وكجنرال إنه ينصت لديان ويستمع إليه ولكن ليس بالقدر الكافى، لقد كان لى مع ديان محادثات طويلة وكثيراً ما كان يقول: (لا أستطيع أن أعدك بشىء فلو كنت أعمل مع بن جوريون لكان فى استطاعتى أن أعطيك ردّاً فى خلال ساعتين)، لكنه لم يكن قط يعقد مقارنة مع بيجين، ولكن هذه المقارنة كانت تفهم ضمنا، فالإسرائيليون يمكنهم أن يطلقوا النكات على بعضهم ولكنهم لم يتصفوا أبداً بعدم الإخلاص، ولم أشعر أن ديان كان يتفادى تعليماته، لقد كان ديان كبير المفاوضات وكان يتفاوض بقدر من الخيال، وكان محددًا ودقيقًا كمفاوض ولم يَعِد قط بشىء لا يستطيع تحقيقه، لقد كان يريد أن يحدد ما يعنيه وما

نقصده نحن.

لم يكن ديان بالرجل غير المخلص أو غير الوطنى ولكنه كان يدرك أن بيجين على استعداد لتقبل الفشل، ولعله يكون الوحيد الذى يدرك ذلك فى الفريق الإسرائيلى، وعندما كان السادات يضع ثمناً مرتفعاً للسلام كان بيجين يقول (لا) ويتحمل النتائج وحاول ديان جاهداً أن يحد من إمكانات وحدود التفاهم والقبول ومن أساليبه المحببة أن يقنع الآخرين ـ مثل وايزمان أو الأمريكيين ـ يعرض وجهات نظره وأفكاره على أنها وجهات نظرهم وأفكارهم.

ومن أساليبه كذلك خاصة فى الظروف الصعبة، أن يقدم صيغة وسطاً بصفته الشخصية موضحاً للمصريين وللأمريكيين أنه لا يلزم الحكومة بذلك ثم يتحدى بيجين فى أن ينكر أو يعترض على وزير خارجيته.

كان أول ناتج ملموس لقمة الإسماعيلية هو التوصل إلى اتفاق بتشكيل لجنتى عمل إحداهما سياسية والأخرى عسكرية، وذلك لمباشرة تفاصيل المفاوضات. وبدأ عمل اللجنة السياسية بصورة مأساوية فى القدس فى السابع عشر من يناير، لقد زار الرئيس كارتر السادات فى أسوان فى أوائل ذلك الشهر حيث أعلن عن نظرية أمريكية جديدة عن المشكلة الفلسطينية.. لقد قال: (ينبغى أن يكون هناك قرار حول المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها، وينبغى أن تعترف المشكلة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وأن تمكن الفلسطينيين وتتيح لهم الاشتراك فى تقرير مستقبلهم بأنفسهم)، وكانت هذه الصيغة قد وضعت بعناية كبيرة بحيث لا تثير استنكار الإسرائيليين ورفضهم، وكان أول رد فعل فى القدس هو: (إنا نستطيع أن نقبل ذلك)، ولكن بيجين أوضح أن إسرائيل لن تقبل إعلان كارتر هذا على أنه غطاء لإعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير.

(إننا لا نحوم حول الموضوع، إن تعبير تقرير المصير كما هو مفهوم فى القانون الدولى يعنى قيام دولة فلسطينية، وإننا لن نوافق على قيام هذا

الخطر المميت بالنسبة لإسرائيل).

لقد فشلت محادثات القدس منذ وصول الفريق المصرى إلى مطار بن جوريون، لقد رحب ديان بوزير خارجية مصر محمد إبراهيم كامل بما أسماه هو الترحيب العام المهذب المعتاد فى مثل هذه المناسبات، وبدلا من أن يرد بنفس الأسلوب أخرج كامل ورقة من جيبه وقرأ منها مطالب مصر المتشددة:

(أنه لن يكون هناك سلام للأرض، ولن يكون هناك سلام مع إنكار الحقوق القومية للشعب الفلسطينى وعلى رأسها حق تقرير المصير).

وبدلا من استمرار هذا الخلاف الذى نشب فى المطار انتظر ديان حتى صباح اليوم التالى، وفى إجابة لسؤال عدائى فى مؤتمر صحفى قال: من الأفضل أن تنساب مبادرة السلام من بين أصابع أيديهم بدلا من أن ينتزع أمن إسرائيل وسلامتها من بين أيديهم، إن إسرائيل لن تتفاوض والمسدس مصوب إلى رأسها، وكان هذا أمراً صعباً للغاية على المصريين لتقبله، ولكن بيجين أضاف إلى هذه الإساءة فى حفل عشاء فى ذلك المساء، رغم أن رئيس الوزراء ووزير الخاجية كامل قد اتفقا سرّاً على وقف حرب الكلمات هذه، فقد ألقى بيجين خطاباً سياسيّاً محدداً فيه الشروط التى لن تقبلها إسرائيل وهى: إعادة تقسيم القدس، وإقامة دولة فلسطينية والعودة إلى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧، وكتب ديان فى مذكراته:

(وفى تدفقه البلاغى أساء بيجين عن غير قصد إلى محمد إبراهيم كامل بوصفه إياه بأنه شاب صغير، وهو غير مدرك أن مثل هذا الوصف يبدو فى أذن المستمع العربى وصفاً تحقيريّاً، وعندما جاء دور كامل ليلقى كلمته وكان مضطرباً ويشعر بالإساءة التى وجهت إليه فإنه بدلا من أن يقرأ الخطاب المعد مسبقا قال ببساطة إن مكان مناقشة الموضوعات التى أثارها رئيس الوزراء هو اللجنة وليس هذا المكان، ثم جلس ولم يرفع كوبه فى نخب رئيس إسرائيل).

وعلق وايزمان فيما بعد (أن بيجين كان مقتنعاً تماماً بأنه يحمل الحقيقة فى جيبه الخلفى)، ولم يستطع بيجين مقاومة إغراء إعطاء كامل درساً فى التاريخ اليهودى ومحاضرة فى فن سياسة الدولة.

وفى مساء اليوم التالى فاجأ السادات الجميع بما فيهم وفده فى إسرائيل باستدعاء وزير خارجيته كامل إلى القاهرة، وعاد المصريون على عجل وفى حالة من الارتباك، ولم يعرف الإسرائيليون ولا الأمريكيون عندئذ ما أصاب المصريين، وجاء فى تفسير رسمى من إذاعة القاهرة أن السادات تصرف هكذا عندما أصبح واضحاً من التصريحات التى أدلى بها بيجين وديان أن هدف إسرائيل هو تأمين التوصل إلى حلول جزئية لا يمكنها أن تحقق سلاماً شاملاً عادلاً ودائماً، وفى طريقه إلى مطار بن جوريون أخبر كامل ديان أن الرئيس السادات قد أساءه كلمات بيجين، وقال: وليس مرجع ذلك ما قاله بيجين فى خطابه ولكن لأنه ألقى مثل هذا الخطاب منتهكاً بذلك الاتفاق الذى تم التوصل إليه قبل ذلك بساعات ثلاث فقط، وهو الاتفاق الذى أرسل به كامل تقريراً إلى السادات ووافق عليه السادات.

وزادت العلاقات سوءًا نتيجة لموضوع المستوطنات الوهمية فى صحراء سيناء، وكان آرييل شارون وزيراً للزراعة ومسئولاً مسئولية خاصة عن سياسة المستوطنات، وكان جنرالاً متقاعداً يعرف شبه جزيرة سيناء أكثر مما يعرفها أحد غيره فى الحكومة الإسرائيلية ولقد حارب فى سيناء ثلاثة حروب وتقلد منصب قائد الجبهة الجنوبية، وكان بيجين يستشيره فى الشئون الإستراتيجية وشئون المستوطنات، وبينما كان رئيس الوزراء فى واشنطن فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ اتصل به شارون تليفونياً وأكد على أن تقوم إسرائيل بملء الثغرات فى خط المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء، ففى ضوء مطالب مصر المتطرفة كان يريد أن يعزز موقف إسرائيل التفاوضى، ولقد أوضحت تجربة سنة ١٩٤٨ أن موقع المستوطنات عامل هام وحاسم فى رسم الحدود.

ونفس الشىء يمكن تطبيقه إذا ما كانت إسرائيل تتفاوض للحفاظ على شريط فى شمال سيناء، وكان بيجين مقتنعاً بهذا الرأى فكلف شارون بالسير قدماً فى هذا المخطط، وكانت وجهة نظر وزير الزراعة شارون هى إقامة مستوطنات وهمية مكونة من برج للمياه وخندق للأمن وبيوت متنقلة على عجلات، وذلك فى المواقع الحساسة ودون أن يضع فيها أكثر من قوة رمزية.

وشجب وايزمان هذا المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء فى وقت متأخر واصفاً إياه بأنه صورة ممسوخة سيئة لتاريخ المستوطنات اليهودية فى إسرائيل، وعلى أى حال فقد حظى هذا المشروع بالموافقة الإجماعية وبدأ العمل فيه، ولم يصدر أى بيان فى هذا الشأن ولكن إذاعة إسرائيل حصلت على هذه القصة وإذاعتها، وكان المصريون والأمريكيون غاضبين من هذا المشروع الذى اعتبروه محاولة لإجهاض المفاوضات، وترك شارون وحده لتحمل حدة الانتقادات وما أثارته فكرة المستوطنات الوهمية هذه من سخرية.

ولم يخف بيجين دوره فى تكليف شارون بالمضى قدماً فى تنفيذ هذا المشروع.

وسرعات ما خبا الموضوع كله واختفى لكنه ترك مذاقاً مراً. ولم تكن هذه هى المرة الأخيرة التى سار فيها بيجين خلف شارون فى حقل من الألغام، لقد كان سريع الإذعان للخبرة العسكرية وكلفه ذلك كثيراً من المفاجآت السياسية.

ولم تكن وجهة وايزمان القائلة بأن هذه المستوطنات الوهمية تكلف إسرائيل فرصة الإبقاء على المستوطنات فى سيناء وربما أيضا المطارات العسكرية، بالوجهة المقنعة، لقد كانت الأرض تعنى بالنسبة للسادات تماما ما تعنيه لبيجين، لقد كان السادات مصرّاً على استعاذة كل سيناء حتى آخر بوصة منها، ويستطيع الإسرائيليون أن يأتوا إلى سيناء كسياح ولكن لا كمستوطنين أو كجنود فى حامية.

وبالرغم من هذا الفصل الإضافى فقد ظلت البؤرة الأساسية للمناقشة هى الأرض - الفلسطينية المحتلة، الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد وصلت المحادثات مع الولايات المتحدة إلى درك أسفل جديد فى مارس من عام ١٩٧٨، عندما زار بيجين واشنطن مرة أخرى وحاول الأمريكيون استخدام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كعتلة لتحريك مقاومة إسرائيل لأى حل وسط بالنسبة للأرض، وقد اعترف بيجين بأن حكومته ملتزمة بقبول الحكومة السابقة لهذا القرار.

لقد قال: (ينبغى الالتزام بالمعاهدات والاتفاقيات) وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينص على الانسحاب من أراض محتلة وعدم السماح بالاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب، ولكن مستشارى بيجين لم تروعهم مثل هذه الاعتبارات، إنهم يجادلون بأن القرار لم يحدد الانسحاب من كل الأراضى، وأن حرب عام ١٩٦٧ كانت حرب دفاع عن النفس بالنسبة لإسرائيل (ولذلك فإن التغيير فى الحدود أمر مسموح به)، وأن سيادة الأردن على الضفة الغربية لم تحظ قط باعتراف المجموعة الدولية، وفى حفل وداع أوضح كارتر ما وصفه بلاءات بيجين الست، وقال ديان (بالرغم من أن كارتر قد تكلم بنغمة مملة إلا أنه كان هناك غضب فى عينيه الزرقاوين الباردتين، وكانت نظرته حادة مثل الخنجر، إن وصفه لموقفنا وصف صحيح فى أساسياته ولكن لم يكن فى استطاعته أن يعبر عن ذلك الموقف بصورة أكثر عدوانية، واختتم كارتر حديثه بقوله: (إن بيجين قد أصبح عقبة كئوداً فى طريق تقدم المفاوضات)، وإذا لم يحدث تحرك فى الجانب الإسرائيلى فلن يكون هناك سلام، وهذه اللاءات هى:

- لا نرغب فى الانسحاب السياسى أو العسكرى من أى جزء من الضفة الغربية.

- لا نرغب فى وقف إقامة مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات

القائمة بالفعل.

ـ لا نرغب فى سحب المستوطنين الإسرائيليين من سيناء، أو حتى تركهم هناك تحت حماية الأمم المتحدة أو حماية المصريين.

ـ لا نرغب فى الاعتراف بأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينسحب من منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة.

ـ لا نرغب فى منح العرب الفلسطينيين سلطة حقيقية أو صوتاً فى تقرير مستقبلهم لدرجة أنهم يستطيعون الاختيار بين البدائل المحددة عاليه (الارتباط مع إسرائيل أو الأردن أو استمرار فى إقامة حكومة انتقالية خاصة بهم).

وبعد ذلك بأسابيع ستة عندما عاد بيجين إلى واشنطن للاشتراك فى احتفال أمريكا بذكرى استقلال إسرائيل كتب كارتر يقول: (أعتقد أنه لن يتخذ الخطوات الضرورية لجلب السلام لإسرائيل ـ إنها فرصة قد لا تتكرر أبداً، وحاول بيجين أن يؤكد الموقف الإيجابى لإسرائيل لكنه ترك لديان استكشاف طريق لتقدم المفاوضات، ولم تستطع محاولته الأولى نحو تحقيق موقف أكثر مرونة سوى إذابة القليل من الثلج، لقد وضع وزير الخارجية أربعة مبادئ للسياسة الإسرائيلية هى:

١ ـ إن قرار رقم ٢٤٢ أساس للتفاوض بين إسرائيل وجيرانها العرب: مصر والأردن وسوريا ولبنان.

٢ ـ إن مشروع إسرائيل للسلام والذى يتضمن حكماً ذاتياً ليهودا والسامرة، ولقطاع غزة مشروع يتفق مع مبادئ القرار رقم ٢٤٢.

٣ ـ إذا ما قدم العرب مقترحات مقابلة فإن إسرائيل سوف تناقشها بما تستحقه.

٤ ـ إن قرار ٢٤٢ يطالب بإجراء مفاوضات.

وهذا العرض الجديد تم رفضه باعتباره مناورة فى العلاقات العامة.

وبدأ السادات فى وضع تواريخ نهائية وفى رواية أنه حدد شهر يوليو وفى رواية أخرى أنه حدد شهر أكتوبر، وبدأ فى التحدث عن خيار الحرب، وخرج وايزمان من اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن أنه أصدر أوامره للجيش ليستعد للمعركة.

وفى مناسبة أخرى مزق وزير الدفاع ملصوقاً عن السلام، وفى إجابة عن أسئلة أمريكا قال بيجين فى الثامن عشر من يونيو إن إسرائيل راغبة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتى فى الضفة الغربية أن تتدارس وتتفق على صيغة مستقبل العلاقات بين الأطراف، وهذا يبعد كثيرا عن مطلب أمريكا بأن تكون إسرائيل مستعدة لمناقشة السيادة بعد فترة انتقالية، رفض المصريون هذه الصيغة على أنها مثل آخر على تصلب بيجين وعناده.

ولم يجعل ديان الوضع أفضل بقوله إن معظم الوزراء الإسرائيليين قد رفضوا إلزام إسرائيل بأن تقرر بعد خمس سنوات الوضع الدائم لهذه الأراضى؛ ذلك لأنهم يعتبرون الإدارة الذاتية هى الإطار الدائم لهذه الأراضى.

وكان من المتوقع أن ترفض إسرائيل اقتراحاً مصرياً بإعادة الضفة الغربية وغزة للعرب لفترة مؤقتة. وحاول السادات فى أوائل يوليو أن يذهب من وراء بيجين لعقد محادثات فى النمسا مع وايزمان وزعيم حزب العمل شيمون بيريز، ولكن رئيس الوزراء بيجين وضع حداً لذلك بأن أعلن بحدة قائلا: (ينبغى أن يوجه الحديث إلىّ أنا) وحذرت الحكومة السادات قائلة إن جميع الاتصالات فى المستقبل ينبغى أن تجرى مع بيجين أو من يحدده كممثل له.

(إن سلطة التفاوض فى مصر أو مع أى دولة فى حالة حرب مع إسرائيل إنما هى قد أعطيت للحكومة ولم يمثلونها، وسوف يكون مستوى التمثيل فى عملية المفاوضات متساوية، وسوف يرأس رؤساء الدول أو من يخولونهم من

الوزراء فريق المفاوضات).

وأول خرق لحائط العناد المتبادل جاء نتيجة لاجتماع غير ناجح بين وزراء خارجية كل من أمريكا وإسرائيل ومصر فى قلعة ليدز فى كنت، وكانت هذه إحدى المناسبات التى جرب فيها ديان حظه، فلقد سلم وزير خارجية أمريكا سيروس فانس مذكرة عبر فيها عن وجهة نظره الشخصية وقال إنها مقدمة (على مسئوليتى الشخصية)، واقترح فيها أن تعلن إسرائيل استعدادها لمناقشة مسألة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتى، وفى نفس الوقت كرر أن إسرائيل لن تنسحب أبداً إلى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧، حتى مع ترتيبات الأمن ولكنها سوف تناقش أى اقتراحات عربية محددة من أجل السلام تقوم على الحل الوسط بالنسبة للأرض. وغضب بيجين من فكرته هذه ومن تمرده وعصيانه.

(لقد أخبرت رئيس الوزراء أنما قلته وكتبته إنما يعكس موقف الحكومة، على حسب مفهومى، ولذلك فإننى لن أمتعض أو أستاء إذا ما هو أو الحكومة أبطلته أو سحبته، إننى سوف أقبل بحكمهم وأخطر فانس طبقاً لذلك ـ وأضفت قائلا: (إننى على أى حال لست بمستطيع أن أدبر المفاوضات دون أن يسمح لى بأن أتقدم بالأفكار والمقترحات، بينما أؤكد أنها تمثل وجهات نظرى الشخصية التى ربما قد لا توافق عليها الحكومة.

وكان هذا موضوعاً كثير الترديد حيث كنت أنا وبيجين مصرين على موقفنا حياله، ولم أكن مستعداً لأن أتصرف بصورة أخرى، وكان بيجين يعلم هذا تماماً، وكان السبيل الوحيد المفتوح أمامه إذا ما أصر على أن أحذو حذوه هو أن يبحث له عن وزير خارجية غيرى).

لكن الوقت كان مبكراً جداً فى حكومة بيجين لأن يتخذ رئيس الوزراء مثل هذه الخطوة العنيفة المتطرفة، بالرغم من أن ديان قد ذهب بعيداً وأبعد بكثير من موقف الحكومة، وكانوا جميعاً يعلمون ذلك، وكان بيجين لا يزال فى

حـاجـة إلى ديان، ولدهشـة وزير الخـارجـيـة اقـتـرح بيجـين أن تؤيد الحكومـة مـذكرته لسيـروس فـانس وأن تعـرض هذه المذكرة على الكنيـست للمـوافقـة عليها، ولقد حصلت المذكرة على موافقة ٦٤ عضـوًا مقابل ٣٢ عضوًا وذلك فى ٢٤ يوليو، وقال ديـان بكثيـر من الرضا والقناعة (إن المذكرة التى قدمتها إلى فـانس فى قلعة ليز قد أصبحت وثيقة رسمية تمثل مـوقف إسـرائيل)، وبالرغم من الجمـود المستمـر فـإن (صيغـة ديان) قـد مهـدت الطريق أمـام مغامرة الرئيس كارتر اليائسة والمعروفة باسم (قمة كامب ديفيد).

ومرة أخـرى سمـح بيجـين لجنرال سابق بأن يثير غضبه ويضايقه، ولكن هذه المضايقة، هذه المرة كانت فى موضوع وقضية أكثر رقة ولطفاً.

■ ■ ■

الفصل التاسع عشر

معسكر اعتقال فاخر

كتب زبيجنيو بريجينسى مستشار الأمن القومى فى مذكرة سرية للرئيس جيمى كارتر يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٨ ما يلى: (يبدو لى أنه إذا خرجنا على رءوس الأشهاد وجانبنا النصر، فستتعرض سياستنا فى الشرق الأوسط لحالة من الفوضى الشديدة، كما أنه سيتم رفض السادات وآخرين معه أو أنه سيتحولون إلى اتجاه راديكالى وبعبارة أخرى، إذا خرجنا على الملأ فلابد أن نفوز).. وعقد الرئيس - وهو يدرك تماما المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا الموقف - مؤتمر قمة مع الزعيمين المصرى والإسرائيلى فى كامب ديفيد، وهى استراحته الرسمية فى تلال منطقة ميرلاند التى تبعد عن واشنطن سبعين ميلا، وخلص إلى أنه من الأفضل العمل من خلال بيجين وليس ضده.

وبدأ المؤتمر يوم ٥ سبتمبر وانتهى بعد ذلك بثلاثة عشر يوماً، كانت الوفود الثلاثة خلالها فى حالة من الإعياء الجسدى والذهنى الشديد. كان ذلك المعسكر الذى تحيط بها أشجار كثيرة، قد أقيم من أجل فرانكلين د. روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية، وقام الرئيس أيزنهاور بتغيير اسمه من شانجرى لاه إلى كامب ديفيد وفقاً لاسم حفيده الأكبر، ووجد (عيزرا وايزمان) ذلك المكان يثير الشعور بالخوف من الأماكن المغلقة رغم ما يحيط به من طيور السنجاب. أما موشى ديان، فلم يشعر بالارتياح فى قلب النباتات الغريبة وبساط أوراق الخريف البنى اللون المائل إلى الذهبى، وكان الشىء المغرى فى ذلك المكان هو أنه من الممكن الإبقاء على الصحافة وروادها فى وضع حرج يضطرون معه للدفاع عن أنفسهم، وكان الزعماء الثلاثة ورفاقهم

ينعمون فى ذلك المكان بعالم خاص من الكبائن والممرات وملاعب البولينج والتنس وحمام سباحة وقاعة للبلياردو وسينما. وبعد أن عاد ديان من مهمة استطلاعية وقدم تقريراً عن سياج الأمن المخيف، أطلق (بيجين) عليه اسم (معسكر الاعتقال الفاخر)، ولما كانت مدة بقائهم هناك طويلة فقد تندر (بيجين) بقوله إن عليه أن يرسل إلى هارب جماعة الارجون القديمة (ياكوف مريدور) لتهريبهم، وسلم الإسرائيليون بأن الكبائن موضع تجسس، لكن بريجينسكى أصر على عدم وجود شىء من هذا القبيل واستبعدت توصيته.

كانت كامب ديفيد ملعباً أمريكياً، ولم يلعب التنس أو البولينج سوى عدد قليل من الإسرائيليين أو المصريين، إذا لعبوا على الإطلاق وكان كل من السادات وديان يقوم بنزهات منفصلة على الأقدام كل يوم، وركب وايزمان دراجة للمرة الأولى منذ طفولته، أما الإسرائيليون الأصغر سنّاً فلعبوا البلياردو كثيراً وشاهدوا السينما، ولعب بيجين الشطرنج مع بريجينسكى، وأعطى بيجين سواء كان بمحض الصدفة أو عن قصد مستشار الأمن القومى انطباعاً بأنه لم يلعب منذ ثمانية وثلاثين عاماً، ووجد البروفيسور البولندى الأصل أن (بيجين) يلعب بطريقة منظمة وعدوانية إلى حد ما، وإن كانت مدروسة إستراتيجيّاً، وتحدث الرجلان باللغة الإنجليزية وليس بلغة طفولتهم وشدت المنافسة بينهما انتباه (ديان) الذى كان يتفرج عليهما من حين لآخر.. وكتب يقول: إن اللعب برهن على أنه مواجهة ميدانية وليس شكلاً من التسلية السلمية، حيث كان يستميت كل منهما على هزيمة الآخر، وطمس الغموض النتيجة مثلها فى ذلك مثل الكثير مما حدث فى كامب ديفيد، إنه لأمر عادى أن تكون اللعبتان الأوليان متساويتين، وزعم بريجينسكى أنه فاز باللعبة الثالثة وما تلاها من أدوار، إلا أنه طبقاً لما ذكره يهييل قاديشاى فإنهما لعبا دوراً رابعاً فاز به بيجين وبذلك أصبحت النتيجة متساوية، واتصل هاميلتون جوردان كبير مستشارى الرئيس كارتر برئيس

الوزراء تليفونيّاً ليهنئه، وقال لو كان بريجينسكى هو الذى فاز لما كان بوسعهم الحديث إليه.

كان الأمريكيون يعلمون أن اجتماع القمة كان مغامرة، إلا أنهم أساءوا تقدير الاحتمالات، وحدد البيت الأبيض للمباحثات ثلاثة أيام مع احتمال مدها ليوم رابع لو أحرز المؤتمر تقدماً بشأن مبادئ السلام، واعترف كارتر بعد ذلك قائلا إنه ما كان هناك شخص يحلم بوجودهم هنا طوال ثلاثة عشر يوماً فى اجتماعات مضنية وغير مشجعة، ودون أن يلوح فى الأفق احتمال النجاح إلا فى الساعات الأخيرة، ولم يكن هناك توازن فى المفاوضات فى أكثر من ناحية، وكان كل من بيجين والسادات قد وصل إلى كامب ديفيد ولديه تصميم على خوض مساومة صعبة، إلا أن الزعيم الإسرائيلى كان يتمتع بميزة وحده من بين الزعماء الثلاثة الذى يمكن أن يتوقع الفشل برباطة جأش، وهناك الكثير من الإسرائيليين الذين سيشعرون بخيبة أمل مريرة، ومن بينهم كبار الأعضاء فى وفده، إلا أن بيجين سيشرح لهم أنه فعل كل شىء لتحقيق السلام اللهم إلا التضحية بأرض إسرائيل، وحينئذ سوف يوحد الليكود صفوفه وستخرج من حكومته سالمة من هذا الموقف، وستظل إسرائيل محتفظة بسيناء.

ومن ناحية أخرى لم يكن (كارتر) وسيطاً نزيهاً، وكتب يقول: (يبدو أن السادات يثق فىّ كثيراً، بينما لا يثق بيجين فىّ بالقدر الكاف، وبالمثل إنه لأمر حقيقى أن الرئيس الأمريكى كان يثق فى السادات كثيراً وكان يشك فى بيجين، وصرح فى حديث صحفى قدمه لمجلة التايم قائلا: إننى لا أحاول حتى أن أنكر أننى موالٍ للسادات.. (إنه صريح تماماً، وشجاع وكريم وبعيد النظر)، وكان مستعداً لتُجاهل التفاصيل وتحقيق سلام يعود بالفائدة عليه، وعلى مصر)، وكان كارتر مستعداً لأن يتسامح مع السادات أكثر مما يتسامح مع الزعيم الإسرائيلى، ويرجع ذلك من ناحية إلى أن السادات أطلعه مسبقاً على بعض أوراقه.. بينما يرجع من الناحية الأخرى إلى أنه استسلم لسحر

السادات، كما أن مطالب السادات لم تكن أقل تطرفاً من مطالب بيجين، لكنه ترك المساومة لمستشاريه وسهل له ذلك الاحتفاظ بموقف رجل السلام المنطقى والشجاع، وعلى العكس من ذلك، كان بيجين أكثر المفاوضين الإسرائيليين تعنتاً، إذ كان يدقق فى كل كلمة وعلامة ترقيم ويوالى الليل بالنهار، وعندما دعت (روزالين كارتر) إليهم فى الصلاة من أجل النجاح، أصر بيجين على مشاهدة النص، كان (بيجين) صعب المراس كما كان مزعجاً وواسع الاطلاع، أما السادات فهو رجل ذو ثقافة مختلفة لها وقعها وقيمها ذات المذاق الخاص، وكان من الضرورى أن تكون هناك تجاوزات، وكان السادات يريد من كارتر أن يقوم بالترويج لأفكاره نيابة عنه لكن بيجين رفض على الدوام أى شىء من هذا القبيل، وهو يستطيع التصدى للسادات حتى النهاية، لكنه رفض التصدى للأمريكيين بنفس الصورة، وأثناء المفاوضات توسل (بيجين) لكارتر ألا يقدم مقترحات مصرية صنعت فى أمريكا، واتخذ السادات موقف الهجوم منذ اليوم الثانى فقدم ما اعترف به كارتر بأنه مشروع جديد للغاية (لتحقيق سلام شامل ملىء بكافة العبارات العربية الطنانة غير المقبولة)، وهو يطالب ضمن أشياء أخرى، بانسحاب إسرائيلى من كافة الأراضى المحتلة وإزالة جميع المستوطنات الإسرائيلية ونقل سلطتها إلى عرب الضفة الغربية وقطاع غزة، مع توفير فترة انتقالية مدتها أربعة أعوام يقوم الأردن خلالها بالإشراف على الضفة الغربية وقطاع غزة، بالتعاون مع ممثلين منتخبين بطريقة حرة من الشعب الفلسطينى يتولون ممارسة السلطة المباشرة على الإدارة)، وقبل انتهاء الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة أعوام بستة شهور، يمارس الفلسطينيون حقهم الأساسى فى تقرير المصير وتتم مساعدتهم على إنشاء كيان وطنى لهم).

أما إسرائيل فستتم مطالبتها بالانسحاب من شرق القدس إلى خطوط الهدنة التى كانت قائمة عام ١٩٤٩، علاوة على السيادة والإدارة العربية إلى

القطاع العربى، وأخيراً طالب السادات بأن تدفع إسرائيل تعويضاً كاملاً وعاجلاً عن الضرر الذى ترتب على العمليات التى تقوم بها قواتها المسلحة ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية، بالإضافة إلى استغلالها للموارد الطبيعية فى الأراضى المحتلة، وهذا المطلب الأخير من شأنه أن يشمل تعويضاً عن ملايين البراميل التى قامت إسرائيل بضخها من حقول بترول سيناء منذ عام ١٩٦٧، واختار بيجين ألا يتمرد فى أول اجتماع مشترك له.

وتصرف كل من بيجين والسادات بأحسن ما فى وسعهما، لدرجة أن كارتر اعتقد بأن بيجين قد خفف من موقفه إزاء التشدد فى وثيقة السادات، التى وصفها لعدة أيام بعد ذلك بأنها دليل على الموقف غير المنطقى من جانب المصريين.

وفى اليوم الثالث، وبعد التشاور مع زملائه، رفض بيجين الوثيقة تماماً، وأبلغ كارتر بأن ذلك يحمل رائحة دولة منتصرة تفرض النصر على الطرف المهزوم. وقال إن هذه الوثيقة لا تمثل أساساً صحيحاً للمفاوضات، وكان السادات يريد سلاما مع إسرائيل لا يكون هشّاً فحسب، وإنما يكون قدريّاً أيضاً، وفيما برهن على أنه آخر جولة وجهاً لوجه فى قمة كامب ديفيد، قام بيجين بتشريح مقترحات السادات فقرة فقرة، ورد السادات على ذلك قائلا إنكم تريدون الأرض، ومصر تقدم لإسرائيل الأمن، وليس الأرض، وقال كارتر (لقد زال التحفظ واحمرت الوجوه وانتهت المجاملات واللغة الدبلوماسية، ولقد أغفلوا فى أغلب الظن أننى كنت موجوداً)، وقبل أن ينفضوا من اجتماعهم بعد ثلاث ساعات من المناقشة المكثفة، اشتكى السادات من أن المشاعرالودية التى تحققت بعد زيارته للقدس قد تلاشت، لأنه لم يعد هناك حد أدنى من الثقة منذ أن تصرف بيجين بنية سيئة. وعند استئناف الاجتماع فى وقت لاحق من النهار، تبادل الزعيمان المحادثات بسرعة انتهت إلى طريق مسدود بشأن المستوطنات، وقال السادات إن الشعب المصرى لن يقبل أبداً أى انتهاك لأراضيه أو لسيادته، وأجاب بيجين بأنه ليس هناك سبيل

يستطيع به إقناع حكومته أو شعبه بإزالة المستوطنات، إن نقل المستوطنين من شأنه أن يعنى سقوط حكومته، وعند ذلك وقف السادات وهدد بالانسحاب من الاجتماع ومن مؤتمر القمة، واعترض كارتر طريقه إلى الباب وطلب من كليهما وقف المحادثات، ووافق بيجين على الفور، ووقف السادات وهو يستشيط غضباً قبل أن يومئ برأسه، ثم خرج بدون أن ينطق بكلمة أخرى، ورأى الأمريكيون الآن بصورة أكثر وضوحاً من ذى قبل، أنه يتعين عليهم الإمساك بزمام المبادرة، وظل السادات فى حجرته الخاصة وهو عابس الوجه، وأبلغ مستشاروه بريجينسكى بأن الرئيس يفكر فى العودة إلى الوطن، ورفض بيجين التزحزح بشأن القضيتين الرئيسيتين المتعلقتين بمستوطنات سيناء وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة، إلا أنه تخلى عما اعتبره كارتر بمثابة تلميح بالمرونة عندما قال للرئيس الأمريكى: (إننى لن أوصى شخصيّاً أبداً بإزالة المستوطنات القائمة فى سيناء)، وليس هذا مثل القول بأنه لن يذعن أبداً لإزالتها، وهاجم كارتر فى نقطة ما رئيس الوزراء بقوله: (إن ما تريد أن تفعله هو أن تجعل الضفة الغربية جزءًا من إسرائيل) وأجاب بيجين على ذلك قائلا: (إن الحكم الذاتى شىء والسيادة العربية شىء آخر، ولن تشمل مبدأ القرار ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالحرب)، وقال نقلا عن المزامير (أوه يا قدس لو أنساك)، وقال بيجين لكارتر: شلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة)، وعلى الرغم من التعب المتزايد، أعد الأمريكيون مشروع اتفاقهم فى اليوم الخامس، وفى اليوم التاسع أدركوا أنه لن يصدق عليها أى من الجانبين بدون إدخال تعديل كبير عليها، وقدم بيجين بياناً موجزاً غير أساسى أوحى فيه بأنهم قد يعودون جميعاً إلى بلادهم، وحينذاك اتخذ كارتر خطوة غير تقليدية أدت فى النهاية وان كانت ببطء وتذبذب إلى التوصل إلى اتفاق، فقد أنشأ فريق عمل يضمه هو وسيروس فانس وآهرون باراك المدعى العام الإسرائيلى وأسامة الباز وكيل وزارة الخارجية المصرية للشئون الخارجية، ولم يتم السماع عن قيام رئيس دولة بالتفاوض حول التفاصيل بهذه الطريقة مع خبيرين، كان عليهما حينذاك التنقل جيئة وذهاباً لإقناع رؤسائهم

بالفقرات المتفق عليها إلا أن ذلك كان مجدياً.

وإلى جانب ديان، ظهر (باراك) كأحد أبطال الفريق الإسرائيلى وفى عام ١٩٧٨ كان أستاذاً للقانون فى ريعان شبابه فى الواحدة والأربعين من عمره وكان مرشحاً بالفعل لمقعد المحكمة العليا لكنه ظل مدعياً عاماً طيلة فترة محادثات السلام، وعلى الرغم من أن حكومة حزب العمل هى التى كانت قد عينت (باراك) فإن بيجين كوَّن شعورا غيرعادى بالاحترام تجاه مواهبه كعالم ضليع فى القانون، وكان (باراك) مثله فى ذلك مثل ديان ووايزمان متعطشاً للسلام، وقد استغل كل مهارته ومكانته لكسر مقاومة بيجين، وتأثر سيروس فانس بصفته زميلا له فى المحاماة بنوعية ذهن (باراك) وقال عنه إنه رجل على درجة عالية من الحساسية والرأى الصائب، ولا يمكن تقييمه بشىء فى كثير من النقاط الصعبة فى المفاوضات، وهو لديه موهبة عجيبة فى استخدام الكلمات، ويستطيع دائماً أن يضع نفسه فى مكان الشخص الآخر، ثم يحاول أن يجد سبيلاً لإرضاء حاجة ذلك الشخص الآخر بدون أن يضر بالمصالح الحيوية لبلاده، وسأتفق أنا وديان على طريق الالتفاف حول المشكلة وسيجد (باراك) بدوره الكلمات اللازمة لتوفير الطريق للالتفاف حول العقبة أو تخطيها.

ووجده (ويليام كوانت) خبير الرئيس لشئون الشرق الأوسط إسرائيليّاً تعلم بنجاح كبير كيفية التأثير على الموجات الطويلة لبيجين.. لقد عمل بأناة فى المضمون والصياغة ولعب فى الأغلبة لعبة تلمودية فى تغيير العبارات، بدون أن يكون قلبه فى الحقيقة حاضراً فيها، ولم يكن يعتقد فى الواقع أن هذه الأشياء من الأمور التى تستحق الخلاف حولها إلا أنه أدرك أيضاً أنه أمر هام للغاية إقناع بيجين، وهو على استعداد لأن يقوم بالكثير من الصياغة وإعادة الصياغة والتفكير فى الصيغ التى قد يقبلها بيجين.

وبوحى دبلوماسى أمريكى آخر يعرف بيجين وباراك بأن كارتر استغل اهتمام باراك بالاتفاق وبالمرونة، وقد أوضح ذلك بقوله:

(أقنع الرئيس الأمريكى (باراك) بالتقدم بسبل للتعبير عن المفاهيم والمضامين الغامضة بلغة قانونية وعندئذ يستطيع باراك أن يبررها لبيجين بلغة قانونية ويقنعه بأن هناك تفسيراً قانونيّاً، ومشروعاً من شأنه أن يحمى موقف بيجين رغم ما يكتنفها من غموض، وهناك عدة مواضيع فى النص تتجلى فيها قدرة (باراك) على أن يفسر لبيجين كيف يمكن تفسير أحدها بحيث أصبح معناه (اكس) فى حين أنك ربما تعتقد من شكله الظاهرى أنه يعنى (واى)، الأمر الذى أعطى لبيجين تبريرًا ليسمح له بتقديم هذه التنازلات، عندما قرر تقديمها بدلا من فقدان الاتفاق، وليس بوسع أى شخص آخر أن يفعل ذلك، وفى الوقت نفسه كان ديان يناقش الأسباب الدبلوماسية أو السياسية لقبول مثل هذه الأمور، إلا أن بيجين لابد أن يكون لديه تبرير قانونى لإرضاء نفسه ونظرته الخاصة للمبادئ القانونية).

وساهم أيضاً المدعى العام فى تحقيق التقارب مع المصريين، بالرغم من أنهم لم يكونوا متأكدين مثل الأمريكيين من مدى نفوذه، وقال (بطرس غالى) إن (باراك) نجح فى خلق جو من الثقة القانونية، مثلما خلق وايزمان جوّاً من الثقة الإنسانية، لقد وثقنا فى باراك عندما قال: (إننى أريد هذه الكلمة فى المادة الرابعة من أجل كذا أو كذا).

وعلى الرغم من ذلك لم يتخل بيجين أبداً عن السيطرة على الإستراتيجية للمفاوضات، وقد حدد القضايا التى يمكن أن يتوقفوا عندها، وقرر الوقت والسبيل لتقديم تنازلاتهم تلك التى يمكن أن تعطى، وقال أحد الشهود الأمريكيين إن (بيجين) أظهر شعوراً رائعاً بالوقت، وقد كان متمكناً من معرفة عنصر التوقيت ومتى تحين اللحظة الأخيرة للتوصل إلى حل وسط، وقد حقق مقابل تقديم ما هو أكثر من ذلك، ويتذرع رئيس الوزراء بصبر العالم كله وفى بعض الأحيان يبدو أنه يلعب لعبة الاستنزاف لذاتها، ويفقد منظر الغابات من أجل الأشجار، ولقد وجده كارتر صارماً وغير خيالى.

وذكرت (روزالين) زوجته لبريجينسكى أن الرئيس قد أطلق على بيجين اسم (المعتوه)، وهو لفظ كان كارتر أميناً جداً لدرجة أنه لم ينكره عند مواجهته به على شاشة التليفزيون الإسرائيلى خلال زيارته الخاصة للقدس فى شهر مارس عام ١٩٨٣.. إلا أنه فى نهاية محنة كامب ديفيد التى استغرقت ١٣ يومًا لم يشك أحد فى أن ثمة منهجاً فى جنون بيجين، ويصف فانس بيجين بأنه.. واحد من أبرع لاعبى البوكر فى العالم الذين شهدهم.

وهو يستطيع أن يعرض قلباً جريحاً بطريقة مؤثرة للغاية، وقد أظهر كل مشاعر الألم وعدم التصديق عندما قال: (كيف يمكنك أن تتوقع منا قبول موقف من هذا النوع؟) وحينذاك يجلس هناك دون أن يسجل على وجهه شيئاً، أنه يحاول ويصمد فى وجه خصمه حتى النهاية، وهو عنيف يستطيع البقاء بعد أى شخص آخر على الجانب الآخر للمنضدة إذا استلزم الأمر وهذه جميعاً صفات المفاوض الماهر، أو لاعب البوكر الماهر للغاية.

وكان بيجين واضحاً جداً فى أهدافه ودقيقاً للغاية فى تفكيره وقد قدم بعض المطالب التى كان على استعداد للتضحية بها، وأستطيع أن أتذكر عدداً من المرات عندما قال فيها إن ذلك شىء لن نتفق أبداً على حل وسط بشأنه، وفى وقت لاحق من نفس اليوم بعد أن دق على المائدة غير تفكيره، وقد اكتشفت ذلك فى وقت مبكر إلى حد ما، ولذلك لم أقبل أبداً تصريحاته التى يقول فيها: (إننى لن أستسلم أبداً بشأن هذه النقطة)، وخلصت إلى أن ذلك جزء من أسلوبه وهو لا يعنيه.

رفض بيجين التفاهم بشأن ثلاث قضايا وهى: مستوطنات سيناء وصياغة القرار ٢٤٢ (الاستيلاء على الأرض بطريق الحرب) وأخيراً القدس.

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزته مجموعة العمل التى أنشأها كارتر والفريق المماثل الذى يضم وزراء الخارجية تحت إشراف بريجينيسكى، أوشك

اجتماع القمة على الانهيار مرة أخرى فى اليوم العاشر واليوم الحادى عشر، وظهر الإسرائيليون كجبهة موحدة من أجل الإبقاء على المستوطنات، فى حين رفض المصريون السماح ببقائها، وبدأ كارتر فى إعداد خطط لإنهاء المؤتمر وتقليل الضرر إلى الحد الأدنى وقد حدد يوم الأحد ١٧ سبتمبر على أنه الموعد النهائى، والاعتراف بالفشل أفضل من السماح لاجتماع القمة بأن يموت ببطء، وحزم السادات ومساعدوه حقائبهم وطلبوا من الأمريكيين توفير طائرة هليكوبتر لهم، وتبادل الرئيس المصرى حديثاً حاداً مع ديان، إلا أنه استجاب لآخر نداء شخصى من جانب كارتر، وشعر بعض الأمريكيين المتشككين بأن السادات يمارس التمثيل، وهو لا يحتاج إلى الكثير لإقناعه، وقال (وليام كواندت) إن هناك جزءًا فى السادات يتقمص شخصية الممثل، (وهو يعلم أن كارتر سريع التأثر بذلك النوع من ندائه العاطفى).

وحدثت بعض المفاجآت على المسرح، فقد تنازل وايزمان، الذى تمثل دوره حتى ذلك الحين فى الإبقاء على توهج الجمرات، عن المطارات العسكرية فى سيناء مقابل تعهد من جانب (هارولد براون) وزير الدفاع الأمريكى ببناء بدائل لها فى صحراء النقب، واتفق (باراك) وأسامة الباز على إزالة عبارة (عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالحرب) من النص الرئيسى، ونشر القرار كاملا على أنه ملحق به ملحوظة فى المقدمة بأن كلى الطرفين يوافق على القرار ٢٤٢ بجميع أجزائه، (وتجرع (بيجين) عبارة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى)، التى كان قد أصر من قبل على أنها ستمثل خطرًا مميتًا لإسرائيل، وبعد محاضرة أدلى بها على رفاقه حول الأصل اللاتينى لكلمة (مشروع) تساءل قائلاً: (هل يمكن أن يكون الحق) غير مشروع؟.

إلا أن النزاع حول مستوطنات سيناء لا يمكن حله بدون حدوث معجزة.

وظهرت هذه المعجزة فى الشكل المروع والمستبعد لآرييل شارون، وهو

بطل الحرب المحبب إلى بيجين والمسئول عن الاستيطان، واقترح الجنرال افراهام تامير قائد التخطيط العسكرى فى عهد وايزمان الاتصال تليفونيّاً بشارون وإعطائه تقريراً عن أزمة كامب ديفيد وإقناعه بحث بيجين على الجلاء عن المستوطنات، وكان وايزمان يساوره الشك فيما إذا كان (شارون الروح المحركة خلف برنامج الاستيطان سيتعاون أم لا، إلا أنهم لن يخسروا شيئاً وفوض لتامير بأن يجرب حظه).

وبعد ذلك ببضع ساعات قليلة، كان بيجين البالغ التأثر يبلغ الوفد الإسرائيلى بأن آرييل شارون قد اتصل به تليفونيّاً، والشىء الذى أدهشه أن شارون كان يحبذ إجلاء المستوطنات إذا كانت هى العقبة الأخيرة فى طريق تحقيق اتفاقية السلام، وقال شارون لرئيس الوزراء.. إننى لا أرى أى اعتراض من الناحية العسكرية على إجلائها.

وتأثر بيجين، إلا أنه كان مازال رافضاً بشأن التخلى عن المستوطنات، وأن حجته فى الإبقاء عليها قد بنيت على أسس أمنية وكان نتوء (رفح) يمثل منطقة عازلة لها قيمتها بين سيناء التى ستتم إعادتها إلى مصر وبين اللاجئين الفلسطينيين فى قطاع غزة البالغ عددهم ٤٠٠ ألف شخص، وهى أرض تجنيد خصبة للإرهابيين، ولكن الأمن لم يكن اهتمامه الوحيد، إذ إن رئيس الوزراء مثله فى ذلك مثل الكثير من الإسرائيليين من مختلف المذاهب السياسية يشعر بانزعاج لفكرة استئصال المستوطنين من جذورهم، ويتعارض ذلك مع المزاج الوطنى، وهو متأفف من أن يضع سابقة للضفة الغربية ومرتفعات الجولان، إلا أنه فى المقام الأول كان بيجين يخشى من أن يؤدى التخلى عن المستوطنات إلى حدوث انقسام فى صفوفه.. الأمر الذى حدث بالفعل على وجه السرعة.

وعندما اجتمع الرئيس كارتر فى اليوم الثانى عشر، كان بيجين مازال يحاول جاهداً الفوز، واقترح التفاوض مع السادات بشأن كل مسألة أخرى معلقة لتحقيق معاهدة السلام فى غضون ثلاثة أشهر، وحينذاك سيطرح مسألة الاستيطان على

الكنيست، وأبلغه كارتر أن ذلك أمل ميئوس منه، ولن يقبله السادات أبداً، وكتب الرئيس يقول: من الواضح أن ذلك كان مؤلماً جدّاً بالنسبة لرئيس الوزراء مناحم بيجين، وكان يصيح بكلمات مثل.. إنذار (مطالب مبالغ فيها) و(انتحار سياسى) ومع ذلك فى النهاية وافق بيجين على أن يطرح على الكنيست فى غضون أسبوعين القضية التالية: (إذا تم التوصل إلى اتفاق بشأن جميع قضايا سيناء الأخرى، هل سيتم سحب المستوطنين؟)، ورفض طلب كارتر بأن يتخذ موقفاً محايداً خلال هذه المناقشة، لكنه تعهد بإجراء تصويت حر.

كان بيجين يأمل فى الفصل بين التصويتين بحيث يكون أحدهما حول اتفاق السلام بينما يكون الآخر حول المستوطنات وتوقع أغلبية برلمانية ساحقة للتصويت لصالح اتفاق السلام وأغلبية أصغر ضد إزالة المستوطنات، إلا أن مناورته باءت بالفشل على يد حزب العمل المعارض الذى كان يحتاج إلى تأييده والذى أصر على إجراء تصويت واحد يشمل كلا من الاتفاق والجلاء عن المستوطنات، ومن غير المتصور أن يتوقع برلمانى له خبرة بيجين بالموافقة على جل التصويت الواحد على المشروعين دون عواقب وخيمة، أو أنه كان سيرضى المصريين أو الأمريكيين، إلا أن تدخل حزب العمل قدم له عذراً، ولم يقايض مناحم بيجين بالمستوطنات اليهودية فى حين فعلت المعارضة ذلك، إن ذلك لم يقنع أحداً لا يريد أن يقتنع، إلا أنه أنقذ ضمير بيجين، وربما كان ذلك هو المقصود تحقيقه.

والتزم بيجين بكلمته، وتم إجلاء مستوطنات رفح، بما فى ذلك مدينة (ياميت) النموذجية - بتكلفة عاطفية ومالية كبيرة، فى الموعد المقرر فى شهر ابريل عام ١٩٨٢، وانتهى بصورة أقل ودية المطلب الأمريكى الذى يطالب بتجميد النشاط الاستيطانى الإسرائيلى فى الضفة الغربية، وقضى كارتر وفانس أكثر من ست ساعات مساء يوم السبت الثانى عشر وهما يناقشان قضيتهم مع بيجين وديان وباراك، ومن العسير التوقع بأن يأخذ العرب

مفاوضات الحكم الذاتى مأخذاً جديداً إذا استمر الاستيطان اليهودى بلا ضوابط، ورفض الإسرائيليون التوقيع على مثل ذلك التعهد مع السادات كجزء من إطار الحكم الذاتى من أجل السلام، وأصروا على أن الاستيطان فى الضفة الغربية ليس من شأن مصر، وفى النهاية وافق بيجين على أن يكتب خطاباً إلى كارتر يتم نشره بين وثائق المؤتمر، وبعد ذلك بخمسة أعوام مازالت الأطراف المتبقية تجرى مناقشات مع ما تعهد به رئيس الوزراء، هل هو تجميد طويل الأمد، أم أنه تجميد محدد لمدة ثلاثة شهور؟ وهل يرتبط بمفاوضات الحكم الذاتى، أو بمفاوضات التوصل إلى معاهدة سلام إسرائيلية؟.. واقتنع كل من كارتر وفانس بأن بيجين قد خدعهما، وكلا الجانبين لديه شهود موثوق بهم، ألا يروون قصصاً عكسية تماماً.

وطبقاً للرئيس، تم الاتفاق على أنه لن يتم إنشاء أى مستوطنات إسرائيلية جديدة بعد التوقيع على (إطار السلام) وعلى أن قضية المستوطنات الإضافية ستحلها الأطراف المعنية خلال المفاوضات، ويؤكد فانس الذى سجل ملاحظات خلال الاجتماع التفسير الذى قدمه كارتر.

فطبقا لمذكراتى، فإن هذا الإطار كان مرتبطاً بمفاوضات الحكم الذاتى، ولم نفترض أن المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام والحكم الذاتى ستنتهى فى آن واحد وفى وقت قصير نسبيّاً، وكان هناك أمل فى أن نستطيع إحراز تقدم بشأن الحكم الذاتى أكبر مما حدث بالفعل، إلا أننا أدركنا جميعاً أنها ستكون مهمة شاقة جداً، وجذور المشكلة أعمق من ذلك بكثير، وقد شهدنا استمرار المفاوضات فى خط متوازن وإن كان منفصلا، وهى لم تتوقف على بعضها البعض.

وتلقى هارولد سوندرز، خبير وزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط تقريرًا موجزًا على الفور بعد الاجتماع الذى انعقد مساء يوم السبت، إذ قدم له فانس مذكرة تلو الأخرى حول هذا الموضوع، وقد وضع المناقشة

التى دارت فى هذا الاجتماع فى السياق التالى:

توجه كارتر وفانس إلى الاجتماع وهما يعلمان ما يريدان ويعرفان أيضا مصير نتيجتهما المفضلة التى توصلا إليها بشأن تجميد الاستيطان وما هو طبيعة تراجعهما، واختيارهما المفضل هو تجميد الاستيطان طوال الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة أعوام (للفلسطينيين) والتراجع هو إلى تجميد بناء المستوطنات أثناء (هذه المفاوضات) إلا أنهما أشارا إلى محادثات الحكم الذاتى، على أساس النظرية التى تفيد بأنه أثناء محادثات الحكم الذاتى يكون على المتفاوضين معالجة تجميد الاستيطان خلال الفترة الانتقالية.

وعلى أى حال فإنهما كانا يتحدثان فى تلك اللحظة حول فقرة فى هذه الوثيقة التى أصبحت إطاراً للسلام، وبكلمة أخرى الوثيقة التى تعالج أساساً المفاوضات المتصلة بالضفة الغربية وقطاع غزة، والعبارة التى كانوا يركزون عليها هى عبارة فى فقرة تتعلق بالمفاوضات المتصلة بالحكم الذاتى ثم بالوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزة.

وقال مناحم بيجين رئيس الوزراء إنه لا يستطيع الموافقة على وثيقة بشأن تجميد الاستيطان يوقع عليها الرئيس السادات، إن ذلك أمر تقرره الحكومة الإسرائيلية، وهو ليس بالأمر الذى يكون للحكومة المصرية فيه أى رأى، وكان حل هذه المشكلة هو نفس حل المشاكل المماثلة بشأن قضايا أخرى، وهو يجب أن يكون هناك خطاب جانبى، وفسر (فانس) ذلك لى بعد الاجتماع وطالبنى بأن أضع مسودة خطاب من رئيس الوزراء مناحم بيجين إلى الرئيس كارتر أشرح فيه موقف رئيس الوزراء، ولذلك حذفت هذه العبارة من النص ووضعتها فى خطاب جانبى.

وسجل باراك ملاحظات كثيرة على الجانب الإسرائيلى، وكان قاطعاً فى قوله إن النسخة الأمريكية غير صحيحة.

(الشىء الذى تم الاتفاق عليه هو أن يكون تجميد المستوطنات لمدة ثلاثة شهور وأن يرتبط بالمفاوضات الخاصة بإبرام معاهدة سلام مع مصر، وهناك قيدان فى هذا الشأن (أ) أنه فى إطار معاهدة سلام مع مصر.. (ب) وأن مدته ثلاثة شهور، وهو لا يرتبط بالمرة بمفاوضات الحكم الذاتى.

واستشهد الإسرائيليون أيضا ببيان للسادات وهم يقدمون تقريراً للمراسلين الأمريكيين فى واشنطن يوم ١٩ سبتمبر، أى اتفقنا على تجميد إنشاء المستوطنات فى الثلاثة شهور القادمة، وهى الفترة التى من المفترض أن يتم خلالها إبرام اتفاق السلام، ومع ذلك، يدفع الأمريكيون بأن السادات لم يكن حاضراً عند التوصل إلى اتفاق ولم يكن طرفاً فيه، وعلى الرغم من ذلك فإن ما فهمه من أولئك الذين كانوا حاضرين يؤيد ما تقوله الرواية الإسرائيلية.

وبعد أن تحدث كارتر فى واشنطن عن تجميد لمدة خمسة أعوام، طالب المراسلون فى مطار بن جوريون من ديان أن يقدم لهم تفسيراً، وكان عائداً على التوالى إلى إسرائيل مع وايزمان تاركين بيجين فى الولايات المتحدة، ويبدو أن الرد الذى قدمه وزير الخارجية يستهدف طمس المسألة وليس توضيحها.

إن تقديرنا وتقدير رئيس الوزراء هو أن فترة استمرار المفاوضات حول موضع يهودا والسامرة يجب ألا تستغرق فترة تزيد عما يتراوح بين شهرين إلى ثلاثة شهور.. فى حين تم تحديد فترة استمرار المفاوضات حول القضية المصرية الإسرائيلية ثلاثة شهور، أما فترة استمرار المفاوضات الخاصة بالقضية الفلسطينية فلم يتم تحديدها بالمرة، لكن لنفترض أنها ستستغرق بالفعل ما يتراوح بين شهرين وثلاثة شهور، فخلال هذه الفترة من المفاوضات بعد أن أوضحنا الأمور مع إسرائيل (من كامب ديفيد)، ظهر أنه لا توجد فى الحقيقة أى قضية ملحة لإنشاء مزيد من المستوطنات خلال شهرين أو ثلاثة شهور، وربما بعد هذه الفترة أيضا، وذلك أمر كان قائماً حتى إذا لم يكن هناك اتفاق وحتى إذا لم يتم طرح المسألة.. أما فيما يتعلق بفترة الخمسة

أعوام، ففى حدود ما أعرفه، ليست هناك عبارة فى هذا الشأن فى الاتفاق).

وزاد الارتباك والحيرة سوءا، ولكن لعل الكلمة الأخيرة للفصل فى هذه المسألة مع صول فينوويتز، الذى عمل بعد ذلك رئيساً للفريق الأمريكى فى مفاوضات الحكم الذاتى، قال (لقد قرأت جميع الملاحظات التى دونها كارتر عندما تم تعيينى كمبعوث خاص فى الشرق الأوسط، ولقد تأثرت بالإجهاد الذى كانوا يعملون فى ظله، وباحتمالات سوء الفهم، ولاسيما بشأن مسألة معقدة مثل المستوطنات.

ومن العسير أن نتصور أن بيجين كان سيذعن عن دراية لتجميد غير محدد النهاية فى الضفة الغربية، ولاسيما بعد أن استسلم فى سيناء، أن ذلك من شأنه أن يتعارض مع غرائزه ومع اهتماماته كزعيم لحزب أثقلته بالفعل مبادرة السادات، بل إنه من المتصور تماما أن يتلاعب هو وديان بالمسألة.

وبحلول فجر اليوم الثالث عشر الموافق يوم ١٧ سبتمبر، كان كارتر قد اقتنع بأن الصفقة مضمونة، وقدمت كامب ديفيد إطارين، أحدهما بشأن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل والآخر بشأن السلام فى الشرق الأوسط.

وسيحتاج ملء الإطارين إلى الكثير من المساومة الصعبة إلا أن اجتماع القمة قد حقق مهمته، وانتصرت الولايات المتحدة مثلما نصح بريجنيسكى بأنها يجب أن تنتصر، غير أن اليوم الثالث عشر جلب معه عقبة فى اللحظة الأخيرة، وكان من المتفق عليه عدم الإشارة إلى قضية القدس البالغة الحساسية فى النص نفسه، وفى إحدى المراحل، عندما اقترح الأمريكيون أن ترفرف راية عربية أو مسلمة على المسجد الأقصى، الذى يوجد فى موقع المعبد اليهودى، حذرهم بيجين من أن نفس الفكرة أثارت فيه ارتجافات قلبية، وفى يوم ١٧ سبتمبر كان الأمريكيون لا يتحدثون إلا عن تبادل الرسائل التى احتفظ فيها الزعماء الثلاثة ـ كارتر وبيجين والسادات ـ بمواقفهم العادية بشأن المدينة المتنازع عليها، وتبنت النسخة الأمريكية لغة البيانات

التى أدلى بها المندوبون المتلاحقون فى الأمم المتحدة، ورفضت الاعتراف بضم إسرائيل لشرق القدس بعد حرب الأيام الستة، وبمجرد أن سمع بها بيجين أعلن أنه لن يوقع على أى وثيقة أبدا إذا كتبت الولايات المتحدة أى خطاب من هذا القبيل للسادات.

وفجأة عادت الاتفاقية برمتها إلى بوتقة الانصهار، إلا أن كارتر لم يكن مستعداً لأن يدعها تنتهى فى هذه المرحلة، وحل المشكلة بخليط من عمليات الصياغة.

(وقد حذف كل إشارة معينة تشير إلى الضم الإسرائيلى، وقال ببساطة إن المندوبين الأمريكيين فى الأمم المتحدة قد أوضحوا السياسة الأمريكية وطلب بيجين منه التوقيع على بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة بأحفاده، وأصدر كارتر تعليماته إلى سكرتيره ليعرف أسماءهم ويوقع على كل صورة على حدة، وعندما حملهم إلى حجرة بيجين تأثر الزعيم الإسرائيلى وحكى له بدوره عن كل حفيد منهم على حدة، وبعد ذلك قبل النسخة الجديدة كالحمل، وماذا يستطيع الجد الفخور بأحفاده أن يفعله خلاف ذلك، ولاسيما عندما يحقق مراده؟

وانتهت كامب ديفيد بمسحة من الارتياح والتصالح، وقام السادات بزيارة ودية لبيجين، وكان ذلك أول اجتماع لهما فى غضون عشرة أيام.

وحينذاك قام زعيما الشرق الأوسط، وأعلن الرئيس أن هذه هى أول مرة يشعر فيها بالسرور وهو يغادر كامب ديفيد إلى واشنطن، وأخيرا جاءت آلات التصوير والمراسلون ليمارسوا مهامهم، وتم التوقيع على الاتفاقيتين اللتين تمثلان الإطارين ورد رؤساء الدول الثلاث على الأسئلة بأحسن ما فى وسعهم. وهكذا وقعت إسرائيل ومصر على أول اتفاق سلام بينهما.

ولقد خاض بيجين مساومة صعبة كما خطط علَى الدوام، إلا أنه قدم نصيبه من التنازلات، ووافقت إسرائيل على الجلاء عن شبه جزيرة سيناء

كلها، بما فى ذلك حقول البترول والقواعد الجوية والمستوطنات مقابل معاهدة السلام، وكان رئيس الوزراء يشعر فى مشاوراته الخاصة مع موظفيه وفى تصريحاته العلنية أيضا بأن إسرائيل تتخلى عن أرصدة حقيقية وتتلقى شيئاً غير حقيقى من مصر.

ولهذا السبب أصر بيجين على ضمانات جوهرية قوية للحدود الجنوبية لإسرائيل، وفقد بيجين نتيجة لتضحيته على مضض بمستوطنات سيناء تأييد بعض أصدقائه القدامى المقربين إليه، وانسحب من ذلك الموقف (شمويل كاتز) خبير القانون الدولى الذى ينتمى فى الأساس إلى جماعة (ارجون زفاى ليومى) وكذلك فعلت أيضا (جيولا كوهين) آخر أعضاء (جماعة شتيرن) التى تضاهى عاطفتها تجاه أرض إسرائيل عاطفة بيجين نفسه، وهناك آخرون مثل (يوحنان بادر) المحارب القديم ابتعدوا عن زعيمهم بطريقة أكثر ذكاءً.

وفى غضون أيام من التوقيع على اتفاق كامب ديفيد، كان بيجين يتباهى للجمهور اليهودى الأمريكى بأنه لم يوافق على تقديم شىء للفلسطينيين أكثر مما قدمه فى الإسماعيلية فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٧، وأثار ذلك الزعيم غضب إدارة كارتر، التى اعترفت بأنه كان يحاول إثناء الأردنيين وغيرهم من العرب (المعتدلين) عن مساندة السادات وإثناء الفلسطينيين فى قطاع غزة والضفة الغربية عن القيام بالدور المخصص لهم، وكان بيجين قد قدم فى كامب ديفيد فى الواقع أكثر مما قدم فى الإسماعيلية، ووافق على أن المفاوضات يجب أن تتم على أساس القرار رقم ٢٤٢ فى كافة أجزائه (لحل المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها، وكان من المقرر أن تبدأ المفاوضات بعد ثلاثة أيام (لتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقتهما بجيرانهما)، وأن تنتهى هذه المفاوضات بنهاية الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة أعوام، وتعهد بالتوصل إلى حل من شأنه أن يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومطالبه العادلة)، وتم توجيه دعوة للأردن للانضمام إلى

هذه المفاوضات وتم السماح له بأن يضم وفده فلسطينيين (كما هو متفق عليه من الطرفين). وكان من المقرر أن تنسحب القوات الإسرائيلية من الأراضى وتنتشر وحدات محدودة فى (مواقع أمنية معينة)، ولم يتم تحديد المسئولية عن الأمن والنظام العام، بينما أتيحت للفلسطينيين إمكانية تشكيل (قوة شرطة محلية قوية، يمكن أن تضم بين صفوفها مواطنين أردنيين).

وكان الكثير من هذه النقاط فى صورة تصريحات وبيانات غير دقيقة، ولم تكن شيكات يتم حملها إلى المصرف لصرفها، وكان بيجين قد دونها بغموض وحذر شديد لم يلحظه الأمريكيون أو المصريون.. فعلى سبيل المثال، فإن (السلطة التى ستتولى الحكم الذاتى) والتى سيقوم الفلسطينيون بانتخابها لأنفسهم قد أشير إليها ست مرات فى إطار الاتفاق فى واحدة فقط من هذه المناسبات الست وهى المناسبة الرابعة أضيفت كلمات (المجلس الإدارى) بين أقواس بناء على طلب إسرائيل، إلا أن ذلك كان كافياً لأن يشير إليها بيجين بعد ذلك على أنها (المجلس الإدارى) وهو شىء أكثر تواضعاً مما كان يريده الأمريكيون والمصريون. ويعتقد (وليم كوانت) أن الوفد الإسرائيلى تعمد ترك المسألة الفلسطينية حتى آخر يوم فى كامب ديفيد ليتجنب تقديم التزامات محددة، وقال كوانت إن باراك الذى يتمتع بضمير حى قال إنه كان يتعين عليهم إعطاء الضفة الغربية من الوقت مثلما أعطوه لسيناء لكن كل شخص كان يريد العودة إلى وطنه.

وعلى الرغم من ذلك كله، أتاحت كامب ديفيد للفلسطينيين أفضل فرصة دبلوماسية منذ عام ١٩٤٧، وكان هناك كل شىء يمكن التفاوض حوله بمساندة المصريين والأمريكيين. وكان من حسن حظ بيجين أنهم لم يدعوه إلى تنفيذ وعيده ـ وأنهم سمحوا له ببناء دفاعاته، وكان أكبر خطأ وقع فيه الأمريكيون أنهم لم يربطوا الضفة الغربية وقطاع غزة بمعاهدة السلام الإسرائيلية ـ المصرية، بحيث تتوقف كل منها على الأخرى، وألقى

بريجينيسكى اللوم فى ذلك الإخفاق على إذعان كارتر للصيغ الغامضة التى استخدمها بيجين، وكتب يقول إن ذلك سيعود لمطاردتنا، فى المراحل القادمة من المفاوضات، وكان الإسرائيليون لهم أولوياتهم الخاصة، وقال (الياهو بن - اليسار)، الذى كان مكلفاً بصفته مديراً عامّاً لمكتب رئيس الوزراء بصياغة إستراتيجية إسرائيلية مُحكمة لمفاوضات الحكم الذاتى إن بيجين ينظر إلى سيناء على أنها تعويض عن الوجود الإسرائيلى فى يهودا والسامرا. وبانتهاء حكم بيجين فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ كان يستطيع النظر إلى كامب ديفيد بارتياح. لقد كان السلام مع مصر وإن كان فاتراً قائماً لم يمس، وكذلك الأمر أيضاً بالنسبة لقبضة إسرائيل على أرض إسرائيل.

كان قد تم إقناع المصريين بقبول صفقة كامب ديفيد بالدفع بأن كل شىء سيكون مختلفاً فى غضون خمسة أعوام، وقال بطرس غالى إن (روح كامب ديفيد هى نوع من الهدنة،، وأن شخصاً آخر خلاف بيجين هو الذى سيتخذ القرارات، لقد اقتنعنا تحت تأثير ديان ووايزمان أن بيجين قبل ذلك للحصول على السلام، وتم تهدئة شكوك الأمريكيين بطريقة مماثلة، وطبقاً لما ذكره (فانس) أبلغ بيجين الأمريكيين بأنه لن يشرف أبداً على نقل بوصة واحدة من يهودا والسامرة إلى سيادة أخرى، وأن هذه الأراضى ملك لإسرائيل، إلا أنه أضاف قائلا: ربما يأتى آخرون بعدى يكون شعورهم مختلفاً، وفي نهاية فترة الخمسة أعوام لن أكون موجوداً، والشىء الذى لم يذكره رئيس الوزراء هو أنه سيبذل كل ما فى وسعه ليتأكد من أنه لم يترك شيئاً كثيراً ليتم نقله إلى الغير.

■ ■ ■

الفصل العشرون

منح جائزة قبل الآوان

بدلا من الشهور الثلاثة التى كان قد تكهن بها بابتهاج فى شهر سبتمبر، استغرق الاستنزاف الدبلوماسى ستة شهور لتحويل كامب ديفيد إلى معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل، وحاول كلا الجانبين خدش بعض التنازلات التى ندموا على تقديمها فى استراحة (ميريلاند)، وبدأت إسرائيل برنامج طوارئ (لتدعيم) المستوطنات القائمة فى الضفة الغربية، بالرغم من أن الكثير من عمليات التوسع كانت مستوطنات منفصلة فى كل شىء إلا الاسم. وقامت لجنة حكومية فرعية، يرأسها مدير عام مكتب رئيس الوزراء (الياهو بن اليسار) بإزالة بريق تعريف إسرائيل للحكم الذاتى حتى يقل ما يمكن أن يتفاوض حوله الفلسطينيون، وعلى سبيل المثال، كان من المقرر أن تبقى أراضى الدولة وموارد المياه تحت السيطرة الإسرائيلية، وذلك من شأنه الإبقاء على خيار الاستيطان اليهودى قائماً، فى الوقت الذى يحتفظون فيه باستخدام إسرائيل لحق الفيتو بشأن توسيع القرى والمدن العربية، ولم تتم مناقشة مثل هذه التفاصيل فى كامب ديفيد حيث تم النظر إليها على أنها متشابكة للغاية بحيث لا يمكن أن تشكل إطارًا عامّاً، وسارع الإسرائيليون بملء الفراغ، ولاسيما بعد أن جعلتهم محاولة الأمريكيين كسب ود الملك حسين وإقناعه بالانضمام إلى عملية السلام يلتزمون جانب الحذر، وأصيبت إدارة كارتر بخيبة أمل لأن السادات أغفل التوقف فى عمان ليقوم بالمهمة بنفسه.

وقامت الإدارة بالتعويض عن ذلك بتسليم إجابات مكتوبة على الأسئلة الأردنية بشأن دلالات كامب ديفيد، بالإضافة إلى نسخة تم تقديمها لبيجين كدلالة على النية الطيبة، وشعر بعض الدبلوماسيين الأمريكيين بالأسف فيما

بعد، لأن دبلوماسيتهم كانت مكشوفة إلى هذا الحد، إلا أنه لم يكن بمقدور سيروس فانس ووكيل وزارته (هارولد سوندرز) اللذين أحضرا الرسائل إلى الشرق الأوسط إيجاد بديل آخر مشرف، ولم يكن هناك شىء فى الإجابات لم تعرفه إسرائيل بالفعل، إلا أنهم أوضحوا التفسيرات الأمريكية بشأن قضايا مثل وضع القدس ـ التى جاهد بيجين للإبقاء عليها خارج وثائق كامب ديفيد، ورد رئيس الوزراء الإسرائيلى على ذلك بالتهديد بنقل مكتبه إلى شرق القدس العربية، وعلى الرغم من تودد الولايات المتحدة، فإن الملك حسين والزعامة المنتخبة للضفة الغربية أعطيا ظهرهما لكامب ديفيد، وكانوا يفتقرون إلى القوة والجرأة التى تمكنهم من القيام بمقامرات السادات، وحاول الرئيس المصرى التعويض عن موقفه بجعل المعاهدة تتوقف على التقدم الذى يتم إحرازه بالنسبة للفلسطينيين إلا أن بيجين الذى كان قد تجنب الوقوع فى ذلك الشرك فى كامب ديفيد لن يقع فيه الآن.

وصدقت الحكومة الإسرائيلية على اتفاقيات كامب ديفيد التى حصلت على موافقة أحد عشر صوتاً ومعارضة صوتين، وامتنع عن التصويت حاييم لاندوا نائب بيجين الأكثر إخلاصاً، أما الكنيست فقد صدق على الصفقة، التى تشمل الجلاء عن مستوطنات سيناء بعد مناقشة استغرقت ١٧ ساعة وانتهت فى الساعة الثالثة صباح يوم ٢٨ سبتمبر، وكانت نسبة التصويت ٨٤ صوتًا ضد ١٩ صوتًا وامتناع ١٧، ومن بين الأصوات الـ ٨٤ صوتًا أعطى الأعضاء الليبراليون فى كتلة الليكود أصواتهم لصالح الإجراء، إلا أن حزب حيروت قد انقسم على نفسه ولم يعط إلا ما دون النصف وما كان بيجين ليفوز بالتصويت بدون مساندة حزب العمل المعارض، وسحب عضوان من حزب حيروت كان من المقرر أن يشغلا منصبين رئيسيين فى حكومة بيجين الثانية ـ وهما اسحق شامير وموشى آرينز تأييدهما وامتنع عن التصويت شامير وزير الخارجية فى المستقبل، فقد صوت ضده وكان شامير فى ذلك

الوقت رئيساً للكنيست (فى إسرائيل يظل رئيس الكنيست سياسيّاً للحزب وله حق التصويت)، وكان آرينز يشغل منصب رئيس لجنة الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست، وهناك أشخاص آخرون فى كتلة الليكود امتنعوا عن التصويت من بينهم وزير المالية القادم (إيجال هورفيتز) وخليفته (يورام اريدور) بالإضافة إلى (ايتان ليفى) رئيس العمليات فى جماعة (ارجون زفاى ليومى)، وفى واشنطن أشار الرئيس كارتر فى يومياته إلى أن التصويت كان دلالة لافتة للنظر على الشجاعة، الشجاعة السياسية من جانب مناحم بيجين رئيس الوزراء، الذى كان عليه أن ينتهك التزاماته السابقة طوال حياته ويخرج عن أصدقائه وحلفائه الذين قدموا له العون والحماية خلال أيامه الثورية، ولم يكن الرئيس الأمريكى سعيداً إلى حد كبير بالنتائج.

لقد أظهرت عمليات الانشقاق مدى الضغط الذى شكله اتفاق كامب ديفيد على ولاء حيروت للقائد القديم، كما رفض بيجين وأمناء حزبه بتقديم الاتفاقيات للجنة المركزية قبل عرضها على الكنيست إلا أن نقل الانشقاق فى صفوفه دعم اعتزام الرئيس ألا يتقدم شبرًا واحدًا عما وقع عليه فى يوم ١٧ سبتمبر، وكبح جماح عملية السلام وأصر على توسيع نطاق المسئولية إلى أكبر حد ممكن فى الحكومة بالنسبة للقرارات التى يتم اتخاذها فى المستقبل.

ومع ذلك، فمن الناحية الرسمية مهدت الأصوات فى الحكومة والكنيست الطريق أمام استئناف المفاوضات، وكانت الحكمة التقليدية السائدة هى أنه تم حل ٩٨٪ فقط من المشكلة، مع ترك ٢٪ ليتم تسويتها قبل التوقيع على معاهدة السلام، وتوجه موشى ديان وعيزرا وايزمان إلى واشنطن لحضور مؤتمر (بلير هاوس)، إلا أنهما سرعان ما وجدا أنه ليس أمامهما ولا أمام المصريين المقابلين لهما حرية للمناورة، وتدخلت الحكومة فى القدس فى كل مرحلة، وبعد اتفاق كامب ديفيد انخفضت درجة ثقة زملائهم فى وزير الخارجية ووزير الدفاع أكثر من أى وقت مضى، وكانت تتم إعادة كل نقطة

إلى قاعدتها الأصلية، وبرهنت القضايا المستعصية على أنها تتمثل فى وضع تاريخ محدد لإنشاء نظام للحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وربط معاهدة السلام بالحكم الذاتى، واستمرار حصول إسرائيل على بترول سيناء، بالإضافة إلى إصرار بيجين على أن تكون لمعاهدة السلام أولوية على التزامات مصر بالنضال إلى جانب أشقائها .العرب فى أى حرب تنشب فى المستقبل مع الدولة اليهودية.

وفى منتصف شهر نوفمبر، بعد مرور عام واحد على زيارة السادات إلى القدس قبلت إسرائيل المشروع الأمريكى الأول، أما مصر فكانت مازالت تتمسك بالرفض، وأدت نسبة الـ ٢٪ الأخيرة المتبقية من المشكلة إلى نقل المفاوضات إلى شتاء ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ الكئيب، وتم إيفاد سيروس فانس للشرق الأوسط للقيام بدبلوماسية مكوكية، وذهب ديان إلى بروكسل لإجراء محادثات مع مصطفى خليل رئيس الوزراء الذى كان قد عاد فى ذلك الحين مرة أخرى إلى كامب ديفيد، ورفض بيجين دعوة للذهاب إلى واشنطن لإجراء محادثات مع مصطفى خليل وأصر على ألا يتعامل إلا مع السادات.

وعلى الرغم من المنصب الذى كان يتمتع به مصطفى خليل فهو لم يكن الطرف المناظر له، وأخيراً أمكن إقناع بيجين بزيارة كارتر على أمل أن يلحق به السادات، بينما استمر ديان فى محادثاته مع رئيس الوزراء المصرى بالتدقيق فى كل فقرة فرعية، وأثار بيجين مخاوف فى وزارة المالية عندما تعهد فى إحدى لحظاته الخيرة على شاشة التليفزيون الأمريكى بأن إسرائيل ستقوم بالسداد حتى آخر سنت من الثلاثة بلايين دولار التى من المقرر أن تتلقاها إسرائيل من الولايات المتحدة لإعادة نقل توزيع قواتها من سيناء إلى النقب، وكانت وزارة المالية تعتمد فى حساباتها على أن يتخذ ثلث إجمالى ما تحصل عليه على الأقل شكل منحة وليس شكل قرض، وكانت الإيماءات تعنى لبيجين الكثير على الدوام أكثر مما تعنيه الأرقام.

وقبل أن يستطيع أى فرد أن يكون واثقاً من النجاح بفترة طويلة، أعلنت لجنة نوبل أنها تمنح جائزة السلام الخاصة بعام ١٩٨٧ لكل من مناحم بيجين وأنور السادات، وكان النرويجيون على الأقل مازالوا يراهنون على كامب ديفيد، وتلقى الزعيم الإسرائيلى الأنباء مساء يوم الجمعة الموافق ٢٦ أكتوبر، إلا أنه لم يرد علانية حتى نهاية يوم السبت عندما كان يستضيف (ارتور روبينشتين) عازف البيانو على الشاى فى مقره فى القدس فى ملتقى شارعى بلفور وسمولينسكين، وتبادل السادات وبيجين التهانى تليفونيّاً.

وكانت الجائزة هى الوسام النهائى للاعتراف الدولى لرئيس الجماعة السرية، إلا أنها جاءت فى وقت حرج بالنسبة للسادات، الذى يدرك بعدم ارتياح عزلته فى العالم العربى وحساسية موقفه فى مصر.

وطار بيجين واليزا إلى أوسلو يوم ٩ سبتمبر ومعهما حاشية من الأقارب والأصدقاء وشخصيات إسرائيلية ويهودية أمريكية، وبقى السادات فى منزله، وأرسل سيد مرعى مساعده الخاص ليتسلم الجائزة نيابة عنه، وكسب الدبلوماسى المصرى المرموق قلوب مضيفيه النرويجيين، عندما وقف عند مطار أوسلو فى درجة حرارة أقل من ١٨ درجة مئوية وشكرهم على استقبالهم الحار.

أما عائلة بيجين فقد تم نقلها من المطار إلى القصر الملكى فى طائرة هليكوبتر حمراء وبيضاء اللون، تحرسها طائرتا شرطة هليكوبتر مسلحتان ولم ينتهز النرويجيون هذه الفرصة، فقد بقى الفائزان بجائزة نوبل للسلام بصورة طبيعية فى أحد الفنادق وتلقيا جائزتهما فى قاعة جامعة أوسلو، وفى ذلك العام بقى بيجين وزوجته فى القصر الملكى وجرى الاحتفال فى اليوم التالى فى حصن (اكرشوس) الذى يعود إلى القرن الرابع عشر والقصر والحصن من أكثر الأماكن تحصينا فى البلاد، أما سيد مرعى فقد بقى فى جراند أوتيل.

واستضاف الملك (أولاف الخامس) عائلة بيجين على العشاء فى جناحه الخاص من القصر. وكان أعضاء العائلة المالكة قد قرأوا كتاب (الليالى البيضاء) وكانوا تواقين لسماع تجارب بيجين فى معسكر العمل السوفيتى (وعلى أى حال كان الكتاب أكثر أمناً من كتاب التمرد)، إلا أن حيوية المناسبة قد انقضت نتيجة لوفاة جولدا مائير فى إسرائيل ونتيجة للشعور بأن الجائزة هى شىء تافه سابق لأوانه، وقال معلق إسرائيلى يحب التماثيل والأيقونات: إن الشىء الذى يريده شعب إسرائيل ليس جوائز السلام وإنما هو السلام نفسه وتساءل قائلا: (أين الطفل ثمرة الاتفاق) وفى القلعة النرويجية الكئيبة التى ينتشر فى شرفاتها حراس مسلحون وكلاب بوليسية، لم يثر حديث الموافقة على الاتفاقية الذى أدلى به بيجين دهشة أحد، وهو رابع حديث يقرأه من نص مكتوب فى غضون ثلاثين عاماً من الخطابة الارتجالية المتدفقة، ارتفعت نبرة الكلمات وهو يتذكر الستة ملايين شخص الذين راحوا ضحية الإبادة، وحظى (جابوتنسكى) و(جاريبالدى) ما يستحقانه من تكريم، وأصر بيجين على أن شعب إسرائيل فاز أيضاً بالجائزة وليس فقط رئيس وزرائه.

ورفع يده ممسكة بحقه فى الجائز ومقدارها ٨٥ ألف دولار معلناً تبرعه به لمؤسسة إسرائيلية تقدم منحاً للطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم الأطفال المتخلفين.

وفى الخارج فى الشارع الملىء بالصقيع، تقدم عدة آلاف من الشباب النرويجى فى عملية احتجاج يحملون فيها المشاعل خلف اثنى عشر شخصًا من العرب يحملون رايات فلسطينية، وكان كثير من هؤلاء الشباب النرويجى يرتدون الكوفية على رءوسهم وكانوا يهتفون قائلين: (بيجين إرهابى ساندوا منظمة التحرير الفلسطينية)!

ونجا السادات بصورة أو بأخرى من غضبهم، ورفضت وزارة الخارجية النرويجية بإعلانها حيادها الخاص بمنطقة الشمال، السماح للمتظاهرين

بعقد اجتماع للتعبير عن الاحتجاج فى قاعة جائزة نوبل التقليدية بالجامعة، إلا أنها أوردت نبأ المسيرة فى بيانها الرسمى حول أحداث اليوم.

وكانت زيارة الرئيس جيمى كارتر لكل من القاهرة والقدس فى شهر مارس عام ١٩٧٩، محاولة أخيرة يائسة كان الرئيس يقامر بمكانته فى التوصل إلى اتفاق، وقد أزعجه عدم الثقة المتبادل وعدم الانسجام الشخصى بين بيجين والسادات، وكان بيجين فى أكثر حالاته بخلاً عندما ذهب إلى واشنطن فى بداية الشهر. وفى أول اجتماع لهم فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض وجد كارتر رئيس الوزراء الإسرائيلى (قوياً للغاية وسلبياً وواثقاً من نفسه فيما يبدو)، وحذره من النتائج العكسية للفشل ومن الخطر النهائى الذى سيهدد إسرائيل إذا سمح بيجين لبلاده بأن تصبح معزولة عن العالم، بسبب تعنتها أو قيامها بأعمال عدوانية أو إلقاء بيانات (وذهبت الولايات المتحدة إلى أقصى ما تستطيع عمله بتقديم لغة وسط، الأمر الذى تحسر عليه الرئيس ووصفه بأنه (رد غير إيجابى من الناحية العملية من جانب إسرائيل)، وقال بيجين فى اليوم التالى إنه لم يخلد إلى النوم ليلة أمس نتيجة لشعوره بالقلق تجاه النقد القاسى الذى صدر من الرئيس، وكانت النتيجة التوصل إلى حل وسط بارع بشأن أولوية التزامات مصر (تجاه إسرائيل والعرب)، وهو الأمر الذى يعنى شيئاً للقدس بينما يعنى عكسه للقاهرة، وكان إذعان بيجين بمثابة اعتراف تكتيكى بأنه على الرغم من أن القضية نفسها حرجة، إلا أنها لن تتقرر بقصاصة من الورق، وإذا حدث أن اضطرت مصر للاختيار بين السلام والتضامن العربى القومى، فلن تتأثر بفترة فى المعاهدة، وإذا انضمت إلى جبهة الحرب، فستنتهى المعاهدة نفسها.

وسافر كارتر إلى القاهرة وهو يدرك تماماً أن الرحلة التى لا تحقق شيئاً ستجسد الفشل، إلا أنه ليس بوسعه أن يرى طريقاً أفضل إلى الأمام.

وكان السادات مستعداً لتقديم المساعدة وعرض تبادل السفراء مع إسرائيل مقابل الأرض، وأشار إلى اتفاق لبيع البترول عن طريق الأمريكيين، وكانت المقارنة أكثر وضوحاً عندما ذهب الرئيس إلى القدس، أبلغ بيجين كارتر بأنه لن يوقع حتى بالحروف الأولى من اسمه على الاتفاق بدون أن يعرضه أولا على الحكومة والكنيست وسأله الرئيس عما إذا كان يريد السلام حقيقة.

وكتب يقول فى مذكراته: لقد كان انطباعى أنه فعل كل شىء بوسعه لعرقلة التوصل إلى اتفاق باستساغة واضحة (وكان بيجين فيما يبدو يعرقل المعاهدة وبدء محادثات الحكم الذاتى)، وكان كل همه الاحتفاظ بكافة الأراضى المحتلة باستثناء سيناء، وبدا غير مكترث بمأساة العرب الذين يعيشون محرومين من الحقوق الأساسية فى ظل الحكم الإسرائيلى.

وكان بيجين متوتراً بصورة لا مثيل لها، ومؤمناً بالقدر ومصمماً على ألا يملى أحد عليه شيئاً عندما جاء كارتر لإلقاء حديث فى اجتماع خاص للحكومة فى صباح اليوم التالى، ووقف منتصباً ليلفت الانتباه ومعه اثنان من مساعديه ينتظرون الترحيب بالضيف عند باب مبنى مكتبه، وسمعه أحدهم وهو يغنى بلا نغم من بين أسنانه المطبقة قائلا (آنى ما أمين) وهى الترنيمة اليهودية للإيمان وتعنى (أننى أؤمن)، وهى نفس الترنيمة التى كان يغنيها الآلاف من ضحايا هتلر وهم يدخلون غرف الغاز، وذهب كارتر فى نفس اليوم إلى (ياد فاشيم) وهو النصب التذكارى للإبادة فى جانب جبل (هيرتزل)، وخلال اجتماع الحكومة صرح الرئيس للوزراء الإسرائيليين بأنه يتعين عليهم أن يوافقوا، وحينذاك قاطعه بيجين قائلا: (سنوافق على ما اتفقنا أن نوافق عليه)، وطبقاً لما ذكره شاهد إسرائيلى أجاب كارتر بقوله: (إننى أفهم) وانتهى الاجتماع بوصول إسرائيل والولايات المتحدة إلى طريق مسدود بشأن مسألتين: وهما مبيعات البترول المضمونة وطلب مصر الخاص بفتح مكتب اتصال فى غزة، التى كانت تحكمها فى الفترة من عام ١٩٤٨

حتى ١٩٦٧.

وتجلى نفاد صبر الرئيس فى حديث أدلى به بعد ظهر ذلك اليوم أمام الكنيست وقال فيه (إن شعب البلدين على استعداد الآن للسلام).. (ولم يبرهن الزعماء بعد على أننا على استعداد للسلام لدرجة تدفعنا لانتهاز هذه الفرصة)، وتم تقديم هذه النقطة ببراعة، لكن لم يكن هناك أحد فى المجلس يساوره أى شك بشأن أى الزعيمين الذى كان يدور فى خلده، وكان رد بيجين يتعرض لمقاطعة مستمرة من أقصى اليسار وأقصى اليمين، وتم طرد (جيؤلا كوهين) ناقدته الوطنية الشديدة الصخب من الكنيست بعد رفضها السماح لرئيس الوزراء بالمضى قدماً، وصاحت وهى على الباب تقول (سأواصل نضالى)، وشعر الأمريكيون بالصدمة نتيجة للضجة بالرغم من أنهم تظاهروا بأنهم تأثروا بحيوية الديمقراطية الإسرائيلية، وقال سيروس فانس (لقد شهدنا البرلمان البريطانى)، لكن ذلك أسوأ من البرلمان البريطانى، وكان ذلك يوماً مفعماً بالضجيج).

ولاحظ الصحفيون الذين يتسمون بالتبصر أن موشى ديان غادر باب المجلس وصعد إلى أعلى ليهمس إلى وزير الخارجية فى قاعة الزوار المرموقين.

لقد جاء ليعتذر عن هذه الضجة التى يمكن تفسيرها بأنها أعمال فظة موجهة للرئيس، إلا أن مهمته التى قام بها إلى الدور العلوى كانت أيضاً بداية لمبادرة خاصة أدت فى غضون ٢٤ ساعة إلى اتفاق ومعاهدة سلام، واقترح وزير الخارجية إجراء حديث هادئ فى وقت متأخر من النهار ووافق سيروس فانس، وعلى أى حال كان من المقرر أن يجتمعا فى لقاء آخر بين الحكومة والأمريكيين (وهذه المرة بدون الرئيس)، وطلب ديان من بعض رفاقه البقاء بعد مغادرة الأمريكيين، واتفق الوزراء معه على أن إسرائيل لا يسعها أن تترك الرئيس يعود إلى الوطن خاوى الوفاض من رحلته، وطبقا لما ذكره (نافتالى

لافى) المتحدث باسم ديان، فإن ديان لم يكن يريد أن يثير عداء كارتر، وفى المقام الأول لم يكن يريده أن يشعر بأن إسرائيل هى السبب فى إخفاقه، وقد كان يرى أيضاً فى أفكار كارتر بعض الضوء، وشىء يمكن تطويره وهو التزام أمريكى بضمان إمدادات البترول ووضع غزة، وشعر ديان بأنه يستطيع الفوز باتفاق، وطلب من شمويل تامير وزير العدل أن يصيغ عبارة من شأنها أن تلزم الولايات المتحدة بشأن إمدادات البترول.

وعندما ذهب ديان ليرى فانس فى غرفته بالفندق بعد ذلك الاجتماع الحكومى، عرف كلاهما أن الخلافات الحقيقية ليست هامة للغاية، إلا أنه من الصعب لم شمل الأجزاء معاً مرة أخرى، وطبقاً لما ذكره أحد موظفى بيجين، كان ديان أحد الرجال القليلين الذين يستطيعون إقناع رئيس الوزراء بقوة الحجة بتغيير تفكيره، إلا أن وزير الخارجية فضل التسلل فى هذه المرة.

وقال فانس: (إننى أعلم أنه حصل من بيجين على بعض من حرية التصرف لكننى شعرت بأنه من المرجح كان يلح على التحرك على نطاق أوسع، وإننى مقتنع بأن عليه أن يقنع بيجين بأفكاره بعد ذلك، وفيما يتعلق بقضية غزة اقترح ديان إقناع المصريين بعدم الإشارة فى هذه المرحلة إلى مكتب الاتصال.

وهم يستطيعون على الدوام اقتراح إجراء انتخابات مبكرة فى غزة أثناء مفاوضات الحكم الذاتى، وأكد أيضاً على أنه بمجرد أن تبدأ إسرائيل فى الانسحاب من سيناء، وتسود العلاقات الطبيعية سيصبح بمقدور كل مصرى السفر إلى غزة بتأشيرة إسرائيلية، وقبل فانس ذلك بشرط أن تلتقى إسرائيل مع السادات فى منتصف الطريق بشأن مبيعات البترول، وكان المصريون يشعرون بحساسية تجاه مكافأة إسرائيل على سيناء ببيع بترولها بسعر منخفض وأدرك ديان مشكلتهم، وبعد ذلك درس هو وفانس دلالات الضمان الأمريكى، وأصر ديان على فقرة فى معاهدة السلام تنص على أن

إسرائيل من حقها شراء البترول مباشرة من مصر، وخلاف ذلك تظل مصر تحترم المقاطعة العربية، وستقنع إسرائيل بحق شراء البترول المصرى بأسعار السوق، بالإضافة إلى ضمان أمريكى مدته عشرين عاماً للتعويض عن العجز إذا توقفت الإمدادات، وبناءً على اقتراح وزير الخارجية وجه كارتر دعوة إليه وإلى بيجين لتناول الإفطار فى فندق الملك داود فى اليوم التالى.

وتقررت الصفقة أثناء تناول عصير البرتقال وبدلا من المقامرة بإزعاج بيجين، ترك ديان لفانس أن يحتل مكان الصدارة فى تقديم أفكارهما، وأعاد وزير الخارجية إلى الأذهان ما يلى:

(لقد أخذنا على عاتقنا فى صباح ذلك اليوم بحث الموضوع كما لو كنا نمسك بزمام المبادرة، وأعتقد أن هذه هى الطريقة التى كان يريدها موشى ديان، وفى تقديرى فإنه من المرجح أنه قدم ما توصلنا إليه إلى بيجين باعتباره مبادرة أمريكية إلى حد كبير، وقد تركت له الأمر ليقدمه إلى بيجين بالطريقة التى يفضل تقديمه بها).

وأتت إستراتيجية ديان بشأن المبيعات بثمارها، ففى حفل توديع الرئيس فى مطار بن جوريون تمتم بيجين إلى كارتر قائلا: (لقد نجحتم، واجتمع الرئيسان الأمريكى والمصرى فى مطار القاهرة، ووافق السادات بالفعل على تبادل السفراء فى وقت مبكر (وهى إيماءة للعلاقات الطبيعية)، ووافق على مد خط للأنابيب من حقول البترول إلى إسرائيل والكف عن الدعاية المناهضة لبيجين (المناهضة للسامية فى أغلب الأحيان) فى الصحف المصرية، ولم يشعر مستشارو السادات بالثقة تجاه الصفقة، إلا أنه قطع عليهم الطريق كالمعتاد بقوله (ذلك مرض بالنسبة لى) واتصل كارتر ببيجين تليفونياً وتم الاتفاق على أن يجتمع الزعماء الثلاثة معاً من جديد حاملين معهم أنباء طيبة لحضور حفل التوقيع على المعاهدة فى البيت الأبيض يوم ٢٦ مارس، وفازت إسرائيل بأول

معاهدة سلام لها، وكان من الجائز ألا يصل بيجين أبداً إلى هذه النقطة بدون ترتيبات ديان ووايزمان وباراك، إلا أنه كسب الثقة بالقيام بالمخاطرات السياسية وبتحديد التضحيات التى سيقدمها والتى لن يقدمها، وعلى الرغم من الصور الفوتوغرافية المبتسمة إلا أنهن لم يكن سوى عدد يسير من الأصدقاء على الطريق، وكان تعليق كارتر على هذه المشاركة المثيرة للسخط هو: (اننى لم أتمتع فى الغالب أبدا بمفاجأة سارة فى معاملاتى معه).

وكان السادات أكثر سخاءً بمجرد أن صدق بيجين بإعادة العريش، العاصمة المغبرة لسيناء، إلى مصر فى يوم ٢٥ إبريل وطبقاً لما ذكره بطرس غالى نائب وزير خارجية مصر الدائم السادات حينذاك فقط بدأ يثق فيه، وقدم بيجين ما التزم به، وتمت مكافأته بصورة مناسبة فى حملة انتخابات عام ١٩٨١ عندما قبل السادات دعوة لحضور اجتماع قمة فى شرم الشيخ كان من شأنه أن يكون عملاً استعراضيّاً صرفاً، وقال غالى:

كان السادات يؤيد إعادة انتخاب بيجين، وفى تقديره فإن فوز بيجين سيكون أفضل بالنسبة لمصر، كانت أولويته هى الانسحاب من سيناء، وقد اعتقد أنه بدأ العملية مع مستر بيجين، ومستر بيجين قدم فى المرة الأولى وسيقدم فى المرة الثانية، وكان لطيفاً مع بيجين ليضمن استكمال الانسحاب من سيناء.

وترك آخر جندى ومدنى إسرائيلى الأرض المصرية يوم ٢٥ إبريل عام ١٩٨٢، أى بعد مرور ثلاثة أعوام على إعادة العريش، وفى ذلك الحين كان السادات قد اغتاله المتعصبون المسلمون وحل محله نائبه حسنى مبارك، أما مناحم بيجين فكان لا يزال رئيساً لوزراء إسرائيل، ومازال يحكم الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة، واندثرت فى الرمال مفاوضات الحكم الذاتى، وكانت المصالحة الإسرائيلية المصرية أشبه ببرعم أوقف الصقيع نموه، وظلت الحدود مفتوحة إلا أن المرور كان فى اتجاه واحد ونادراً ما كان السائحون

المصريون يزورون إسرائيل أما التجارة فكانت مجمدة، وتلاشت العلاقات الثقافية، إلا أن معاهدة السلام اجتازت اختبار الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢، وبعد مذبحة مخيمى صابرا وشاتيلا، استدعى حسنى مبارك إلى الوطن سفيره فى إسرائيل لإجراء مشاورات غير محدودة، ومع ذلك، لم يتم إغلاق السفارة والحدود ولم تصلصل مصر بالسلاح وظلت (أولوية الالتزامات) سارية المفعول، وفى شهر نوفمبر عام ١٩٧٧ كان الناس فى شوارع القدس يأملون فى شىء أكثر.

■ ■ ■

الفصل الواحد والعشرون

فرق تسُد

كان مناحم بيجين مخلوقًا متقلب المزاج، وكانت الحكومة تتأرجح مثل البترول بين اليأس والرجاء، وبين الشلل والنشاط المحموم طبقا لحالة رئيس الوزراء العقلية والجسدية، ولقد شهدت السنتان الممتدتان بين معاهدة السلام مع مصر والانتخابات العامة فى ٣٠ يونيو عام ١٩٨١ هذا التذبذب فى أشد صوره.

وظل بيجين الشخصية المسيطرة ولم تكن الحكومة لتستطيع أن تفعل شيئاً بدونه، وكذلك فإن الحكومة لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً وهو على رأسها، ولقد استقال أشد الوزراء استقلالية فى الفكر وهما ديان وعيزرا وايزمان فى أكتوبر عام ١٩٧٩ وفى مايو عام ١٩٨٠ على التوالى، فلم يعد بيجين فى حاجة لديان لخبرته أو لشهرته، فهو لم ينس خروج ديان على النظام أثناء مفاوضات السلام، وسرعان ما أدرك ديان أنه لم يسمح له بعد ذلك بأن يمارس دبلوماسيته الخاصة، ولقد هاج وايزمان وغضب وثار وماج وتزايد شقاؤه لأن بيجين كان يعرض السلام للخطر بنظرته الصارمة لموضوع الحكم الذاتى الفلسطينى. وكتب وزير الدفاع فى خطاب الاستقالة يقول: (بالنسبة لشعب إسرائيل كانت أياماً مليئة بالثراء والآمال فى فترة توليكم رئاسة الحكومة، ولقد أمن الشعب بالحكم وأمن بالسلام، ولم يكن الشعب هو الذى توقف عن الإيمان بالسلام.

وفى نفس الوقت فإن فشل سمحا ارليخ فى سياسته الاقتصادية القائمة على السوق الحرة، قد أصبح فشلاً يزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، وحل بيجال

هورفتز محل وزير المالية وهكذا انفجرت الأسطورة القائلة إن رجال الأعمال الأحرار كانوا يعرفون كيف يرعون ويعتنون بالاقتصاد وكانت لدى هورفتز الذى تحول بسرعة وثبات ناحية اليمين بعد أن اختلف مع الحركة العمالية فى بداية عهد بن جوريون، الشجاعة لأن يفرض القيود الضرورية على الإنفاق العام، وقد عرف باسم (ليس عندى) أو (لا أملك شيئاً) لكن جهوده لم تثر إلا سلسلة من الأزمات داخل الحكومة، وكانت تنقص هورفتز القدرة على إجبار زملائه فى الحكومة على الموافقة على أسلوبه، أما رئيس الوزراء فكان غير مبال، لقد كان شغل بيجين الشاغر هو النضال من أجل أرض إسرائيل، ومعركة من أجل الحفاظ على الوفاق بين الائتلاف وحزبه.

وفى النصف الثانى من عام ١٩٨٠ غرق بيجين فى واحدة من دوامات اليأس، وكان فى هذه المرحلة قد عانى من ثلاث أزمات قلبية ومن حالة شلل خفيفة، وقد برزت آثار هذه الأزمات، وأخذ الوزراء يشتكون من عجزه عن القيادة، ووجده الزائرون فاتر الشعور غير مبال ومنعزلاً وعاطفيّاً، وفى أغلب الأحيان كان لا يعرف من هم هؤلاء الزوار ولا لماذا أتوا، وجاء وفد من (رابطة الصحافة الأجنبية) يسجل دور بيجين بصفته قائماً بأعمال وزير الدفاع بعد استقالة وايزمان، ولكنه خرج من مكتبه فى حالة إحباط وإشفاق، وقد اقتنعوا تماماً بأن بيجين كان يخبو نجمه بسرعة كبيرة.

وقد أكد الشهود العسكريون ما أشيع فى الصحافة الإسرائيلية بأنه كان ينام أثناء مناقشاته معهم، والقول بأنه كان يعانى من الآثار الجانبية للأدوية التى تعاطاها لمعالجة قلبه بعيداً عن الدقة، لقد كان بيجين يتعاطى بانتظام علاجاً مضاداً لتجلط الدم، وعندما سأل أحد مساعديه دكتور ميرفن جوتسمان طبيب رئيس الوزراء الخاص عن أثر هذا العلاج أجابه الطبيب بأن هذه الأدوية لا تؤثر فى قدرة بيجين العقلية، لقد كان متعباً بسبب مرضه وأكثر ما يمكن أن تفعله هذه الأدوية هو أن تصيبه بالنعاس، وقد نصحه

الأطباء بأن يقصر عمله اليومى على أربع ساعات فقط، وقال أحد رجال مكتب بيجين إن رئيس الوزراء قد استمر فى تسيير الأمور الهامة للدولة وهو على فراشه فى المستشفى بعد إصابته بأزمة قلبية.

(إنه أبداً ما بلغ من العجز إلى حد الاستسلام، وفى إحدى المرات وكان فى المستشفى بعد إصابته بسكتة خفيفة، أخبرنا الأطباء أنه ليس من المحتمل استعادة قوة إبصاره فى عينه اليسرى، ولكنه ظل يملى المذكرات والخطابات، وبعد شهرين، وفجأة وهو فى مكتبه برئاسة الوزراء استعاد بصره قوته السابقة وقال: (إننى أستطيع أن أرى ـ بوضوح تام)، ولم يكن هناك ما يدل على أنه كان واقعاً تحت تأثير الأدوية والعقاقير، إنه رجل يخضع لأحواله المزاجية والتى تسير جنباً إلى جنب مع كيانه العاطفى، إننى لم أره قط وهو أثناء عمله اليومى خاضعاً لنظام أدوية مكثف وصارم، وإننى لم أره قط ينظر إلى ساعة ليتناول جرعة دواء كل ساعتين).

وفى أثناء أحد اجتماعات مجلس الوزراء وعندما غرق فى حالة من حالات الوسوسة أقر وزير الداخلية يوسف بورج ورقة لأحد زملائه جاء فيها: (إذا كان هذا ما تفعله هذه الحبوب فإننى أريد مثلها لى)، وفى مناسبة أخرى وعندما كان بيجين فى أسوأ حالاته دخل إلى قاعة الكنيست واتجه فوراً إلى مقعد زعيم المعارضة والذى ظل يشغله حتى عام ١٩٧٧، وجاء أحد رجال الكنيست وأوضح له فى لطف الخطأ الذى وقع فيه وقاده إلى مقعده الحقيقى كرئيس لمجلس الوزراء.

كانت حكومة مناحم بيجين هى الأولى فى التاريخ البرلمانى الإسرائيلى التى تواجه فيه إجراء انتخابات مبكرة وباختيارها، وقد اتخذ هذا القرار فى يناير عام ١٩٨١ وذلك بعد أن اعترف هورغنز بالهزيمة فى محاولته خفض ميزانية التعليم، ونقل مجموعة رافى التى يرأسها وتتكون من ثلاثة رجال إلى جانب المعارضة، وكانت أغلبية الحكومة قد انخفضت إلى ثلاثة أصوات فى

تصويت الثقة قبل ذلك التاريخ بشهرين فقط، وعندئذ فضل بيجين أن يرجع إلى الشعب بدلا من أن يتشبث بالبقاء تحت رحم الجماعات المنشقة والانتهازيين، وبالرغم من احتجاجات المعارضة فإنه حدد موعد الانتخابات يوم ٣٠ يونيو وخرج رئيس الوزراء من اجتماع خاص لمجلس الوزراء وهو يبدو أكثر إشراقاً ومرحاً من أى وقت منذ عدة أشهر.

ولكن احتمالات تشكيل بيجين لحكومة جديدة بدت قائمة وغير محتملة ووضعت قياسات الرأى العام حزب العمل فى مركز متقدم كثيراً، حتى أن مستر شيمون بيريز ظهر وكأنه سوف يكون بعد نهاية الانتخابات أول زعيم إسرائيلى يحقق أغلبية ساحقة، لقد خسر بيجين وزيرين للمالية فى غضون ثلاثة عشر شهراً، وكان بيجين فى سنة ١٩٧٦ قد هاجم حكومة إسحاق رابين المترنحة لأنها تركت التضخم يصل إلى ٣٥٪ ووعد بأن يخفض هذه النسبة إلى النصف.

وفى عام ١٩٨٠ ارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية بمعدل ١٣٢,٩٪ وأخذت الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى الاتساع، وأشارت الدراسات إلى أن ما لا يزيد على ٣٠٪ من اليهود الشرقيين الذين أدلوا بأصواتهم فى صالح بيجين سنة ١٩٧٧ يزعمون تأييده هذه المرة، أما المنشقون عليه فإنه لم يكونوا راضين عن أداء حكومته فى الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من أنهم كانوا لا يزالون يؤيدون سياسته الأمنية وسياسته الخارجية وسياسته إزاء المستوطنات، والشىء الذى جذب قليلا من الانتباه فى يناير هو أن ٣٧٪ من مجموع الناخبين لم يكونوا قد قرروا بعد أى المرشحين ينتخب.

وأوضح قياس للرأى العام نشرته صحيفة هاآرتس اليومية أنه بالرغم من أن ٥٥٪ يريدون تغييراً فوريّاً للحكومة إلا أن ٣٩,٧٪ من الناخبين لم يكونوا يعتقدون أن حزب العمل فى إمكانه أن يكون أحسن حالا فى المجال الاقتصادى.. لقد كان الإسرائيليون قد تحرروا من سحر بيجين ولكنهم لم يتكتلوا وراء بيريز، لقد كان أمام الليكود ما يحاربون من أجله وأمامهم متسع

من الوقت يبلغ ستة أشهر.

إن إحياء الليكود لم يضع أساسه بيجين إنما الذى وضعه خليفة هورفتز وهو يورام أريدور وهو من جيل سابق سنة ١٩٤٨، وكان اريدور أول وزير مالية إسرائيلى يحمل درجة علمية فى الاقتصاد، ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدم برنامجاً انتخابيّاً دفع بالتضخم إلى أعلى أكثر من ذى قبل ويصل بميزان المدفوعات إلى الخط الأحمر، ولاشك أن أساتذته قد علموه أنه لا يمكن علاج التضخم عن طريق تشجيع المستهلكين بالاندفاع نحو شراء السلع الكمالية، ولكنه كان سياسيّاً يدرك أن هذا هو السبيل نحو كسب الأصوات ـ وأدت ـ التخفيضات فى الضرائب إلى خفض سعر التليفزيون الملون بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و١٥ فى المائة وخفض سعر السيارات الجديدة بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و١٧ فى المائة، وخفض الأسعار بنفس النسبة المئوية على الأدوات والمعدات المنزلية والأثاث. وأعلن وزير المالية أن ضريبة الشراء المفروضة على النبيذ الحلو سوف تخفض إلى النصف فى أول يوليو، وهو اليوم السابق للانتخابات، وفى خلال شهر أعلنت الغرف التجارية أن الإسرائيليين قد تقدموا بطلبات شراء ٨٠٠٠ سيارة جديدة و٦٠ ألف جهاز تليفزيون.. وجميع هذه السلع مستوردة من الخارج.

واستأجر تجار الجملة طائرات الجامبو لمواجهة هذه الطلبات، ولقد ارتفعت مبيعات السيارات وحدها بنسبة ٤٠٠ فى المائة وكتب ماتى جولان فى صحيفة هاآرتس يقول إن سياسة اريدور قد نجحت:

(لقد بدأ الناس يسألون أنفسهم هل سيدفعون غالياً بعد الانتخابات بسبب سياسة اريدور الاقتصادية الانتخابية، كما يقول لهم خبراء الاقتصاد. وكانوا ينصتون لما يقوله هؤلاء الخبراء ويهزون رءوسهم فى شك، فالإسرائيلى العادى لا يفهم كثيراً فى شئون الاقتصاد وهو بالتأكيد لا يفهم السياسات الاقتصادية طويلة الأجل، واليوم تتخفض الأسعار وهذا هو ما يهمه، وحزب

العمل لم يكن يعرف كيف يتصرف، فكيف له أن يقف ضد خفض الأسعار ولم يكن يعرف كيف يقف فى وجه هذه السياسة الاقتصادية غير المسئولة وغير الملجمة والتى وضعت من أجل الانتخابات).

وسمع أحد المشترين فى القدس وهو يقول: (إن كل فرد يعلم أننا سندفع الثمن فى نهاية الأمر ولكن رغم ذلك فإننا نشترى، وربما لن تكون هناك فرصة كهذه إلا فى الإنتخابات القادمة، وبدت سياسة اريدور هذه تنعكس على قياسات الرأى العام، وفى منتصف شهر مارس بدأ حزب الليكود يستعيد الأصوات التى كان قد فقدها، بينما كان حزب العمل يناضل من أجل الاحتفاظ بمواقفه ولكن لازالت الهوة بين حزب العمل وحزب الليكود واسعة، إلا أن خطاً جديداً قد بدأ يظهر، وبدأ الناخبون الشرقيون فى حسم موقفهم، ولقد أعطاهم اريدور الفرصة للعودة إلى حظيرة الليكود، ولما تردد الإستراتيجيون فى حزب العمل فى الظهور فإنهم بذلك قد أتاحوا الفرصة للحكومة لتأخذ المبادرة فى يدها.

وعند هذه النقطة من الحملة الانتخابية برز بيجين إلى الوجود مرة أخرى كأقوى ما يكون منذ عودة لازاروس، ففى مقابلة إذاعية بمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لمولد إسرائيل تفاخر بيجين بأنه يشعر أنه أفضل من أى وقت مضى خلال السنوات الأربع الماضية ومنذ أن تولى رياسة الحكومة وقال معللا ذلك (لأننى فى قلب المعركة الآن)، كان حزب الليكود قد أحرز النصر فى انتخابات سنة ١٩٧٧ معتمداً على اسم بيجين، ولكن بدون ظهور الرجل نفسه ذلك لأنه فى الشهرين الأخيرين من انتخابات عام ١٩٨١ حارب الحزب معتمداً على اسم بيجين وبشروط بيجين، ولجأ بيجين إلى منبر الخطابة للمرشحين فى الانتخابات حيث أخذ يطعن أعداءه القدامى الواحد تلو الآخر، بدءاً بالحركة العمالية التى عاملته هو ورفاقه بالاحتقار لقرابة تسعة وعشرين عاماً والألمان الذين قتلوا ستة ملايين يهودى

والشيوعيين الذين بعثوا به إلى معسكرات الاعتقال (الجولاج) والبريطانيين الذين علقوا مقاتلى جماعته فى المشانق، وكان رد فعل دائرته الانتخابية فى الأحياء الفقيرة فى المدن وفى المدن النامية المبعثرة مشوباً بالعاطفة وعنيفاً فى معظم الأحيان، لقد كان بيجين ملكاً لإسرائيل والخروج عليه ضرب من الخيانة، وكتب أحد محررى الصحف فى إسرائيل يقول: (يمكنك أن تقول لى إنك لن تشترى سيارة مستعملة من بيريز أما أنا فإنى لن استأجر بيجين ليلاعب طفلى لأنه سوف يخنقه).

وكان أول عمل من أعمال التهديد وقع فى احتفال للجالية اليهودية المغربية فى حديقة فى القدس فى نهاية عيد الفصح. لقد جاء بيريز لكى يقدم تحيات حزب العمل للجالية اليهودية القادمة من شمال إفريقيا، لكن الشبان أخذوا يهزأون من ذكر اسمه وألقوا عليه البرتقال والطماطم بمجرد أن صعد إلى منبر الخطابة، وأجبر على ترك المكان قبل أن ينطق بكلمة واحدة.

وانتشر العنف فى طول البلاد بينما تجاهل بيجين جميع الدعوات التى وجهت إليه ليكبح جماح أتباعه، وأشعلت خطبه النار وزادت من تأججها. وفى اجتماع شعبى لحزب العمل فى بتا تكفا فى منتصف شهر يونيو أخذ ما يقرب من ٢٠٠ شخص من أتباع الليكود يصيحون فى وجه بيريز قائلين (بيجين، بيجين، ملك إسرائيل)، وأخذوا يدحرجون البراميل المملوءة بالنفايات والمشتعلة ويدفعون بها إلى وسط الحشد البالغ عشرة آلاف، وأخذوا يحطمون النوافذ فى المقر المحلى لحزب العمل، وأصيب ثمانية عشر شخصاً وأُلقى القبض على ٢٦ شخصًا، وفى مواجهة مماثلة وقعت فى القدس تم تهديد أحد مندوبى الصحف الإسرائيلية إذا ما ذكر اسم زعيم الجماعة التى رفضت السماح لبيريز بالحديث، وأصبح العنف والكراهية هما المحور الرئيسى فى الحملة الانتخابية، واستغل حزب العمل صورة لأحد مؤيدى حزب الليكود وهو يلوح بمطواة فى اجتماع حضره بيجين، وأعادوا طبع صور الهجوم الذى وقع عام

١٩٥٢ على الكنيست.. لقد قسم بيجين، اليهودى البولندى، البلاد إلى شرق وغرب ولم تكن قد انقسمت كذلك من قبل وقويت الكراهية والأحقاد على الجانبين، وبالنسبة لليهود الغربيين كان اليهود الشرقيون يشكلون تهديداً بدائيّاً للديمقراطية الإسرائيلية، وبالنسبة لليهود الشرقيين فإن اليهود الغربيين متغطرسون أدعياء يخشون فقدان امتيازاتهم، وهم أوربيون غرباء فى الشرق الأوسط، لقد كان صراعاً بين الثقافات السياسية المختلفة كما هو صراع بين هذه الأصول العرقية والعنصرية المختلفة، ولقد اتهم شلومو هيلل، وهو زعيم عمالى ولد فى العراق، رئيس الوزراء بأنه يدفع البلاد نحو الفاشية. لقد كان هناك جو من التحفز الاجتماعى الاشتراكى وقد علمتنا التجارب بأن هذين العنصرين إذا ما امتزجا أديا إلى الفاشية، ولقد كان بيجين يناشد القطاع الأدنى من الجماهير.

وبنفس هذه النشوة المتصاعدة دفع رئيس الوزراء بخطبة إسرائيل إلى حافة الحرب مع سوريا، وبعث بقواته الجوية لقصف المفاعل النووى العراقى، وانتشى بهذين الحدثين كبرهان على أنه هو الوحيد الذى يعرف كيف يتعامل مع العرب، وفى إبريل شنت ميليشا الكتائب اللبنانية والتى دربتها إسرائيل هجومًا فى شرق لبنان مهددة المواقع السورية بالقرب من مدينة زحلة الإستراتيجية، وكان رد فعل السوريين القصف المركز وأعلن بيجين أن إسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين فى وجه هذه الأفعال الإجرامية من الدولة المجاورة لبنان، وضربت قواته الجوية قواعد الفدائيين الفلسطينيين فى جنوب لبنان، وفى ٢٨ ابريل أسقط طائرتى هليكوبتر سوريتين وقد وصفت هاتان الطائرتان بأنهما من طائرات الهليكوبتر المهاجمة وإن كان بيجين قد اعترف بعد ذلك بأسبوعين بأنهما كانتا تنقلان قوات وأسلحة، وبرر التدخل الإسرائيلى بأنه نتاج التجارب التاريخية وأثر من آثار اليهودية.

ولقد سأل السفير الأمريكى صموئيل لويس ما إذا كان قد قرأ كتاب

آرثر مورس بعنوان (بينما مات ستة ملايين) والذى سجل عدم اكتراث العالم الحر لعملية إفناء يهود أوروبا وأخبر رئيس الوزراء لجنة الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست بأنه قرأ هذا الكتاب ست مرات وقال:

(فى كل مرة قرأت فيها هذا الكتاب لم أكن أخجل من انسياب الدموع من عينى، عندما كنت أتخيل كيف أهمل شأن شعبنا اليهودى وترك وحده، لقد قتلهم الألمان لكن العالم تركنا نلقى مصيرنا، وقلت للويس: أريد أن أقول لك إننا دولة يهودية ولنا تجاربنا الخاصة بنا، وأننا لن نسمح تحت أى ظرف من الظروف، للسوريين محاولة تحويل المسيحيين فى لبنان إلى ما كان عليه اليهود فى أوربا فى الأربعينيات.. إن السوريين مع الإرهابيين يعاملون المدنيين تماماً كما كان يفعل النازيون، إنهم لا يهتمون إطلاقاً بالرجال أو النساء أو الأطفال).

وعلق اثنان من سياسيى حزب العمل، والاثنان كانا رؤساء أركان سابقين فى الجيش، وهما إسحاق رابين وحاييم بارليف قائلين فى تعجب إن ما فعله السوريون لا يشبه فى شىء النازية، ولم يكن هذا القياس أو التمثيل ناجحا، وأصر بيجين على أنه بالرغم من أن السوريين لم يقيموا غرف الغاز للمسيحيين اللبنانيين إلا أن دباباتهم ومدفعيتهم تقوم بنفس العمل، وكان مناسباً لأهداف بيجين أن ينسى ويتجاهل أن إسرائيل هى التى سلحت الكتائبيين وأنهم هم الذين تسببوا فى هذا القصف، وكان يتكلم وكأن الحرب الأهلية اللبنانية لم تقع أبداً، ورد السوريون على إسقاط طائراتهم الهليكوبتر بأن دفعوا بصواريخ سام ـ ٦ المتحركة إلى وادى البقاع، وكانت هذه هى أول مرة يضعون فيها هذه الصواريخ فى الأراضى اللبنانية وطالب بيجين بسحب هذه الصواريخ قائلا إنها تهدد حرية عمليات القوات الجوية الإسرائيلية فوق لبنان، ومما أثار قلق العسكريين المحترفين انزلاق لسان بيجين فقد أعلن وسط حماس الجماهير فى اجتماع الليكود إنه ما لم يعمل السوريون على إزالة هذه الصواريخ فإن إسرائيل سوف تبعث بقواتها الجوية لتدميرها،

وأصاب المسئولين عن الأمن الذهول، وكتب هيرشى جودمان المراسل العسكرى لصحيفة جيروزاليم بوست يقول:

(لماذا أخطر بيجين السوريين بأن رد فعل إسرائيل سيكون عن طريق الجو؟ لقد كان السوريون قد أكملوا لتوهم نشر بطارية مسلحة إلى جانب صواريخهم على الحدود السورية اللبنانية ـ ذلك لأنهم لم يكونوا يعرفون ما إذا كان الهجوم المحتمل سيأتى عن طريق البر أو الجو أو عن طريق الاثنين معاً).

وفى اليوم التالى ضاعف بيجين الإساءة عن طريق الكشف فى الكنيست عن أن الأوامر قد صدرت إلى القوات الجوية بأن تقتلع بطاريات صواريخ سام ـ ٦ فى ٣٠ ابريل، لكن هذه المهمة قد ألغيت بسبب السحب الكثيفة، لقد كان بيجين رئيساً للوزارة وفى نفس الوقت قائماً بأعمال وزير الدفاع فإن معلوماته كانت دقيقة وأيضاً مدمرة، وقال رئيس سابق لمخابرات القوات الجوية وهو العميد ياشياهو باركت فى مقابلة تليفزيونية إنه خلال خدمته فى الجيش لمدة خمسة وعشرين عاماً لا يذكر أن أسرار العمليات قد نشرت بهذه الصورة، وأن أى فرد فى الجيش لو فعل ما فعله بيجين لوجهت إليه تهمة الإخلال الخطير بالأمن.

ونقل عن ضابط آخر قوله: (لقد قدم للعدو وعلى طبق من ذهب ما كان سوف ينفق على الحصول عليه سنوات ملايين الجنيهات وحتى لو فعل ذلك كأنه لن يكون متأكداً من صحة ما حصل عليه من معلومات، والخطأ الذى ارتكبه بيجين أنه بتحليله للطقس فى اليوم الذى كان مفروضاً فيه أن تدمر القوات الجوية الإسرائيلية الصواريخ السورية، مكن السوريين من معرفة الظروف الجوية التى فى ظلها تستطيع القوات الجوية الإسرائيلية أن تعمل ومتى لا تستطيع ذلك، وبذلك تم الكشف عن حدود عمل الطائرات الإسرائيلية كذلك عن عشرات من حالات أخرى من التفاصيل التى يمكن استنتاجها من هذه المعلومة، ومثل هذه المادة كانت تراقب مراقبة دقيقة فى

الصحافة الإسرائيلية، ولم يكن رد الفعل لزلة بيجين وحماقته مجرد نشوب الجدل السياسى ولها، بل إن أداء القوات الجوية ضد السوريين بعد ذلك بعام يبين أن الأضرار قد وقعت بصورة سريعة جداً.

وبعد الساعة الثالثة مباشرة من عصر يوم الأحد الموافق السابع من يونيو انطلقت مجموعة من ست عشرة طائرة من الطائرات الحربية الإسرائيلية المتقدمة فى طيران منخفض وسريع من قاعدة عصيون بالقرب من إيلات، وقصفت المفاعل النووى العراقى خارج مدينة بغداد وعلى بعد ستمائة ميل وعادت إلى قواعدها سالمة دون أى خسائر. وكانت هذه الغارة واحدة من الغارات الجوية الدقيقة التخطيط والتنفيذ والتى اشتهر بها الإسرائيليون من حرب ١٩٦٧، وعملية عنتيبى وهكذا تراجعت فرص العراق لبناء قنبلة ذرية عربية بمساعدة فرنسا وإيطاليا إلى الوراء عدة سنوات، وقد خططت هذه الغارة على عجل لتكون إنجازاً انتخابيّاً مثيراً، وكانت حكومة بيجين قد اتخذت هذا القرار من حيث المبدأ فى أكتوبر الماضى واختير بعض من أفضل الطيارين الإسرائيليين للتدريب منذ ذلك التاريخ، وقد تم اختيار الطائرات وأدخلت التعديلات على التكتيك الذى سوف تتبعه هذه الطائرات بصورة تقلل من مخاطر اكتشافها واعتراضها أثناء عبور طائرات إف ـ ١٦ المقاتلة وطائرات إف ـ ١٥ الصحراء العربية. وكانت طائرات إف ١٦ المقاتلة متعددة الأدوار تحدد الهدف وتصيبه بقنابل زنة ٢٠٠٠ رطل بينما كانت طائرات إف ـ ١٥ المقاتلة المتقدمة تقدم مظلة واقية لحماية هذه الطائرات، وأعلن بيجين عن هذه العملية بعد يوم واحد من وقوعها.

وكان يوم احتفال الحصاد اليهودى المسمى (شافوت) بعد أن اتهم الأردنيون الطائرات الإسرائيلية بمساعدة إيران فى حربها ضد العراق حليف الأردن.

وبالرغم من أنه لم يكن هناك أى ذكر للمفاعل إلا أن بيجين اتخذ من هذا ذريعة كافية للإعلان عن قصة تدمير المفاعل العراقى. وقد تكون هناك

ميزات دولية فى إخفاء إسرائيل تورطها فى هذه العملية، لكن بيجين كان دائماً يميل إلى العلانية، وكان توقيت العملية متأثراً بقرب الانتخابات.

وقد تم إخطار الأمريكيين والأصدقاء الذين تساءلوا عن هذه العملية أن بيجين قد نفذها فى يونيو لأنه لم يكن متأكداً من الفوز فى الانتخابات. وكان لا يثق فى حلفائه من حزب العمل أن يقوموا بتنفيذها إن هم فازوا فى الانتخابات، وكان هذا أحد هذه الاعتبارات، كذلك فإن ما أثار قلق رئيس الوزراء هو تهديدات المفاعل العراقى، فلم يكن يراود الإسرائيليون أى شك فى أن الرئيس صدام حسين يزمع صنع قنبلة ذرية، ولكن الشهود المقربين من بيجين قالوا كان يريد عملية كهذه لأغراض انتخابية، وكانت الأغلبية من المستشارين الخبراء يعتقدون أن هذا المفاعل لن يكون تهديدًا حقيقيّاً قبل مرور ثلاث سنوات، ولكن الأقلية من هؤلاء الخبراء ومستشارى الحكومة كانت توافق على أن هذا المفاعل سوف يكون كذلك فى يوليو عام ١٩٨١، أما الرأى السائد بين رجال المخابرات فى واشنطن فكان يرى أن ذلك سوف يحدث بعد عام واحد، وكان بيجين مقتنعًا بأن قصف المفاعل بعد أن يشكل تهديدًا حقيقيّاً سوف يترتب عليه الآلاف من الضحايا نتيجة للإشعاع فى بغداد.. ولم يكن مستعدّاً لتحمل مسئولية كهذه، وعلى أى حال فإن كلمة واحدة من خبير إسرائيلى يقول فيها إن تهديد المفاعل يبدأ بعد شهر واحد كافية لأن يتخذ رئيس الوزراء قرارًا بقصفه.

وقال له المخططون العسكريون إن مخاطر الفشل ضئيلة جدّاً، وعلى أسوأ الظروف فقد تضطر هذه الطائرات إلى العودة أو أن تصاب واحدة أو اثنان منها وهى فى طريق عودتها أو من الصواريخ المنصوبة فى بغداد. وكانت القوات الجوية واثقة من أن فى استطاعتها حل مشكلة المدى (وهى مشكلة الوصول إلى بغداد والعودة على ارتفاع منخفض الحاجة إلى إعادة تزويدها بالوقود)، وإذا ما كان هؤلاء المخططون على صواب فعندئذ تصبح

مخاطر فشل هذه العملية على الانتخابات غير ملموسة، وكذلك استبعدت مخاوف وشكوك مدير المخابرات العسكرية جنرال ييهوشوا ساجوى، من أن تؤدى هذه العملية إلى تعميق الفجوة والأزمة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وكذلك لم يأخذ برأيه القائل بأن العراق فى حاجة إلى خمس سنوات قبل أن يستطيع إنتاج قنبلة نووية، وعندئذ سيكون أمام إسرائيل متسع من الوقع لمحاولة الوسائل غير العسكرية، وكان جنرال ساجوى يلقى تأييداً لرأيه هذا من الأغلبية فى القيادة العكسرية ولكن ثلاثة من مؤيدى التنفيذ المبكر للعملية كانت لهم الغلبة وهم مناحم بيجين، ووزير الزراعة آرييل شارون، ورئيس الأركان المعروف بقوة شكيمته جنرال رافائيل ايتان، ولكى يحيد أثر التحفظات السياسية داخل الحكومة فإن بيجين حول اتخاذ قرار بالنسبة للتوقيت إلى لجنة فرعية ثلاثية مكونة منه ومن شارون ومن وزير الخارجية إسحاق شامير وثلاثتهم من الصقور المتشددين.

وما أن أخبروه بما قاله الأردنيون أصدر بيجين تعليماته إلى المتحدث الرسمى الناطق باسمه أورى يورات بأن يعلن عن نجاح العملية الإسرائيلية، وكان يورات جديداً فى هذه الوظيفة حتى أن المحرر المسئول فى الإذاعة الإسرائيلية لم يتعرف على صوته، ولذلك تردد فى إذاعة القصة حتى قام رئيس قسم الأخبار بإذاعة إسرائيل يرمانوئيل هالبرن وهو قريب لبيجين بالتأكد من القصة من رئيس الوزراء وأنها ليست خدعة، وأذيعت القصة كنشرة إخبارية خاصة فى الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر.

وفى مؤتمر صحفى فى اليوم التالى استبعد بيجين الشجب العالمى للغارة مصرّاً على أن إسرائيل قد تصرفت من منطلق الدفاع القومى عن النفس واتهم الرئيس صدام حسين بالتآمر لتركيع إسرائيل ولتدمير وجودنا ومستقبل وطننا، وزعم أنه باستطاعة العراق أن يدمر تل أبيب الكبرى ومركز الصناعة الإسرائيلية والحياة الزراعية والثقافية والتجارية بثلاث قنابل فقط

مما ألقيت على هيروشيما فى سنة ١٩٤٥.

وقال إن ما يقرب من ستمائة ألف ضحية سوف تقع فأين هو هذا البلد الذى يمكن أن يحتمل مثل هذا الخطر؟ إنه لن تكون هناك أى مذبحة أخرى فى تاريخ الشعب اليهودى.. إنها لن تقع قط.. إننا سوف ندافع عن شعبنا ضد أى عدو، إن كابوس آرثر مورس لن يتكرر ثانية.

لم يكن بيجين دائماً هكذا مع الأرقام التى يدلى بها، ولقد تقابل مع مراسل لوكالة رويترز فى حفل فى السفارة البريطانية وأخبره بأن القنابل الإسرائيلية قد دمرت معملاً سريّاً على بعد أربعين مترًا تحت سطح الأرض، وعندما ظهرت الدهشة على الوجوه كرر بيجن هذا الزعم. وعندما سئل لماذا لم يكشف عن ذلك من قبل أجاب: (ولماذا أعطيكم كل شىء مرة واحد؟ وشرح المتحدث باسم رئيس الوزراء أورى بورات أن العراقيين كانوا يفعلون الأشياء التى لا يريدون اكتشافها فى حجرة تحت الأرض.

وفى اليوم التالى اتصل بيجين هاتفيّاً بمراسل رويترز باتريك مس واعتذر له عن تضليله وقال له إنه قد علم الآن أن المعمل كان يقع على بعد أربعة أمتار تحت سطح الأرض، وثمة مواقف أخرى حرجة، فقد ناشد يتزاك هوفى رئيس المخابرات العامة (الموساد) الساسة الإسرائيليين علناً بألا يفشوا أسرار اتصالات إسرائيل بأجهزة المخابرات الأجنبية ويكشفوا عن معلومات سرية أمكن الحصول عليها منها، ولم يكن فى حاجة إلى تحديد أسماء هؤلاء الساسة.

كما أخطأ وزير الخارجية فى الاستشهاد بأقوال صدام حسين فى بيان وزع على الصحافة والبعثات الإسرائيلية بالخارج، ولكن لم يكن هناك أدنى شك فى أن الغارة على المفاعل الذرى قد رفعت من صورة بيجين كزعيم يستطيع أن يتخذ القرارات الشجاعة وتنفيذها على الفور، وكان الإسرائيليون يشاركونه الرأى فى أن تهديد المفاعل الذرى قد تمت إزالته وبقى حزب العمل فى شجار وجدل حول التواريخ التى يمكن أن يصبح فيها هذا المفاعل تهديداً

واقعاً، وهذا الجدل لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة للناخبين.

وفى قياس للرأى العام فى أواخر مايو وقبل الغارة على المفاعل بأسبوعين استطاع حزب الليكود أن يتجاوز حزب العمل، وأخذ التأييد للحكومة يتزايد فى السياسة الداخلية والخارجية والأمن، وكان التأييد والتعاطف مع آرييل شارون فى تزايد بالنسبة لحملته لإقامة المستوطنات فى الضفة الغربية والتى كان التليفزيون التجارى يذيعها، وفى الجولان التى تقوم بها القوافل فى الأراضى (المحتلة) والتى يديرها الوزير نفسه وتحت عنوان: (إننا على الخريطة) وزادت عملية بغداد من تقدم حزب الليكود لكن حزب العمل تراجع فى الأيام الأخيرة القليلة من الحملة الانتخابية، وركزت المعارضة على العنف فى الانتخابات وهذا دفع الكثيرين من الناخبين يقفون فى منتصف الطريق إلى إعادة تقييم ما يؤمنون به من أسبقيات، فإذا ما كان هدفهم الرئيسى هو إخراج حزب الليكود فإنهم لن يستطيعوا تحمل التصويت لصالح أحد الأحزاب الصغيرة من اليسار أو الوسط، واستطاع بيريز أن يرتفع بموقعه نتيجة لأدائه الطيب فى مناقشة تليفزيونية مع بيجين وعن طريق ضم منافسه إسحاق رابين إلى فريق رئاسة الحزب، وكانت المحصلة هى حدوث سباق متقارب بين الحزبين الكبيرين لم يحدث مثله فى تاريخ إسرائيل، وفى لحظة مبكرة عندما كانت نتائج الانتخابات تدخل إلى كمبيوتر التليفزيون ظهر بيريز وكأنه هو الفائز وحصل حزب الليكود على ٤٨ مقعدًا مقابل ٤٧ مقعدًا لحزب العمال، وكان فارق الأصوات هو ١٠ آلاف صوت فى انتخابات أدلى فيها ما يقرب من مليونين بأصواتهم، وكان الفارق العرقى والعنصرى أكثر وضوحاً عن سنة ١٩٧٧، وقال محلل الانتخابات هانوش سميث:

(لقد حقق تحالف العمل مكاسب كبيرة فى جميع المدن التى بها أغلبية من أصل أوربى، وعلى عكس ذلك فإن أصوات حزب الليكود ظلت كما هى دون تغيير، وكان نمط التغييرات فى المكاسب الكبيرة التى حققها حزب

الليكود فى المدن التى تسكنها أغلبية آسيوية ـ إفريقية، وهذا يدل على أن زيادة مقاعد حزب الليكود من ٤٥ إلى ٤٨ ترجع إلى كسب جديد فى أصوات الناخبين من الآسيويين والإفريقيين خاصة فى المدن النامية).

وكان قيام تآلف هذه المرة أكثر صعوبة مما كان عليه عام ١٩٧٧ لكن بيجين كان مستعداً مرة أخرى لأن يدفع الثمن فى صورة حزب أجودات إسرائيل الأرثوذكسى المتطرف والحزب القومى الدينى وحزب شمال إفريقيا الجديد المسمى (تامى) وأصبح أكثر سهولة على طلبة مدارس اليبشيفا (مدارس التلمود) والمعلمين فى هذه المدارس تجنب الالتحاق بالجيش أو فى الاحتياطى، وأجبرت شركة الطيران (العال) على أن توقف طيرانها فى أيام السبت، وبالنسبة لبيجين فإن تأييد الأحزاب الدينية له يستحق كل (شاقل) (العملة اليهودية) ولأول مرة قد فاز فى الانتخابات عن طريق غريزة الجماهير وعن طريق مهارته القديمة فى الحملات الانتخابية وبقى وكلاء الإعلانات فى أماكنهم، لقد حقق المستحيل ولم يفته النصر.

■ ■ ■

الفصل الثانى والعشرون

خيار الحرب

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأحد الموافق السادس من يونيو عام ١٩٨٢ شنت إسرائيل هجومًا شاملاً برّاً وبحراً وجوّاً على معاقل الفلسطينيين فى جنوب لبنان من البحر الأبيض المتوسط حتى سفوح جبل الشيخ...

وفى خلال ساعات انتقلت أخبار القتال من الميناءين القديمين صيدا وصور، وما أن حل صباح اليوم التالى حتى رفرفت نجمة داود على قلعة بيفورت، وهى قلعة للصليبيين أقاموها فوق مدخل نهر الليطانى، والتى منها كان الفدائيون التابعون لياسر عرفات يلقون بظلهم على لسان الجليل وبذلك كانوا يعيدون المحاولات السابقة لاقتلاعهم من هذا المعقل.

وفى خلال أسبوع واحد كانت الدبابات الإسرائيلية عند أبواب بيروت، وهكذا تصاعدت هذه الغزوة الانتقامية إلى حرب وصفها بيجين بأنها (حرب الخيار) ولأول مرة لم يحاول زعماء إسرائيل الاختفاء وراء شعار (ليس لدينا الخيار).

لقد خططوا وانتظروا واختاروا الفرصة عندما لاحت لهم، ولم تكن هذه حرب فتح واستيلاء على الأراضى كمطمع نهائى بل كانت حرباً جلبت على رئيس الوزراء أشد العقاب.

لقد كانت المدرعات الإسرائيلية قد عبرت الحدود فى غضب قبل ذلك بأربع سنوات كانتقام لمذبحة ذهب ضحيتها اثنان وثلاثون مدنيّاً فى عملية اختطاف قافلة للسائحين على الطريق الساحلى بين تل أبيب وحيفا.

وكانت (عملية الليطانى لعام ١٩٧٨) عملية تمت على عجل وفى غير

نظام فى معظم الأحوال اكتسحت قواتها جنوب لبنان وقامت بتطهير حزام ملتو ضيق تم فتح هذا الحزام لصديق إسرائيل الرائد سعد حداد، وحتى ذلك الوقت كان الفدائيون ـ الفلسطينيون على مرمى البصر من القرى الإسرائيلية ولذلك فإنهم قد جعلوا الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم من المسيحيين والشيعة المسلمين اللبنانيين.

هذا الاقتحام الأول قد تمخض عن قدر من السلام، وكان على المتسللين أن يتحدوا قوات الأمم المتحدة المعسكرة فى المنطقة الفاصلة، وكذلك ميليشيات سعد حداد المحلية وأيضا دوريات الحدود الإسرائيلية (التى كان بعضها يعمل داخل لبنان) أو أن يغامروا بشن الهجوم من البحر، ولقد أوضحت حرب استنزاف ثابتة ومصغرة وكانت قد تمخضت عن أزمة الصواريخ السورية فى صيف سنة ١٩٨١ أن الفلسطينيين كانوا قريبين جداً من إسرائيل ويهددون راحتها.

وكان فى استطاعة قطع المدفعية السوفيتية الصنع من عيار ١٣٠ م.م وكذلك قاذفات صواريخ كاتيوشا المتحركة والتى كان فى استطاعتها أن تطلق أربعين صاروخاً فى المرة الواحدة، ضرب مدن وقرى الحدود كلما أرادوا ذلك.

وأثناء حملة الانتخابات عام ١٩٨١ وعد بيجين بأنه لن تسقط بعد ذلك أى صواريخ كاتيوشا على مدينة كريات شيمونة، وهى مدينة متطورة فى الجليل أصبحت رمزاً للخوف ورمزاً للحياة المعطلة الممزقة.

وبعد شهر من إعادة انتخابه أدى هجوم جديد أعنف من أى هجوم سابق إلى إجبار نصف سكان المدينة على هذا الحصول على عطلة مفروضة، وأجبر النصف الآخر على أن يبقى فى المخابئ.

وهكذا تحول الإسرائيليون إلى لاجئين فى أرضهم، ووضع الجيش الخطط لإبعاد مدافع الفلسطينيين، لكن هذه الخطط قد وضعت على الرف

عندما استطاع الوسيط الأمريكى فيليب حبيب التوصل إلى وقف لإطلاق النار، وهكذا برزت بذور الغزو الذى تم عام ١٩٨٢.

وأكد تعيين آرييل شارون وزيراً للدفاع بعد انتصار الليكود فى الانتخابات أن هذه الخطط لن يتراكم عليها التراب، وكان بيجين قد قاوم كثيراً هذا الخيار لما عرف عن شارون من جموح وتصلب فى الرأى.

وكان كل من وزير الدفاع الجديد ورئيس الأركان رافائيل ايتان على اقتناع تام بأن لديهما الرد العسكرى على مشكلة منظمة التحرير الفلسطينية، وكان يقولان إن - إسرائيل فى استطاعتها تدمير قوة عرفات وقاعدته فى لبنان وهى البلد الوحيد الذى لازال فى استطاعته العمل منه - بصورة مستقلة - ضد الدولة اليهودية ومن ثم يرفعون قبضتهم من على العرب الذين يعيشون تحت الحكم الإسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وفى نفس الوقت يمكن إقامة حكومة صديقة فى بيروت برئاسة الزعيم الكتائبى بشير جميل والذى كانت إسرائيل قد رعته منذ منتصف السبعينيات.

ولقى هذا المشروع استجابة لدى بيجين من الناحية الأيديولوجية والناحية المزاجية، وبذلك تستطيع إسرائيل أن تؤكد قوتها ضد آخر أعدائها الذين يريدون تدميرها، وعندئذ سوف يأخذ اليهود مصيرهم فى أيديهم.

إن رئيس الوزراء كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام ولكنه لم يتخل عن جابوتنسكى، فهو ليس بالقديس وليس أيضاً من معارضى الحرب ورافعى راية السلام.

وكان بيجين هو الذى عرض خطة الغزو على الحكومة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٨١، وذلك بعد أسبوع واحد من ضم إسرائيل للجولان، وكان السوريون فى حالة غضب شديد وفضل رئيس الوزراء أن يواجههم فى لبنان بدلا من مواجهتهم على المرتفعات، وأنصت الوزراء فى دهشة فى حين بدأ شارون ثم ايتان فى شرح أهداف (عملية شجر الأرز) والتى نصت على

اختراق إسرائيلى حتى طريق بيروت ـ دمشق وحصار بيروت، والاتصال بالكتائبيين المسيحيين اليمينيين فى الشمال والنزول فى ميناء جونيه على بعد خمسة عشر كيلو متراً خلف العاصمة، وضغط بيجين للحصول على قرار بالتنفيذ لكن كثيراً من الوزراء عارضوا المشروع الأمر الذى اضطره إلى سحبه دون التصويت عليه.

وفى نفس الوقت عرض شارون مشروعه الكبير هذا مرتين على المسئولين الأمريكيين وطبقاً لما قاله أحد الذين استمع إليه: (لقد أعطى وجهه) نظر شخصية ودقيقة لما يريد أن يفعله بالنسبة لمشكلة لبنان وقال بعناية إن هذه وجهة نظره بالفعل).

ويزعم الدبلوماسيون الأمريكيون أنهم على الفور حذروا وزير الدفاع من مثل هذه الأمور، وكلما أمكن لواشنطن رصد أى علامة عن حشود عسكرية إسرائيلية فى الشمال، كانت تبعث برسالة تحذيرية قوية إلى بيجين عن طريق سفيرها فى تل أبيب صموئيل لويس، وقد ساعدت هذه الرسائل على كبح جماح إسرائيل فى مناسبات أربع فى النصف الأول من عام ١٩٨١ عندما تعرضت حكومة بيجين لإغراء شن الحرب.

كان رئيس الوزراء من بين الأغلبية فى الحكومة التى كانت تعارض شن حرب انتقامية على نطاق واسع ردّاً على غارة للفدائيين على مستوطنة محولا، والتى تقع فى وادى الأردن، وذلك فى نهاية شهر يناير، وكذلك اعترض مرة أخرى فى شهر مارس عندما اقترح كل من شارون وايتان اتخاذ مبادرة فى لبنان لاختبار نوايا المصريين قبل الجلاء النهائى من سيناء، ولكنه انضم إلى الصقور فى نهاية الشهر عندما قتل أحد الجنود الإسرائيليين من انفجار قنبلة يدوية فى غزة.

وعلى أى حال فقد كان بيجين وشارون يمثلان أقلية من اثنين ولم يحدث شىء وأدرك الأمريكيون أن البندول يتذبذب تجاه اتخاذ عمل ما، ولم تنشر

قط شروط فيليب حبيب لوقف إطلاق النار - ولكن الإسرائيليين قالوا إن الهدنة تنسحب على العمليات الإرهابية فى الداخل وفى الخارج، ولا تقتصر فقط على تلك التى تقع عبر الحدود اللبنانية ولكن الفلسطينيين كانوا يجادلون فى هذا المفهوم وكذلك فعلت الولايات المتحدة، ولكن هذا المفهوم ظل عقيدة وإيماناً بالنسبة لبيجين وشارون.

ومرة أخرى اقترح وزير الدفاع ما وصف بأنه (مشروعه الكبير) وذلك فى أوائل إبريل بعد أن قتل دبلوماسى فى باريس، ولم يخف أبعاد هذا المفهوم الحقيقية عن مجلس الوزراء، وإن كان قد عزم على البدء بشن غارات جوية على قواعد الفلسطينيين وقد تم تخطيط الحملة على أن تستغرق ثمانى وأربعين ساعة للوصول إلى بيروت وطريق بيروت - دمشق وأن يبقى الجيش فى لبنان لمدة أسبوع واحد. ولكن عندما عرض الأمر على زعماء المعارضة قدر إسحاق رابين أن إسرائيل سوف تحتفظ بكل لبنان لمدة تصل إلى ستة أشهر، وعندما سأل رئيس الوزراء السابق الرئيس الحالى مناحم بيجين عما إذا كان على استعداد لقبول هذا الاحتمال أجاب بيجين بالنفى ووضع هذا المشروع على الرف مفضلين عليه القصف الجوى.

وبعد تأجيلات متعددة أرسلت القوة الجوية فى العشرين من إبريل وذلك بعد أن قتل ضابط فى الجيش نتيجة لانفجار لغم، وهو يقوم بدورية فى جنوب لبنان، ولم ترد منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بعد أسبوعين قصفت منطقة الجليل كرد على موجة ثانية من الغارات الجوية الإسرائيلية - وكانت هذه أول عملية انتهاك فلسطينية على هذه الجبهة منذ الهدنة، واقترح بيجين عملية انتقامية واسعة المدى بالرغم من أن القصف كان على نطاق ضيق رمزى ولم يصب الأهداف بصورة متعمدة، وكانت الحكومة منقسمة بالتساوى بين مؤيد ومعارض. ووافق بيجين على تأجيل العملية.

ولكن تقرر أنه إذا ما قتل أحد اليهود أو جرح على يد الإرهابيين فى أى

مكان فى العالم فعندئذ سوف تعمل إسرائيل.

ومرة أخرى عرض بيجين وشارون على زعماء المعارضة نوايا الحكومة. ولكن عملية حجب المعلومات قد بدأت وسأل رابين وزير الدفاع شارون عما إذا كانت الخطة تتضمن صيدا التى تبعد ستين كيلو مترًا شمالى الحدود، وقدم وزير الدفاع ثلاثة ردود مختلفة وبعد ذلك بعام كتب رابين يقول:

(لقد كان واضحاً أنه لا يريد أن يقول الحقيقة ولقد أجاب هكذا: (أعتقد ذلك)، ثم قال بعدئذ: (لا أتذكر على وجه التحديد)، وبعد ذلك قال: (سوف أذهب وأراجع الخطة)، وترك الحجرة فى وسط الاجتماع للتحقق من وجود صيدا فى الخطة، وعاد إلينا ليقول (إنها تدخل فى الخطة)، وسألته عن بيروت لكن آرييل أعطانا الانطباع بأن صيدا هى الحد وعندما سأله عما إذا ما كانت بيروت ضمن هذه الحدود وجاءت الإجابة (لا) وهكذا خدعت، ولكن لم أكن أنا وحدى الذى خدع، لقد خدعت الحكومة وربما للحصول على موافقتها).

وفى العشرين من مايو ذهب شارون إلى واشنطن، حيث تقابل مع وزير الخارجية الكسندر هيج ومرة أخرى عرض شارون خطته لسحق الفلسطينيين، وإن كان لم يحدد إلى أى مدى سوف يذهب الهجوم الإسرائيلى.

ويقول الدبلوماسيون الأمريكيون إنه لم يذكر بيروت، لقد كان كل اهتمامه هو ألا تشكو حكومة ريجان بعد العملية من أن إسرائيل قد فاجأتها كما فعلت بالنسبة للغارة على المفاعل العراقى، وهيج مثل شارون جنرال متشدد قد تحول إلى سياسى ولذلك فإنه كان متعاطفاً لقد كان يسعده كثيراً أن يرى منظمة التحرير الفلسطينية والتى كان يمقتها لأنها أداة فى يد الكرملين، وقد تمزقت إرباً، وفسر الإسرائيليون موقفه على أنه تشجيع بالسير قُدُماً فى تنفيذ مخططهم، وقرأ أحد كبار المسئولين والذى كان ضد مشروع شارون، بشىء من القلق برقية أرسلها إلى القدس سفير إسرائيل فى أمريكا موشيه أرينز حول اجتماع شارون ـ هيج وكان رد فعل هذا المسئول هو

(يا إلهى! إنهم أعطونا الضوء الأخضر).

وكان هذا قبل أن يصبح هذا التعبير أمرًا شائعًا. وأنكر هيج إعطاء موافقة على غزو لبنان، لكن كبير مساعديه وهو وودى جولد بيرج قد اعترف بأن وزير الخارجية قد قال بالفعل إنه ليس من حق أى مسئول أمريكى أن يخبر حليفاً لأمريكا كيفية الدفاع عن نفسه.

وقال أيضاً: (إن أى شخص أُصيب بدهشة من جراء تحرك إسرائيل فى لبنان أنما هو لم يكن يتابع الأنباء عن كثب، وقال كذلك إنه إذا ما قررت إسرائيل أن تذهب فعليها أن تتأكد من أن رد الفعل سوف يكون مناسباً لأى استفزاز أثار وتسبب فى رد الفعل هذا).

ويعترف مسئولون أمريكيون آخرون بأنه ما أن بدأت الحرب حتى تحرك الجانب العسكرى فى شخصية هيج، وأدرك المزايا التى يمكن تحقيقها، لقد كان يريد لهذه الحرب أن تنتهى فى وقت قصير ولكن أن تنتهى بنجاح.

وقال أحد الدبلوماسيين فى شهادته: (إن هيج لا يكن أدى حب لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان متعاطفاً مع الفكرة القائلة بأنه يجب إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، وكان يعارض أى وقف لإطلاق النار يقع مبكراً إذا ما بدأت الحرب اننا لم نرسم أى خطوط أو حدود ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام متعاطفاً مع فكرة مهاجمة أو قصف بيروت).

ومرة أخرى انعكس حماس وزير الخارجية على البرقيات الدبلوماسية بين واشنطن والقدس، وفى إحدى هذه البرقيات التى تم تبادلها وانتشارها على نطاق واسع بين المسئولين الإسرائيليين والمخططين العسكريين ما اقتبسه موشيه أرينز على لسان هيج حيث قال: إنكم تقومون بعمل عظيم فى لبنان وأنه لعمل يهم كل فرد.

وأيّاً كانت نوايا وزير الخارجية فان إجابته (بلا) تبدو فى أذن

الإسرائيليين كما لو كانت إجابة (بنعم) ومن الصعب الاختلاف مع زيف شيف عميد المراسلين العسكريين الإسرائيليين فى القول بأنه حتى إذا لم تكن هناك مؤامرة إسرائيلية أمريكية فهناك مشاركة ضمنية بينهما.

فالأمريكيون وقد تلقوا معلومات مسبقة عن نوايا إسرائيل اختاروا أن ينظروا إلى الناحية الأخرى، مبدين تعليقات غامضة حول لبنان بحيث تستطيع إسرائيل تفسيرها على الوجهة التى تريدها.

وقد لخص أحد المخضرمين فى وزارة الخارجية الأمريكية هذا بقوله: (إذا لم يكن هيج قد أعطى الضوء الأخضر فإنه قد أعطى ضوءًا كهرمانيّاً مشوباً بالاخضرار).

وفى أوائل صيف عام ١٩٨٢ كان الوضع فى لبنان هو حالة حرب تنتظر المبرر لبدئها، وقبل منتصف ليلة يوم الخميس الموافق الثالث من يونيو بقليل قدمت الحركة القومية لتحرير فلسطين، وهى جماعة متطرفة منشقة بزعامة صبرى البنا (أبونضال) هذا المبرر، فقد قام أحد الفلسطينيين المسمى حسن السيد والبالغ من العمر الثالثة والعشرين ويعيش فى قرية بالقرب من مدينة نابلس بالضفة الغربية بإطلاق النار على السفير الإسرائيلى فى لندن شلومو ارجوف، ثلاث مرات فأصاب رأسه والجزء العلوى من جسمه بمسدس أوتوماتيكى بولندى الصنع عيار ٦٣م بينما كان خارجاً من عشاء فى فندق دور شستر.

وكان الفريق الذى أطلق النار بقيادة نواف روسان وهو تاجر ولد فى الأردن، وقد عرف فيما بعد بأنه ضابط كبير فى المخابرات العراقية، وكان الاعتقاد السائد بأن السفارة العراقية هى التى أمدته بالأسلحة، وعندما وصلت الأنباء الأولى لمحاولة القتل إلى القدس وكان بيجين نائماً، وعندما تأكدت الأخبار أيقظه مساعدوه وأخبروه بما حدث وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى تكلم رئيس الوزراء هاتفيّاً مع جراح لندن هونورمان جرانت، وقد ذكرت الأنباء أنه قد انتهى لتوه من إجراء عملية للسفير المصاب وعندما سأله

بيجين عن حالة السفير أجاب الطبيب: (لا أستطيع أن أعدك بأى شىء)، ولا أستطيع أن أقول لك ما إذا كان سيعيش أم لا وإذا ما عاش فكيف سيكون).

ولقد واجه شلومو ارجوف ساعات حرجة امتدت من اثنتى عشرة ساعة إلى أربع وعشرين ساعة، وفى بطء بدأ السفير يفيق ولكنه ظل مشلولا طريح الفراش، وكانت حياته بالغة السوء.

واستدعى بيجين الحكومة إلى اجتماع عاجل وطارئ فى الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وكان قد قرر بالفعل أن إسرائيل لا تستطيع أن تدع هذا الاستفزاز يمر... وقال إن السفير قد تم اختياره كهدف يهودى ولأنه إسرائيلى ولأنه رمز لدولة إسرائيل.

إن الرصاصة التى أصابت رأسه قد صوبت إلى رأس دولة إسرائيل، وكان شارون فى الخارج فى مهمة سرية ولكن جنرال ايتان عرف ما هو متوقع منه، وبدعوة من رئيس الوزراء اقترح على الحكومة أن تقوم القوات الجوية بقصف تسعة أهداف فلسطينية فى بيروت وسبعة أهداف فى جنوب لبنان.

وعبر العديد من الوزراء عن تخوفهم من قصف العاصمة أنهم يذكرون الضجة التى أحدثتها عمليات قصف سابقة فى العام السابق، ووعد رئيس الأركان بأن تكون الأهداف مختارة بعناية لتجنب وقوع إصابات بين المدنيين، وبناء على اقتراح بيجين تم الاتفاق على خمسة أهداف وهى: ثلاث قواعد للتدريب فى الجنوب وموقعان فى بيروت هما إستاد رياضى حيث يضم مخزناً كبيراً للأسلحة الفلسطينية وآخر يضم تسهيلات تدريبية، وأدرك الوزراء أنهم ربما يكونون قد صوتوا كمقدمة تمهيداً لشن حرب، وحتى الحمائم فهم قد شعروا بأنهم لا يستطيعون مخالفة بيجين هذه المرة، وشرح ذلك أحدهم قائلا: (لقد قلنا مرات عديدة من قبل (لا) أما الآن ففى وجه هذه الدراما العالمية وفى وجه حالة بيجين العقلية المضطربة لا تستطيع أن

ترفض)، إننا فهمنا أيضاً أنه لا يمكن غض الطرف عن محاولة القتل دون الرد عليها، إننا لم نكن متحمسين، ولكننا كنا ندرك أن كرة الثلج لم يعد من الممكن وقفها.

وفى الفترة الأخيرة من ذلك اليوم قصفت الطائرات الإسرائيلية أهدافها وكما كان متوقعاً جاء رد الفلسطينيين مماثلا.

وهذه المرة كانوا يصوبون ليصيبوا لا ليخفقوا فى إصابة الهدف، وانهالت أكثر من ثمانمائة قذيفة وصاروخ كاتيوشا على شمال الجليل، وسقط أحد هذه الصواريخ على كريات شيمونة بالقرب من سيارة يعقوب ميريدور وزير التنسيق الاقتصادى وأصابتها عدة شظايا واتصل ميريدور برئيس الوزراء لينقل إليه المطالب المحلية بأن يفى بوعده الذى قال فيه: (إنه لن تكون هناك كاتيوشا بعد الآن)، وأجاب بيجين: إنك تستطيع أن تقول لهم إن كل شىء سوف يكون على ما يرام، ولكنه حثه على ألا يضيف شيئاً ولكن ميريدور أدرك أن ميزان العمليات يتجه نحو القيام بعملية برية.

وأسرع شارون عائداً من أوربا إلى إسرائيل. وتمت دعوة الحكومة إلى الانعقاد فى الساعة التاسعة من مساء يوم السبت، أطلع ايتان الوزراء على صورة مصغرة من عملية شجر الصنوبر، وهى عبارة عن هجوم ثلاثى الشعب لإبعاد مدفعية الفلسطينيين: ورد شارون على تساؤلات زملائه من المتشددين قائلا إن العملية قد صممت لتحقيق السلام فى الجليل وليس لغزو بيروت.

وفهم الوزراء أنه يتكلم عن حدود لا تتعدى على وجه التقريب أربعين كيلو مترًا، وهذا ما أكده بيجين الذى أكد لهم أنه ما دعت الحاجة إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك فسوف تقرر الحكومة ذلك، وتم الاتفاق على ضرورة بذل كل جهد لتجنب المواجهة مع السوريين الذين لهم ما يصل إلى ٣٠ ألف جندى يرابطون فى شمال وشرق لبنان.

لكن كان إغراء السوريين على الانسحاب يشكل جزءاً من خطة شارون وايتان وذلك لأنهم كانوا يشكلون مظلة واقعية لمدفعية الفلسطينيين، وقال شارون إن القوات الإسرائيلية سوف تصل إلى خط الأربعين كيلو مترًا فى خلال أربع وعشرين ساعة، وأن العملية سوف تنتهى فى خلال ثمان وأربعين ساعة، وأعطى الوزراء موافقتهم الجماعية على الضربات الجوية وذلك فى خلال اجتماع يوم الجمعة، ولكن ثلاثة فقط أحجموا عن الموافقة على الغزو.

وهؤلاء الثلاثة هم نائب رئيس الوزراء سمحا ارليش، ووزير الطاقة اسحاق برمان والاثنان من أحرار الليكود، أما الثالث فهو يوسف بورج من الحزب الدينى القومى.

وأنهى بيجين المناقشة بخطاب عاطفى، لقد قال إنه لم يقدم اقتراحه بقلب مسرور وقال إنهم يرسلون بجنودهم إلى المعركة وأن كل شىء سوف يبذل لمنع وقوع إصابات، لكن المعركة معناها وقوع خسائر والخسائر معناها حدوث ثكلى وأيتام.

والبديل غير المقبول لذلك هو حدوث ما حدث فى معسكرات الاعتقال فى أوشوتز. وبينما كان بيجين يترك مكتبه ليطير إلى الشمال إلى مركز قيادة متقدم سمعه مساعدوه وهو يتمتم بكلمات وكأنه يصلى: (أدعو ألا تقع خسائر) إن أصداء هذه العملية سوف تؤرقه لعدة شهور فيما بعد.

وبناء على اقتراح من بيجين أطلق على هذه العملية اسم (عملية السلام فى الجليل) وقال البيان الذى صدر بعد بدء العملية إن الجيش قد صدرت إليه التعليمات بوضع السكان المدنيين فى الجليل بعيداً عن مرمى نيران الإرهاب فى لبنان، ولم يكن هناك أى إشارة محددة لحدود الأربعين كيلو مترًا، ولقد ذكرها شارون فيما بعد وكذلك ايتان عندما بدأ التشهير بها لاندفاع الجيش الإسرائيلى بعيداً إلى الشمال ولم يكن يساور الوزراء أدنى شك فى أنهم وافقوا فقط على حدود أربعين كيلو مترًا.

وقد قال بيجين مثل هذا فى خطاب للرئيس ريجان فى نفس اليوم وهو يوم الأحد السادس من يونيو لقد قال:

لقد صدرت التعليمات للجيش بأن يبعد الإرهابيين إلى مسافة أربعين كيلو مترًا إلى الشمال حتى يمكن تحرير جميع المدنيين فى منطقة الجليل من التهديدات الدائمة لحياتهم.

ومنذ الطلقة الأولى لم يكن شارون ولا ايتان يزمعان الوقوف بالعملية عند حدود الأربعين كيلو متراً. وقال ضباط من الاحتياط إن قائدًا كبيرًا قد أخبرهم فى أول يوم بأن الهدف هو قطع طريق بيروت ـ دمشق ـ وإقامة نظام جديد فى لبنان ورفض وزير الدفاع إنكار هذه المزاعم عندما سأله أحد نواب حزب شينو وهو موردخاى ويرشوبسكى.

وكان شارون قد حدد أهداف الحرب فى التليفزيون الإسرائيلى فى الخامس والعشرين من يونيو بأنها: القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية وإخراج الجيش السورى وعقد اتفاقية مع لبنان، ولم يقل شيئاً عن حدود الجليل.

وفى الأول من أغسطس وفى خطاب أمام خريجى مدرسة عليا كانوا سيلتحقون بالجيش قال:

(لقد ذهبنا إلى الحرب ضد الإرهاب ولإزالة العائق الذى يهدد ويمنع التوصل إلى وفاق بيننا وبين عرب أرض إسرائيل، لقد ذهبنا للحرب حتى يمكننا أن نعيش فى سلام، اليهود والعرب فى القاهرة وبير سبع، فى يهودا والسامرة، حتى يرفرف السلام بيننا فى أقرب وقت وعلى جانبى الأردن).

وكان رئيس الأركان أقل دبلوماسية، ففى أوائل شهر يوليو أخبر الضباط والرجال فى وحدة على خط الجبهة أن القتال قد خلق الفرصة الوحيدة فى هذا الجيل لتغيير الأوضاع لصالحنا فى الصراع من أجل أرض إسرائيل وقال:

إن تدمير واقتلاع القواعد الإرهابية فى لبنان سوف يضعف المعارضة

الفلسطينية للوجود اليهودى فى أرض إسرائيل.

وفى مقابلة مع دوف جولد شتين فى صحيفة معاريف اعترف شارون بأن مجلس الوزراء وافق على الخطتين اللتين عرضهما تواضعاً، ولكن قال إنه كان يعلم أن هناك إمكانية لأن يتم فى النهاية تنفيذ الصيغة الأكثر طموحاً من الخطتين.

وفى مقابلة أخرى مع نفس الصحفى اعترف ايتان بأن الحرب لم يكن يقصد منها مجرد تأمين قطاع يمتد إلى أربعين كيلو مترًا شمال الحدود وقال:

(لقد أصدر مجلس الوزراء تعليماته لجيش الدفاع الإسرائيلى بأن يبعد الإرهابيين عن الحدود الشمالية لإسرائيل، وأن يدمر الإرهابيين ويدمر مقار قيادتهم وتسهيلاتهم فى لبنان، وهناك ثلاثة أشياء لم يرد ذكرها فى تعليمات مجلس الوزراء: موضوع الأربعين كيلو مترًا، وموضوع بيروت، وموضوع طريق بيروت ـ دمشق، وعندما عرضت خطة الحرب على مجلس الوزراء عرضت الخطة بأكملها بما فيها محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت ـ دمشق، وأقرت الحكومة هذه الخطة ولكنها أصرت فى تعليماتها للرئيس بأن يكون التحرك من مرحلة إلى أخرى فى الحرب خاضعاً للقيادة السياسية، وهكذا فقد تم تنفيذ كل مرحلة من الحرب، وكل تحرك من مرحلة إلى أخرى عن طريق أخذ موافقة القيادة السياسية).

لم يكن هذا هو ما ظهر للحكومة، فمنذ اليوم الثالث للحرب شك منتقدو شارون فى أنه قد تم التغرير بهم وتضليلهم، ولم يكونوا مقتنعين بتأكيدات رئيس الوزراء ـ المتكررة بأنه فى هذه الحرب لن يحدث شىء ما دون أخذ الموافقة عليه بخلاف ما حدث فى الحروب السابقة، وانضم موردخاى زيبورى وزير المواصلات من حزب حيروت إلى هؤلاء المتشككين، لقد كان عسكرياً محترفًا وصل إلى رتبة قائد لواء، واشترك فى حكومة بيجين الأولى كنائب لوزير الدفاع. وعندما كرر ايتان مزاعمه بعد ذلك بعام واحد بأن الحكومة هى التى فوضت الجيش منذ البداية لأن يتعدى حدود الأربعين كيلو مترًا اتهمه زيبورى بالكذب.

وفى اجتماع لمجلس الوزراء فى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٨٣ نقل زيبورى من وقائع آخر اجتماع سبق الحرب ما يكذب مزاعم رئيس الأركان، وقال إنه فى ليل يوم السبت أطلع ايتان الوزراء على حدود الأربعين كيلو مترًا على خريطة، وأنه طلب الموافقة على عملية محدودة قائلا: إنها لن تستغرق سوى يومين لإتمامها، وقال زيبورى إن كلا من شارون وبيجين قد قالا نفس هذا الكلام.

كان شارون عندئذ وزيراً بدون وزارة وكان حاضراً اجتماع سبتمبر عام ١٩٨٣، ولم يجادل فى ما قاله زيبورى، وأكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميريدور ما قاله زيبورى وقال: لقد قدم وزير الدفاع ورئيس الأركان خطة للقتال وطرد الإرهابيين بعيداً إلى خط أربعين كيلو مترًا (وهو مدى المدفعية) من حدودنا الشمالية.

وهذه هى الخطة وهذا هو المدى الذى وافق عليه مجلس الوزراء فى اجتماع ليلة السبت.

وفى مقابلة فى تليفزيون إسرائيل وقبل وفاته بسبب هبوط فى القلب فى يونيو عام ١٩٨٣ قال سمحا ارليش: لقد كانت هناك تفسيرات لقرارات مجلس الوزراء تمتد من القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء والتنفيذ الفعلى فى الجبهة؛ وفى بعض الأحيان كان هناك خروج مقبول ومحتمل، ولكن كانت هناك أيضا أخطاء غير مقبولة وغير محتملة، واتهم شارون بأنه كان دائماً يريد الخروج على قرار الأربعين كيلو مترًا.

واستغل شارون نقص الخبرة العسكرية عند زملائه. وكانت من الوسائل المحببة لديه محاولة الحصول على موافقة زملائه على تقدم صغير وتكتيكى، ثم يعود بعد ذلك وبعد أن يكون قد حقق هذا التقدم ليشرح لزملائه أن هناك حاجة لمزيد من التقدم لبضعة كيلو مترات لتأمين ما قد تم إحرازه بالفعل ولتجسين الأوضاع والمواقع، وفى إحدى المرات سأله إسحاق برمان وهو من أشد ناقدى وزير الدفاع: ما هى المنطقة التى سوف تطالبنا بعد غد

الموافقة عليها من أجل حماية الوحدة التى وضعتها فى الموقع الذى سوف تستولى عليه غداً والذى تمت الموافقة عليه؟ وأجاب شارون وهو يكشر غاضباً: يا سيد برمان إن لك حاسة عجيبة للدعابة والفكاهة. وكان برمان يشكو من أن العمليات الصغيرة لا تتم أبداً بدون موافقة مسبقة، ولكن لا ينطبق ذلك على العمليات الكبيرة، فدائماً ما يخيم الضباب على العمليات الكبيرة، وعلى سبيل المثال منطقة شرق بيروت المسيحية فلقد علمنا فجأة أن هناك قوات إسرائيلية فى شرق بيروت وكأن ذلك معلومة بديهية.

وفى الحقيقة ليست كذلك فلم يكن هناك أبداً قرار حكومى بالنسبة لدخول شرق بيروت.

إن اختراق شرق بيروت والتغلغل فيه والذى كان أمراً واضحاً لكل من زار العاصمة اللبنانية، يعتبر من الحالات الصارخة، ففى الثالث عشر من يونيو، وفى نهاية الأسبوع الأول من الحرب الإسرائيلية فى شرق بيروت، وفى المطار الدولى وحول بعبدا وهى الحى الذى يضم القصر الجمهورى، ومسكن وزير الدفاع، وتلقى الوزراء إجابتين: أن القوات الإسرائيلية ليست فى بيروت، وأن بعبدا والمطار يقعان خارج حدود المدينة، وأن هذه القوات عندما دخلت بيروت نفسها فإنها فعلت ذلك رداً على خرق الفلسطينيين لوقف إطلاق النيران، وكان على جيش الدفاع الإسرائيلى أن يُسكت مصادر الخطر التى تهدد القوات الإسرائيلية وقالت صحيفة معاريف:

(سوف يتلقى الوزراء مكالمات تليفونية وهم فى منازلهم من الجنود والضباط، بما فيهم كبار الضباط يخبرونهم عن قصص مختلفة لانتهاكات وخرق وقف إطلاق النار من جانب العدو وفتح الجيش الإسرائيلى النيران، وكذلك القول بأن الجانب الآخر هو الذى بدأ بفتح النيران كما يقول راديو إسرائيل، وكذلك هنا شكوى من الأوضاع فى الميدان وهى أوضاع تختلف تماماً عما تذكره الإذاعة ومن خلال سكرتيره ـ العسكرى الكولونيل أزريل كان

بيـجـين يسـمع التـقـارير عن خـرق الإسـرائيليـين لوقف إطلاق النار وعن استفزازات جيش الدفاع الإسـرائيلى).

وعندمـا كان رئيس الوزراء وغـيره من الوزراء يسـألون عن تفسـيـر ذلك، كـانوا يخـبـرونهم بأن جيش الدفـاع الإسـرائيلى لم يكن يرد دائمـا فـى المكان الذى تعرض فيه لإطلاق النيران، ففى بعض الأحيان ولعدة أسبـاب فإنه كان يرد فى قطاع آخـر مخـتلف، والجندى الذى تصـدر إليـه الأوامـر بإطلاق النار قد لا يكون مـدركاً أن العـدو هو الذى بدأ بفتح النيـران في مكان آخر، وبينمـا لم يقبل معظم الوزراء هـذا الإيضاح إلا أنهم كانوا يقفون عـاجزين أمام الزعم بأن العدو هو الذى بدأ بخرق وقف إطلاق النار.

إن حجم المكالمات التليفونيـة التى كان يتلقـاهـا السـياسـيون والصـحـفيـون الإسـرائيليون والتى غالباً ما تكون من غرباء لم يسبق لها مثيل فى أثناء الحـرب، إنهـا تعكس قلق الأمـة فى خوض حـرب من اختيـارها ولقد عـمقت هذه الحـرب شـعور الحكومـة بأنها تسـاق رغم أنفها! وكتب هيرشـى جـودمان الذى حـارب فى قوات الصـاعقـة فى حـربين كبيرتين يقـول: لأول مرة فى تاريخ إسـرائيل الغنى بالصـــراع، كـان هنـاك تصـدع كـامل بين هـؤلاء الذين يصـدرون الأوامـر وأولئك الذين يطلب منه أن يضعوا أرواحهم وأرواح رجالهم على خط المواجهة.

وكانـت بيروت مجـرد مثـال واحد، وجـاء قطع طريق بيروت ـ دمشق مثالا آخـر ولقـد توجـه بيـجـين إلى واشنطن للتشـاور مع إدارة ريجـان، وكـان ايرليش يقوم بأعمـال رئيس مجلس الوزراء، وفـى الثانى والعشـرين من يونيو بدأ جيش الدفـاع الإسـرائيلى فـى مهـاجـمـة المواقع السـورية والفلسطينيـة بالقـرب من بحـمـدون شرق بيـروت، وسـمع ايرليش عن هذا الهجـوم لأول مـرة فى الراديو المثبت فـى سيارته وهو فى طريقـه من تل أبيب إلى القـدس، وما أن وصل إلى الكنيست حيث إن الوزراء وزعماء المعارضـة يطلبون المعلومات عن هذا الهجوم حتى بدأ فى الاتصـال بشارون، وطلب منـه ايرليش أن يخبره بما يجرى، وعلى

طريق بيروت ـ دمشق وأجاب ايتان أن التقارير التى أذاعها الراديو ليست دقيقة.. إن الجيش قد رد على نيران العدو فحسب.

وأضاف يقول إنه ليست هناك تحركات للقوات الإسرائيلية، وبعد ذلك بيومين تم قطع الطريق وتم الحصول على موافقة على هذه العملية وهى موافقة بأثر رجعى، وصدق ايرليش ما سمعه ونقل تأكيدات ايتان إلى زملائه، ولم يمض وقت طويل ليدرك أنه قد غرر به، وقال فى مقابلة تليفزيونية فى يونيو عام ١٩٨٣: (لقد قدمت لى معلومات ثبت بعد ذلك أنها ليست دقيقة).

وهكذا تم الالتفاف حول الوزراء بالنسبة لقرار الاشتباك مع السوريين والفلسطينيين فى شرق لبنان، وقد تجاهل شارون حتى رئيس أركان جيشه الذى أقلقه كثرة الإصابات التى فاقت ما يمكن لإسرائيل أن تتوقعه، وأثار جيش الدفاع الإسرائيلى الخلافات والصدام وطلب وزير الدفاع من مجلس الوزراء أن يسمح له باقتلاع صواريخ سام ـ ٦ التى لا تزال متمركزة فى البقاع، وألح قائلا إنه لا يمكن ترك القوات الإسرائيلية دون غطاء جوى، وألح شارون على ضرورة اتخاذ قرار سريع حتى تستطيع القوات الجوية أن تضرب قبل حلول الظلام ولم يكن أمام مجلس الوزراء سوى الموافقة، وفى وجه إنذار نهائى أمريكى بوقف إطلاق النار أصدر شارون أوامره بمزيد من التقدم براً.

وبالرغم من الشكوى المتكررة من شارون وايتان من أنهما عوملا ككبش فداء من قبل مجلس الوزراء الذى ينبغى عليه أن يتحمل نصيبه من المسئولية عن كل ما حدث فى لبنان، كان هناك دليل مناسب عن إبعاد الوزراء عن مباشرة الإشراف على سير الحرب ولكن ماذا عن رئيس مجلس الوزراء؟.

لقد قال بيجين نفسه بمرارة: (إننى أعلم عن كل التحركات ولكن أحياناً قبل أن يتم تنفيذها وأحياناً أخرى بعد أن يكون قد تم تنفيذها، وكان يرحب بالأهداف ـ العظام لمشروع شارون ـ ايتان).

وفى بعض الأحيان كان أكثر تصلباً من الحكومة، ففى نهاية شهر يوليو على سبيل المثال ـ أيد رئيس الوزراء بشدة عملية لاقتطاع وفصل معسكرات الفلسطينيين ـ وما جاورها عن جنوب غرب بيروت وحتى منطقة تضم ٦٠٠٠ مبنى وعشرات الآلاف من السكان بين مدنيين ومقاتلين.

واقترح رئيس الأركان قصفًا مكثفًا عن طريق المدفعية وعن طريق الطيران لإضعاف العدو، والإقلال من الإصابات بين الإسرائيليين والتى قدرها ما بين عشرين وثمانين. وكان الكولونيل ايلى جيفا قائد فيلق مدرع قد طلب إعفاءه من منصبه لكى يتجنب مهاجمة بيروت الغربية وقد قال لبيجين إنه يقدر الخسائر بـ ٢٥ قتيلاً إسرائيلياً، وشعر العديد من الوزراء بالانزعاج من احتمال القتال فى مناطق مزدحمة بالسكان، وكذلك بالانزعاج من ردود الفعل الدولية لهذا القتال وتمت الموافقة بأغلبية واحد فقط أى تسعة أصوات مقابل ثمانية لكن بيجين رفض إعطاء موافقته بسبب هذه الأغلبية الضئيلة.

وكانت هناك أوقات دافع فيها بيجين عن شارون أمام منتقديه وهذا يعنى أن رئيس الوزراء لم يكن رافضاً كلية لخطوات وزير الدفاع، وقد قال مرة لشارون: (من الأفضل أن يمتطى الإنسان جواد سباق تستطيع أن تسيطر عليه من أن تمتطى جواداً لا يستطيع الركوض) ولكن هناك بعض الحالات التى لم يكن يعرف بيجين ما يجرى فيها وفى خطاب فى الكنيست فى الثامن من يونيو وبعد يومين من بداية الحرب قال بيجين:

(إننا نريد شيئاً واحداً فقط: وهو ألا يلحق أحد الضرر بمستوطناتنا فى الجليل بعد اليوم، ولا أن يضطر مواطنونا فى مستوطنات الجليل إلى الاختناق فى المخابئ ليل نهار، وألا يعيشوا تحت تهديد الموت الفجائى من الصواريخ كاتيوشا، هذا هو ما نريده.. إننا لا نريد أى صراع مع الجيش السورى).

وإننا إذا ما وصلنا إلى خط الكيلو الأربعين إلى الشمال من حدودنا فإن المهمة تكون قد انتهت وعندئذ يتوقف القتال.

وفى الواقع فإن مجلس الوزراء كان قد أعطى شارون بالفعل موافقته على تنفيذ عملية تطويق القوات السورية من الشمال والشرق فى البقاع، وهذا يعنى عبور خط الأربعين كيلو مترًا، وأعطيت الموافقة للقوات المدرعة بتحسين مواقعها، وهو الأمر الذى يعنى المخاطرة بوقوع صدام.

وقد خضع شارون لاستجواب عسير عندما عرض وزير الدفاع الموضوع على لجنة العلاقات الخارجية والدفاع بالكنيست فى نفس اليوم فيما بعد.

وحتى لو لم يكن بيجين مدركاً لما يحدث فى الميدان، إلا أن المعارضة العمالية والتى تضم ثلاثة من رؤساء الأركان السابقين وهم رابين وبارليف وجور كانت تدرك ذلك تماماً وأكد بيجين لكل من بيريز ورابين اللذين كانا قد أرسلا إليه للتوسط فى الخلاف أنه لم يتم اتخاذ أى قرار بالاشتباك مع السوريين فى معركة، وفى نهاية الأسبوع من يومى السادس والسابع من أغسطس وبينما كانت بيروت تحت الحصار وكانت الولايات المتحدة تحاول يائسة التفاوض على إجلاء الفلسطينيين عن العاصمة، أصدر شارون أوامره بالتعبئة على نطاق واسع للاحتياطى وبدون إخطار رئيس الوزراء وبدون أخذ تفويض بذلك من مجلس الوزراء. وبدا من ذلك كأن وزير الدفاع قد خطط لشن هجوم وقائى إجهاضى على غرب بيروت المسلحة، وسمع بيجين عن هذه التعبئة من مكالمة تليفونية فى منتصف الليل من يوسف بورج وكان ابراهام ابن يوسف بورج ضابطاً من ضباط الاحتياط وهو من زعماء حملة معاداة الحرب وقال بيجين مندهشًا لوزير الداخلية يوسف بورج:

(إننى لم أوافق على استدعاء الاحتياطى).

وعندما سُئل شارون عن هذا الموضع فى اليوم التالى قال إنه طالما قد تم الاتفاق على شن عملية فى بيروت ليلا أصبح من الواضح لدىّ أن أعلن دعوة الاحتياطى.

ولم يكن من السهل تهدئة رئيس الوزراء الذى قال متسائلا: (ماذا يعنى

بقوله إنه أصبح من الواضح لدىّ؟ إنك لا تستطيع أن تقدم على خطوة كهذه دون موافقة - هكذا يعلم كثير من الأشخاص عن هذه التعبئة بينما لا يعلم رئيس الوزراء عنها شيئاً! وقبل شارون هذا التوبيخ وقدم اعتذاره.

وانتقد بيجين وزير دفاعه علانية فى اجتماع لمجلس الوزراء فى الثانى عشر من أغسطس، وهو اليوم اللاحق لأعفن وأقسى قصف إسرائيلى لبيروت.

فلقد هاجمت الأمواج تلو الأمواج من الطائرات المناطق السكانية لمدة إحدى عشرة ساعة متصلة وبدون انقطاع، وزعم ضابط كبير فى القوات الجوية أن معظم التفجيرات كانت قنابل صوتية، ولكن لم يكن هذا هو الوضع بالنسبة للسكان على البر أو مشاهدى التليفزيون فى العالم كله.

كان الرئيس ريجان من بين هؤلاء واتصل هاتفيّاً ببيجين مرتين وطلب أن توقف إسرائيل هذه المذبحة، ورد بيجين قائلا إن الرئيس ريجان لا يعرف معنى هذه الكلمة، لكن شارون تعرض لنيران ثقيلة فى مجلس الوزراء من دافيد ليفى نائب رئيس حزب حيروت - ومن بورج الذى خشى أن يؤدى هذا القصف إلى عرقلة للتوصل إلى اتفاقية للجلاء فى اللحظة الأخيرة وأن يوجه اللوم فى ذلك إلى إسرائيل، واتفق بيجين معهم على أن - القصف لم يعد يخدم أى هدف نافع مفيد وأن إسرائيل سوف تتلقى نقدًا شديدًا من الولايات المتحدة، وتساءل بيجين قائلا: وكيف سيكون موقف إسرائيل أمام العالم إذا ما تم استدعاء فيليب حبيب من مهمته لوقف إطلاق النار، وعندما حاول شارون الرد أكد رئيس الوزراء - غاضباً - سلطاته ووافق مجلس الوزراء على توصياته بألا تتخذ مبادرات بعد اليوم لحماية الجنود الإسرائيليين بدون موافقة مجلس الوزراء وألا يحدث أى قصف من البر أو البحر أو الجو بدون علم رئيس الوزراء وموافقته.

وبالرغم من أن بعض الوزراء رأى فى ذلك تصويتًا بسحب الثقة من شارون إلا أن رئيس الوزراء لم يتخل عن وزير دفاعه، وفى الاجتماع التالى

لمجلس الوزراء بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ اقترح بيجين نسيان الماضى، وكان عليهم أن يتحدوا معاً ويسيروا جنباً إلى جنب فى مهمتهم، وقال رئيس الوزراء: (محظوظة تلك الدولة التى يعمل فيها شارون وزيرًا للدفاع).

وكان بيجين بعد ذلك تلقى التقارير بصورة منتظمة من شارون وكانت هذه التقارير تصل إلى ٥ أو ٦ تقارير فى اليوم الواحد، ولكن لما كانت هذه الحملة التى قدر لها ثمان وأربعين ساعة قد امتدت طوال شهر يونيو ثم يوليو وأغسطس حتى سبتمبر بدأت الشكوك تثار حول قدرة بيجين على البقاء.

لقد قام بزيارة واحدة للقوات الإسرائيلية فى لبنان وذلك فى اليوم التالى عندما ذهب ليهنئ وحدة المشاة التى استطاعت الاستيلاء على قلعة بيفورت، وحاول أن يأخذ يوم عطلة نهاية الأسبوع فى بلدة نهاريا على الشاطئ الشمالى، إلا أن هذا لم يتم نتيجة لزيارة بشير الجميل ووزير الدفاع الأمريكى كاسبار وابنبرجر له.

وما هى المعلومات التى كان شارون وايتان يطلعانه عليها وما هى المعلومات التى كان يحجبانها عنه؟ وإلى أى قدر كانا يحاولان الاتصال برئيس الوزراء أثناء فترات الأزمات.

إن مصرع بشير جميل وما تبع ذلك من مذبحة صبرا وشاتيلا يقدم الرد على هذا السؤال. كانت مذبحة مخيمات الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا نقطة تحول فى كل العملية الإسرائيلية فى لبنان.

وكان بشير الجميل عندئذ الرئيس المنتخب للبنان قد قتل فى ليلة الرابع عشر من سبتمبر عندما دمرت قنبلة زمنية مكاتب الحزب فى شرق بيروت.

وتشاور بيجين تشاوراً تاماً وكاملاً مع شارون وايتان اللذين أخبراه بالشائعات والشائعات المضادة حول مصير الجميل، بينما كان رجال الإنقاذ يحفرون وسط الأنقاض وفى حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما

تأكد مصرع الرئيس جميل، أشار بيجين على شارون بأنه ينبغى على جيش الدفاع الإسرائيلى أن يسيطر على نقطة العبور بين شرق وغرب بيروت، للحيلولة دون وقوع فوضى وإراقة الدماء وللفصل بين السكان والذين يبادلون بعضهم العداء، هذا هو على الأقل ما قاله رئيس الوزراء للجنة كاهان التى شكلت للتحقيق فى مذبحة صبرا وشاتيلا ووضع الجيش فى مظهر مخالف بناء على هذا القرار الذى اتخذه بيجين وشارون فى هذه الحالة الطارئة، وفى غمرة قلق لبنان أعلن المتحدث العسكرى فى اليوم التالى أنه سيكون موقفا لا أخلاقيّاً لو أن إسرائيل لم تساعد فى المحافظة على السلام.

إن مصرع الرئيس المنتخب بشير الجميل هذا المأساوى يشير إلى رغبة لدى عناصر معينة للعودة عن طريق العنف إلى حالة الفوضى السابقة، وفى ظل مثل هذه الفوضى يتفشى الإرهاب المعادى لإسرائيل ويزدهر وأن إسرائيل لن تسمح بأن يحدث هذا مرة أخرى، إن التحركات الحالية للقوات الإسرائيلية تؤكد أن الهدوء سوف يسود وأنه سوف يتم القضاء على الفوضى.

وأكد كل من بيجين ووزارة الخارجية أن إسرائيل قد تصرفت أثناء الليل للحفاظ على السلام، واستغل شارون وجيش الدفاع الإسرائيلى فرصة اغتيال الجميل لتمشيط الفدائيين الفلسطينيين وحلفائهم من اللبنانيين اليساريين، الذين بقوا فى غرب بيروت بعد جلاء منظمة التحرير الفلسطينية فى نهاية أغسطس، ودخلت حاملات الجنود المدرعة نقاط العبور الإستراتيجية فى الأراضى التى يسكنها المسلمون والفلسطينيون حيث واجهت مقاومة على نقاط صغيرة لكنها مقاومة نشطة. وفى يوم الخميس الموافق السادس عشر من سبتمبر دخلت ميليشيات الكتائبيين معسكرى اللاجئين لمطاردة الفدائيين الفارين كما كان واضحاً، وقد تم تنسيق دخولهم مع الجيش الإسرائيلى الذى ساعدهم فى طريق الأضواء الكاشفة وعن طريق التغطية بنيران المدفعية، وكان هذا كما لو وضعت ثعلباً فى حظيرة للدواجن وكما يمكن أن يتنبأ أى

فرد له معرفة ـ ولو بسيطة ـ بتاريخ لبنان الحديث الملطخ بالدماء، فإن الكتائبيين قد نسوا كل شىء عن الإرهابيين وأخذوا يقتلون كل فلسطينى يعثرون عليه سواء كان رجلاً أم امرأة أم طفلا، واعترف بيجين فى استجوابه من قبل لجنة كاهان أنه لم يعلم أى شىء عن قرار نشر الكتائبيين حتى أخطر به اجتماع طارئ لمجلس الوزراء فى ليلة السادس عشر، أنه لم يتم استشارته أو إخطاره.

ومرة أخرى استند شارون إلى تفويض بأثر رجعى زاعماً أن نشر الكتائبيين قد تم بناء على قرار اتخذ فى الخامس عشر من يونيو قبل ذلك بثلاثة أشهر، وأن الجيش اللبنانى والكتائبيين وليس جيش الدفاع الإسرائيلى هو الذى سوف يستولى على غرب بيروت. وكان دافيد ليفى هو المعترض الوحيد وحتى هو لم يجد ما يبرر التصويت ضد ما حدث بالفعل.

وفى يوم الخميس دخل الكتائبيون المعسكرات ولكن لم يعلم العالم بما فعلوه حتى يوم السبت الموافق الثامن عشر من سبتمبر، وأثيرت الشكوك حول القادة الإسرائيليين المحليين يوم الجمعة، لقد أصدروا أوامرهم للكتائبيين بوقف عمليتهم ولكنهم لم يجبروهم على ترك المعسكرات قبل صباح يوم السبت، ولكن طبقاً لشهادته هو لم يهتم أحد بإخطار رئيس الوزراء، وكان يوم السبت هو يوم بداية السنة اليهودية الجديدة، ولكن كان فى الإمكان إرسال مبعوث إلى داخل المعبد بكل سهولة، وبدلا من ذلك علم بيجين بالمذبحة عن طريق الإذاعة البريطانية فى الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت ـ أنه لم يخطر بعد الحادث ولم يشر عليه أحد بشىء عن المخاطر مسبقاً. وعندما سأله آهرون باراك عضو لجنة التحقيق وهو الآن قاض بالمحكمة العليا عما إذا كان ينبغى على أجهزة الأمن أن تحذره أجاب بيجين: (إن ما ينبغى عليهم إخطارى به متروك أساساً لمبادرتهم الشخصية).

كان سلوك بيجين وهو واقف فى المكان المخصص للشهود يتصف بعدم

النظام. وكان بيجين يبدو يخالف اللجنة وكأنه لم يؤد واجبه المنزلى، ولقد دهش عندما واجهه كبير القضاة إسحاق كاهان بنسخ من وثائق اجتماعات مجلس الوزراء وبالمحادثات التى جرت مع مبعوث ريجان الخاص مرريس داريير وكان أعضاء مكتبه يعرفون أن اللجنة قد تلقت هذه الوثائق، ولم يكن فى استطاعته أن يتذكر أشياء هو وغيره قد قالوها بما فى ذلك بيان أدلى به جنرال ايتان جاء فيه أن الكتائبيين يسنون أسلحتهم من أجل الانتقام بعد مصرع بشير الجميل.

وبالرغم من أنه كان يدل بشهادته بعد أقل من شهرين بعد المذبحة إلا أنه لم يكن دائماً يفهم ما وجه إليه من أسئلة، وكان الانطباع هو أن رئيس الوزراء قد فقد قبضته على الأمور، وعلق أمنون دانكيز فى صحيفة هاآرتس قائلا: لقد رسمت الصورة عن رئيس وزراء لا يهتم بالتفاصيل وأنه فى بعض الأحيان يكون متباعدًا ومعتمدًا على وزير الدفاع ورئيس الأركان دون أن يحثهم على إطلاعه على ما يجرى.

وكان الانهيار فى التنظيم كما كان فى الاتصال، لقد استقال العميد افرايم بوران كسكرتير عسكرى لبيجين فى عام ١٩٨١، وبناء على توصية من شارون تم تعيين ضابط صغير بدلا منه وهو أزريل نيفو، واستغنى شارون نفسه عن ضابط كبير يعمل مساعدًا عسكريّاً له وذلك عندما أصبح وزيراً للدفاع شارحاً ذلك بأنه ليس فى حاجة إلى وسيط بينه وبين القيادة العامة وعلى نفس الشاكلة فإنه يريد أن يكون حلقة الاتصال بين بيجين والجيش.

ولد كان أزريل نيفو جنديّاً له مستقبل فى الجيش ولكنه لم يكن من العمر ولا من الرتبة العسكرية ما يمكنه من خدمة رئيس الوزراء وأن يصبح عينيه وأذنيه كما كان يفعل سابقه، لقد كان بوران جنديّاً مخضرمًا من حرب التحرير سنة ١٩٤٨ وكان يعرف القادة كزملاء وأنداد له.

ولم يكن فى حاجة لأن يستخدم القنوات التقليدية للحصول على

المعلومات، وكان فى استطاعته أن يتوجه مباشرة إلى الرجل المسئول فى موقعه، وهؤلاء الذين كانوا يعرفونه كانوا مقتنعين بأنه وإن كان لا يستطيع منع المذبحة من الوقوع كان فى استطاعته أن يخطر بها رئيس الوزراء بدلا من السماح عنها من الإذاعة البريطانية.

إن الصراخ الذى أثاره صبرا وشاتيلا جعل رئيس الوزراء يلجأ للدفاع عن نفسه. وفى مذبحة فندق الملك داود، ومذبحة دير ياسين، ومذبحة المعسكرات فى بيروت لم يثر فقدان الأرواح غير اليهودية أى شعور بالمرارة، وقال بيجين: (ان الجوييم) (غير اليهود) يقتلون غير اليهود ثم يلقون باللائمة على اليهود، قال ذلك فى اجتماع طارئ لمجلس الوزراء يوم الأحد الموافق التاسع عشر من سبتمبر، واتهم بيان أصدره لمجلس الوزراء وقعه رئيس الوزراء العالم بتوجيه تهمة سفك الدماء للدولة اليهودية وللحكومة اليهودية ولقوات الدفاع الإسرائيلية.

وقال البيان إن القوات الإسرائيلية لم تكن متمركزة فى المعسكرات وقت وقوع المذبحة التى نفذتها وحدة لبنانية.

وقال أيضاً إن القوات الإسرائيلية قد وضعت حدّاً للقتل وأجبرت اللبنانيين على ترك المعسكر، وبدون تدخل جيش الدفاع الإسرائيلى لكان عدد القتلى قد زاد زيادة كبيرة.

إن جميع الاتهامات المباشرة والضمنية بأن جيش الدفاع الإسرائيلى يتحمل اللوم عن هذه المأساة الإنسانية لا أساس لها من الصحة تماماً، وأن حكومة إسرائيل ترفض هذه الاتهامات بكل الاحتقار الذى تستحقه.

وبالرغم من الآثار الداخلية فإننا ندعو شعب إسرائيل إلى الاتحاد حول حكومته المنتخبة انتخابًا ديمقراطيّاً فى نضالها من أجل أمن إسرائيل وسلامتها وأمن وسلامة كل مواطن إسرائيلى، ولا يجوز لأحد أن يعلمنا الأخلاق واحترام حياة الإنسان وهى قيم تعلمناها وشببنا عليها وسوف نستمر فى تلقينها للأجيال القادمة من المقاتلين الإسرائيليين.

وكما أوضح تقرير لجنة كاهان فإن المسائل الأخلاقية لم تكن بهذه البساطة، لقد كان بيان الحكومة بمثابة قضية دفاع أقيمت على أساس من معلومات محددة، لقد تضمن أبسط تعبير رمزى عن الأسف والحزن لموت مئات من الفلسطينيين، ورفض بيجين أن يصدر أى بيان شخصى بالأسف تماما كما استبعد قلق ايلى جيفى من جراء وقوع إصابات بين المدنيين عندما وقفت دبابات العقيد جيفى فى مواجهة غرب بيروت، وبعد أن شرح العقيد جيفى لرئيس الوزراء أنه رأى الأطفال من خلال نظارته المكبرة عندما اتجه ببصره إلى المدينة أجاب بيجين: هل تلقيت تعليمات بقتل الأطفال؟ وأجاب جيفى بالنفى وعندئذ سأله بيجين: وفيم شكواك إذن؟ وقد أثار سكوت رئيس الوزراء على المذابح التى وقعت فى معسكرات اللاجئين غضب الرئيس اسحاق نافون، الأمر الذى دفعه إلى الظهور على شاشة التليفزيون بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ليقدم تعازيه ومواساته للأسر الثكلى، مشيرا إلى أن بعضهم هم من العرب الإسرائيليين أو الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وتحت الضغوط المتزايدة من جانب الصحافة الإسرائيلية ومن جانب الرأى العام الإسرائيلى اضطر بيجين إلى تشكيل لجنة استقصاء مستقلة للتحقيق فى تورط إسرائيل فى المذبحة، وحاول أول الأمر أن يحدد سلطاتها فى نطاق استدعاء الأشخاص وطلب المستندات لكن المؤسسة القانونية استطاعت أن تحبط محاولته هذه مدعمة من قبل مؤتمر شعبى ضم ٤٠٠ ألف إسرائيلى انعقد فى ميدان تل أبيب احتجاجًا على هذه الأعمال.

وقد منحت لجنة كاهان المكونة من قاضيين وجنرال متقاعد كافة السلطات القانونية ولقد تمخضت تحقيقاتها المتأنية عن تقرير محدد واضح عن كل ما جرى فى صبرا وشاتيلا وعن كل ما كان ينبغى ألا يقع أو يحدث.

وبالرغم من أنها برأت إسرائيل من المسئولية المباشرة إلا أنها اعتبرت

إسرائيل مسئولة مسئولية غير مباشرة.

(إن قرار دخول الكتائبيين معسكرات اللاجئين قد اتخذ بدون اعتبار للمخاطر التى كان منفذو القرار قد رأوها محتملة الوقوع، وهى أن الكتائبيين سوف يرتكبون مذابح وعمليات اضطهاد ضد سكان المعسكرات، كما اتخذ هذا القرار بدون دراسة لوسائل منع هذا الخطر.. وبصورة مماثلة فقد كان واضحاً بين تتابع الأحداث أنه عندما بدأت الأنباء ترد عن أعمال الكتائبيين فى المعسكرات لم يلتفت إليها التفاتاً مناسبًا ولم تستخلص النتائج الصحيحة من هذه الأنباء ولم تتخذ أى أعمال نشطة ومباشرة لكبح جماح الكتائبيين ووضع حد لأعمالهم).

وأنحت اللجنة باللائمة على شارون لتجاهله أخطار المذبحة ولفشله فى اتخاذ الخطوات المؤدية إلى منع وقوع المذبحة.

وأوصت بلغة غير مباشرة ـ تسببت فى إثارة المتاعب لرئيس الوزراء ـ بأن يستقيل شارون من وزارة الدفاع أو يطرد من الوزارة.

ووجهت نقداً شديداً للجنرال ايتان وألمحت اللجنة بأنه لو لم يكن رئيس الأركان على وشك الإحالة إلى الاستيداع لكانت قد أوصت بعزله، وأدين كل من ماجور ـ جنرال يوشوا ساجوس مدير المخابرات العسكرية وكذلك القائد المحلى فى بيروت العميد أموس يارون لتقصيرهما.

وأوصت لجنة كاهان بعدم اتخاذ أى إجراء ضد بيجين ولكنها أنحت عليه باللائمة لتجاهله أخطار المذبحة عندما دخل الكتائبيون المعسكرات وفشله فى متابعة ما جرى بعد ذلك.

فقد يفترض أن إظهار الاهتمام من قبل رئيس الوزراء فى هذا الموضوع، بعد أن علم بدخول الكتائبيين كان فى الإمكان أن يزيد من حالة تنبه وزير الدفاع ورئيس الأركان إلى الحاجة إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة هذا

الخطر المرتقب بأن تصور رئيس الوزراء عن الاندماج والمشاركة المشكلة بأكملها يلقى عليه قدرًا معينًا من المسئولية!

ووجه النقد لوزير الخارجية إسحاق شامير لعدم قيامه بما يكفى بمراجعة تقرير تلقاه من زميله موردخاى زيبورى، ويلفت انتباه وزير الدفاع إلى الشائعات بأن الكتائبيين يقتلون المدنيين غير المحاربين.

وبشعور بالحس القانونى الأصيل كان بيجين يدرك منذ اللحظة الأولى التى شكل فيها لجنة كاهان أن عليه أن يقر توصياتها وينفذها مهما كانت قاسية، فنتائجها سوف تكون ملزمة أخلاقيّاً حتى لو لم تكن ملزمة قانونيّاً.. لكنه كان عازفًا عزوفاً تامًا عن طرد شارون إذا ما رفض وزير الدفاع أن يخرج فى هدوء.

وعلى أى حال فإن ما يهم رئيس الوزراء هو أن إسرائيل قد برئت تماماً من المسئولية المباشرة، فجنود إسرائيل لم يقتلوا اللاجئين فى صبرا وشاتيلا، وشارون يستحق مصيراً أفضل من أن ينهى حياته العسكرية والسياسية نهاية مشينة لمجرد وقوع مذبحة قام بها المسيحيون اللبنانيون، وعلاوة على ذلك فلم يكن يراود بيجين الشك فى أن أولئك الذين يريدون إسقاط شارون إنما يريدون أيضا إسقاطه هو نفسه.

وعندما زار شارون بيجين فى صباح يوم نشر التقرير سأله رئيس الوزراء ماذا ينبغى عمله، وأجاب شارون أن بيجين يمكن أن يقبل هذا التقرير أو يرفضه إن وزير الدفاع لن يستقيل ولكن بيجين يستطيع أن يفصله، وأجاب رئيس الوزراء: (إننى لن أطلب منك أن تستقيل).

وكان المضمون واضحاً، (وإذا ما استخلص شارون النتائج الشخصية) كما جاء فى كلمات التقرير، فإن بيجين لن يقف فى طريقه، لكن شارون لم يكن على استعداد لأن تسير الأمور فى سهولة، فإنه لن يقبل أن يوصم بمحض اختياره بوصمة (قابيل) وقال بيجين إنه إذا ثبت شارون فى مكانه فالاختيار

الوحيد أمامه هو أن يذهب إلى الرئيس ويقدم استقالته بالأصالة عن حكومته كلها ويطلب إجراء انتخابات فى وقت مبكر، وكان يؤمن بأن الشعب يقف معه.

فالغالبية رفضت تقرير كاهان لأنه شديد القسوة، وبضربة واحدة يكون قد فعل الشىء المناسب وكسب تفويضاً جديداً من الشعب ولكنه كان مستعدّاً لأن يترك الحكومة بعض الوقت قبل أن ينفذ هذا المخطط.

واجتمعت الحكومة ثلاث مرات فى ثلاثة أيام، وأخذت تناقش التقرير ونتائجه لمدة إحدى عشرة ساعة متصلة، وفى الاجتماع الثالث والذى استمر خمس ساعات فى مساء العاشر من فبراير أصدرت الحكومة بياناً مقتضباً قالت فيه إن مجلس الوزراء قرر قبول توصيات اللجنة.

وكانت نتيجة التصويت ١٦ صوتًا مقابل صوت واحد، وكان شارون هو الوحيد الذى صوت ضد هذا القرار، وقال وزير العدل موشيه نسيم للصحفيين: ينبغى تنفيذ كل فقرة، وإذا لم تنفذ فقرة من الفقرات فإن مجلس الوزراء سوف يجد الوسيلة لتنفيذه، وارتقى القرار إلى مرتبة الإنذار النهائى فإما أن يسارع شارون بالخروج أو يدفع بقوة.

وأكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميريدور أنه ليس هناك من أحد يلعب بالألفاظ. وقال مسئول آخر كبير إنه يأمل فى ألا يعين عليه أن يجلس مرة أخرى للاشتراك فى مناقشة صعبة كهذه.

وخرج شارون من مكتب رئيس الوزراء فى تحد ولكن دون أن يتصل بأحد وفى اليوم التالى انحنى للقرار الذى لا يمكن تجنبه واتصل ببيجين هاتفيّاً وقدم استقالته وكتب يقول إنه سوف يحترم قرار مجلس الوزراء بإبعاده من منصبه كوزير للدفاع ولكنه لن يستقيل من الحكومة، وبعد أن قال المدعى العام اسحق زامير إنه يكفى أن يخرج شارون من وزارة الدفاع وافق المجلس

على الاكتفاء بذلك وإبقاء شارون فى الحكومة كوزير بلا وزارة وبعد ذلك بأسبوع أعيد تعيينه فى اللجنة الوزارية للدفاع ووجهت المعارضة نقداً شديداً لبيجين لاحترامه كلمات وألفاظ كاهان دون احترام روح التقرير وجوهره، لكن تقرير اللجنة كان غير دقيق فى توصيته بصورة متعمدة وكان من حق بيجين أن يقول إنه نفذ التزاماته.

■ ■ ■

الفصل الثالث والعشرون

لا أستطيع الاستمرار

إن ضعف الجسد والروح البطىء الذى كان يعانى منه مناحم بيجين، والذى وصل إلى الذروة باستقالته فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣، كان قد بدأ قبل ذلك بعامين فى الأغلب يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٨١.

وكان رئيس الوزراء يقرأ فى ذلك اليوم الأوراق الرسمية التى كان قد تم إرسالها إلى مقره فى ركن شارعى (بلفور) و(سموليتسلين) فى منطقة (طالبية) بالقدس، وبعد أن قرأ بيجين آخر برقية لديه، ذهب ليغسل يديه قبل أن يلحق بزوجته وابنته (ليه) لتناول العشاء إلا أن قدمه زلت بين الحوض وقضيب المنشفة وسقط بقوة على أرضية الحمام.

وسردت هذه الأحداث التى وقعت يوم الخميس هذا وفقاً لتسلسلها الزمنى لحظة بلحظة فى خطاب مفتوح غير عادى أرسله بعد ذلك بأسبوع إلى (يوئيل ماركوس) المحرر بجريدة هاآرتس الذى كتب مقالا ينتقد فيه زعماء إسرائيل ومستشاريهم للشئون الطبية لإخفاء الحقيقة بشأن العلل التى يعانون منها عن الجمهور، وكتب مناحم بيجين يقول:

(لقد ظللت ملقىً على الأرض أحاول النهوض وكنت أتنهد من الألم، وحاولت أن أنادى زوجتى لتأتى لمساعدتى، لكنها لم تسمع نداءاتى لأن صوت المذياع الذى كان معى كان مرتفعاً.. لقد جاءت هى أيضاً بمحض الصدفة لتغسل يديها، عندما فتحت الباب وجدتنى راقداً على الأرض، وتساءلت قائلة: ما الذى حدث لك؟ وأجبتها قائلاً: (لقد وقعت) وقالت حينذاك..

(انهض) وقلت لها: (لا أستطيع) فقالت انتظر سأحضر (ليه).

وجاءت (ليه) وتساءلت ما الذى حدث لك يا أبى وأجبت (وقعت) ولا أستطيع النهوض، دعينى راقداً برهة وسأحاول النهوض، وتشاورت حينذاك زوجتى وابنتى معاً واتفقا على أن يرفعونى من على الأرض ويضعونى فوق الفراش المجاور، وسمعت الحديث الذى دار بينهما وقلت لهما (لا) لا تفعلا ذلك (فليست لديكما القوة وستضطران لتحريكى والحركة ستسبب لى آلاماً رهيبة وأعتقد أنى كسر فىَّ شىء، أحضرا إلىّ اثنين من حراسى وسأذكر لهما ما يجب أن يفعلاه معى).

وبعد برهة قصيرة جاء اثنان من شبابنا الرقيق، وطلبت منهما أن يفعلا الآتى: ضعا أيديكما تحتى، دون أن تحركا (أعضائى) واحملانى فى ذلك الوضع إلى الفراش وضعونى عليه واقترب حارسا الأمن منى وفعلا بالضبط ما طلبته منهما، شكرا لهما فقد رقدت على فراشى على جانبى الأيمن وكان الألم شديدًا لكن محتمل).

وتم استدعاء اثنين من كبار الأطباء من مستشفى (هاداساه) كان من بينهما (مرقين جوتسمان) الطبيب الشخصى لمناحم بيجين، وطلب سيارة إسعاف لتحمله إلى المستشفى فى منطقة (عين كريم) على الطرف الغربى من المدينة حيث أثبتت أشعة إكس أنه يعانى من كسر فى فخذه اليسرى، وكلما أسرعوا بإجراء عملية جراحية له كان أفضل وفى حجرة العمليات قيل لبيجين إنه سيكون مستيقظاً طوال الوقت حيث لم يتم إعطاؤه إلا عقاراً مخدراً موضعياً.

لقد كانت الآلام شديدة ولكنها لم تتزايد، وقد شهدت استعدادات الجراحين وكيف ارتدوا ملابسهم، وكيف تمت مساعدتهم فى ربط أحزمة أروابهم وكان جميع الموجودين فى الحجرة يرتدون أقنعة على وجوههم، وكان من بينهم (البروفيسور جوتسمان) وأحد رجال الأمن وبدأ التخدير، وحقننى

البروفيسور فلوريا (ماجورا) عدج مرت بالقرب من عمودى الفقرى، وبدأ التخدير تدريجيّاً فى الجانب الأيسر من جسدى.

وجاءت اللحظة التى شعرت فيها بأننى مجمد ثم اختفت الآلام وشعرت بتحسن كبير وأصدر البروفيسور (مير) ماكين أوامره بوضع ستارة بين النصف الأعلى من جسدى وبين الجزء الذى ستجرى فيه العملية، وقيل إن ذلك مطلوب حتى لا تصل الجراثيم التى تنبعث مع تنفسى إلى منطقة العملية.

وقبلت ذلك التفسير، إلا أننى اعتقدت أنهم قد لا يريدون أن أرى كل ما يفعلوه وبالفعل لم أر شيئاً.

وبدأت العملية، ولم أشعر بأنها بدأت، وتحدثت إلى البروفيسور (جوتسمان) الذى كان بجانبى وتحدث هو إلىّ.

ولم أكن أشعر بأى ألم، وفجأة سمعت دق مطرقة على مسمار وزاد الدق ولم أشعر بشىء ولم أحسب العدد ولكنى أعتقد أننى ميزت تسع أو عشر دقات متقطعة، وبعد برهة قيل لى إن العملية ستنتهى على التو وأن كل شىء سار على ما يرام، وبعد قليل ذكروا أنها انتهت، وأزاحوا الستار ورأيت قفاز البروفيسور (ماكين) وكان عليه بعض الدماء، وأزالها وجاء وقال لى: لقد تم كل شىء بصورة طيبة وتم وضعى فى نقالة وإعادتى إلى جناح البروفيسور (جوتسمان) الخاص بالعناية المركزة.

وفى هذه الليلة لم تعاودنى الآلام ولكن فى يوم الجمعة وقد زال على الأرجح أثر المخدر الموضعى، بدأت الآلام، وكانت شديدة إلا أنها كانت محتملة لأنهم سمحوا لى بالبقاء فى الفراش وعدم الحركة لمدة يومين.

وتم شفاء عظمة الفخذ، العظمة التى توصل الفخذ بالحوض، وخرج بيجين من المستشفى بعد ذلك بثمانية عشر يوماً، إلا أنه ظل يعانى من ألم شديد وعدم الشعور بالراحة لعدة شهور بعد ذلك وعندما قام الرئيس

الفرنسى (فرانسو ميتران) بزيارة رسمية لإسرائيل فى شهر مارس عام ١٩٨٢، ألقى بيجين خطابًا فى الكنيست وهو جالس على مقعد متحرك وفى أواخر شهر مايو، اعتذر عن إلقاء بيان أمام لجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست لأن ساقه المكسورة مازالت يؤلمه وقال لهيئة مكتبه إنه لم يتعرض لمثل هذا الألم فى حياته، وتخلى رئيس الوزراء عن مكتبه الذى وجده غير مريح، وباشر عمله اليومى وهو جالس على أريكة وعلى مائدة لتناول القهوة وبعد ذلك بفترة طويلة واصل المشى مستعيناً بالعصا.

لقد هز سقوطه ثقته بنفسه وذكره بأنه أصبح مسنّاً، واعترف بأنه يخشى من السقوط مرة أخرى.

وكوسيلة لتدعيم موقفه استغل بيجين إصابته كدعاية، فكان يقول للجماهير اليهودية الأمريكية الصاخبة عندما كانت إدارة ريجان تهدد بممارسة ضغط على إسرائيل لقد كسرت ساقى لكن لم تنثن ركبتى.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الإصابة جعلته يشعر بأنه مريض مثلما لم تفعل أبداً حالة قلبه، وسأل ذات مرة زميلاً له فى مرض القلب (هل تشعر بأنك رجل مريض)؟ وبالرغم من أن بيجين لم يسافر أبداً بدون طبيبه المخلص (جوتسمان) فإنه لم يشعر بأنه عرضة للخطر على نحو خاص.

وخلال زيارته للقاهرة فى عام ١٩٧٩ كان يقفز حول الأهرامات وهو يرتدى حلة وربطة عنق فى درجة حرارة أكثر من ٤٠ درجة مئوية ومع ذلك بدا يبدو ضعيفاً بساقه المكسورة وكان يحتاج إلى مساعدة.

وفى الأغلب، كان بيجين قد بدأت تظهر عليه ـ منذ توليه منصب رئيس الوزراء ـ الأعراض التقليدية للمس والانقباض وقد انغمس فى الاكتئاب والكسل لعدة شهور، فى المرة الواحدة، وحدث ذلك فى عام ١٩٧٨ ثم حدث مرة أخرى فى عام ١٩٨٠، وكان يعود إلى النشاط فى كل مرة بسبب نشوب

قتال أو تعرضه لإهانة أو استغلال فرصة لصنع التاريخ، وفى الاثنين وعشرين شهراً التى تلت سقوطه فى حمامه بالقدس كان بيجين يتعرض لسعادة الحياة ولنحسها، إلا أن الدافع على العمل ضعف بالتدريج وأصبحت الفترات الانقباضية أقل عدد أو أقل مدة.

وبدأت تضعف المرونة التى اتصف بها فى (الجولاج) وفى الحركة السرية وكذلك ازدرائه للعارضة الدائمة وتجارب الحكم، كان الاتجاه السائد هو الانحدار الشديد.

لم يكن شىء من ذلك واضحاً عندما خرج بيجين من مستشفى الهداساه يوم ١٤ ديسمبر، لقد خرج بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان يريد أن يظهر أنه من السابق لأوانه القضاء عليه.

وانقضى يوم الإثنين الطويل، الذى خرج فيه رئيس الوزراء محوطاً بكل ما تتصف به عمليات ينفذها رجال العصابات، المفاجأة والسرية وسرعة التنفيذ.

وقد بدا ذلك اليوم فى الساعة السابعة والربع صباحاً عندما كان بيجين مازال يرتدى ملابس المستشفى، واتصل تليفونيّاً بآرييل شارون وسأله عن خططه بالنسبة لذلك اليوم، وأجاب وزير الدفاع الذى غضب بعض الشىء للاتصال فى هذه الساعة بأنه سيذهب إلى (ياميت) فى شمال سيناء، واقترح بيجين عليه أن يتخلى عن الذهاب إلى ياميت ويحضر إلى القدس وتم أيضاً استدعاء اسحاق شامير وزير الخارجية، وتساءلا ما هى المسألة؟ وأجاب بيجين (سأبلغكم عندما تحضرون)، وكان هذان الوزيران وهما أقدم رفيقين له فى حزب حيروت أول من يحاطان علماً لكن حتى هما لم يخمنا أن رئيس الوزراء كان يعتزم الاحتفال بخروجه من المستشفى بضم مرتفعات الجولان، التى تم الاستيلاء عليها من سوريا فى حرب ١٩٦٧ ودُعى مجلس الوزراء إلى عقد جلسة طارئة فى وقت الظهيرة فى شارع بلفور، وكان بيجين فى بيته مشغولا.

كانت الصحف تعلم أن هناك شيئاً فى الأفق لكن ما هو؟ وانفض اجتماع مجلس الوزراء قبل الغداء، وأعلن أنه سيصدر بيان فى الكنيست بعد الظهر وبدأت التساؤلات، هل بيجين مريض أكثر مما كنا نتصور؟، هل سيقدم استقالته؟ هل هى عملية عسكرية، ضربة ربما يتم توجيهها إلى الصواريخ السورية نصف المنسية فى شرق لبنان، لقد أظهر الأمر كله سطوة بيجين وميله للتآمر.

كان رئيس الوزراء قد اتخذ قراره وعلى وشك إعلانه وأيّاً كانت هواجس مجلس الوزراء فقد جرفه التيار وأجبر الكنيست على صياغة مشروع قانون بتطبيق القانون الإسرائيلى والتشريع الإسرائيلى والإدارة الإسرائيلية على المرتفعات بثلاث قراءات، وعرضه على لجنة قبل منتصف الليل. وقد يجادل المحامون العالميون بشأن المصطلحات الفنية الصحيحة إلا أنه بالنسبة للعالم أجمع كان قد ضم الـ ١,٦٧٥ كيلو متر مربع بما فيها من سكان دروز يبلغ عددهم ١٣٠٠٠ نسمة وسكان يهود يبلغ عددهم ٦,٦٠٠ فى أربع قرى واقعة فوق التلال و٣١ مستوطنة على التوالى، وذيل رئيس الوزراء المبادرة بنهاية درامية بالذهاب إلى الكنيست فى مقعده المتحرك، وتقديم التشريع من مكانه المخصص لرئيس الوزراء، والدخول فى معركة حامية مع الأعضاء البرلمانيين المعارضين.

وكان قد تم الإيذان بالضم فى الخطوط الإرشادية التى وضعها الائتلاف للكنيست فى دورته العاشرة لكن لماذا اختار بيجين ذلك اليوم لإعلانه عنه وهذه الوسيلة؟

يقول مساعدوه إن أولويته الأولى كانت إسكات مدافع (جويلا كوهين) وحزب (تحيا) الجديد الذى فاز بثلاثة مقاعد فى انتخابات عام ١٩٨١ والذى كان يتربص الدوائر لكتلة الليكود من اليمين، لقد حاولت مرة مسز كوهين التى انشقت عن حزب حيروت بعد كامب ديفيد دفع الخطى نحو الجولان وهددت بأن تفعل ذلك مرة أخرى بينما صمم بيجين الذى كان بطيئًا فى العفو عن المنشقين على حرمانها من إرضائها فلا يهز الكلب الذيل.

وكان هناك أيضاً شعوره المسرحى باستغلال الفرصة والرغبة الملحة فى السيطرة على أضواء المسرح، إلا أن الظروف قد اجتمعت لجعل هذا الوقت مثالياً للضم، وكان العالم مشغولا بأزمة بولندا، وكانت سوريا تعمل لصالح إسرائيل بالإدلاء بتصريحات متعنتة بصورة متزايدة حول (خيانة) ارتكبت لتحقيق السلام مع إسرائيل، وكان الرئيس السورى حافظ الأسد قد صرح فى اليوم السابق مباشرة بأنه لن يعترف أبداً بالدولة اليهودية، حتى إذا قبل الفلسطينيون أن يفعلوا ذلك.

وقام (ديفيد كيمنش) مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية بتبرير تلك الضربة التى قام بها بيجين لأجهزة الصحافة العالمية بأنها إجراء وقائى لحماية النفس، وقال إذا لم نستطع تحييد مرتفعات الجولان بمعاهدة للسلام فذلك هو السبيل الذى يتعين علينا أن نحققه.

ووبخ بيجين المعارضة البرلمانية متهماً إياها بعقلية الجيتو وقال إن الظاهرة التى تتكرر فى التاريخ اليهودى من جيل لآخر هى اتهام الذات، فلابد أن يقع اللوم على اليهودى، وإذا تعرض اليهودى لمذبحة فإن اللوم يقع عليه وإذا سفكوا الدماء فاليهودى أيضاً هو الملوم، ويقول أعضاء الكنيست الآن: لن تتفاوض سوريا معكم واللوم يقع فى ذلك على الحكومة اليهودية، وكان رئيس الوزراء يؤكد أن السوريين وبالتالى أتباعهم الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة، لقد أقدم بيجين على هذه الضربة أيضاً قبل الموعد النهائى لانسحاب إسرائيل من سيناء فى شهر إبريل حتى يقلل من رد الفعل المصرى.

وقال إن القاهرة لن تفعل شيئاً من شأنه أن يعرض للخطر استعادة أراضيها السليبة، وبحلول شهر إبريل ستكون قضية الجولان قد ماتت.

وكان بيجين على صواب فيما يتعلق بالمصريين، إلا أنه قلل من قوة رد الفعل الأمريكى، فلم تشعر واشنطن بالغضب فقط لأن إسرائيل ضمت

أراضى سورية محتلة، ولكن أيضا لأنها فعلت ذلك بدون إشعار سابق، وناهيك عن التشاور فهذه ليست الطريقة التى يجب أن يتصرف بها الحليف، ردت إدارة ريجان على ذلك بإرجاء العمل بمذكرة التفاهم الإستراتيجى التى كان شارون قد تفاوض بشأنها مؤخراً بمنع المكاسب المالية التى كان قد تم التعهد بها لإسرائيل. وكانت هناك شكوك فى الولايات المتحدة وفى إسرائيل حول القيمة العملية للمذكرة إلا أن بيجين وشارون قد حققا الكثير منها.

وكان إرجاء العمل بها ضربة لمكانتهما وكان رد رئيس الوزراء على ذلك شفوياً إذ لم يكن لدى إسرائيل شىء ذو أهمية يمكن أن تحرم الولايات المتحدة منه، إلا أنه فى نطاق هذه الحدود أخذ بيجين يهدد بالكلمات كما لو كانت إسرائيل هى الدولة العظمى وأمريكا هى التابع المحاصر، ووجه ذلك الإرجاء طعنة لمبدئه الخاص بالتحالف المتوازن ولكبريائه فى الاستغلال اليهودى، وكان بيجين يعامل الكلمات على الدوام كالأسلحة ولابد أن تأتى الخطبة المملة التى ألقاها على السفير الأمريكى سيئ الحظ (صموئيل لويس) فى مصاف أكثر الهجمات قسوة يوجهها شريك صغير إلى راع ثرى وقوى.

لقد استدعى رئيس الوزراء (لويس) إلى شارع بلفور ووجده السفير مازال يعانى من ساقه المكسورة ويلتزم بالصرامة فيما اتضح أنه مناجاة للنفس استغرقت خمساً وخمسين دقيقة وكما لو كان يريد أن يظهر أن غضبه ليس موجهاً إلى لويس، خرج بيجين عن سبيله لتبادل المجاملة بشأن صحتهما وعائلاتهما قبل الدخول فى الموضوع وبعد ذلك كما لو كان يضىء نوراً، قال بيجين: والآن يا سيادة السفير عندى تصريح أريد الإدلاء به وقال إنها رسالة شخصية يريد نقلها على الفور إلى الرئيس ووزير الخارجية ولاحظ لويس وجود حزمة من الأوراق إلى جانب بيجين إلا أن رئيس الوزراء لم يشر إليها.

وأشار بيجين إلى أن هذه هى المرة الثالثة خلال ستة أشهر (تعاقب) الإدارة الأمريكية فيها إسرائيل، وكانت المرة الأولى بعد تدمير إسرائيل

للمفاعل العراقى، أما المرة الثانية فكانت عندما قصفت إسرائيل بيروت فى صيف عام ١٩٨١.

منذ أسبوع أقر الكنيست قانون الجولان، ومرة أخرى تعلنون أنكم تعاقبون إسرائيل، ما هذا الحديث تعاقبون إسرائيل هل نحن دولة تابعة، هل نحن جمهورية تافهة، هل نحن صبية فى الرابعة عشر من العمر بحيث إذا لم يلتزموا فى تصرفهم يتم تهشيم مفاصل أيديهم وأرجلهم، إننى سأتحدث إليكم عمن تتألف منهم هذه الحكومة، إنها تتألف من رجال قاتلوا وخاطروا بأرواحهم وعانوا إنكم لا تستطيعون أن تخيفونا ولن تخيفوننا بالعقوبات والتهديدات، لقد عاش شعب إسرائيل طيلة٣٧٠٠ سنة بدون مذكرة للتفاهم مع أمريكا وسيستمر فى العيش بدونها لمدة ٣٧٠٠ سنة أخرى.

واتهم بيجين الإدارة الأمريكية بأنها أخلفت وعد الرئيس بفرض (عقوبات مالية عليها)، ما الذى يريدون أن يفعلوه؟ هل يريدون ضرب إسرائيل فى جيبها (اقتصادياً)؟.

فى عام ١٩٤٦ كان يقيم فى نفس ذلك المنزل جنرال بريطانى اسمه (باركر) وهكذا فإننى أعيش اليوم فى ذلك المنزل، وعندما ناضلنا وصفتمونا بأننا إرهابيون وواصلنا النضال، وبعد أن نسفنا مقر قيادته فى الجزء المنعزل من فندق الملك داود قال (باركر) إنكم لا تستطيعون معاقبة ذلك الجنس إلا بضربة فى جيبه.

وأصدر أمرًا إلى جنوده البريطانيين بحظر دخول كافة المقاهى اليهودية وكانت فلسفة (باركر) هى ضربنا فى جيوبنا.

ودافع رئيس الوزراء عن حق اليهود الأمريكيين وأصدقائهم فى الكونجرس فى الحديث بوضوح من أجل إسرائيل دون أن تخيفهم الدعاية المناهضة للسامية أو اتهامهم بتفضيل بيجين على ريجان على نحو لا يتسم بالوطنية.

لن يخيف أحد الجالية اليهودية الحرة فى الولايات المتحدة وستقف هذه الجالية إلى جانبنا فهذه أرض أجدادهم، ومن حقهم ومن واجبهم مساندتها.

وهناك أولئك الذين يقولون إنه يجب إلغاء القانون الذى أقره الكنيست، وكلمة إلغاء هى مجرد مفهوم انتقل إلينا من عهد محاكم التفتيش، وفضل أجدادنا الموت على إلغاء عقيدتهم أما نحن فلن نموت، وإننى أشكر الله، إذ لدينا قوة تكفى للدفاع عن استقلالنا والدفاع عن حقوقنا ومن فضلك قل لوزير الخارجية إن قانون الجولان سيظل سارى المفعول، وليست هناك قوة فى العالم يمكن أن تلغيه.

وفيما يتعلق بالاتهام الخاص بإحراج الولايات المتحدة، أصر بيجين على أن إسرائيل تصرفت بسرية على وجه التحديد حتى لا تحرج الرئيس وقال: إننا لا نريد أن تقولوا لا ثم نطبق نحن القانون على مرتفعات الجولان.

ولم يخفف ذلك عن صموئيل لويس، الذى أدهشه أن يرى الحكومة بأكملها مجتمعة فى حجرة الانتظار، ومستعدة لسماع نفس مناجاة الذات مرة أخرى باللغة العبرية، بل شعر السفير بدهشة أكبر عندما سمع تقريرًا شفويّاً فى مذياع السيارة قبل أن يكون لديه الوقت للذهاب إلى تل أبيب وإرسال رسالة للبيت الأبيض وشعر بأن ذلك انتهاك كبير للياقة الدبلوماسية بين بلدين صديقين، لقد قال بيجين الكثير عندما أتيحت له الفرصة ولم يشعر رئيس الوزراء بأى ندم حتى عندما أشارت الصحف الإسرائيلية إلى أن الجنرال باركر كان يعيش بالفعل فى المنزل المجاور.

وسببت المواجهة التى حدثت حول ضم الجولان انخفاضًا فى مؤشر العلاقات الإسرائيلية الأمريكية، واعتقد الإسرائيليون فى واشنطن أن (جيمس ريستون) كان يعكس تفكير الرئيس عندما كتب فى عموده فى صحيفة نيويورك تايمز أن كبار المسئولين الإسرائيليين يشعرون بأن بيجين كارثة مؤكدة على إسرائيل وبقية العالم، وأشار إلى أنهم ينتظرون لأن يفعل

الشعب الإسرائيلى شيئًا تجاه ذلك.

ولم تظهر تفهمًا للقضية الإسرائيلية سوى صحيفتين فقط من بين إحدى وأربعين صحيفة أمريكية رئيسية علقت على موضوع الجولان.

وأثناء عودة (كاسبار واينبرجر) وزير الدافع الأمريكى إلى وطنه بعد جولة فى الشرق الأوسط فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ سُئل عما إذا كان هناك جهد منسق لتتباعد الولايات المتحدة عن إسرائيل وتتقارب من العرب.

فأجاب قائلاً: أجل لن تصبح الولايات المتحدة رهينة لإسرائيل فى السياسة العسكرية.

وأفصح واينبرجر - الذى كان ينظر إليه بيجين على أنه مسيحى مضطر للتعايش مع اسمه اليهودى - للمراسلين بأن الإدارة تعتزم كسب تأييد فى الكونجرس لبيع صواريخ هوك متحركة للدفاع الجوى وطائرات مقاتلة متقدمة طراز (إف - ١٦) إلى الأردن. وعلى الفور قامت إسرائيل بتعبئة أصدقائها للتصدى للصفقة الأردنية، التى دفعت بأنها ستعمل على تغيير التوازن الإستراتيجى، إلا أن واشنطن لم تعمل على تصعيد الأزمة بصورة كبيرة، وكان ريجان لا يريد أن يعطى ذريعة لإسرائيل للتراجع عن الجلاء عن سيناء، الذى كان من المقرر أن ينتهى يوم ٢٥ إبريل، وفى سلسلة من الخطابات والتصريحات أكد الرئيس من جديد التزامه بالحفاظ على المزية النوعية التى تتفوق بها إسرائيل على الجيوش العربية ورفضه الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية ما لم تعترف بحق إسرائيل فى الوجود فى حدود آمنة ومعترف بها.

ويبدو أنه قد ثبت - مرة أخرى - صحة اقتناع بيجين بأن الأمريكيين سوف يعودون مرة أخرى فى النهاية إلا أن التوتر قد أخذ حقه مساهماً بنصيبه فى الإنهاك.

أيضاً الانسحاب من سيناء الذى قبله بارتباك شديد والذى تعارض مع قدراته كلها، وكان اليهود قد استقروا فى شبه جزيرة سيناء لأن الحكومات المتلاحقة ذكرت أن إسرائيل تحتاجهم هناك، وبعد ثلاثة شهور من تولى السلطة حصل بيجين على عضوية شرفية فى مستوطنة (نيوت سيناء) وهى مستوطنة تقع بين العريش وياميت أنشأها أعضاء تنظيم شباب حيروت، وتعهد بأن يعتزل هناك فى الوقت المناسب ويكتب مذكراته ووافق على أن يدفع للمستوطنين البالغ عددهم ٣٠٠٠ شخص تعويضاً كبيراً مقابل جلائهم طواعية بدلا من أن يثير (حرب اليهود) وأصدر تعليمات لتجنب حدوث معركة فاصلة عنيفة مع عدة مئات قليلة من المتعصبين، الذين لم يعش معظمهم أبداً فى سيناء والذين يرابطون هناك فى الوقت الذى اقترب فيه الموعد النهائى، وفى النهاية تم إجلاء المستوطنات الثمانى عشرة كلها بعد وقوع اشتباكات رمزية إلا أن ذلك خلق سابقة وكان بيجين يعرفها، وبالتالى فلن يفكر حاكم عربى بعد ذلك فى السلام بدون أن يطالب بمستوطنات.

وبعد مرور ستة أسابيع على الانسحاب من سيناء، كانت إسرائيل فى حرب فى لبنان، وكان بيجين يؤمن بأهدافها لكنه كان يريدها أن تنتهى بسرعة وبثمن زهيد، وفى الوقت الذى كان يزداد فيه سلاح.الدفاع الإسرائيلى غرقاً فى المستنقع اللبنانى ويزداد فيه عدد الخسائر فى الأرواح أسبوعاً بعد أسبوع لأكثر من اثنى عشر شهراً كان رئيس الوزراء يزداد حزناً، وبدت كل خسارة فى الأرواح اتهاماً شخصيّاً، وعندما كان (أزريل نيفو) يحمل إليه أنباء حدوث ضحية أخرى، كان العاملون معه من هيئة مكتبه يرون الضيق على وجهه، وقال (ييهيل كاديشاى) إن هذه الأنباء تجعل الحزن يتراكم على وجهه وقال (يونا كليمو فيتزكى) سكرتيره الخاص، بعد أن قدم استقالته، إنه شعر بالخيانة من جانب بعض الأشخاص الذين كان يثق فيهم لقد حمل على الاعتقاد بأننا سندخل لبنان ثم نخرج منها على وجه السرعة.

ومن المعتقد أن بعض الأشخاص الذين أشار إليهم هم وزير الدفاع ورئيس الأركان. ولاحظ الإسرائيليون أن بيجين لم يحضر أى جنازة عسكرية ولم يزر أبداً المصابين فى المستشفى، ويبدو أن ذلك كان محنة كبيرة بالنسبة له، وفى يوم ١٥ سبتمبر وهو اليوم الذى أرسل فيه خطاب الاستقالة إلى الرئيس (حاييم هيرتزوج) كان سلاح الدفاع الإسرائيلى قد دفن ضحيته رقم ٥١٨ من الجنود الذين راحت أرواحهم ضحية للحرب اللبنانية، كان جندياً برتبة عريف يبلغ من العمر ٤٩ عاما أصابته قذيفة بازوكا فى كمين بالقرب من صور.

وازداد العبء الذى يقع على كاهله نتيجة للمذبحة التى حدثت فى مخيمات اللاجئين فى بيروت وأثرت فيه المظاهرات الضخمة والحملات الصحفية والاتهامات بالقتل التى وجهت إليه. وكان بيجين ووزراؤه وجنرالاته تحت المحاكمة طيلة ستة شهور تقريباً وابتداء من شهر نوفمبر كانت هناك تسع شخصيات عامة، من بينهم بيجين وشارون وشامير تحت إشعار بأنهم قد يضطرون للمشاركة فى تحمل اللوم.

ولفتت لجنة كاهان نظرهم إلى أنهم فى خطر وأعطتهم فرصة للدفاع عن أنفسهم ولم ينسب تقريرها الذى تم نشره فى شهر فبراير إلا قدراً محدوداً من المسئولية لرئيس الوزراء، وهى أخطاء تتعلق بالإهمال وليست أخطاءً ارتكبها، إلا أن بيجين بعقليته القانونية وشعوره بالكرامة لم يكن بمقدوره أن يغفل هذه الوصمة، واضطرته الأزمة التى نشبت حول استقالة شارون إلى تأكيد سلطته، لكنه فعل ذلك بقلب منقبض وفى الوقت نفسه فى خريف عام ١٩٨٢ كان يتصدى لمشروعه ريجان الذى استهدف جر الأردن إلى عملية السلام، ورفض بيجين المشروع باعتباره خطراً آخر على وحدة أرض إسرائيل وكان يجب ألا ينزعج، لأن الملك حسين لن يتصرف بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية وقد مارس الفلسطينيون مرة أخرى مع ذلك حقهم فى الفيتو.

وحدث ذلك كله فى ظل تدهور صحة (اليزا بيجين) ثم وفاتها يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٨٢، وقد عانت زوجة رئيس الوزراء من ربو مزمن لعدة سنوات، وفى شهورها الأخيرة كانت تتنفس بصعوبة كبيرة وطبقا لما ذكره أحد أصدقاء العائلة، فإن ٣٠٪ فقط من الأكسجين الطبيعى هو الذى كان يصل إلى رئتيها، ولم يكن بوسع الأطباء أن يفعلوا شيئاً سوى الإبقاء على حياتها بمساعدة الأجهزة الطبية.

كان بيجين يزورها كل يوم فى مستشفى الهاداساه بل وأحيانا مرتين فى اليوم ويتصل بها تليفونيّاً عندما يتسنى له ذلك، وقبل وفاتها بأسابيع قليلة أرسل (أرماند هامر) قطب شركة البترول اليهودية الأمريكية وهاوى الفن الذى استخدم صلاته بالكرملين لمساعدة بيجين فى الحملة من أجل اليهود السوفيت، اثنين من المتخصصين لفحص حالتها، وقد أوصيا بعلاج جعل تنفسها أكثر سهولة لبعض الوقت، وشعرت أنها فى حالة طيبة تمكنها من أن تحث رئيس الوزراء على أن يقبل دعوة لزيارة واشنطن لعقد أول اجتماع له مع الرئيس ريجان منذ خمسة شهور، وفى الطريق إلى واشنطن كان من المقرر أن يدلى بخطاب فى حفل عشاء لجمع التبرعات فى لوس أنجلوس، وقام ابنه (بنيامين) بنقل أنباء وفاة (اليزا) إلى جناح بيجين فى الفندق هناك.

وتلقى الرسالة ييهيل كاديشاى إلا أنه أراد أن يكون الدكتور جوتسمان موجوداً عندما يبلغ رئيس الوزراء بالنبأ، وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت فى كاليفورنيا وكان الطبيب قد ذهب إلى أحد المعابد اليهودية، واتصل به السكرتير السياسى لمناحم بيجين بطريق المذياع، وفى الوقت الذى كان فيه (جوتسمان) فى طريقه عائدًا إلى الفندق، كان بيجين قد ارتدى ملابس السهر ورباط عنق أسود لتناول العشاء، وكان حاضرًا أيضًا (هارت هاستين) وهو يهودى أمريكى مخضرم من حزب حيروت وزوجته بالإضافة إلى (ليه) ابنة بيجين والمضيفة الأرضية التى اصطحبتهما فى الرحلة وانفجرت (ليه)

فى البكاء عندما نقل النبأ لها ولوالدها، وتم إعداد الترتيبات لعودتهما إلى الوطن على متن طائرة بوينج ٧٠٧ من السلاح الجوى الإسرائيلى مخصصة لرئيس الوزراء. وقال (كاديش) إن عدم وجوده إلى جانب زوجته فى الساعات الأخيرة من حياتها سبب له ألمًا كبيرًا.

ولم يخرج بيجين من كابينة نومه الصغيرة المزودة بالستائر خلال الرحلة التى استغرقت ست عشرة ساعة من لوس أنجلوس إلى تل أبيب، وظل على متن الطائرة عندما توقفوا لإعادة تزويدها بالوقود فى نيويورك، وكان يتجرع حزنه وحده معظم الوقت.

وعندما عاد بيجين إلى شارع بلفور، أقام حدادًا على (عروس شبابه) لمدة سبعة أيام حسب التقاليد وظل بدون حلاقة لأكثر من شهر. واقتنع أصدقاؤه العاملون من هيئة مكتبه بأن وفاة (اليزا) بعد زواج دام ٤٣ عاماً هو القشة الأخيرة التى قصمت رغبته فى الحكم، وقال أحدهم إن بيجين مر بأوقات قبل اتخاذه قرارات حياة أو موت ولكنه لم يشعر باليأس أبداً ولم يفقد قدرته على الزعامة.

لقد أصبح شخصاً وحيداً، بعد وفاة (اليزا) وهو ليس رجلا ثرثاراً، حتى لو كان يستطيع أن يكون خطيباً ساحراً بكلماته، وهو يتحدث إلى الناس وليس معهم وباعتباره شخصية مهيمنة فهو لم ينقل المسئولية أبداً إلى الآخرين، وكانت زوجته هى الشخصية الوحيدة التى يستطيع التحدث معها وإشراكها فى مسئولياته ومشاكله وكانا قريبين للغاية من بعضهما، وبعد أن توفيت كان يعود إلى بيته ولا يجد أحداً يتحدث إليه، لقد كان فى حرب وكان الناس يموتون ولم يكن معه أحد ليشاركه فيها.

وحاول بنيامين ابن بيجين أن يملأ الفراغ وكان قريباً جداً من رئيس الوزراء ـ شخصياً وسياسياً، وكان يتواجد فى المكتب فى معظم الأحيان عندما يتم اتخاذ قرارات حاسمة ـ إلا أن بنيامين لم يستطع أبداً أن يملأ مكانة أمه،

فقد كانت له زوجة وستة أطفال بالإضافة إلى وظيفته كجيولوجى وكان يكره خروجه على الملأ ويقول أحد أصدقائه إن بنيامين فعل ما فى وسعه لكن الأمر كان مختلفاً ومنذ نهاية عام ١٩٨٢ وبعد مرور شهر بالكاد على وفاة (اليزا) بدأ بيجين يفقد وزنه وقوته، ولم يكن يتناول طعامه بصورة طيبة، وعلى مائدته المفضلة فى صالة تناول العشاء فى الكنيست لم يكن يتناول سوى طبق صغير من الخضراوات، وقد توقف عن طلب طلب الدجاج والشوربة، الذى كان يمثل طعامه الرئيسى، وأصبح وجهه ورقبته غائرين وهزيلين وعندما ألح عليه أحد مستشاريه ليتناول الطعام، رد قائلاً: لم تعد عندى شهية.

وعلى الرغم من تدهوره الواضح أصر كبار المسئولين فى العلانية وفى السر على أنه لا يتلقى أى علاج خاص سواء كان طبيّاً أو نفسيّاً، إلا أن حالة الاكتئاب كانت تزداد سوءاً. وقال أحد مستشاريه المقربين: لقد كان يتعامل مع الأشياء الكبيرة أكثر من تعامله مع الأشياء الصغيرة، ولم يكن يقرأ الصحف بنهم كعادته، وقنت اجتماعاته وأصبح هرماً، وشعر دبلوماسى أمريكى يعرف بيجين جيداً أنه لم يعد يستمتع بكونه رئيس وزراء إسرائيل، فقد أصبح ذلك بالنسبة له عملا روتينيّاً بل عملا شاقّاً وكان يشترك فى المفاوضات ويفهم ما يجرى مناقشته إلا أنه ترك جانبًا كبيرًا من التمثيل الإسرائيلى لرفاقه وولت هيمنته وسيطرته، وفقدت مشاركته شرارتها الخلاقة ولم يعد يتطلع إلى صيغ جديدة وطرق للالتفاف حول المشاكل وقلت المناسبات التى يتأمل فيها. ورابطت حركة (السلام الآن) أربعة شهور خارج مقر رئيس الوزراء ومعها لوحة بالقتلى يطاردونه بها عند خروجه أو عودته، ورد (مائير كوهين) العضو البرلمانى بكتلة الليكود على ذلك بالإضراب عن الطعام وظهر بيجين ليطلب منه الإقلاع عن إضرابه، إلا أنه سار كإنسان آلى فى اتجاه خاطئ، فأخذه أحد رجال الأمن من كتفه وقاده إلى الطريق السليم وعندما استقبل مجموعة من أصدقاء إسرائيل من الشباب الأمريكى المسيحى، سأله زعيمهم عما إذا

كان رئيس الوزراء لديه أى رسالة لهم ليحملوها عند عودتهم إلى الوطن، رد عليه بيجين بالنصيحة التى اعتاد أن يقدمها ليهود الشتات وهى: (تعلموا العبرية وأقدموا وعيشوا فى إسرائيل).

وعلى الرغم من أن المتحدثين المخلصين له زعموا حتى آخر لحظة أن بيجين مازال يدير دولاب العمل، إلا أن قبضته على ناصية الأمور قد ضعفت وقد شعر بالحرج من دعوة له بزيارة الرئيس ريجان فى نهاية شهر يوليو، بالرغم من أنه كان يلح عليها بشدة فى وقت مبكر من العام، ومنذ اللحظة التى سلم صموئيل لويس فيها رسالة الرئيس كان بيجين يبحث عن مخرج، وقال لموظفيه إننى لست قادراً على الوقوف أمام الجمهور وطلب السفير ردّاً عاجلاً لأن البيت الأبيض يريد الإعلان عن الزيارة فى اليوم التالى يوم الجمعة، لكن بيجين طلب بعض الوقت وقال له: ومن فضلك أن تبلغ الرئيس بأننى سأرد عليه فى بداية الأسبوع القادم.

وبمساعدة يهودا أفنر الذى يتولى مراسلاته المكتوبة باللغة الإنجليزية قبل بيجين الدعوة فى الأسبوع التالى إلا أنه دس عبارة كمخرج له، وقال إنه سيكون سعيداً لأن يزور واشنطن، ويتوقف ذلك على قدرتى على مغادرة البلاد فى ذلك اليوم وكانت هناك ثلاثة أسابيع لا تزال أمام الزيارة، وحققت له الرسالة فترة سماح مدتها أسبوعان الا إن ذلك لم يحقق شيئاً، فمازال بيجين غير قادر على مواجهة العالم وتمت صياغة عدد مختلف من الخطابات الدبلوماسية، إلا أن رئيس الوزراء قرر أن السبيل الوحيد هو الاتصال تليفونيّاً بالرئيس ريجان ويطرح أسبابه الشخصية للتأجيل ومما بعث الراحة فى نفوس الإسرائيليين أن البيت الأبيض أصدر إعلاناً لبقاً استخدم فيه تلك الكلمات لأسباب شخصية بدون أى تفسير أكثر من ذلك، وأمسك به مكتب رئيس الوزراء كما لو كان بياناً مشتركاً متفقاً عليه، وكانت الأسباب الشخصية مناسبة للقدس مثلما كانت مناسبة لواشنطن.

وفى إسرائيل لم يظهر بيجين على منصة الخطابة أو على شاشة التليفزيون ولم يعط أى أحاديث. وكان الاقتصاد فى حالة فوضى، وكان الوزراء يتجادلون بحدة حول إجراء خفض فى الميزانية، وأصاب الخدمات الطبية شلل بطىء نتيجة لإضراب الأطباء الذى استمر ١١٧ يومًا ولم يكن هناك من سبيل للخروج من لبنان، وانزوى بيجين بعيدًا معظم الوقت مع ذلك لم يتول أحد سلطته، وتوفى (سيمحا ارليك) نائب رئيس الوزراء المسن فى شهر يوليو، وبدا الرئيس بدون هدف أكثر من أى وقت مضى وتم ترك الأمر إلى (اهرون بوزان) الذى ينتمى إلى حزب (تامى) الصغير الثائر ليكسر مؤامرة الصمت، وقال (أوزان) وزير الدعاية الاجتماعية وهو فلاح من تونس إن (الحكومة تشبه سفينة بدون قائد) وعلى سبيل المثال فإن مناقشة الميزانية قد جرت فى جو من الفوضى لا يمكن تصديقه.

(كانوا يقضون ثلاث ساعات من الساعات التسع يفكرون كيف يتخذون القرار بدلا من اتخاذ القرار، وفى النهاية لا يعرفون ماتقرر وكان جميع الوزراء يصطفون فى سكرتارية الحكومة للنظر فى المحاضر ليعرفوا ما تقرر).

وبالتأمل فى الأحداث الماضية كانت هناك حتمية حول تقاعد بيجين، وليس من الممكن إخفاء الحقيقة إلى الأبد، وكان يزاد إحساساً بعدم قدرته، وقد قال مرارا إنه سيتقاعد فى السبعين من عمره، ومع ذلك فإن إعلانه فى نهاية اجتماع روتينى للوزارة يوم ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٣ بأنه يعتزم الاستقالة قد أدهش الجميع، اللهم إلا حفنة من المقربين إليه، بل حتى هم لم يكونوا لديهم علم بخططه حتى قبل اجتماع الوزارة مباشرة.

وكما كان يحدث فى معظم الأحيان فى السر وفى الحكومة، لم يشاور بيجين سوى نفسه واتخذ قراره الخاص وحينذاك أبلغ به ابنه بنيامين وسكرتيره السياسى (بيهيل كاديشاى) وسكرتير الحكومة (دان مريدور) ورفيقه القديم فى جماعة (ارجون) (يعقوب ميريدور) وكان الإعلان عن هذا

القرار أمام الحكومة تمهيدًا دستورياً ضرورياً قبل الذهاب إلى الرئيس.

وقال بيجين لزملائه الذين جاءوا إلى حجرته بعد أن انفض اجتماع الوزارة: (إننى أشعر بأنه ليس بمقدورى تحمل مسئولياتى تجاه الأمور كما هى عليه، وبالطريقة التى أودها والطريقة الواجبة).

ومع ذلك، وافق على الاستماع إلى ممثلين من جميع أحزاب الائتلاف الذين كانوا يخشون من النتائج الانتخابية ويأملون فى إقناعه بإعادة النظر فى الموضوع وناشدوه لمدة يومين باسم الله وجابوتنسكى، فى الوقت الذى اصطف فيه مئات من الناخبين فى كتلة الليكود خارج منزله ينشدون قائلين: (بيجين، ملك إسرائيل)، لكن كان ذلك كله بدون جدوى.

ولم يكن ذلك هو بيجين عام ١٩٦٦ الذى كان يثير الفزع فى نفوس أتباعه - ويضطرهم إلى الوقوف فى صف واحد مهددًا بالاستقالة، وأبلغ (ميريدور) بصورة قاطعة أسكتت المتضرعين إليه (لا أستطيع الاستمرار).

وكخدمة أخيرة لحزبه، وافق بيجين على الانتظار إلى حين أن يتم اختيار خليفة له، وكان متأكداً من الفوز بالتأييد البرلمانى قبل أن يبلغ الرئيس هيرتزوج. وكانت المناورة السياسية هى التى انتقصت من كرامة رحيله، ولاسيما عندما بقى أكثر من اللازم، إلا أن تصرفه هذا يتسم بالولاء كان من الممكن أن يفهمه بن جوريون أو جولدا مائير. وكان التوازن بين كتلة الليكود وحزب العمل دقيقاً للغاية لدرجة أن أدنى خطأ فى التقدير قد يجلب المعارضة.

وتم إسدال الستارة النهائية فى دراما الحياة العامة لمناحم بيجين على مسرح خاو، وانكمش رئيس الوزراء فى قوقعته وبات لا يأكل إلا قليلا ولم يعد يحلق ولا يرى سوى عائلته ومستشاريه المقربين.

وظل بعيداً عن اجتماعات الوزارة ولم يحضر صلوات العام اليهودى الجديد ولم تكن لديه رسالة وداع إلى البلد ولم يلعب دوراً فى اختيار اللجنة المركزية لحزب حيروت لإسحاق شامير كزعيم جديد لها ولم يرسل أى تهانى.

وظل بعيدا عن اجتماعات الوزارة ولم يحضر صلوات العام اليهودى الجديد ولم تكن لديه رسالة وداع إلى البلد ولم يلعب دورا فى اختيار اللجنة المركزية لحزب حيروت لاسحاق شامير كزعيم جديد لها ولم يرسل أى تهانى.

وفى ظهر يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر، أرسل بيجين (دان ميريدور) إلى منزل الرئيس باستقالته الرسمية.

وقال متحدث إنه لا يريد الظهور على الملأ لأنه يعانى من طفح جلدى يمنعه من الحلاقة، وتم الاعتراف فيما بعد بأنه كان يستخدم مرهماً لحالته طيلة ٣٥ عامًا، ومرة أخرى لم يستطع بيجين ببساطة أن يواجه العالم وبعد ذلك بسبعة أسابيع أقيمت صلوات تذكارية فى مدفن جبل الزيتون فى الذكرى الأولى لوفاة (اليزا) ولم يحضرها بيجين، الذى مازال يعيش كما لو كان يعتزل العالم فى مقر رئيس الوزراء.

■ ■ ■

الفصل الرابع والعشرون

البيت الذى شيده مناحم

لقد حكم مناحم بيجين إسرائيل لمدة ست سنوات وثلاثة شهور، مما جعله رئيس الوزراء الذى يحتل المرتبة الثانية طول مدة الخدمة فى ذلك المنصب بعد (ديفيد بن جوريون) الأب المؤسس للدولة، وقد كشف عن نفسه كرجل معقد ولكنه ليس غامضاً، ورجل متناقض فى صفاته الظاهرية وإن كان غير لغز وهو إرهابى لم يسبق له مثيل فاز بجائزة نوبل للسلام ثم شن حرباً أخرى.

وهو ديمقراطى ولكنه مستبد، كما أنه زعيم ليس للدهاء وسيد بولندى وبطل شرقى يحظى بالإعجاب، وهو رجل حسن السمعة يجد من الحكمة قراءة الحروف الصغيرة وهو متآمر يجد من العسير الحفاظ على سر.

ووصفه الإسرائيليون بأنه أول رئيس وزراء له أيدلوجية ومن المؤكد أنه أكثر الرجال عزماً فى إسرائيل، وكانت الأولوية الكبيرة بالنسبة له هى ضمان الوطن القديم كله فى غرب الأردن للشعب اليهودى، وفى الوقت الذى تقاعد فيه اعترف حتى معارضوه أنفسهم بأن ذلك التقاعد سيأخذ معه زعيماً ليس أقل تفانياً وليس أقل قوة لعودة خطوط التقسيم.

وفى شهر مايو عام ١٩٧٧، عندما وعد بيجين (الكثيرين فى الون موريه) كانت هناك ٢٣ مستوطنة يهودية فى الضفة الغربية وواحدة فى قطاع غزة. وفى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ كانت هناك ١١٢ مستوطنة فى الضفة الغربية

وخمس مستوطنات فى غزة، كما أن عدد السكان اليهود الذين يعيشون خلف (الخط الأخضر) القديم قد زاد من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ نسمة (بما ذلك مدينتا (معاليه أوديم) و(أمانوبل) الجديدتين).

وذلك علاوة على أن نمط الاستيطان قد تغير، وفى ظل حكومة حزب العمل كان التركيز ينصب على نهر الأردن وعلى استيطان الحدود الإستراتيجية، وتم عمداً الإبقاء على المستوطنات بعيداً عن منطقتى يهودا والسامرا الواقعتين على التلال حيث يتمركز معظم السكان العرب، ويريد حزب العمل الإبقاء على خيار التسوية الإقليمية أما مناحم بيجين فقد قلب الاتجاه الذى تسير فيه الأمور وسحب الموارد بعيداً عن الهوامش الشرقية وجعل المستوطنات متناثرة بين المدن والقرى العربية.

وفى أول الأمر لم يتطوع سوى الذين لديهم أيديولوجية للإقامة فى تلك المواقع المتقدمة، لكن بالتدريج تجرعت العائلات العادية الطعم الذى نصبته لهم الحكومة وانتقلت إلى الضفة الغربية؛ لأن الإسكان هناك أكثر رخصًا وأصبحت المستوطنات على مقربة من القدس وتل أبيب لتكون بمثابة صوامع يمكن الانتقال منها بين المدينة والضاحية.

وبعد سنوات من العداء المستمر اعترفت حتى الولايات المتحدة نفسها بأن المستوطنين يوجدون هناك ليبقوا.. وفى اليوم الثانى من أغسطس عام ١٩٨٣، صرح (شارلز ليتشتيستين) نائب مندوب الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة لمجلس الأمن بما يلى:

(إننا لا نعتقد أنه أمر عملى أو حتى مناسب المطالبة بإزالة المستوطنات القائمة، إن مستقبل المستوطنات يعد من القضايا الرئيسية التى تحتاج إلى معالجة فى المفاوضات، وليس بوسعنا أن نقبل استمرار الدفع الذى يتساءل

عما إذا كانت المستوطنات غير شرعية)، وهو دفع سيطر ـ لسوء الحظ ـ على المناقشات التى جرت فى الأمم المتحدة حول هذه المسألة مما لم يكن فى صالح القضية الأساسية، إلا وهى كيف يمكن تحقيق حل عادل وسلمى للنزاع القائم حول الأراضى المحتلة).

وبكلمة أخرى، تم خلق حقائق وكانت إدارة ريجان واقعية للغاية بحيث لا يمكنها أن ترغب فى إزالتها، وفى الوقت نفسه فإن الحكم الذاتى الفلسطينى كما هو متصور فى كامب ديفيد كان بمثابة خطاب ميت، وبعد مرور خمسة أعوام على اتفاق بيجين ـ والسادات، لم يكن هناك مجلس للحكم الذاتى فقط بل لم تكن هناك مفاوضات أيضاً وبدأ الفلسطينيون الذين يرزحون تحت وطأة الاحتلال يفقدون حقوقهم بالتدريج كما أن وضع المستوطنين قد تدعم واكتسبت صفة الشرعية مع كل شهر يمر.

ومع ذلك لم تلغ مصر معاهدة السلام لقد كان سلامًا فاترًا على كلا الجانبين، إلا أنه سمح لبيجين أن يشن حرباً فى لبنان بدون أن ينزعج بلا داعٍ حول جناحه الجنوبى، وسمح له بالمضى قُدُماً فى كسب معركته من أجل أرض إسرائيل.

وفى عيد الميلاد السبعين لرئيس الوزراء، كتبت صحيفة (التايمز) الصادرة فى لندن والتى لم تعتبر أبدًا من بين معجبيه تقول ما يلى:

(على أى حال فإن بيجين لديه الآن وهو فى السبعين من عمره مبرر للشعور بالارتياح أن السياسات التى انتهجها تشكل ضغوطاً على المجتمع الإسرائيلى وعلى اقتصاده.

إلا أنه يمسك الآن فى يده بزمام المبادرة الإستراتيجية ضد جيرانه، وهم يعرفون ذلك، وذلك موقف غير عادى بالنسبة لإسرائيل ولا يحظى بترحيب

بالنسبة للعرب، وهو أيضاً موقف غير مريح بالنسبة لجميع الأطراف المتفرجة التى تريد إقحام نفسها فى الأمر).

ويعترف العالم بأنه فى ظل حكومة الليكود محت القوات المسلحة الإسرائيلية وصمة العار التى ترتبت على حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وسواء كان ذلك أمراً طيباً أم سيئاً فإن موقف إسرائيل قد تأثر كقوة عظمى، وأدى قصف المفاعل العراقى وإخضاع منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت والسوريين فى شرق لبنان إلى استعادة الردع الإسرائيلى، ومع ذلك، ففى غضون أيام من المقال الافتتاحى الذى أوردته صحيفة التايمز، كان هناك تساؤل مرة أخرى حول مزاعم الصقور بأن بيجين.. (قام بالقصاص وأكد من جديد ثقة الإسرائيليين فى أنفسهم واقتناعهم بأنهم يستطيعون، جزئيّاً على الأقل تقرير الظروف التاريخية)، وكان تجدد الحرب الأهلية فى لبنان بعد أن انسحبت القوات الإسرائيلية من جبال الشوف آخر مسمار فى نعش المخطط الكبير الذى وضعه آرييل شارون، وانهار المحور الإسرائيلى المارونى وكانت سوريا لا تزال الشقيق الأكبر للبنان.

كما بدأ يتسلل رجال المقاومة الفلسطينية وكانت الدبلوماسية العربية هى أمل الرئيس أمين الجميل الأخير، وفى الصيف الماضى، طالبت الكتائب إسرائيل بالكثير، وكانوا يتوقون لذبح الفلسطينيين وليس لمحاربة منظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك، كان هناك حد للتضحية التى يمكن أن تفكر إسرائيل فى تقديمها لصالحهم والتضحية فى الأرواح وفى السمعة، ونتيجة لذلك لم يتم طرد السوريين والفلسطينيين من شرق وشمال لبنان ولم يكن أمين الجميل، الذى حل محل (بشير) الذى قتل لديه نفس ميل شقيقه للرابطة الصهيونية.

لقد عقد اتفاق يرقى إلى معاهدة سلام بين القدس وبيروت فى بداية

عـام ١٩٨٣، إلا أن اللبنانيين لم يصدقوا عليه أبداً وسرعان ما زال، وكان هناك حفيف من النقمة فى زيارة قام بها شارون إلى حلفائه المسيحيين القدامى فى شهر أغسطس وقد ذكر عند عودته إلى تل أبيب ما يلى:

(لقد اجتمعت مع شخصيات رئيسية وقلت لهم عدة مرات إنه على الرغم من أن إسرائيل لم تخض حرباً لتخلق موقفاً جديداً فى لبنان، أو لتمكنهم من الحكم فى لبنان فمازالت لديهم فرصة أعتقد أنها لن تحين مرة أخرى لتكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم وهذه الفرصة تختفى تدريجيّاً، وأعتقد أن أيامها معدودة، وقد فقدت لبنان بيديها فرصة فى الوجود كدولة مستقلة).

ولم يعد اللبنانيون يعطون آذانا مصغية، وفى إسرائيل كان يقوم بصنع السياسة رجال آخرون أكثر مللا، وكان الاهتمام الأول لموشى أرينز حليف شارون هو الحد من خسائر إسرائيل، فى الوقت الذى ينقذ فيه الأهداف الأصلية المتواضعة لعملية السلام من أجل الجليل، وعندما قدم (بيجين) استقالته، بدا كما لو كان السبيل الوحيد الذى تستطيع إسرائيل أن تضمن به عدم سقوط صواريخ كاتيوشا أخرى على كريات شمونة هو الإبقاء على حامية دائمة على طول نهر الأولى.

خلال الأعوام الستة التى قضاها مناحم بيجين فى السلطة أعاد رسم خريطة فلسطين، إلا أنه لم يحل مشكلة الفلسطينيين وكانت أرض إسرائيل التى ورثها لإسحاق شامير هى دولة ثنائية القومية قيد الإعداد وأرض تضم ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى ومليونين من العرب، وكان الفلسطينيون يوجدون فى الوطن الموسع ولكنهم ليسوا منه، ولم تكن الأطماع الصهيونية لإسرائيل هى أطماعهم.

ولم تكن كذلك فى معظم الأحيان، ديمقراطيتهم أو جيش مواطنيهم أو

مؤسساتهم، التى عرضتهم للخطر نتيجة لعادة الاحتلال، لقد خضع العرب للسور الحديدى الخاص بجابوتنسكى إلا أنهم لم يذعنوا للهيمنة الإسرائيلية. إن هناك أعداداً كبيرة منهم للغاية فى الأراضى المحتلة وفى إسرائيل الحقيقية لدرجة لا يمكن أن يتم معها استيعابهم كأقلية سلالية كما أن معدل مواليدهم المرتفع جعل الجانب السكانى فى صالحهم، وكان مشروع بيجين للحكم الذاتى اعترافاً ضمنيّاً بالمشكلة إلا أنه لم يبذل جهداً كبيراً أكيداً لوضعه موضع التنفيذ ولم تنجح الحرب اللبنانية فى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية كعامل سياسى فى المعادلة مثلما فشلت أيضا فى زعامة محلية مستقلة مستعدة لتحقيق سلام بشروط إسرائيل.

وأصبحت الأراضى المحتلة ساحة للمواجهة بين نقيضين: الإرهاب العربى مقابل الإرهاب اليهودى، فى الوقت الذى تعتبر فيه الاحتمالات مشحونة بقوة ضد العرب، إن الرجال والنساء الذين تحدوا الحكومات المتعاقبة لحزب العمل وكتلة الليكود يجلسون الآن فى الوزارة وعلى مقاعد الائتلاف. وأصبح الشاذ هو القاعدة وفرض أعضاء لجان الأمن الأهلية المسلحون بأسلحة قوات الدفاع الإسرائيلى رؤيتهم الخاصة بالانتقام العين بالعين، وعلى سبيل المثال، عندما تم قتل أحد اليهود فى الخليل فإنهم خرجوا فى هياج وأحرقوا السوق العربية وشكت قوات الأمن من التدخل السياسى عندما حاولوا محاسبتهم، وكان قاطعو الطرق (صبية يهود طيبون) يقومون بالأعمال القذرة وكان يوجد على الدوام عضو برلمانى أو حاخام ليذكر الشرطة، وفى ظل الجنرال (ايتان) أصبح الجيش فى الضفة الغربية أداة لحركة (جوش أيمونيم) وأصبح تماسكها فى خطر، وقدم الجيش للمستوطنين المزيد من المساعدة والمساندة.

وكتب (يورام بيرى) فى مقال بعنوان (بين المعارك والاقتراع) دراسة

للعسكرية فى السياسة، قال فيها:

لم يتم إعفاء المستوطنين الشرعيين من الدعاوى القضائية فقط، بل كان يصل الأمر فى بعض الحالات إلى حد إيوائهم فى معسكرات قوات الدفاع الإسرائيلى، وتجاهل الجيش أعمال الاستفزاز والتخريب التى يقوم بها المستوطنون ضد السكان العرب فى هذه الأراضى، ومن ناحية أخرى ساعدت قوات الدفاع الإسرائيلى المستوطنين على إنشاء وحداتهم الخاصة بالدفاع عن النفس وتم تزويدهم بالأسلحة والسماح لهم بضبط أمنهم الخاص فى الأراضى.

ومنذ اللحظة التى انحاز فيها رئيس الأركان إلى جانب واحد فى المناقشة العامة مورطاً معه قوات الدفاع الإسرائيلى ـ فقد الجيش ميزة التقدير الكبيرة فى نظر المجتمع برمته، ولم يعد يعكس المجتمع كله، بالرغم من أنه أصبح يحظى بإعجاب معسكر سياسى واحد، نظر إليه الجانب الآخر على أنه خصم سياسى، وبذلك أصبحت المرحلة التالية حتمية ـ وهى المرحلة التى تبتعد فيها جماعات معينة تماماً عن الجيش.

وعجل بالعملية (خيار الحرب) الذى انتهجه بيجين فى لبنان، فقد طلب قائد لواء أن يتم إعفاؤه من منصبه وفضلت قوات الاحتياط الذهاب إلى السجن عن العمل شمال الحدود، وقام الآباء بمظاهرات ضد استغلال أبنائهم الجنود، وازدادت شدة الانقسام الثقافى وأدين المنشقون بأنهم متواطئون مع منظمة التحرير الفلسطينية وبذلك هيأوا الجو لعمليات العنف بل والقتل.

وكان بيجين مثله فى ذلك مثل جميع رؤساء وزراء إسرائيل السابقين مشغولاً بالأمن وبالشئون الخارجية إلا أن عهده عانى من أسلوبه المستبد فى

الزعامة، وقد عهد (بن جوريون) بالشئون المالية والداخلية إلى ليفى أشكول أما (جولدا مائير) فكان لديها بنحاس سابير وكتابه الأسود الصغير، ولم يعين (بيجين) أى سيد أعلى محلى، وكان يفوض المسئولية دون السلطة، وهو لا يستطيع أن يتسامح مع أى محور منافس للسلطة ومع ذلك لم يكن لديه الميل أو الوقت لتوجيه الجبهة الداخلية بنفسه.

وعلى سبيل المثال، فإن تجديد المشروعات وهو مشروع خيالى لإصلاح الأحياء الفقيرة ومدن التنمية من خلال مشاركة الشتات الإسرائيلى إنما هو مشروع من بنات أفكار رئيس الوزراء، إلا أنه بمجرد أن أطلق شرارته فى حمية النصر الانتخابى الخاص بعام ١٩٧٧ تركه لمستقبل غامض فى أيدى مرءوسيه، وفى كل مكان آخر فإنه وقع رهينة للسياسات الاقتصادية المغامرة الخاطئة (ليورام أريدور).

وفى الوقت الذى تقاعد فيه (بيجين) كان التضخم قد وصل إلى حوالى ١٣٠٪ فى العام وكانت قيمة الشيكل تنخفض بمعدل ١٪ كل يومين أمام الدولار الأمريكى. وكان الركود يخيم على الإنتاج الصناعى وكان الفلاحون يواجهون الإفلاس وزادت الواردات على الصادرات بدرجة مخيفة وانفجر فوران البورصة، وزاد الدين الخارجى الإسرائيلى ٥٠٠ مليون دولار حتى أصبح إجماله ٢١,٥ بليون فى النصف الأول من عام ١٩٨٣، وحذر المسئولون بالبنك المركزى الحكومة من نشوب أزمة إذا استمر ذلك الاتجاه.

وعلى الرغم من تحدى (بيجين) لاثنين من الرؤساء، كانت إسرائيل مدينة بالفعل بصورة أكبر للولايات المتحدة وبالتالى أكثر عرضة للضغط من أى وقت مضى من جانب الولايات المتحدة التى تحسن إليها.

وإسرائيل التى خلقها مناحم بيجين فى تصوره أكثر يهودية على وجه

التحديد وأكثر عداءً وأكثر عزلة، وأصبحت التوترات الاجتماعية والدينية أكثر قرباً من السطح إلا أنه كما أوضحت لجنة كاهان فإن الحكومة كانت ولا تزال مسئولة أمام الشعب. وكانت الديمقراطية وحكم القانون لا يزالان سائدين ونشيطين، ولم تسكت الصحافة النداءات إلى الوطنية، وفى خريف عام ١٩٨٣، أظهر التحرر من مشاكل لبنان أن الإسرائيليين يدركون حدودهم وجوانب قوتهم، ولم يكن ذلك هو التراث الذى قصد رئيس الوزراء السادس أن يتركه لشعبه، إلا أنه تراث يستحق الإعزاز.

■ ■ ■

الفهــرس